الصداقة في النثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري

إعداد
علي ذيب زايد زايد

المشرف
الاستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

قدمت هذه الاطروحه استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

آب، ٢٠٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة/ الأطروحة (**الصداقة والصديق في النثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري**) وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٤/٨/١٥م

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي (مشـــرفاً) أستاذ – الأدب العباسي والفاطمي والأيوبي والمملوكي– الآداب	
الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار (عضـــواً) أستاذ– الأدب الأندلسي والمغربي– الآداب	
الدكتورة عصمة عبدالله غوشة (عضـــواً) أستاذ مشارك – الأدب العباسي – الآداب	
الأستاذ الدكتور مصطفى عبد الرحيم عليان عضواً أستاذ – الأدب والنقد القديم – (الجامعة الهاشمية)	

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــداء

إلى منبع الحب والعطف والحنان ، إلى والدَي،،

إلى الصاحبة ، صاحبة القلب الكبير أم قيس،،

إلى فلذات كبدي : قيس وتالة وسارة،،

إلى إخوتي وأخواتي،،

إلى صحبي وخلاني،،

إلى كل خلّ وفيّ ،،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شـكر وتقديـر

أحمد الله على أن وفقني للقيام بهذا الجهد، وأتوجّه بجزيل الشكر إلى أستاذي والمشرف على رسالتي الدكتور عبد الجليل الذي لم يدّخر جهداً في تقديم العون، والمضي بي قدماً نحو تحقيق أسمى ما يصبو المرء إلى تحقيقه، فكان الشيخ المعلّم، والأب الحاني الذي فتح لي مكتبته، أنهل منها ما أشاء، فله مني عظيم التقدير، والاعتراف بالجميل.

كما أتوجه بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة المؤلفة من الأستاذ الدكتور صلاح جرّار الذي رافقته عبر مسيرتي العلمية، وكان لي المثال في التجلّد والصبر للوصول إلى غايات البحث العلمي وأهدافه.

وأشكر الدكتورة عصمة غوشة على رعايتها، وعلى نصحها المتتابع الذي يأخذ بيد الباحث نحو الرشد والسّداد.

وللأستاذ الدكتور مصطفى عليان الشكر الموصول والفضل الموفور على تفضله بقبول مناقشة هذه الأطروحة، وإبدائه الملاحظات التي سيكون لها عظيم الأثر في تسديد وجهة بحثي.

وختاما أشكر كل من كان لي عونا في إنجاز هذه الأطروحة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ط
المقدمة	١
التمهيـــــد	
مفهوم الصداقة والصديق	
الصداقة والصديق في معاجم العربيّة	٧
الصداقة والصديق في القرآن	٨
الصداقة في الحديث النبوي الشريف	١٢
الصداقة والصديق اجتماعيًا	١٥
في نظر الفلاسفة	١٦
في نظر الأدباء	١٩
الفصل الأول : الصداقة والصديق شروطهما وأصولهما	
الممازجة النفسيّة	٣٢
العقل	٣٧
حسن الخلق	٤٠
الدّين	٤٣
الصّدق والوفاء	٤٤
الصبر	٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: الصداقة والصديق واجباتها

المودّة ٥٦
الزيارة ٥٨
التهاني والتعازي ٦٤
بالشفاء والسلامة ٦٤
بالزواج ٦٦
بمولود ٦٦
بالولاية ٦٨
بالعزل ٧٠
بالأعياد والمناسبات الدينية ٧١
بالدخول في الإسلام ٧٢
الاستعطاف وتلبية الحوائج ٧٤
التهادي والهدايا ٨٤
التعازي ٨٨

الفصل الثالث: صورة الصديق

الصديق المثقف العالم ٩٥
الجوانب الأخلاقية ٩٥
الجوانب الثقافية والعلمية والأدبية ١١٥
صورة الصديق السياسي ١١٩
الجانب الأخلاقي ١١٩
الجانب السياسي ١٣٠
صورة الصديق المتدين ١٣٣
الجانب الأخلاقي ١٣٣
الجانب الديني ١٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع: ظواهر أخلاقية تلتبس بالصداقة

التحذير من صفات سلبيّة حول الصداقة والصديق

المكر والغدر ١٤٣

الجهل ١٤٧

خبث السّريرة ١٤٨

قرين السوء ١٤٨

المداراة ١٤٩

التجني والهجر ١٥٠

التغير والتنكر ١٥٠

ارتكاب الذنوب والأخطاء ١٥١

عدم الثقة ١٥١

الكبر والتطاول ١٥١

البخل ١٥٣

الأنانية ١٥٤

الوشاية ١٥٥

المزاح ١٥٦

الحسد ١٥٨

الفصل الخامس: العتاب بين الأصدقاء

في الهجر والقطيعة ١٦٣

في الشماتة ١٦٩

في تأخر المكاتبة وانقطاعها ١٦٩

في تصديق الوشاة ١٧٤

في التخلف عن الوداع ١٧٥

في التخلف عن تلبية حوائج الأصدقاء ١٧٦

في عقوق الأصدقاء وإعراضهم وخيانتهم ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس: الدراسة الفنية

أ) البناء الفني: ١٨٩

المقدّمة: ١٨٩

التخلص..... ٢٠٠

الوحدة الموضوعية..... ٢٠١

الخاتمة..... ٢٠٥

ب) التجربة الإنسانية..... ٢٠٨

ج) اللغة والأسلوب..... ٢٠٩

التناص..... ٢٠٩

المعجم اللغوي..... ٢٣١

الصنعة..... ٢٣٧

د) التصوير..... ٢٣٩

السخرية..... ٢٤١

المحاورة..... ٢٤٣

الخاتمة..... ٢٤٦

ثبت المصادر والمراجع ٢٤٩

الملخص باللغة الانجليزية..... ٢٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصداقة في النثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري

إعداد

علي ذيب زايد زايد

المشرف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

الملخص

حاولت في هذه الأطروحة أن أعرض تصوراً لما كانت عليه الصداقة في العصر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وذلك من خلال النثر العربي، فقدمت لهذه الدراسة بتمهيد تناول مفهوم "الصداقة والصديق" في القرآن والحديث الشريف، وفي معاجم العربية، إضافة إلى دراسة المفهوم لدى الفلاسفة والأدباء وعلماء الاجتماع العرب في فترة الدراسة.

ثم تناولت الدراسة بعد ذلك الشروط الواجبة لانعقاد رابطة الصداقة، وذلك وفق استقراء عينة الدراسة، مما وقع عليه الباحث من نصوص النثر العباسي، متبعاً هذه الجزئية بعرض لما فرضته هذه العلاقة من حقوق وواجبات بين الأصدقاء.

وكان لا بد من وقفة متأنية، تعالج فيها أخلاق الصداقة والصديق، وذلك من خلال عرض أبرز المظاهر الأخلاقية التي شكلت تصوراً واضحاً لما ينبغي أن يكون عليه الأصدقاء، على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وميولهم، وحرصاً على تكاملية الصورة كان لا بد من عرض للظواهر الأخلاقية التي تلتبس بالصداقة، كالمراء والكذب والحسد وإخلاف الوعد.

ثم عرضت الدراسة لظاهرة العتاب بين الأصدقاء، متتبعة أبرز النصوص النثرية التي قيلت في هذا الموضوع، متناولة لها بالعرض والتحليل والتفسير، للوقوف على ملامح الصورة العتابية وعناصرها بين المتصادقين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفصل الأخير من الأطروحة، قدمت دراسة فنية، تناولت البنيـــة التركيبيـــة الشـــكلية للرسائل الإخوانية وتنوع هذه البنى بتنوع الكتاب وميولهم، وأبرز المظاهر الفنيـــة مـــن حيـــث: التلوين الفني، والتصوير الأدبي لكثير من النصوص النثرية الممثلة لحقبة الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

تقوم هذه الدراسة على تتبع صورة الصداقة والصديق في النثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، مبرزة جوانبها، مفصلة أبعادها، جامعة لأقوال الكتاب والمفكرين فيها والعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمؤاساة والجود والكرم .

وما دفع الباحث إلى اختيار موضوع الصداقة والصديق في العصر العباسي إسهاب الأدباء فيه ، إذ لا تكاد تقع على أديب إلا وقد أخذ منه بطرف ، أضف إلى ذلك ظهور طبقة من الكتاب الذين أجادوا في هذا الموضوع إجادة ملموسة، بقدرة على تصوير المعاني بجميع جوانبها ، حيث نافس النثر الشعر في مجالات الوجدان .

وتقدم هذه الدراسة تصورا للصداقة والصديق عبر ثلاثة قرون ونيف، حشد فيها الكتاب خبراتهم وتجاربهم الأدبية ، من وجهة نظر أدبية ، حيث يستقرىء الباحث النص المدروس داخلياً واصفا ومحللا.

وهذا الموضوع لم يطرق بتفصيل أدبي، فكل ما نجده من إشارات هنا وهناك تتناول الموضوع في عجالة من أمرها دون الوقوف على أبرز ملامحه ، وإن وجدت كتابات عرضت لهذا الموضوع نجدها مركزة على أديب ما (كأبي حيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء) لزكريا إبراهيم، أوعلى قضية فرعية تعرض فلسفياً كقضيـــة (الصداقة والاغتراب في فكر أبي حيان التوحيدي) للباحثة سناء قطان، أو تعرض من منظور علم النفس كدراسة أسامة أبو سريع في سلسلة عالم المعرفة بعنوان (الصداقة من منظور علم النفس) .

وقد صار الكتاب يدخلون في النثر ما اعتاد الشعراء أن يتحدثوا عنه في معاني الصداقة والأصدقاء . (زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع ، ص٢٠١) .

ويكاد جل ما نقع عليه من جهود آنفة ينحصر في عدة دراسات أهمها :

كتاب "النثر الفني في القرن الرابع " زكي مبارك ، ١٩٣٤م:

في الباب الثاني من هذا الكتاب يتحدث المصنف عن خصائص النثر الفني في القرن الرابع ، فيذكر من هذه الخصائص " الإخوانيات " ، ويبين أنه فن قديم وجد في النثر كما وجد في الشعر . وقد بلغ من ذيوع هذا الفن في القرن الرابع أن عقد له الثعالبي فصولاً في كتابه "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سحر البلاغة " ، جمع فيها ما تخيره من عبارات الكتاب ، كما اهتم في " يتيمة الدهر" بجمع الفقرات الخاصة بالإخوانيات .

وحين تناول زكي مبارك التوحيدي في الجزء الثاني من كتابه جعله أفضل من كتب في الإخوانيات ، وأخذ يقابل بينه وبين الثعالبي .

كتاب " العصر العباسي الأول " شوقي ضيف ، ١٩٦٦م :

يتحدث د. شوقي ضيف في الفصل الثامن من كتابه (تطور النثر وفنونه) عن الرسائل الإخوانية والأدبية، ويبين أنها نمت في هذا العصر نموا واسعا ، وهي رسائل تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ، ومن مديح وهجاء، وعتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناح ، ورثاء أو تعزية .

وأكد د. شوقي ضيف على دور ابن المقفع وأثره في كتاب عصره من خلال ترجمته للأدب الكبير، وكليلة ودمنة، وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة، مما يجعلها مادة غزيرة وخصبة للكتاب، كي يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقيقيّة والصداقة الصادقة.

لقد كان الكتاب في رسائلهم الإخوانية والأدبية يتناولون خصال النفس الإنسانية، ويصورون أهواءها وأخلاقها ويوضحون لها طريقها إلى الخير كي لا تسقط في مهاوي الشر .

كتاب " الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري " حسني ناعسة ، ١٩٧٨م :

كشف الفصل الرابع عن أغراض هذا النثر ووظيفته ، وهي أغراض تتناول : آداب الدعوة والسياسة والصداقة ، وبعض الموضوعات المفرقة .

وقد تناول الكتاب في موضوع الصداقة كيف تتواثق بين الناس أسبابها، وما يكون منها من مودة نقية صافية ، وأشواق تحث على التلاقي بين كل فينة وفينة، وإعجاب يطلق ألسنة الأصحاب في إطراء أصحابهم ، وكلما بذل صديق إلى أحد مصطفيه معروفا شكره ، وإذا أصابه خير هنّأه ، وإذا ألمت به نازلة آزره ، وقد يكون أحد الإخوان من رجال الدولة فيشفع أصحابه عنده لمن يريدون، ويوصونه بمن يريدون ، وقد يكون من أهل الثراء فيستمنحونه في الشدائد ، فإن تجافى عنهم استعطفوه ، وإن تعنت عاتبوه ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا القطيعة منهم،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو أن يؤوب إلى ودادهم ويعتذر إليهم ، وكان هؤلاء الكتاب إذا تخطف الموت صاحباً لهم ذكروا صالحاته وتبادلوا فيه التعازي والمؤاساة .

كتاب "الصداقة من منظور علم النفس"أسامة أبو سريع،١٩٩٣م:

عني المصنف بعرض جذور التفكير الإنساني في موضوع الصداقة حيث عرض أراء الفلاسفة اليونان والمفكرين المسلمين في هذا الموضوع ، مع استخلاص أهم ملامح أفكارهم .

كما قام بعرض للكتابات الحديثة التي تناولت موضوع الصداقة في الكتابات الغربية ، مع التركيز على الدراسات العلمية التي حاولت الكشف عن أبعاد الصداقة وظروف نجاحها أو فشلها، مع التمييز بين مفهوم الصداقة وأنواع أخرى من العلاقات الإنسانية مثل:الزمالة والحب .

كتاب "فنون النثر في الأدب العباسي" محمود عبد الرحيم، ١٩٩٤م :

تناول المصنف الكتابة الإخوانية في الفصل الثاني من كتابه تحت عنوان " فنون النثر الكتابي في العصر العباسي " ، حيث عرض المصنف رسائل عديدة في التشوق والمودة والعتاب والاعتذار والتهاني والتعازي والإهداء والشكر والمديح والهجاء . ثم أفرد هذه الموضوعات ، وقدم نماذج لكل منها .

****

ولما كانت الدراسة تتطلب إيفاء بجميع جوانبها، لزم إن يفيد الباحث من معطيات المناهج حسبما تدعو إليه طبيعة البحث، فهي تأخذ بالمنهج التحليلي في دراسة النص وسبر أغواره وتبين ملامحه الأسلوبية، وهي تستند إلى المنهج النفسي للوصول إلى معرفة حقيقية لرؤى الكتاب، ومواقفهم المختلفة، ويأتي دور المنهج الوصفي حين يكون الغرض بيان ثراء ظاهرة وتنوعها أسلوبا ومضموناً، وتفيد الدراسة أخيرا من المنهج الاجتماعي في ربط الأثر الأدبي بالواقع المعيشي، وقضاياه المتباينة .

واستوت مادة الدراسة على تمهيد و ستة فصول ، تناول التمهيد مفهوم الصداقة وفق آراء علماء اللغة، فتصدت للمفهوم من خلال معاجم اللغة كاللسان والعين، ثم المفهوم في القران والحديث النبوي الشريف، اعتمادا على آي الذكر الحكيم، وأقوال المصطفى عليه السلام، وحاول الباحث عبر هذين المصدرين أن يعرض للمفهوم متبينا جوانبه، وعرض النصوص له، واستكمالا للموضوع لزم الباحث الوقوف على آراء العلماء والفلاسفة والأدباء ، وتباين وجهات النظر حول هذا المفهوم، ولذا عرضت الدراسة لمفهوم الصداقة اجتماعيا وفلسفيا وأدبيا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفصل الأول من الدراسة عرض الباحث شروط الصداقة وأصولها، فوقف عند جملة من الشروط الواجب توافرها في الصداقة والصديق ، انطلاقا من رؤى الكتاب والفلاسفة والعلماء، وكان الحديث عن التشاكل والصدق وحسن الخلق والدين وغير ذلك من الشروط التي يتصادق عليها المتصادقون .

أما الفصل الثاني ، فتناول حقوق الصداقة وواجباتها، وما يكون عليه المتصادقون من مشاركة إخوانهم أفراحهم وأحزانهم وتبادل التهاني والمباركة في مناسبات عديدة كالزواج والفطام والحج، إضافة إلى تقديم واجب العزاء، ولا بدّ من مساندة الصديق صديقه وقت الشدائد، ولذا برزت رسائل الاستعطاف، وكان للتهادي والهدايا وقفة، يعبر من خلالها الأصدقاء عن مشاعر الأخوّة والمودّة.

وفي الفصل الثالث عرض الباحث صورة الصديق وأخلاقه، ونظرا لاختلاف طبقات المجتمع، من علماء وأدباء وسياسيين ومتدينين وشعبيين، فقد جاء الفصل يرسم صورة الصديق العالم والمثقف والأديب، والسياسي، والمتدين، وكي يبرز الباحث هذا التباين في الصور، ونظرا لاتفاقها في كثير من الجوانب الأخلاقية، لزم عرض أبرز ملامح التباين عقب كل صورة. فكانت كل جزئية من الصورة تقع في جانبين، يدرس الأول الجانب الأخلاقي، والثاني الجانب المتعلق بأصل الصورة، كالجانب الثقافي، والسياسي، والديني، والشعبي.

وفي الفصل الرابع، وقف الباحث على أبرز المظاهر الأخلاقية التي تلتبس بالصداقة، مبيّنا أثر هذه المظاهر على متانة الرابطة ومصداقيتها، فدرس مجموعة من هذه المظاهر كالمراء والكذب والغدر والوشاية والمزاح والكبر والحسد.

أما الفصل الخامس، فقد تناول ظاهرة العتاب بين الأصدقاء، وعرض فيها الباحث إلى تباين مواقف الكتّاب فيما يتعلق بنبذة أو العمل به، انطلاقا من إيمانهم بضرورة العتاب بين الأصدقاء لتحقيق التصافي، والتجاوز عن هفوات الماضي.

وبعد دراسة الجانب الموضوعي، ختم الباحث الدراسة بالفصل السادس، فدرس أبرز الخصائص الفنية التي طالعته في عينة الدراسة المتمثلة في الحكم والوصايا والأقوال والرسائل الإخوانية التي كان التركيز عليها لشيوعها، حيث جرى دراسة الملامح الرئيسة لبنية الرسالة من ناحية الشكل، ثم تناول الباحث ظواهر الأسلوب من الأثر الإسلامي، و الأثر التراثي، والصنعة والازدواج والصورة والحقول الدلالية، إضافة إلى ظواهر أسلوبية أخرى كالحوار والسخرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سعت هذه الدراسة سعياً جادّاً في محاولةِ بناءِ صورةٍ واضحةٍ للصداقة والصديق في النثر العباسي، حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وهي مدة تمتاز ببروز عددٍ من الأدباء والكتّاب، برعوا في تشكيل هذه الصورة، كابن المقفع والجاحظ وابن المعتز والماوردي والصّولي والثعالبي والتوحيدي والمعرّي، وغيرهم الكثير ممن أسهموا في إغناء التراث بكتاباتهم وإبداعاتهم الأدبيّة.

ولقد كانت عينة الدراسة مستقاةً من مصادرَ تنوعت بتنوع التناول مثل كتابي ابن المقفع كليلة ودمنة والأدب الوجيز، والجاحظ في رسائله وكتابيه البيان والتبيين والمحاسن والأضداد، وكتابي أبي علي التنوخي: الفرج بعد الشدة ونشواء المحاضرة وأخبار المذاكرة، والتوحيدي في كتابه الموسوم بالصداقة والصديق الذي يعد ركيزة هامة كونه يضم جمهرة من الرسائل والحكم والوصايا والأقوال المأثورة، إضافة إلى كتبه التي تقل أهمية عن كتابه السابق كالبصائر والإمتاع والمؤانسة والهوامل. والثعالبي الذي صنف كتاباً خاصاً في موضوع الصحبة والموسوم بترجمة الكاتب في آداب الصاحب.

وكان لمصنّفاتِ الرسائل الإخوانية الدورُ الأبرزُ في إثراء مادة الدراسة، ومن ذلك ما جمع في كتاب جمهرة رسائل العرب بجزئيه الثالث والرابع فيما يتعلق بفترة الدراسة، ورسائل الخوارزمي والهمذاني وابن المعتز والصاحب بن عباد وأبي العلاء المعري.

إضافة إلى ذلك ما أوردته كتبُ المختارات من قضايا ترتبط بموضوع الصداقة والصديق ارتباطاً وثيقاً كعيون الأخبار والعِقد الفريد وزهر الآداب والجليس الصالح الكافي وكتابي الوشاء: الموشى والفاضل في صفة الأدب الكامل والأمالي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

مفهوم الصداقة والصديق

- الصداقة والصديق في معاجم العربية.
- الصداقة والصديق في القرآن والحديث.
- الصداقة والصديق اجتماعيا.
- في نظر الفلاسفة والأدباء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصداقة والصديق في معاجم العربية:

يؤكد ابن منظور[١] الترابط بين لفظ الصداقة والصدق. والصدق يعني صدق المودة والنصيحة ، وهو شرط من شروط الصداقة ، وأصل في صحتها ، فالصداقة تتطلب الصدق في المودة والنصيحة ، فيقال : صدقه النصيحة والإخاء : أمحضه له

والصداقة مصدر الصديق، والصديق هو المصادق لك؛ وتجمع على : أصدقاء، وأصادق، وصدّقان، وصُدقاء ، ومن خلال استقراء نصوص النثر العباسي تبين الباحث أن صيغة الجمع (أصدقاء) أكثر الصيغ تداولا وشيوعا بين الكتاب والأدباء.

وقد حرص علماء اللغة على نقاء الصداقة وصفائها، ولذا ربطوا بينها وبين " الخلّة " التي تعرف بأنها الصداقة المختصة التي ليس فيها خلل. إضافة إلى ما يقوم به الأصدقاء من تجاوز لهفوات أصدقائهم، وسدّ خللهم ، وقضاء حوائجهم، وكذا الخليل والأخلاء والخلان ، وإنما سمّوا بذلك – كما بيّن الزجاج – لأن محبتهم ليس فيها خلل .

ويربط اللغويون في معاجمهم بين الصداقة والأخوّة والإخوان، فيرى بعضهم "كأبي حاتم"[٢] ألا فرق بينهما، فهي تقال للأصدقاء وغير الأصدقاء، ويذهب بعضهم إلى التفريق بينها، مقتصرين الأخوة على النسب والإخوان على الصداقة ، وهذا إجماع أهل البصرة كما يقول أبو حاتم، وإنما أبطل الفريق الأول مذهب الفريق الثاني استنادا إلى قوله تعالى : (إنَّما المؤمنون إخْوَةٌ)[٣] ولم يعن النسب، وقال: (أو في بُيوتِ إخوانكُم)[٤] وهذا في النسب. وقال: (فإخوانُكم في الدِّين ومَوَاليكُم)[٥]

---

(١) انظر : ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ) . لسان العرب ، دار صادر ، بيروت. مادة (صدق) .والرازي ، محمد بن أبي بكر ، (ت٧٢١هـ) . مختار الصحاح ، (تحقيق : محمود خاطر) ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت . (ص. د. ق) . والفراهيدي ، أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد ، (ت١٧٥هـ) . العين ، (تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي) ، ط١ ، دار مكتبة الهلال، بيروت .ج٥ ، ص٥٦ .

(٢) اللسان ، (خلل)

(٣) الحجرات ، آية رقم (١٠)

(٤) النور، آية رقم (٦١)

(٥) الأحزاب، آية رقم (٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصداقة والصديق في القرآن والحديث:

في القرآن :

تناول القرآن موضوع " الصداقة والصديق " عبر إشارات هادفة تضم بين ثناياها ما يمكن أن يقدم صورة لما تكون عليه الصداقة. والمتتبع لهذه الإشارات- على قلتها - يلاحظ أن القرآن قد حدّد ملامح هذه الصورة، وقربها من العقول والأذهان لتكون خير مثال يحتذى، ولتحقيق ذلك سلك طريق الإغراء والتحذير، مبيّناً ما يجب أن يكون عليه الصديق ، مغريا القارئ والمتصفح لآيه بتتبّع هذه الصورة واحتذائها تارة، ومحذرا اياه من تمثل الجوانب السلبية تارة أخرى .

حين عالج القرآن موضوع الصداقة والصديق، رأى أن يقدم المفهوم بأدواته بما يتناسب وحال الناس في مجتمعاتهم وعلاقاتهم وارتباطاتهم المتنوعة، ولذا نوّع مفرداته وطرق تعبيره في هذا الموضوع ، فاستخدم مصطلح " الصديق" ومرادفاته التي يمكن أن تؤدي الغرض الذي يؤديه .

والناظر في آي الذكر الحكيم يجد أن كلمة " صديق" لم ترد في القرآن إلا مرتين ، وذلك في قوله تعالى (ولا على أنفسِكم أنْ تأكلوا من بيوتِكم أو بيوتِ آبائِكم أو بُيوت أمَّهاتكم أو بُيوتِ إخوانِكم أو بيوتِ أخواتِكم أو بيوتِ أعمامِكم أو بيوتِ عمّاتِكم أو بُيوتِ أخْوَالكم أو بيوتِ خالاتكم أو ما ملكتُم مَفَاتِحَهُ أو صَدِيقِكم)[١]. وقوله : (فما لنا من شَافعين ولا صَدِيق حَميم)[٢].

ففي الآية الأولى (أو صديقِكم) كرّم الله الصديق حين سوّى بينه وبين النفس والآباء والأمهات والإخوان والأخوات ، وقد قال جعفر الصادق في معرض هذه الآية: "من عظم حرمة الصديق جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنـــزلة النفس والأب والأخ والابن"[٣] فالصديق من صدقك في مودته ، وصدقته في مودّتك، ويمكن أن يعزى اقتران الصديق بالقرابة المحضة، لما يحققه الصديق من الأنس والسرور في مؤاكلته ومعاشرته، لأن قرب المودة لصيق. وهذا ما تؤكده الآية الثانية: (ولا صَدِيق حميم)[٤]، وهو ما يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، ومن ذلك قول المصطفى- عليه السلام- عن جابر بن عبد الله : "إن الرجلَ ليقولُ في الجنة : ما فعل صديقي فلان ، وصديقُه في الجحيم ، فيقول الله

---

(١) النور، آية رقم (٦١)

(٢) الشعراء، الآيتان (١٠٠، ١٠١)

(٣) محاسن التأويل، القاسمي، محمد جمال الدين، (ت ١٣٣٢هـ). تفسير القاسمي، المسمّى محاسن التأويل، ط١، (علّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي)، عيسى البابي الحلبي وشركاه، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م، ج١٢، ص٤٥٥٤.

(٤) الشعراء ، آية رقم (١٠١)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعالى:أخرجوا له صديقه إلى الجنة ، فيقول من بقي: (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)[١]، وقال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين ، فإن لهم شفاعة يوم القيامة [٢].

وفي معرض الحديث عن الصداقة والصديق يتناول القرآن موضوع الأخوة وما يرتبط بها فيما يمكن أن يطلق عليه " الإخوانيات " وقد حرص القرآن على تحديد ملامح الآداب الإخوانية، ورسم لها منهجا تسترشد به العامة والخاصة ، فالأخوة والصداقة صنوان لا يفترقان ولا يكونان إلا مجتمعين ، والقرآن يحرص الحرص كله على توثيق روابط الأخوة والصداقة بين أفراد المجتمع الإسلامي، ولا هو يرسم لهم قواعد هذا الترابط فالمؤمنون إخوة لقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة)[٣]

وقد ألحّ التوحيدي في كتابه على أهمية الصداقة المبنية على الأخوة في الدين والإيمان، إذ يؤكد أن الصداقة القوية لا تقوم إلا بين النخبة القليلة من أهل الدين والورع[٤] الذين يخافون الله واليوم الأخر .

فالله قد نشر بذور المودّة والمحبة بين المؤمنين فجمعهم على كلمة التوحيد، وألف بين قلوبهم بعد أن كانت شتّى ، فأصبحوا ينعمون بأخوّة صادقة ، وصداقة حميمة ، وصاروا إخوانا متحابين بجلال الله متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، فالدين يحضّ على إقامة المودّة والتآخي بين الناس، على أساس اعتصام الجميع بحبل الله تعالى، ونبذ التفرق، لقوله تعالى: (واعتصِمُوا بحبل الله جميعا، ولا تفرّقُوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتُم أعداءً فألفَ بين قلوبكُم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتُم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكُم مِنْهَا)[٥].

الأخوة في الدين هي أسمى ما نادى به القرآن الكريم ،ودعا الناس جميعا إلى التماسه والتزامه، وقد ورد في القرآن العديد من الإشارات النابضة بهذه الأخوة فمن ذلك قوله تعالى: (أدْعوهم لآبائهم هُوَ أقسطُ عِنْدَ الله فإنْ لم تَعْلَمُوا آباءَهم فإخوانُكم في الدِّين ومَوَالِيكُم)[٦]،وقوله:

---

(١) الشعراء ، الآيتان (١٠١،١٠٠)

(٢) البغوي ، أبو محمد، الحسين بن مسعود، (ت٥١٦هـ). معالم التنزيل، (تحقيق : خالد العك ، ومروان سوار)، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٧م .ج١ ، ص١٢٠

(٣) الحجرات، آية رقم (١٠)

(٤) التوحيدي، أبوحيان، علي بن محمد بن العباس، (ت٤١٤هـ) . الصداقة والصديق،(تحقيق: إبراهيم الكيلاني)،دار الفكر المعاصر، بيروت،١٩٩٦م. ص ٣٣

(٥) آل عمران،آية رقم (١٠٣)

(١) الأحزاب،آية رقم (٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(والذين جَاءُوا من بَعْدِهم يَقُولون ربَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا بالإيمان ، ولا تَجْعَل في قلوبنَا غِلاً للذين آمَنُوا ربَّنا إنّك رَؤُوف رَحِيم)[١]

فالدعاء للأخ بالمغفرة والرضوان من واجبات الصداقة الحقيقيّة التي لا يشوبها شائب، ولا يكدّر صفوها مكدّر، وحين يدخلهم رب العزة جنات النعيم ينزع ما في صدورهم من غل ليكونوا كما كانوا في الدنيا إخوانا على سرر متقابلين: (إنّ المتقين في جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صُدورهم من غِلّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين)[٢].

أما الصداقة الفاسدة والأخوة الباطلة فلا تنفع أصحابها في شيء ، إنما تكون نقمة وحزنا، فهي لم تتخذ من نور الإيمان دعائم لها ، فيخرّ بنيانها وتتهاوى مسقطة معها من تمثلوها ، وحرصوا على التماسها ، يقول تعالى: (ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئنْ أُخرجتم لنخرُجَنَّ معكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبدا وإنْ قُوتلتم لننصرنَّكم والله يشهد إنَّهم لكاذبون لئنْ أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم ولئنْ نصروهم ليُولُنَّ الأدبار ثم لا يُنصرون)[٣].

هذه صورة لما تكون عليه أخوة لا ترتبط بروابط الإيمان والتقوى ، فمصيرها الفشل والخذلان، إذا كان ما سلف حال أصحابها وطبائعهم، فأنّى يُركن إليهم؟! وكيف يُستأنس بهم؟! وهم قد فقدوا عوامل الاستئناس في أنفسهم ؟!

ولذا حذّر القرآن المجتمع من أمثال هؤلاء، فصحبتهم لا تجلب إلا الهمّ والحزن والحسرة في الدنيا والآخرة . وكأن القرآن في هذه الآية حين تحدث عن المنافقين واصفا إياهم بالكذب وإخلاف المواعيد إنما يرسي قواعد هامة وشروطا رئيسة في موضوع الأخوة، فالأخوة الإيمانية تتطلب الصدق، والصدق أساس الصداقة، ولذا قيل قديما : "إنما سمي الصديق صديقا لصدقه"، فالصديق من صدقك ، وكل هذا يدور في الموضوع نفسه[٤].

ومن مرادفات الصديق في القرآن :الخليل والأخلاء والخِدن، فلفظ (الخليل) ورد في قوله تعالى : (واتّخذ الله إبراهيم خليلا)[٥] ،أي اصطفاه الله وخصه بالمحبة الخالصة[٥]. وقوله تعالى

---

(٢) الحشر،آية رقم (١٠).

(٣) الحجر، الآيات: (٤٥ ،٤٦ ، ٧).

(٤) الحشر،الآيات: (١١ ، ١٢).

(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٧٢.

(١) النساء، آية رقم (١٢٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا)[١] أي صاحبا وصديقا. وفي معرض حديث القرآن عن اقتداء الصديق بصديقه والخل بخليله، وتتبع خطاه في الدنيا، وسبيله الذي لم يحد عنه ، يعرض لنا القرآن صورة للخليل الذي يعض يديه ندما : (ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا وَيْلَتَى ليتني لم أتّخذ فُلانا خليلا، لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خَذُولا)[٢].

هي صورة للخليل الذي التمس في الدنيا خليلا ضالا ومضلا، فما كان منه إلا أن أضله عن الطريق، وأعمى قلبه وبصره ،وهنا إشارة قرآنية إلى ضرورة التماس الصديق التقي، الذي أسس على تقوى الله، لما يحدثه الأصدقاء والأخلاء من تأثيرات في بعضهم البعض، فالأخلاء وهم الأصدقاء الذين تخللت المحبة قلوبهم في الدنيا بعضهم لبعض يوم القيامة عدوّ، إلا الذين تحابوا في الله واجتمعوا على طاعته لقوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ، إلا المتقين) [٣].

أما لفظ (الخدن) فقد ورد في قوله تعالى : (وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروف مُحصَنات غيرَ مُسافحات ولا مُتَّخذاتِ أخْدَان)[٤] يعني أخلاء ، عن ابن عباس قال : والمتخذات أخدان : ذات الخليل الواحد، قال : كان أهل الجاهلية يحرّمون ما ظهر من الزنا، ويستحلّون ما خَفي، فانزل الله : (ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن[٥])[٦] .

لقد حرص القرآن على تقديم الصورة الواقعيّة لما ينبغي أن تكون عليه الصداقة ، وحذر من كل ما قد يشوب هذه الصورة، وهو إنما يفعل هذا ليوثق روابط الصداقة والأخوة بين أفراد المجتمع الإسلامي ، ليكون مجتمعا متماسكا بتماسك أفراده وبنيه ، ولذا لم يأل جهدا في توظيف كل ما يمكن أن يحقق هذا الهدف ، ومن ذلك أن يعرض لموضوع البشاشة بالإخوان ، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه : (ادْفَعْ بالتي هِيَ أحْسَن فإذا الذي بَيْنَك وبَيْنَه عَدَاوةٌ كأنّهُ وَليّ حَميم ، ومَا يُلقّاها إلا الذين صَبَروا وما يلقاها إلا ذُو حظّ عظيم)[٧]. وقال تعالى: (وَلوْ كُنْتَ فظًّا غَليظَ القَلبِ

---

[*] البيضاوي، ناصر الدين، أبو الخير عبدالله بن عمر الشيرازي، (ت٦٨٥هـ) ، تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، ط٢ (تحقيق : عبد القادر عرفات)، دار الفكر ، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٥٨.

(٢) الإسراء، اية رقم (٧٣).
(٣) الفرقان، أية رقم (٢٧، ٢٨،٢٩).
(٤) الزخرف،أية رقم (٦٧).
(٥) النساء، أية رقم (٢٥).
(٦) الأنعام، أية رقم (١٥١).
(٧) معالم التنزيل،ج١،ص١٩٦
(١) فصلت، أية رقم (٣٤ ، ٣٥)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لانفضُّوا مِنْ حولِكَ، فاعفُ عَنْهم واستغفرْ لهُم وشَاورهُم في الأمر)[١]. وقال تعالى: (واخفِضْ جَنَاكَ لمنْ اتَّبعكَ مِنَ المؤمنين)[٢].

إذن فالبشاشة والكلمة الطيبة اللينة تصقل النفوس وتحدث تأثيرها في الآخرين، فينقلب العدو صديقا حميما ولذا استطاع النبي – صلى الله عليه وسلم– برقة قلبه، وحسن لسانه، أن يستميل قلوب الناس إليه، وفي حقه يقول المولى –عز وجلّ : (ولو كنتَ فظّا غليظ القلب لانفَضُّوا من حولك، فاعفُ عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر)[٣] وهذه من متطلبات الأخوة إذ ينبغي على المتأخين في الله العفو والتناصح والتشاور متأسين بقدوتهم محمد– صلى الله عليه وسلم– لقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسْوة حسنة).[٤] وما أحسن تواضع المؤمنين لبعضهم ، امتثالا لقوله تعالى: (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين).[٥]

وختاما، يمكن القول: إن القرآن قدم للبشرية نماذج من الصداقة والأخوة التي ينبغي أن يكون عليها الناس، محذرا إياهم من تتبع ما يخالف هذه الصورة المثالية، وقد حرص الحرص كله على تحديد معالمها الأخلاقية، مبينا محاسنها ومساوئها لتكون هذه المعالم مثالاً يحتذى ودستوراً يقتدى، فلا يحيد عنه إلا من ارتضى الهوان والذل لنفسه.

في الحديث النبوي الشريف:

نظر الحديث الشريف إلى الصداقة دعامة رئيسة في تحقيق مجتمع قوي وسليم، ينعم بروابط الأخوة الصادقة، ولذا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تقديم ركائز الصداقة وأخلاقها وشروطها وصورها، مرشداً أمته إلى ما يمكن التماسه واجتنابه من هذه الصور.

والمتتبع لأقوال المصطفى عليه السلام في موضوع الصداقة والصديق يجدها تكاد تكون دروسا في الوعظ والإرشاد ورسم أخلاقيات الصداقة الحقيقية بين أفراد المجتمع، وما يلزمهم في علاقاتهم ومعاملاتهم وارتباطاتهم ليضمن لهم الإسلام حياة مثالية في ظل صداقة مثالية، وأخوة إيمانية في منأى عن التباغض والتحاسد والتدابر والتنافس لقوله عليه السلام:"لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"[٦].

---

(٢) آل عمران، آية رقم (١٥٩).

(٣) الشعراء، آية رقم (٢١٥)

(٤) آل عمران، آية رقم (١٥٦)

(٥) الأحزاب، آية رقم (٢١)

(٦) الشعراء، آية رقم (٢١٥)

(١) صحيح البخاري، رقم (٥٧١٨).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخلاقيات الصداقة وحقوقها كما وردت في الحديث الشريف

أولاً: الحب في الله والبغض في الله: تعد هذه الأخلاقية من أوثق عرى الإيمان كما بين ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في حديث ابن مسعود، قال : "دخلت على رسول الله، فقال: يا ابن مسعود ، أي عرى الإيمان أوثق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أوثق عرى الإسلام الولاية في الله، والحب فيه والبغض"(١) .

فالمتحابون في الله ينعمون برضوان الله، وبما أعد الله لهم في جنانه من النعم لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة لعموداً من ذهب عليه مآذن من زبرجد، يضيء لأهل الجنة كما يضيء الكوكب الدري في جو السماء للمتحابين في الله عز وجل"(٢).

وأفضل الصديقين من كان حبه لصاحبه أشد، في ذلك يقول الرسول– صلى الله عليه وسلم– : "ما تحاب رجلان إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه"(٣) ومن المأثورات التي تعبر عن نموذج العلاقة بين الأصدقاء قول ابن سيرين: "لا تلق أخاك بما يكره"(٤) ، وهذا يتفق مع الحديث النبوي المشهور:" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٥)، فالأخوة الحقة تخرج عن كل أوجه الأنانية.

ثانياً: الاصطحاب على البر والتقوى: وهذا مطلب ضروري للصداقة، إذ ينبغي للصديق أن يختار صديقه وفقاً لدينه وأخلاقه، فإن صلح وافقه وأحسن صحبته، وإن فسد أعرض عنه، وابتغى غيره صاحباً، فقد قال النبي عليه السلام: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"(٦) .

رابعاً: التهادي وتلبية الدعوة للطعام : فقبول الهدية والتهادي بين الأصدقاء يحدث في النفس آثارا طيبة، ويوثق العلاقة بين الأصدقاء، ولذا لزم الصديق أن يقبل هدية صديقة ودعوته لقوله عليه السلام: "فإذا دعاك صديق عامل أو جار عامل إلى طعام، أو أهدى إليك هدية فعليك أن تقبل ذلك فإن هنأه لك وإثمه عليك(٧)

---

(٢) المتقي ، علاء الدين علي ، (ت٩٧٥هـ) .كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مؤسسة الرسالة. حديث رقم (٤٣٥٢٥).
(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، حديث رقم (٢٤٧٠٨).
(٤) الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبد الله ، (ت٤٠٥ هـ) . المستدرك على الصحيحين،(تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١م .حديث رقم (٧٣٢٣).
(٥) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٥٢.
(٦) الترمذي، محمد بن عيسى ، (ت٢٧٩هـ) . سنن الترمذي،(تحقيق : أحمد محمد شاكر وأخرون ، دار إحياء التراث . حديث رقم (٢٥١٥). ج٤ ، ص٦٦٧
(٧) ابن حنبل ،أبو عبد الله الشيباني ، (ت٢٤١ هـ) . مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة . حديث رقم (٨٣٩٨) . ج٢ ، ص٣٣٤
(١) كنز العمال، رقم (٢٥٩٨٤).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامساً: عيادة الإخوان وزيارتهم ، وفي ذلك يقول عليه السلام: "من عاد مريضا ، أو زار أخا في الله ، ناداه مناد أن طبت ، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا"[١] . فالصديقة يأنس بصديقه، ويشعر بالراحة والأمان معه، فيخفف عنه ما ألم به من ألم أو مرض.

سادساً: لقاء الإخوان: بين الرسول- صلى الله عليه وسلم- كيف يلاقي الصديق صديقه وذلك حين سأله رجل فقال له: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا. قال: أفياخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم[٢]. وفي الأثر: "إذا تآخا المتحابان في الله عز وجل، فمشى أحدهما إلى الآخر فأخذ بيده، فضحك إليه تحاتت خطاياهم كما يتحات ورق الشجر[٣].

سابعاً: صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما: فقد أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله إن أبوي قد هلكا، فهل بقي لي بعد موتهما من برهما شيء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهودهما من بعدهما، وإكرام صديقهما وصلة رحمهما[٤] وذكر عن النبي -عليه السلام-أنه قد كان يؤتى بالشيء فيقول: "اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة"[٥].

ثامناً: إقلال الزيارة، لما قد يحدثه إدمانها من ملال وتحول النفوس عما قد تروق له، ولذا قال عليه السلام: "زر غبا تزدد حبا".[٦]

هذه جملة من الأدبيات والأخلاقيات التي جاء بها الحديث الشريف فيما يتعلق بموضوع الصداقة والصديق، حرصاً منه عليه السلام على تنظيم شؤون الأمة بما يضمن لها سلامة عيشها في الدنيا والآخرة، وإيماناً منه بأهمية هذا الموضوع في حياتنا التي فيها معاشنا، فالصديق كما يراه النبي عليه السلام خير معين للمرء على ذكر الله، ولذا وجب على المرء أن يحسن اختيار صحبه وخلانه.

الصداقة والصديق اجتماعياً:

---

(٢) سنن الترمذي، رقم (٢٠٠٨). ج٤ ،ص٣٦٥

(٣) المصدر نفسه، رقم (٢٧٢٨). ج٥ ،ص٧٥

(٤) ابن أبي الدنيا ، عبد الله بن محمد ، (ت٢٨١هـ) .كتاب الإخوان،(تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩م .حديث رقم (١١٥). ج١ ، ص١٧٠

(٥) ابن ماجة ، محمد بن يزيد ،(ت٢٧٥هـ). سنن ابن ماجة،(تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي)، دار الفكر . حديث رقم (٣٦٦٤). ج٢ ، ص١٢٠٨

(٦) الطبراني، أبو أيوب ، سليمان بن أحمد ، (ت٣٦٠ هـ) . المعجم الكبير ، (تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي) ، ط٢ ،مكتبة العلوم والحكم ، ١٩٨٤م .رقم (٢٠) .ج٢٣ ، ص١٢

(٧) ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد ،(ت٣٥٤هـ) . صحيح ابن حبان،(تحقيق : شعيب الأرنؤوط) ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٤م .حديث رقم (٢٤٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصداقة علاقة اجتماعية وثيقة، تقوم على تماثل الاتجاهات بصفة خاصة، وتحمل دلالات بالغة الأهمية، تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة"[١]، وهذه العلاقة قد تكون بين شخصين أو أكثر تتسم بالجاذبية المتبادلة المصحوبة بمشاعر وجدانية بين أطراف هذه العلاقة.

فالمرء مدني بالطبع، كما قال ابن خلدون، فهو ينشد في حياته سبل التواصل مع الآخرين، فيقرب من هذا، وينفر من ذاك، وهكذا دأبه في جل شؤون حياته، مراوحاً بين كثير من العلاقات الاجتماعية التي تفرضها طبيعة التعايش والمخالطة والمعاشرة والمجاورة والمحاورة، فهو "لا يخلو من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو وليّ أو خليط، كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مُدَاج أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مُؤذ أو مُنابذ أو معاند أو مُزِلّ أو مُضِلّ أو مُغِلّ"[٢] .

والمتتبع لكلام التوحيدي السابق يدرك ما يدور في خلده، فهو قد افترض لقيام الصداقة مجتمعاً، وعلى هذا فإن فكرة الصداقة غير ممكنة لو فقد المجتمع، "والناس في ظل النظام الاجتماعي تتفاعل عواطفهم، وتتضارب مصالحهم، أو تتقارب، أو تتعاون فتنشأ الصداقة عن ذلك بالضرورة، على أنها نتيجة لنوع من أنواع العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين الناس، كالجوار والتعامل والصحبة والرفقة والحب والألفة" [٣]

والإنسان بطبيعته يعد كائناً اجتماعياً، لا بد له من التواصل والاحتكاك بالآخرين. وهو في تواصله هذا يحقق أهدافه وغاياته، ولا بد له من الإعانة والاستعانة، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه .وإذا كان هذا حاله، فلا يبعد أن يعقد ذلك النوع من العلاقات العاطفية التي تحقق له ما يصبو إليه، عبر صداقة حميمة، توفر له الراحة الجسدية والنفسية.

فالصداقة من الأسس التي لا مناص منها لدعم الأخوة الإنسانية، وبها يسود الصفاء ، ويتحقق التعاون الاجتماعي، الذي هو أساس العمران البشري، ومن خلاله تتسع قاعدة السلام والوئام بين الناس.

والصديق اجتماعياً هو الإنسان الذي ترى نفسك فيه، وكأنه رقيب يقيلك إذا عثرت، ويقومك إذا ازوررت، ويهديك إذا ضللت، ويصبر عليك إذا مللت ويكفيك ما لا تعلم وما علمت،

---

(١) أسامة أبو سريع،(١٩٩٣) . الصداقة من منظور علم النفس، مجلة عالم المعرفة، (١٧٩)، ص٣٧.
(٢) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٦٠- ١٦١.
(٣) ظافر القاسمي،(١٩٦٢م) . الصداقة والصديق . مجلة المعرفة . (١٠) ، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى غير ذلك من الأخلاقيات التي تكون سبباً في صلاح المجتمع والارتقاء بالفرد ، ليحقق التعاضد المنشود في الكتاب والسنة[١].

وبما أن الإنسان مدني بالطبع، وجب أن يكون تمام سعادته الإنسانية عند أصدقائه، ومن كان تمامه عند غيره فمن المحال أن يصل مع الوحدة بالتفرد إلى سعادته التامة، فالسعيد إذن من اكتسب الأصدقاء، واجتهد في بذل الخيرات لهم، ليكتسب بهم ما لا يقدر أن يكتسبه بذاته، فيلتذ بهم أيام حياته، ويلتذون به أيضا.

ويذكر ابن مسكويه[٢] "أن الملك العظيم يحتاج إلى من يصطنعه، ويضع إحسانه عنده، كما أن الفقير من الناس يحتاج إلى صديق يصطنعه، ويضع عنده المعروف"، ومن أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضا ويعاشرون عشرة جميلة، ويداعب بعضهم بعضا، ويجتمعون في الرياضات والصيد

المفهوم في نظر الفلاسفة:

تناول أرسطو في كتابه "علم الأخلاق إلى نيقوماخوس" موضوع الصداقة والصديق، وبين أن الصداقة إنما هي حدّ وسط بين خُلقين، فالصديق هو الشخص الذي يعرف كيف يكون مقبولاً من الآخرين كما ينبغي، ويفرق أرسطو بين ثلاثة من أصناف من الرجال: المساير والمتملق والشرس، أما المساير فهو ذلك الشخص الذي يبالغ حتى يكون مقبولاً لدى الجميع، إلى الدرجة التي تجعله لا يعارض في أي شيء حتى لا يسيء إلى الآخرين، وهو يفعل ذلك دون سعي إلى منفعة شخصية، وإنما لولعه بالإرضاء. أما إن كان يهدف من مسايرته إلى مصلحة شخصية فهو المتملق. أما الشرس والعسر والمشاغب والصعب في المعيشة على حد تعبير أرسطو فهو الذي لا يكترث بالقبول من جانب الآخرين[٣].

ويضيف أرسطو إلى تعريف الصداقة الجانب العاطفي، إذ يعتبرها علاقة عاطفية متبادلة بين شخصين، حيث يريد كل منهما الخير للآخر، مع العلم بتلك المشاعر المتبادلة بينهما[٤]،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ آل عمران، آية رقم (١٠٣). وقوله صلى الله عليه وسلم: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك أصابعه"، صحيح البخاري، حديث رقم (٤٦٧).ج١، ص١٨٢.

(٢) ابن مسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد، (ت٤٢١هـ) ، تهذيب الأخلاق ، (تحقيق: قسطنطين زريق)، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٦، ص١٥٧.

(١) أرسطوطاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، (ترجمة : أحمد لطفي السيد)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤). ج١، ص٢٥٥، ٢٥٦، ج٢، ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٥- ٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالصديق من يعيش معك، ويتحد وإياك في الأذواق، ومن تسره مسراتك، وتحزنه أحزانك[١]، وبذلك تقوم الصداقة على المعاشرة والتشابه والمشاركة الوجدانية.

وحين سُئل أرسطو عن الصديق، قال: "إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك " . وقد ذكر التوحيدي تفسير السجستاني أبي سليمان لهذا القول مشيراً إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها "ألا ترى أن لهذه الموافقة أولاً، منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأول هذه الموافقة توحد، وآخرها وحدة، وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان، كذلك يصير صديقه واحداً بما هو صديق؛ لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تحولان إرادة واحدة". [٢]

ويؤكد أرسطو أهمية الصداقة وحاجة المرء إليها دون اختلاف بين الشيخ والشاب، فهي هامة للشيخ تعينه حين يتقدم به العمر، ويضعف البدن، وهي ضرورية للشاب لأنها تمده بالنصائح التي تحميه من الزلل، فالأصدقاء هم الملاذ الذي نلجأ إليه وقت الشدة والضيق[٣]. والمرء -كما يبيّن- يحتاج إلى الأصدقاء في حالتي السعادة والشقاء، فعند الشقاء يحتاج إليهم ليقدموا له العون، كما أن حضورهم في حد ذاته باعث على السرور، أما عند السعادة فتتعش حاجة الشخص إلى من يشاركه سعادته، فالإنسان اجتماعي بطبعه ، والرجل السعيد، سليم الطبع، يسعى إلى اكتساب القبول لدى الآخرين، وتجنب العزلة لثقلها على النفس، كما أن حاجة المرء إلى الصديق وقت الشدائد أشد؛ لأن حضوره يجلب سعادة مزدوجة، مواجها المعاشرة اللذيذة معه، إضافة إلى التمتع وإياه بما تيسر من خيرات[٤].

ويميز أرسطو بين ثلاثة أسس للمحبة، وهي المنفعة (utility) واللذة (pleasure) والفضيلة (ideal). ويضيف: إن صداقة المنفعة صداقة عرضية تنقطع بانقطاع الفائدة، أما صداقة اللذة فتنعقد بسهولة وتنحل بسهولة، بعد إشباع اللذة أو تغير طبيعتها. وأما صداقة الفضيلة فهي أفضل صداقة، وتقوم على تشابه الفضيلة، وهي أكثر دواما. وتكون الصداقة أكمل ما تكون عندما تتوافر الأسس الثلاثة: المنفعة، واللذة، والفضيلة[٥].

---

(٣) المصدر نفسه،ج١، ص٢٨٨.

(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٩.

(٥) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ج١، ص٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه،ج١، ص٣١٠-٣١٣، ص٣١٩-٣٣١.

(١) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ج١، ص٢٢٧، ٢٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن ابن مسكويه من أشد الكتاب تأثراً بآراء أرسطو في مجال الصداقة، لا سيما فيما يتعلق بأسس المحبة[١]، فهو يُصنّف ضروب الصداقة تماشياً مع هذا التصور إلى ثلاثة أضرب، وهي: "الصداقة بين الأحداث، ومن كان في مثل طباعهم إنما تحدث لأجل اللذة، فهم يتصادقون سريعاً ويتقاطعون سريعاً ...، وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالاً بعد حال، فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة للوقت في الحال"[٢].

أما الضرب الثاني من الصداقة فهو "بين المشائخ ، ومن كان في مثل طباعهم ، إنما تقع مكان المنفعة، فهم يتصادقون بسببها، فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم، وهي في الأكثر طويلة المدة، كانت صداقاتهم باقية، فحين تنقطع علاقة المنفعة المشتركة بينهم، وينقطع رجاؤهم منها تنقطع مودّاتهم"[٣].

وأما الضرب الثالث فصحبة الأخيار، "فإنها لا تكون للذة خارجة، ولا لمنفعة، بل للمناسبة الجوهرية بينهما، وهي قصد الخير، والتماس الفضيلة"[٤]، وهذا الضرب من الصداقة ينعقد سريعاً، وينحل بطيئاً لأن الخير باق بين الناس.

ويضيف ابن مسكويه أنه لا "يوثق بصداقة الأحداث والعوام، ومن ليس بحكيم؛ لأن هؤلاء يحبون ويصادقون لأجل اللذة والمنفعة، ولا يعرفون الخير بالحقيقة ولا أغراضهم صحيحة[٥].

وفيما يتعلق بتعدد الصداقات والأصدقاء، يذكر أرسطو أن الصداقة الحقيقيّة تقتصر على شخص واحد، لأن الروابط المتعددة لا تكون بالعمق المطلوب، فمن الصعب أن يحظى الشخص بحب الكثيرين، ويرتبط معهم بصداقة كاملة، فالصداقة وفق تعبيره ضرب من الإفراط في نوعها، وهي ميل يتغلب على سائر الميول، ولا يتجه إلى شخص واحد، ويبدو أن عدد الأصدقاء يرتبط بالأساس الذي تقوم عليه الصداقة، ففي ظل صداقات اللذة يمكن للشخص أن يجرب علاقات مختلفة، حتى يجد الصديق الذي يسّره ويشاركه لهوه. أما في ظل المنفعة فمن اليسير على الشخص أن يدخل علاقات متعددة، وذلك لأن كثيراً من الأشخاص مستعدون لتلك العلاقات، إلا أنها ضئيلة الحظ من حيث الاستقرار والدوام[٦].

---

(٢) تهذيب الأخلاق، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٦) تهذيب الأخلاق ، ص١٤٤.

(١) علم الأخلاق، ج١، ص٢٤٠، ٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذا مذهب ابن مسكويه في الصداقة الحقيقيّة، والصديق النموذجي، "فلا يمكن أن يكون كثيراً لعزته، ولأنه محبوب بإفراط، وإفراط المحبة لا يصحّ ولا يتم إلا لواحد، فأمّا حسن العشرة وكرم اللقاء والسعي لكل أحد بسيرة الصديق الحقيقي فمبذول لأجل الفضيلة"(١).

ويقرر الماوردي أن مذهب العقلاء في عدد الأصدقاء هو قلة الإخوان، ويبرر ذلك بقوله: "إذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة، كان وفور العقل، وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه، لأنه يروم مثله، ويطلب شكله وأمثاله من ذوي العقل والفضل ... ولأن الخيار في كل جنس هو الأقل، فلذلك قلّ وفور العقل والفضل"(٢).

الصداقة والصديق في نظر الأدباء:

ويمكن القول إن الماوردي قد اتخذ من تعريف أرسطو للصديق قاعدة ينطلق منها في حديثه عن المؤاخاة التي قسمها إلى وجهين: الأول: أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار. والثاني: مكتسبة بالقصد والاختيار. "أما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالاً؛ لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها، والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد إليها، وما كان جارياً بالطبع، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد"(٣).

"وأول مراتب الإخاء التجانس، فإن قوىَ التجانس قويَ الائتلاف به، وإن ضعف كان ضعيفاً، وإنما كان ذلك كذلك، لأن الائتلاف بالتشاكل، والتشاكل بالتجانس، فإن عدم التجانس من وجه، انتفى التشاكل من كل وجه، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف، فثبت أن التجانس وإن تنوع أصل الإخاء وقاعدة الائتلاف... ثم يحدث بالتجانس المواصلة من المتجانسين، وهي المرتبة الثانية وسبب المواصلة بينها وجود الاتفاق منها فصارت المواصلة نتيجة التجانس، والسبب فيه وجود الاتفاق؛ لأن عدم الاتفاق منفر"(٤).

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة، وسببها الانبساط، ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة، وسببها خلوص النية، ورتبة خامسة، وهي المودة، وسببها الثقة، وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء ... فإن اقترنت بها المعاضدة، فهي الصداقة؛ ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة، وسببها الاستحسان، فإن كان الاستحسان لفضائل النفس، حدثت رتبة

---

(٢) تهذيب الأخلاق، ص١٥٥.

(٣) الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت ٤٥٠هـ). أدب الدنيا والدين، ط٢، (تحقيق: مصطفى السقّا)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م. ص١٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٧.

(٥) الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري ، ص١٤٧-١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعة وهي الإعظام، وإن كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة، وهي العشق وسببه الطمع ... وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة[١].

وهذه الرتبة الأخيرة ليس بعدها رتبة، وهي تؤدي إلى ممازجة النفوس، وتفضي إلى مخالطة الأرواح، وإن تفارقت أجسادها، ويذكر الماوردي شاهدا يؤكد فيه ما ذهب إليه أرسطو من أن الصديق إنسان هو أنت، إلا أنه غيرك، وهو ذلك القول المروي عن أبي بكر الصديق –رضي الله عنه، حين أقطع رجلا أرضا، وكتب له بها كتابا، وأشهد فيه ناساً منهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– فأتى الرجل بكتابه إلى عمر ليختمه، فامتنع عليه، فرجع مفضيا إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: والله ما أدري، أأنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل عمر، لكنه أنا[٢].

تناول إخوان الصفا في رسائلهم موضوع الصداقة والصديق، وعرضوا لعدد من المسائل المرتبطة في هذا الموضوع نذكر منها: التجانس وأخلاق الصديق، وما يصلح للصداقة وما لا يصلح، والمحافظة على الصديق بعد اكتسابه، وانقطاع الصداقة، فهم يرون أن الصداقة "لا تتم بين مختلفي الطبع، لأن الضدين لا يجتمعان مثال ذلك: السَّخِيّ والبخيل، فإنهما متضادان في الطّبع، فلا تتم بينهما صداقة، وتصفو لهما المودة، ولا يهنيهما العيش...، لأنه إذا فعل السَّخي شيئاً مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف، رآه البخيل بصورة المضيع، وقد فعل ما لا ينبغي وما لا يجوز، وإذا فعل البخيل بطبعه شيئاً من إمساك المال مما يوجبه بخله، رآه السخي بصورة من قد أتى منكراً لا يحسن فعله، فيصير ذلك سببا لعيب كل واحد منهما على صاحبه، حتى يعتقد البخيل في السَّخي سخف الرأي وتضييع المال، وترك النظر في العواقب، ويعتقد السخي في البخيل النذالة والدناءة، وصغر النفس، وقصور الهمة"[٣].

وليس كل الناس يصلحون للصداقة والأخوة، فعلى المرء أن ينظر فيمن يصاحب ويعاشر فيعتبر أحواله، ويختبر أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده، وينظر في عاداته وسجيته وشمائله وحركاته[٤].

وبيّن إخوان الصفا أصناف البشر التي لا تصلح للصداقة وصفوة الأخوة وهم: الحسود واللجوج والغضوب، ممن تمنعه هذه الأخلاق من الإذعان للحق، "وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف، وكذلك الفظاظة والغِلْظة يمنعان من العذوبة والسُّهولة، والشَّراسة والغضب يهيجان على المكابرة، وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة، ومخالفة لصفوة

---

(١) الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، ص١٤٦-١٤٨

(٢) الصداقة والصديق، ص١١٩

(٣) إخوان الصفا ، رسائل إخوان الصفا، الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية، ج٤، ص٤٥-٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخوّة، مستثقلة للنفوس، وموحشة للأنس والراحة، ومنفرة لإلف الطباع، ومنغّصة للعيش، ومُبْغِضة للحياة"[١].

وبعد أن ينظر المرء فيمن يصاحب، ويختبر الآخرين فيما سبق من أخلاق، ويتم له اختيار من تأنس به نفسه، وتصفو له إخوته، فعليه أن يحفظه ويراعي أمره، ويؤدي حقوقه، "حتى لا تصير الصداقةُ عداوة بعد طول الصُحبة بملالة أو ضجر، أو شكوك أو ظنون، أو شُبهة تَدْخلُ في المودة، أو نميمة ووشاية من مخالف له يسعى بينهما للفساد"[٢].

ويعتقد إخوان الصفا أن الإنسان كثير التلون، قليل الثبات على حال واحدة، وأن أمور الدنيا، وصروف الدهر قد تغير خُلقه مع إخوانه، وقد يتلون مع أصدقائه وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع السبب بَطُلت تلك الصداقة، ولكن صداقة إخوان الصفا "قرابة رحم، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض، ويَرِثُ بعضهم بعضا. وذلك لأنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيف ما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تتبدل"[٣]. وهذا كلام يوشك أن يقترب من تعبير أرسطو: "الصديق إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرُك"[٤].

يمكن الوقوف عند الرسالة الإخوانية، التي كتبها يحيى بن زياد [٥] رداً على رسالة ابن المقفع التي طلب فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد، لما تحمله هذه الرسالة من حديث عام عن الإخاء، فهو ينظر فيه نظرة عامة، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية، يرتفع فيها إلى الحديث عن الحقيقة المجردة، وما ينبغي أن يكفل له من الوفاء يقول:

"أما بعد، فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة، وتقريبه لذي البعدة، ومشاركته بين ذوي الأرحام في القربة، لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته، فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء" [٦].

وفي هذه الرسالة يتناول يحيى بن زياد مجموعة من الخصال النبيلة التي يرى فيها أن الإخاء لا يتم كيانه بدونها، وفي مقدمتها الكرم الذي يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله، والنجدة التي تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه، والصدق الذي اشتق منه الصداقة، والحياء الذي يكف صاحبه عن

---

(١) إخوان الصفا ، رسائل إخوان الصفا، الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية، ج٤، ص٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٧- ٤٨.
(٣) رسائل إخوان الصفا، ج٤، ص٤٧- ٤٨، الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية.
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٩.
(٥) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٧-٦٨.
(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب. ج٣، ص٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التطاول، وسوء الأدب، وسورة الغضب، والنجابة التي تحوط صاحبها بحسن الرأي، والزكانة أو صدق الحس الذي يكفل لصاحبه صواب الرأي والقول، وفي ذلك يقول : "فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه، انتسب لنا إلى الصبر، فوجدناه محتويا على الكرم، والنجدة، والصدق، والحياء، والنجابة، والزكانة." [١] هذا المفهوم العام الذي يعرض له يحيى في رسالته أشبه ما يكون بالشروط الواجب توفرها بالإخوة والصداقة وهو يدرك أنها شروط صعبة نادر تحققها، ولذا فعليه أن يتأنى في اختيار أخيه، وأن يتحبس حتى لا يتورط في الأخ السوء، والناس من حوله صنفان: "صنف قدم اللائمة عليه لموقفه هذا، وهم ذوو سرعة في الإخاء، وسرعة في الانتهاء، يتسرعون إلى بذل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم، وتذوي صداقتهم. وصنف يعذرونه لأنهم ممن يرون رأيه في تخير الإخوان ، فيقول " فعدنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها، رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التوزير، وإحكام التقدير، وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله، واستوجب إذ كان جماع المحامد أن نتخير له محامله التي كان يحمل عليها، فكان الناس فيما احتبسنا به عنهم من الإخاء على صنفين: فصنف عذرونا للتحبس بالتخير، إذ كان التخير من شأنهم، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة في الانتهاء ، فقدموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التروية" [٢].

وحين بدأ التوحيدي كتابه "الصداقة والصديق" بدا كأنه يعتذر عَمَّا سيعرض من آراء، أو يخلي مسؤوليته من إيراد أي قول إيجابي في الموضوع، ولذلك يقرّر بوضوح كامل: "وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبه بالصديق."[٣] وكأن رأيه هذا انعكاس لتجربته واستقرائه، فظهر للوهلة الأولى بمظهر المتشائم.

ولكنه "يبدو في هذا الكتاب موضوعياً، إذ إنه على الرغم من رأيه المتشائم إزاء الصداقة والأصدقاء، إلا أنّه لم يتردّد في إيراد أشعار وأقوال في الحث على الصداقة، وبيان أهميتها وفضائلها، وكذلك يورد أشعاراً وأقوالاً في التحذير من الأصدقاء، وتجنب الاستكثار منهم"[٤].

ويتبع قوله هذا في مواقع مختلفة من الكتاب بأقوال تدعم وجهة نظره بغياب الصديق أو من يتشبّه به، ففي الحقيقة لا صداقة ولا ألفة ولا أخوّة ولا مودّة ولا رعاية، لأنّ كل هذا نبذ نبذاً، ورفض رفضاً، والخلاصة من ذلك أن الصداقة "وُطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه،

---

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٧

(٣) المصدر نفسه ، ج٣، ص٦٧.

(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٦.

(١) جرّار، صلاح، (٢٠٠٠م). الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، نظرية عربيّة في الصداقة، مجلة تراث، (٢١). ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصُرفت عنها الرغبات." [١] فالناس في نظره لا أمل يُرجى منهم، فقد "مسخوا خنازير، فإذا وجدت كلبا فتمسك به"[٢].

ويفرّق السجستاني بين الصداقة والعلاقة، فيجعلها – أي الصداقة – "أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة"[٣]، بينما يرى العلاقة "من قبل العشق والمحبة والكلف...، وهذه كلها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة، والطبيعة القوية، وليس للعقل فيها ظِلّ، ولا شخص، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث، وتنال منهم، وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول." [٤] ولهذا فهم محتاجون إلى الوعظ والإرشاد، ويلحظ هنا كيف ربط السجستاني بين العلاقة واللذة والشهوة، وهذا فهم ديني لا يتعارض والتناول الأرسطي للمسألة، وهذا هو النوع الأول الذي تحدّث عنه أرسطو.

أما النوع الثاني وهو المنفعة، فيتحقق من خلال ذكر التوحيدي لهذه الرواية عن ابن عطاء أنه سمع رجلاً يقول: "أنا في طلب صديق، منذ ثلاثين سنة، فلا أجده، فقال له: لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئا، ولو طلبت صديقا تعطيه شيئا لوجدت"[٥]. ويرفض السجستاني هذا المبدأ، ويرى أنّ الصديق " لا يُراد ليُؤخذ منه شيء، أو ليُعطى شيئا ، ولكن ليُسْكن إليه ويُعتمد عليه، ويُستأنس به، ويُستفاد منه، ويستشار في المُلمّ ...، والأخذ والعطاء في عرض ذلك جاريان عن مذهب الجود والكرم"[٦].

ويبدو أن ما عرّج عليه السجستاني من وصفه للصديق، وما ينبغي عليه أن يقوم به تجاه صديقه من حقوق وواجبات ينسجم والنوع الثالث الذي ذكره أرسطو، وهو الحديث عن الصداقة القائمة على الخير. إذ لا غرابة أن يورد التوحيدي تعريف أرسطو للصديق عقب تفسير السجستاني بقوله : "إنسان هو أنت، إلا أنّه بالشخص غيرك"[٧].

يظهر التوحيدي بمظهر المتشوق إلى الصديق وإلى الصداقة، ولكنها تبقى أمنية تخالف الواقع، ويبرز الشاهد الذي يذكره رفضه لوصية سفيان الثوري، حيث جاءه أحدهم ينوي سفراً،

---

(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٦٦.
(٣) المصدر نفسه ، ص٤٩.
(٤) المصدر نفسه ، ص١٠١.
(٥) المصدر نفسه ، ص١٠١.
(٦) المصدر نفسه، ص٦٨.
(٧) المصدر نفسه، ص٦٨.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويطلب وصيّة، فقال له سفيان: "إن قدرت أن تنكر كلّ من تعرف فافعل، وإن استطعت أن تستفيد منه أخ، حتى إذا خلصوا لك تسقط منهم تسعة وتسعين، وتكون في الواحد شاكّاً فافعل"(١).

وقد تجلّى هذا الغرض واضحا من تعليق التوحيدي عقب الشاهد، إذ نراه يؤكد من خلال تعليقه رأي أفلاطون في أهمية الصداقة لبناء المدنية والمجتمع، ولذلك يقول: فإنّ الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر، ولا بدّ له من أسباب بها يحيا، وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة، بعضهم صديقا، وبعضهم عدوّا، وبعضهم منافقا، وبعضهم نافعا، وبعضهم ضارّا، ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كلّ واحد منهم بما يكون له مَرَدّ من دين أو عقل، أو فتوّة ، أو نجدة، ويستفيد هو من ذلك كلّه ما يكون خاصّا به، وعائدا بحسن العُقبى، إمّا في العاجل، وإما في الآجل(٢).

فهذا هو الواقع الذي يقرره، أما البحث عن الصداقة بالمعنى المثالي، أو الصداقة التي تقوم على الخير، والتي تكون بين الحكماء، فهي غير ممكنة، وهي تركز على أخذ الصديق على أنه (هو أنت إلا أنه بالشخص غيرُك).

ويمضي التوحيدي في تأكيده نفي وجود الصديق، ولا جدوى من البحث عنه، وهذا أمر أحزنه، إذ لا بد وأنه قد عانى منه، فلا أقلّ من الإقرار بالحقيقة.

ولذا أخذ يقصّ علينا حكاية المأمون وعَلَوَيْه، حين أنشد المأمون هذه الأبيات:

وإني لمشتاق إلى ظِلّ صاحب ... يَرِقُّ ويصفو إن كدرت عليهِ

عذيري من الإنسان لا إن جفوتُه ... صفا لي ولا إن صرتُ طوعَ يديه

---

(٢) المصدر نفسه، ص١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعاده المأمون مرات ثمّ قال: هاتِ يا علّويه هذا الصاحب، وخذ الخلافة، قد صرنا، ولله الحمد نرضى اليوم من الصاحب، والجار، والمعامل، والتابع، والمتبوع أن يكون فضلهم غامراً لنقصهم، وخيرهم زائداً على شرّهم، وعدلهم أرجح من ظلمهم، وأنهم إن لم يبذلوا الخير كلّه لم يستقصوا الشرّ كلّه، بل قد رضينا بدون هذا، وهو أن نهب خيرهم لشرّهم، وإحسانهم لإساءتهم، وعدلهم لجورهم، فلا نفرح بهذا، ولا نحزن لذاك"(١).

ومن الكتب التي صنّفت في موضوع الصداقة والصديق، وقد اختص بالموضوع دون غيره، كتاب ترجمة الكاتب في آداب الصاحب للثعالبي .

ويبرز هذا الكتاب ملامح جديدة في حياة الثعالبي وشخصيته، فهو يرسم لنا صورة لم نألفها من قبل في كتبه من حيث النظرة التشاؤمية التي ظهر بها فجعلته يرى الناس جميعهم بمنظار واحد لا خير فيهم، فمتى أفاد أخواناً صاروا عليه أعواناً، ومتى اكتسب صديقاً قلاه عقوقاً، ولذلك أراح نفسه بالإياس من كل الناس، فلا الرئيس يؤدي ما عليه من حقوق وواجبات، فيراعي حق الله وحق عباده، ولا المرؤوسين يصلحون لدهر، ولا يستعان بهم على أمر.

وحقيقة الأمر، فقد جاء هذا الكتاب بما هو جديد وغير مألوف لمن يطالع تصانيف الثعالبي، ليتعرف على مسيرة حياته، فقد عرف بحبه للناس، وإخلاصه لخله وصحبه، فكان في علاقاته ناجحاً ومحبوباً ، فلا ندري ما الذي تغير في حياته ، وحوّلها إلى تلك النظرة التشاؤمية.

كما يظهر الكتاب الطبقية الاجتماعية، فالناس بين طبقتين شتّان ما بينهما، طبقة تعيش حياة البذخ واللهو والترف والمجون، وأخرى مغرقة في بؤسها وفقرها، تكاد تفتقر إلى ما تسدُّ به رمقها. ولعل هذا التردي في الحياة الاجتماعية ، والتهور السياسي المصاحب لخلل اقتصادي، دفع الكثير إلى الشكوى والتذمر من هذه الحياة، فلجأ الكثير إلى الزهد والتصوف.

تعوّد الثعالبي في كتبه أن يستشهد بأشعار المعاصرين له، ولكنه يطالعنا في هذا الكتاب وقد استشهد فيه ببعض أشعار القدماء كحاتم الطائي والمثقب العبدي، إضافة إلى ما سبق، فإن هذا الكتاب يضم مئات الحكم والأشعار والوصايا والمواعظ والدروس والعبر، والأحاديث، والمأثورات التي يحتاجها النشء في أيامنا هذه ، والتي ما صدرت إلا عن تجربة حقيقية تعرّض لها صاحبها.

هذا الكتاب في آداب الصاحب، يضم واحداً وعشرين باباً، تناول فيها المؤلف أبرز القواعد والأسس التي يجب أن يسير عليها الإنسان في اكتساب الخلان والأصحاب، فاجتهد

---

(١) الصداقة والصديق ، ص٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المؤلف في جمع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة والأشعار والأحاديث والآيات التي تحقق هذا المراد، وقد بيّن المؤلف في هذا الكتاب الخصال التي يجب أن يكون عليها الصاحب من ثقة بالله عزوجل، وتنزيه للنفس عن اللذائذ والشهوات بإكرامها، والتحلي بالقناعة واستكمال شروط الإيمان بإخلاص الطاعة، والتزين بالدين والتحلي بحلية المؤمنين، وأن يعتق رقة من أليم العذاب، ويخلص النصح لإخوانه ويجانب الغش والكدح.

ويبين المؤلف للقارىء أنه إن فعل ما تحدّث عنه، تحققت له محبة الآخرين، وسلم من الندامة، وتضاعفت مثوبته، وتحلى بالكرامة، وكان بريئا من الكبر والنكد، وبعيداً من الغي والحسد، مطيعاً لمولاه – عز وجل – بمخالفته هواه، وإذا قلّ مزاحه وضحكه عظمت هيبته، وأحبّه الله لتركه الكذب، واستكمل السؤدد والفتوّة بإنجازه للوعود واستعماله لمروءته، وإذا قضى ما عليه من حقوق أمن من التقصير، ونجا من حبائل الشرّ.

٥٩٤١٤٣

وهو إذ يعرض هذه الخصال والمواعظ إنّما يأمل تحشقيق الأخوة بين الناس على أساس متين تحكمه مظاهر الإيمان والعبودية لله – عزوجل.

يبين الثعالبي في مدمة هذا الكتاب الأسباب التي دفعته إلى تأليفه، وهو ما قاساه من اختلاف طباع الناس وأجناسهم، بعد أن كان معهم كالطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، وهذا أمر اعتاد عليه الثعالبي ، فقد أحبّ صحبه وخلانه وكان مخلصاً وفيّاً لهم، وعلاقاته مع رجال عصره وحبهم له دليل على ذلك، وما كان الثعالبي يفعل ما فعل إلا ليلقى ثمرة الحب والإخلاص اللذين قدمهما للناس، ولكنه لم يتوقع من الناس – خاصة وقد انقرضت نضارة العمر، وتدافعت أوقات الدهر – هذه المعاملة السيئة، ولم يجد الثعالبي صديقاً مخلصاً وفياً يبادله حباً بحب، فالإخوان انقلبوا أعواناً عليه، والأصدقاء عقوه وجفوه فما كان منه إلا أن يعتصم باليأس، ويستوحش من الناس.

وعندما رأى حال الناس كما وصف قرر أن يقدم على تأليف كتاب يقدمه تحفة لكل ذي عقل ولب، يقدم الموعظة للتأديب، ويوقظ الناس من غفلتهم، ويعيد الإنسان النظر في نفسه وفي غيره، فإذا تأمل الناس، وعرف أحوالهم، وطريقة تفكيرهم، وهفواتهم استطاع أن يحظى بالتجربة دون أن يكون طرفا فيها، فيتعظ بغيره.

وقد رأى تلك الأوضاع وهم الأساس تقاصرت بهم الهمم، وأما الصنف الثاني الذي شكا منه فهم أوساط الناس ، صيارفة الإخاء والخلة، فهؤلاء لا خير فيهم، ولا يحسنون معاملة الناس، فمن قصرّ عنهم رفضوه وأبغضوه ووتروه ولم يعذروه، من طبعهم المداهنة والمشاحنة، لا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحزنون لمصاب الآخرين، ولا يفرحون لفرحهم، يتكبرون حتى ولو كانوا فقراء، وأغنياؤهم أشحّاء، فلا يثق بهم إنسان لكذبهم وحسدهم.

وأما الصنف الثالث فهم الرّعاع من الأوباش والغثاء، ورأى أن لهؤلاء من الشهرة والكثرة ما يكفيه من الحديث عنهم، فهم أحطّ من درجة الصنفين السابقين.

ويبدو أن الرجل في أواخر أيامه قد تعرض لمضايقات الناس، واتهامه بأشياء لا نعرفها، ولم تحملها لنا كتبه ولا الكتب التي ترجمت له، ولم يصرّح هو بنوعها، ولكنه اكتفى بالقول: "قد زهدت في جميع الأنام، بعدما عضّتني الألسن بقدحها، وطحنت فؤادي بسوء لفظها، من غير نُكرة أتيتها، ولا جناية جنيتها".

وللأسباب السابقة جميعها قرر أن يصنّف هذا الكتاب ليكون مقصوراً على التأديب، معتمداً به الاختبار والتجريب.

ومن مصنفات الثعالبي غير المختصّة بموضوع الصداقة والصديق كتابه "سحر البلاغة و سرّ البراعة"، حيث أفرد في هذا الكتاب خاصّاً أسماه "كتاب الإخوانيات وما يأخذ مأخذها"، تحدّث فيه عن موضوعات ترتبط بالصداقة ارتباطاً وثيقاً كالمودة، وحسن المخالصة، ولطف الحال، والمنادمة والمؤانسة والتودد والإفصاح عن صدق المحبة والموالاة ، ووصف الشوق، وذكر الوداع، وسوء أثار الفراق والاشتياق وما يتصل بذكل، وتذكر أيام اللقاء وصفوها، والأدعية الإخوانية، ولا ينسى الثعالبي موضوع العتاب، وما يكون بين المتصادقين منه، فيذكره ويؤكد على ذكر سائر ألفاظ العتاب والاستزارة، ووصف العتاب عند الجواب عنه، والتجاوز عن هفوات الصديق وصفاته، والاعتذار والاستصفاح والاستعطاف.

وفي كتابه "من غاب عنه المطرب" يتناول فصولاً قصاراً، تضمّ جمهرة من الرسائل والكتب في موضوع الصداقة لنخبة من الكتاب والأدباء من أمثال: الصاحب بن عباد، وابن العميد، والعتبي، وسليمان بن وهب، وابن المعتز، وعمرو بن مسعدة، وقد تنوعت الموضوعات التي تناولها في كتابه هذا فتحدث عما قيل في استزارة الإخوان، وسائر الاستزارات، والتأسف على الأيام السالفة، وفيما يطرب من فضل الإخوان والأصدقاء وحسن موافقتهم، وفي الشوق، والعتاب، وغير ذلك مما يُعدُّ أصلاً في موضوع الصداقة.

ومن المصنفات التي تناولت موضوع الصداقة والصديق مصنفات ابن المقفع، فقد تناول في كتابه "الأدب الصغير والأدب الكبير موضوعات شتّى، فتحدث عن الهوى والرأي، وبين أنهما عدوان، كما عالج قضايا مختلفة: كالعجب الذي رآه آفة العقل، واختيار الأصحاب، وعدم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التطاول عليهم، فبين المؤلف في هذا الكتاب من نختار ، ومن نصاحب، وكيف نصاحب بالمروءة، وتحدّث عن المراء ومواساة الصديق والزهد.

وفي كتابه " كليلة ودمنة" ركز على الآداب التي يلزم المتصادقان التصادق عليها ليضم لهم سلامة الرابطة ومصداقيتها، فأكد على العقل وسلامته، وكتم السّرّ والنصيحة وصدقها، وأن يتجنّب الصديق المداهنة فيها، وأن يحذر الغدر بصديقه، ويبادله الوفاء، وصدق المودّة.

وفي كتابه "الأدب الوجيز للولد الصغير" يقدّم جمهرة من الحكم والوصايا التي تحث على اتخاذ الأخلاق الحميدة في المصادقة، ودأبه في هذا الكتاب دأبه في كتابيه السابقين من حيث التأكيد على أدبيات الصداقة، والشروط الواجب توافرها في الصديقين، حتى تتوثق عرى هذه الرابطة، وينعم الصديقان بصداقة حميمة.

وأورد الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" عدة فصول، تحدّث فيها عن المؤاخاة، وأنها لا تتم إى بالمودّة الصادقة، كما تحدّث عن أسباب الألفة، وحذّر من الكبر والعجب، وأنّ على المرء تجنّب هذه الخصال المذمومة، إضافة إلى أنه قد ذمّ الهوى، لما يفعله بعقول الأحرار من الرجال، وتحدّث عن الحلم والغضب والصدق والحسد والضحك والمروءة. ومما يؤكد أهمية هذا الكتاب ما ذكره الماوردي من أشكال المؤاخاة، المكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار، والمكتسبة بالقصد والاختيار، إضافة إلى تركيزه على أسباب الإخاء، وتأكيده على ضرورة القيام بحقوق الأصدقاء وواجباتهم، وذلك بعد أن يكون الصديق قد عزم على اصطفاء أصدقائه ، وسبر أحوالهم، وكشف أخلاقهم.

ويجعل ابن مسكويه المقالة الخامسة من كتابه "تهذيب الأخلاق" في موضوع المحبة والصداقة، فيتحدث فيها عن المحبة وأنواعها وأسبابها، وأما ما يهمنا فهو الحديث عن موضوع الصداقة، حيث يفرّق بين المحبة والصداقة ويجعل الصداقة نوعاً من المحبة، إلا أنها أخص منها، ثم يتناول الحدبث عن الصداقة، وكيف تكون بين الأحداث ومن كان في مثل طباعهم، والصداقة بين المشايخ، ومن كان في مثل طباعهم، والصداقة بين الأخيار، ولا يفوته أن يتحدث عن فضائل الصداقة، حيث تكمل بها سعادة الإنسان. وفي موقع آخر من المقالة يضع قواعد وأسساً يتم من خلالها اختيار الصديق، ويتمم الموضوع بالحديث عن واجبات المرء تجاه صديقه.

ومن مصادر الدراسة في موضوع الصداقة والصديق مصنفات الرسائل التي كانت تدور بين الأصدقاء، ومن ذلك ما صنّف خصوصاً لهذه الرسائل مثل، رسائل الخوارزمي ورسائل الهمذاني وابن المعتز و الصاحب بن عبّاد، وقد تشابهت مضامين هذه الرسائل، فجميعها جاءت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تدور في الموضوعات نفسها، فيما يتعلق بأدبيات الصداقة، وكيفية التعامل مع الصديق وما يكون بين الأصدقاء من شوق واستزارة وعتاب واستعطاف وحنين إلى لقاء أو دعوة إلى شرب أو استمتاع، وتهادٍ وحث على المكاتبة، وتأكيد على ما تجمل به الصداقة من أخلاق وصور ومواقف.

وكان لكتب المختارات الأدبيّة دور بارز في توضيح ملامح الصداقة والصديق، بما ضمته هذه المصنّفات في بطونها من مختارات في الحكم والوصايا والنصائح والأقوال المشهورة والرسائل والقصص والحكايات التي أثرت الدراسة، فغدت معيناً يستقي منه الباحث ويفيد كثيراً.ونذكر منها كتابي الوشاء: الموشى أو الظرف والظرفاء الذي تناول فيه الكاتب فصولاً قصاراً تحدث فيها عن موضوعات ذات صلة وثيقة بالصداقة كالأمر باختيار الإخوان، وانتخاب الأقران والأخوان، والحث على صحبة الإخوان، والإغراء على مودة الخلان والرغبة في أهل الصلاح والإيمان، وقد اشتمل الكتاب أيضا على عدد من الأدبيات التي يوصي بها الكاتب لتتحقق صداقة حقيقية، لا يشوبها شائب، كالدعوة إلى البشاشة بالإخوان والصبر على تآلف قلوب ذوي الأضغان، والنهي عن استعمال الإفراط في حبّ الصديق، والأمر بإغباب زيارة الأحباب والنهي عن مداومة غشيان الأصحاب، ولا يفوته أن يتحدث عن فضل المروءة، وكتم السرّ وحفظه، وتجنب خلف المواعيد، لما قد يلحق بمن أخلف مواعيده من اللوم والتفنيد.

وفي كتابه الثاني المسمى بـــ "الفاضل في صفة الأدب الكامل" يتناول فيه عدداً من الوصايا والرسائل تحت عنوان "باب البلاغة" في كذا وكذا، فيذكر ما قيل في الآداب والمكارم، والتعزية والتهنئة، ووصايا العلماء والأمراء، وما قيل في بلاغة الأعراب في مواعظ الإخوان والأصحاب.

ومن كتب المختارات الأدبيّة، كتاب ابن قتيبة "عيون الأخبار" الذي أفرد فيه فصلاً خاصاً أسماه "كتاب الإخوان" جمع فيه ما قيل في المعاتبات بين الإخوان، والدعوة إلى الزيارات، ومشاركة الإخوان إخوانهم في مناسبات عديدة، سواء أكانت تعزية أم تهنئة، ولم يكن لابن المقنع منهجيّة واضحة في هذا الكتاب فهو يورد كل ما في جعبته في موضوع ما دون تنسيق أو تبويب للمادة، وقد وزع ابن قتيبه كتابه على عشرة كتب، جعل كتاب الإخوان منها الكتاب السابع، وفيه يتحدّث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك في السرّاء والضرّاء، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم، كم تلقانا أحاديث نبوية، وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا إضافة إلى جمهرة من كتب المختارات الأدبيّة التي تناولت الموضوع بطريقة عرضية فعرضت لأبرز الأقوال والحكم والوصايا دأبها في ذلك دأب عيون الأخبار، ونذكر منها: العقد الفريد وزهر الآداب والأمالي والجليس الصالح الكافي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الصداقة والصديق شروطهما وأصولهما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شغلت قضيّة الشروط الواجب توافرها في الصّداقة والصّديق ألباب الكتّاب والأدباء، حيث لم يكد يخلو مصنّف أدبيّ في العصر العباسيّ من تناول لهذه القضيّة إما ذكراً عرضيّاً، أو معالجة تفصيليّة، ولم ينحصر الأمر في المصنّفات التي خُصّصت في الصّداقة والصّديق، بل تعدّاها إلى كلّ مصنّف.

وقد شغل موضوع الصّداقة والصّديق الكتّاب والأدباء في العصر العباسيّ، فغدا زاداً تزوّدوا به في مصنّفاتهم، سواء فيما خصص لهذا الموضوع، فأفرد له مصنّف بعينه، قائم بذاته كالرّسالة التي أنشأها التوحيدي، أبو حيان (ت٤١٤هـ) في الصّداقة والصّديق، وككتاب "ترجمة الكاتب في آداب الصاحب" للثعالبيّ، أبي منصور (ت٤٢٩هـ)، أو فيما عُرض جزئيّاً ضمن فُصول خاصّة في كتب المختارات والمنتخبات، وهي كثيرة لا يأتي المقام على ذكرها.

ولم يكد يخلو أيّ مصنّف من ذكر لشروط الصّداقة، وكأنّ كلّ ناثر أخذ على عاتقه أن يجتهد في هذا الموضوع، فيقدّم زُبدة تجاربه وخبراته العمليّة، وَفقاً لفكره وفلسفته.

وحين كان الناس يختلفون في مُيولهم لا تختلف في كلّ زمان ومِصْر، وَجَب أن تختلف هذه الشروط وفق ما يتناسب وهذه الطبائع، لكنها رغم اختلافها وتباينها بقيت تدور في الموضوع ذاته، وتركز أساسيّات لا تحيد عنها، ولا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أنّ هذه الشروط ما هي إلا نِتاج عصر تصارعت فيه القيم والميول والأهواء والأجناس وتقلبات الزمان، ولذا جاءت منسجمة وروح العصر، ممثّلة لمنْ يحملون هذه القِيم.

والحديث عن شروط الصّداقة والصّديق يستدعي الحديث عن واجبات الصّديق، فهما أمران لا ينفصلان، وذكر أحدهما يستدعي الآخر، وما الفصل بينهما إلا فصل شكليّ تقتضيه ظروف الدراسة ومنهجيّتها، فكان الحديث عن الشروط مقدّماً على تناول الواجبات، وهو تقديم شكليّ لا تقديم رتبة، فكلاهما جوهران في الصّداقة، ولا يمكن الاستغناء عن أيّ منهما.

الممازجة النفسيّة:

والمُشَاكَلة من أبرز شروط الصّداقة، وهي الشرط الأول، إذ ينبغي توافرها بين المتصادقين، وهي تعني التوافق الرّوحيّ والعقلي بين الصّديقين، وهي المماثلة الروحية التي تحدث انسجاماً والتقاء في "الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات"[1]. فيبدو الصّديقان نفساً واحدة، ما يحدث لأحدهما يحدث للآخر.

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو هذا الشرط أساسا في موضوع الصّداقة، الأمر الذي دفع بالتوحيدي إلى إيراده مفتتحا به كتابه الموسوم بـ"الصّداقة والصّديق"، وذلك حين سأل أبا سليمان السجستاني حول طبيعة العلاقة بينه وبين ابن سيّار القاضي، لما رأى بينهما من "ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومُواتاة خلقية"[١]، فكان جواب السجستاني يشرح المفهوم، وأبعاده المختلفة، ويؤكد هذا التوافق الذي يخلق المصافاة، وهذا الصفاء بدوره يجلو نفوس الأصدقاء، فينكشف الصّديق أمام صديقه، ويجد أن لأفكاره وآرائه وقعا في نفس الآخر، فيتجاذب معها، ويقرأ كلّ منهما فكر صاحبه، وهذا ما حدث بين السجستاني وابن سيّار، "وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو منها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل[٢].

وحين تصفو النفوس تتوحّد الأسرار، وتحصل المُكاشفة، ويحدّث كلّ صاحب صاحبه بأسرار نفسه دون أن يبوح له بها، "وقلّ ما نجتمع إلا ويحدّثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شَفَتيّ، ولا نَدتْ عن صدري إلى لفظي، وذلك للصفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه[٣].

ولا يحدث هذا التخاطر إلا نتيجة للتوافق الذي جعل من الصّديقين نفساً واحدة، يعرف الواحد كثيراً من مكنونات الآخر، وكأن ذاتيهما ذاتٌ واحدة، تختلط مع موضوع الحدث، فيتحدان في شخص واحد، ولا غرابة في هذا الضرب من التوافق بين الرجلين، فـ "من عرف قوى الطبيعة، وأسرار العقل لم يستكثر توارد لسانين على لفظ ولا تسانح خاطرين على معنى حاضر، وباطنه ظاهر."[٤].

والمشاكلة تمثل أسمى مستويات التوافق الممكن بين الأصدقاء في العقل والروح، وطريقة التفكير، واتجاه الإرادة، ومسالك العادة، وفي هذا المستوى يبدو الصّديقان كأنهما توأمان "تراكضا في رحم، وتراضعا من ثدي، ونوغيا في مهد"[٥] فلا يظهر منهما خلاف ولا نُبوّ، فتحب ما أحب صديقك، وتبغض ما أبغض، وفي ذلك يقول الوشاء: رواية عن عبدالله بن صالح

---

(١)التوحيدي، الصّداقة والصّديق ، ص٣٠
(٢) ص٣٠-٣٢.
(٣) ص٣٢.
(٤) التوحيدي، أبو حيان، (ت ٤١٤هـ). البصائر والذخائر، تحقيق ابراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، القاهرة، ج١، ص٣١٣.
(٥) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"اجتمعت أنا ومحمد بن نصر الحارثي وعبدالله بن المبارك[١]، وفضيل بن عياض[٢]، فصنعت لهم طعاما، فلم يخالف محمد ابن نصر علينا في شيء، فقال له عبدالله: ما أقل خلافك ! فقال محمد:

وإذا صاحبتَ فاصحبْ ماجدا ذا حيـــاءٍ وعفافٍ وكَرم

قوله للشيْء: لا، إنْ قلتَ: لا وإذا قلـتَ: نَعم، قالَ: نعم[٣]

والأخ المُوافق خير من المُخالف وفي كلّ خير، وبه أوصى الأدباء بعضهم بعضا، وحـين سأل العتابي أعرابيا قحّا اتخاذ صديق، وطلب منه أن يبعثه له، قال له الأعرابي: "لا تبعث فإنك لا تَجِدُهُ." [٤] قال العتابي: "فابعثه كيفما كان، حتى أتمناه وإن كنتُ لا ألقاه، قال: اتّخِذْ من ينظـر بعينك، ويسمع بأذنك، ويبطش بيدك، ويمشي بقدمك، ويحطّ في هواك، ولا يراه سُواك، اتّخِذْ من إن نطق فعن فكرك يستملي، وإن هجع فبخيالك يحلم، وإن انتبه فبك يلوذ"[٥] .

صورة من صور التوافق والمشاكلة الروحية والجسدية، يقدمها هذا الأعرابي الـذي فهـم معنى الصّداقة، وعبر عن شرطها بلغة رشيقة، قوامها اتحاد الجسدين والروحين، ليشكّلا روحاً واحدة، تنبض انسجاماً ووفاقا.

فالصّداقة الحقيقية تقتضي المماثلة في "الإرادات والاختيارات والشـهوات والطلبـات"[٦]، وهذه المماثلة ثمرة ارتباط روحي خفي غير محدد بزمان أو مكان، وهذا ما يشبه اتحاد الـذاتين عند الصوفيين. وقد تحدث الماوردي عن التجانس والائتلاف، فقال: "التجانس في حال يجتمعان فيها، ويأتلفان بها، فإن قوي التجانس قوي الائتلاف به، وإن ضعف كان ضعيفا. وإنما كان ذلك كذلك لأن الائتلاف بالتشاكل، والتشاكل بالتجانس، فإن عدم التجانس من وجه، انتفى التشاكل من كلّ وجه، ومع انتفاء التشاكل يُعْدَم الائتلاف، فثبت أن التجانس وإن تنوع: أصل الإخاء، وقاعدة الائتلاف"[٧]

---

(١) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء التميمي الحافظ شيخ الإسلام، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجا ومجاهدا وتاجرا، جمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء، كان من سكان خراسان، له كتاب في (الجهاد) وهو أول من صنف فيه، و(الرقائق) في مجلد، مات بهيت على الفرات منصرفا من غزو الروم سنة ١٨١هـ . (تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٥٣) تاريخ بغداد، ج١٠، ص١٥٢، حلية الأولياء، ج٨، ص١٦٢

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث. ولد في سمرقند، ثم سكن مكة وتوفي بها، ١٨٧هـ، انظر (تذكرة الحفاظ ج٩، ص٣٢٥، ابن خلكان ج١،ص٧.

(٣) الوشاء، أبو الطيب، محمد بن أحمد، (ت ٣٢٥هـ). الموشى أو (الظرف والظرفاء)، ١م، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م،ص٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٢.

(٥) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص١٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٧) أدب الدنيا والدين، ص١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر النبي –عليه السلام– هذا التجانس في حديثه الذي روته السيدة عائشة –رضي الله عنها– فيقول: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[١] وهذا واضح، فهي بالتجانس متعارفة، وبفقده متناكرة. فكيف تجتمع الأضداد وتتفق، هيهات، لا يستصحب الشيء ضدّه.[٢]

وحين عرّف أرسطو الصّديق بقوله: "الصّديق إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك؛" فهو في تعريفه هذا إنما يؤكد ضرورة التجانس والتشاكل، واتحاد الذاتين لدى المتصادقين، وقد فسر أبو سليمان السجستاني، أستاذ التوحيدي هذه العبارة، فعدها "آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها"[٣]، ثم قال: "ألا ترى أن لهذه الموافقة أولاً منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأول هذه الموافقة تَوحُّدٌ، وآخرها وَحدَةٌ، وكما أن الإنسان واحد بما هو به إنسان، كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق، لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تَحُولان إرادة واحدة، ولا عجب من هذا فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر فقال:

روحُه رُوحي وروحي روحُه إن يشَأ شئتُ وإن شئتُ يشا"[٤]

وترتكز إجابة السجستاني على المحور الديني–الروحي، فهو إذ يفسر مقولة: الصّديق هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك[٥]"، فهو يفصح عن نظرة إشراقية ترى العالم مجتمعاً واحداً، وهو بهذا يقدم للقارئ نموذجاً راقياً من الصّداقة، التي يرى فيها المجتمع كأنه نفس واحدة، يفكر فيها المتصادقون تفكيراً واحداً، وتصير العادتان عادة واحدة والإرادتان تحولان إرادة واحدة، فلا تعارض بين المشيئتين، فكلّ واحد يتوافق ويوافق صديقه، وإن صعب عملياً تحقيق هذا النموذج من الصّداقة فلا أقل من الاقتراب منه، عسى أن يتحقق الانسجام يوماً ما.

وإذا كان الصّديقان يلتحمان في وحدة أخوية هي المصير الذي لا انفلات منه، وإذا كانت المشاكلة توفر لهما هذا المناخ، وتحقق لهما هذا التوازي في المشاعر، فالشكل لا ينبو أبداً عن شكله، وإذا كان التضاد في الشيم والسمات والاهتمامات والمشاعر لا يحقق مبدأ التصادق بين اثنين، فإن مبدأ المشاكلة شرط كاف لدوام الصّداقة والثقة بين المتصادقين، وهي –أي المشاكلة– تحتم استمرار الصّداقة بينهما، وانجذاب الواحد نحو الآخر أمر لا بد منه، إذا كان ثمة تماثل بينهما. وقد قال بعض الحكماء: "بحسن تشاكل الإخوان يلبث التواصل، ولبعضهم في ذلك:

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦٣٨). ج٤، ص٢٠٣١
(٢) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٤، ص٢٣٤.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٩.
(٥) المصدر نفسه، ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا تَحْتَقِر نفسي وأنتَ خليلُها فكلّ امرئ يصبو إلى مَنْ يُشاكلُ[١]

وهكذا فالمشاكلة تتجسد بلقاء المتماثلين، وقيام أواصر الصّداقة بينهما، وإذا كان الصّديقان "كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٢]؛ فإن الموت وحده هو الذي يفرق بينهما.

ولا يعني التوافق والانسجام بين المتصادقين انتفاء التباين واختلاف وجهات النظر والآراء بينهما، فقد يحدث بين متشاكلين ما يشبه العتاب والاختلاف، وهذا أمر إيجابي يحث الصّديقين على الحوار، وتقليب الأمر على وجوهه الممكنة، مما يؤكد أواصر الإخلاص بينهما، وعلى ما كان بين السجستاني وابن سيار من مشاكلة وتجانس، إلا أنه كان يقع بينهما ما يشبه العتاب، "وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا، كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مَقْنَع، وإليه مَفْزَع"[٣].

ويرى بعض المفكرين أن ضروب المشاكلة تفتقر إلى الثبات، وهي عرضة للتحول والتلاشي، فشخصية الإنسان تتغير باستمرار تبعاً لاستعداداته وتجاربه، ومن الصعب التنبؤ بأفعاله وردودها من كل موقف، مما يعني أن التجانس قد لا يعد مؤثراً في علاقات الإنسان، كما أن المرء قد يُخْدَع ويَتَوَهّم وجُود تجانس بينه وبين الآخر، ويبدو أن مثل هذه الاعتبارات لا تدخل في حسبان من استهواه مبدأ المشاكلة، وقد تتغير الرغبات والحاجات الإنسانية من وقت لآخر، فيضعف بعضها، ويَقْوى غيرُها، بعضها يُشْبَع، وبعضُها يتعرض للإحباط، وحتى الانعطاف إلى القيم قابل للتغيير، فما يعتقده المرء في وقت ما أنه خير، ومكتفٍ بذاته قد يراه في وقت آخر وسيلة إلى قيمة أخرى فيختلف بذلك تقييمه للإمور، وللطرف الآخر في الصداقة، وإذا كان الصديق إنسان هو أنت، إنما هو بالشخص غيرك، فمن المحتمل أن يكون التشاكل بينهما على حدّ سواء فيما يؤكد صداقتهما، لكن ضمان ثبات الصداقة واستمرارها رهن بأن التغير في كل طرف يستدعي تغيراً في الطرف الآخر، ويصبح أحدهما بالنسبة للآخر كالمملوك الذي لا يحيد عن إرادة مولاه ومشيئته. ونعرف من الخبرة أن ثبات حياة الإنسان مستحيل.

وهناك احتمال اختلاف وتغير في حالة أحد الصديقين أو كليهما، ومن الممكن أن يــؤدي التغيُّر إلى انحلال عرى الصداقة، حتى وإن قامت أصلاً على التشاكل.[٤] مما هو جدير بالــذكر

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٨٦.
(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٥٨٦)، ج٤، ص١٩٩٩.
(٣) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٣١.
(٤) انظر في ذلك: التوحيدي، الهوامل، س/٥٠، ص١٣٩، والإمتاع والمؤانسة، ج٣، ل٣٤، ص٩٩. وسناء قطان، الصداقة والاغتراب في فكر ابي حيان، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن سائر المخلوقات والبشر لا يتماثلون في كلّ أوجه شخصياتهم، ولا يكون التماثل بين شيئين إلا بتقييد، فيماثل الواحد الآخر" في جوهره أو كميته أو كيفيته أو غير ذلك من سائر المقولات، وقد يماثله في اثنين منهما أو أكثر، فأما في جميعها فمحال"[١].

العقــل

حثّ الكتاب في العصر العباسيّ على اتخاذ الصّديق العاقل، وتجنب الجاهل الأحمق، لما قد يلحق من مضار بمن يصاحب، "والعاقل من جالس ذوي الألباب، وصحب ذوي العقول والآداب[٢]"، والشرط الثاني من شروط الصّداقة عقل موفور يهدي إلى مراشد الأمور، فإن الحمق لا تثبت معه مودة، ولا تدوم لصاحبه استقامة، "ولا تصحب أحمق؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا تصحب قاطع رحم، فإني وجدته ملعونا في ثلاثة مواضع من كتاب الله ..." [٣] ، وقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه: إياك ومؤاخاة الأحمق، فإنه ربما أراد أن ينفعك فيضرك[٤]. وحين سئل فيلسوف عمن يحب أن يصادقه قال: "أما في الدهر الصالح فالحسيب اللبيب الأديب، فإنك تستفيد من حسبه كرما، ومن أدبه علما، ومن لبه رأيا"[٥]، وهذا دأب الصّديق تجاه صديقه، يستأنس برأيه، ويستفيد من علمه بنصحه ومشورته، وإذا وجب أن يتحلى بمكارم الأخلاق والآداب، مزينا بعقل موفور، يقدر على موازنة الأمور، واختيار ما يحسن لتوثيق روابط الأخوة والصّداقة، وإذا كان الصّديق مرآة صديقه، لزم أن يصطحبا على ما فيه الخير لكليهما، والعاقل قادر على تتبع مواطن الخير، ومنابع الحسن، فيركن إليه صديقه، ويقتدي به مستأنسا ومسترشدا بحسن عقله وكماله. ويتحدث المأمون عن صديق له بخراسان واصفا إياه بحسن الرأي وكمال العقل، فيقول: "كنت أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد السار المحبوب، ولقد كنت أستمد منه رأيا أقوم به أود المملكة، وأصل به إلى رضاء الله في سياسة الرعية"[٦].

وقد قُرنت مودة الأحمق بعداوة العاقل، مما دفع الكتاب والحكماء إلى تفضيل عداوة العاقل على مودة الأحمق، وذلك لأن الأحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع، و"العاقل لا يتجاوز الحد في مضرته، فمضرته لها حدّ يقف عليه العقل، ومضرة الجاهل ليست بذي حد، والمحدود

---

(١) التوحيدي، أبو حيان، (ت ٤١٤هـ). الإمتاع والمؤانسة، تحقيق ابراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، دمشق، ج٣، ص٩٩.
(٢) الثعالبي، أبو منصور، عبدالملك بن محمد، (ت ٤٢٩هـ)، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، ١م، تحقيق على ذيب زايد، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠١م، ص١٠٧.
(٣) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٥٥.
(٤) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ). البيان والتبيين، ط٢، ٤م، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦١م، ج٤، ص٩٦.
(٥) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٧٩.
(٦) المصدر السابق، ص٩٦- ٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقل ضرراً من غير المحدود"[١]، وما كان بين القاضي أبي حامد المروزي[٢] وبين ابن نصرويه" يقرب من الكلام السابق، لما كان بينهما من "العداوة الفاشية، والشحناء الظاهرة، فكان إذا جرى ذكر ابن نصرويه أنشد:

وأبى ظاهر العداوة إلا طغياناً، وقولَ ما لا يقال

وكان يقول: والله إني بباطنه في عداوته أوثق مني بظاهر صداقة غيره، وذلك لعقله الذي هو أقوى زاجر له عن مساءتي، إلا فيما يدخل في باب المنافسة، ولهذا استمر أمرنا أربعين سنة، من غير فحاشة ولا شناعة، ولقد دعيت إلى الصلح فأبيت فقلت: لا نحرك الساكن منا، فلقديم العداوة بالعقل، والحفاظ من الذمام والحرمة ما ليس لحديث الصّداقة بالتكلف والملق."[٣]

وما كانت العداوة بينهما لتخرس ألسنتهما عن الحق، وقول ما يستحق أن يقال في كليهما، وعندما سأل مُعزّ الدولة كلّ واحد منهما على انفراد – عن الآخر، أحسن الوصف، وقال فيه خيراً، حتى أعجب بهما مُعزّ الدولة، وظن أنهما على وفاق دائم، تربطهما صداقة حميمة، الأمر الذي دفعه لسؤال غيرهما عنهما، فقيل له: "بينهما نبوّ لا يُنادى وليده، وتَعادٍ لا يَلين أبداً شديدهُ."[٤] ثم قال أبو حامد: "والله إن عداوة العاقل لألذ وأحلى من صداقة الجاهل؛ لأن الصّديق الجاهل يتحاماك بعداوته، ويُهدي إليك فضلَ عقله ورأيه، ومن فضل عداوة الجاهل، أنك لا تستطيع مكاشفته حياءً منه، وإيثاراً للإرعاء[٥] عليه. ومن فضل عداوة العاقل أنك تقدر على مغالبته بكلّ ما يكون منه إليك[٦] .

ويُبرز كتاب محمّد بن عبدالله بن حرب[٧] أهمية العقل" وضرورته لسلامة الأخوة، مبيناً أن "حقائق الأخوة لا تثبت إلا بمحض المودّة من صحة العقل والمجبول في الطبيعة، وأن هذا العقل قائد إلى زين العاجلة وحُظوتها، ومحبوب ما يتعاطف به ذوو الحِجَى فيها، ويتواصلون به في دوام نعيمها وميسور أمرها"[٨] . وفي رسالة ابن المقفع التي وصف فيها أخاً له، فيقول: "إني مخبرك عن صاحب لي، كان أعظم الناس في عيني"[٩] يؤكد ضرورة العقل، وتجنب الجهالة، فصاحبه هذا "كان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة"... فإذا نطق بدّ

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٢.
(٢) أحمد بن بشر بن عامر العامري، القاضي البصري، من الشافعيين، له من الكتب: الجامع الكبير في فقه الشافعيّة. الفهرست، ص٢٦٨.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٥٩-٦٠.
(٤) المصدر السابق، ص٦٠.
(٥) الإرعاء: الإبقاء، وأرعى عليه: أبقى عليه وترحم. اللسان (رعى)
(٦) انظر الموقف كاملاً في: الصّداقة والصّديق، ص ٥٩-٦١.
(٧) محمد بن عبدالله بن حرب، كاتب الحسن بن قحطبة على أرمينية، ثم كتب ليزيد بن أسيد، ثم كتب للفضل بن يحيى. الفهرست، ص١٣٩.
(٨) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٩٩ ، صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٨٦-١٨٨.
(٩) الأدب الكبير، ص١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حسن الخلق

وحسن الخلق أصل في الصّداقة، وشرط رئيس من شروط صحتها واستمرارها، ولذا دعا الكتاب إليه، وألحوا عليه، لما يحدثه من توثيق لهذه الرابطة، وإحداث الأثر العميق في طبيعة العلاقة بين المتصادقين، والعاقل يلزمه حسن الخلق، فرب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه، وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته، وتقويم أخلاقه، "فلا خير في صحبة كلّ عجول، فإنه لا يغفر الزلة، وإن عرف العلة، سريع غضبه، غالب لهبه."(١)

وبالقدر الذي يتحلى به الصّديقان من مكارم الأخلاق وحسنها يكون الوفاق والاتفاق، وحسن المعاشرة وحميم الصّداقة، ولحسن الخلق عليه علامات يستدل بها، حثّ عليها المجربون، ودعا إليها أصحاب الحكمة والمؤدّبون، فلا مناص منها، ولا غناء عنها، وكلّ يجتهد في التحلي بما يقدر عليه من هذه الأخلاق، إذ لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، وجمعها قد استعصى على الخلق، فلا أقل من تمثّل بعضها، والأخذ بالقليل خير من ترك الجميع.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأدباء والكتاب في العصر العباسيّ أدركوا حقيقة الحديث عن مكارم الأخلاق، ودعوا إلى التماسها بالقدر المستطاع في الصّداقة، وحثوا عليها، مدركين ومؤمنين بأن من العسير اجتماعها كاملة في صداقة ما، ولكنهم حين تكلّموا في هذا الموضوع، إنما كانوا يرسمون حدود الصّداقة المثالية المنشودة بين الناس، متوسمين النموذج المثالي للصديق، إن لم يكن على الحقيقة، فلا أقل من أن يكون متخيّلاً، قيل لبعض الحكماء: "من أبعد الناس سفراً؟ فقال: من كان في طلب صديق يَرْضَاه"(٢). وقال رجل للفضيل بن عياض: أبغني رجلاً أحدثه سري، وآمنه على أمري! فقال: تلك ضالة لا توجد."(٣)

وقد جمع "علقمة العطاردي" حسن الخلق في وصيته لابنه، لمّا حضرته الوفاة فقال: "يا بني، إن نَازَعَتْكَ نفسك يوما إلى صُحبة الرّجال، لحاجتك إليهم، فاصحبْ من إن صحبته زانكَ، وإن تخققْتَ له صَانك، وإذا نزلت بك نازلة مَانَك، وإن قلتَ صدّق قولك، وإن صُلْت به شدَّدَ صَوْلك، اصحبْ من إذا مَددتَ يدك لِفَضْلٍ مدّها، وإن رأى منك حسنة عَدّها، وإن بَدتْ منك ثُلْمَة

---

(١) الثعالبي، ترجمة الكاتب في أداب الصاحب، ص٦٩.
(٢) الوشاء، الموشى، ص٢٦.
(٣) الوشاء، الموشى، ص٢٧. وانظر التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٧، وفيه قال الفضيل بن عياض: قال لي ابن المبارك: ما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخا في الله قال: فقلتُ له، لا يهدينك هذا فقد خبثت السرائر، وتنكرت الظواهر، وفني ميراث النبوّة، وفقد ما كان عليه أهل الفتوة."

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سدها، اصْحَب من لا تأتيك منه البَوائق، ولا تَخْتلف عليك منه الطّرائق، ولا يخذلك عند الحقائق"[١]

فالصّديق كما يراه العطاردي من تجمعت فيه الخصال الحميدة السابقة، فهو يسارع إلى تحقيق ما يديم الصّداقة بينه وبين صديقه، ويُقدِم على كلّ ما من شأنه أن يزينها، فلا تفتر همّته، ولا يتهاون في حق من حقوق تجاه صاحبه فإن ألمّ بصاحبه ملمّ، أو نزلت به ضائقة، سارع إلى الغوث، ومد يد العون مظهراً نبل أخلاقه، وحسن صداقته، عارضا على صديقه ما يخرجه من هذه الضائقة، وهو حين يقدم على ذاك، ينصر صديقه بنفسه وماله، وقد قال هرمز: "شرط الصّديق ألا يضن عليك بماله، فإن ضنّ عليك بماله، فهو بنفسه أضن"[٢]

ولا يتوانى في نصرته بقوله ولسانه، فإن قال صدق قوله، وإن صال شدد صوله، وهو إذ يفعل ذلك يحقق لخله عناصر النصرة المادية والمعنوية، وحُسن الخلق يستدعي ذلك أو أكثر، قال عمرو بن مسعدة: "لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك أكثر من إقناعه لك بشكر لسانه، وفوائد علمه."[٣] ولا يكتفي العطاردي بذكر عناصر النصرة، إنما يتعداها إلى ذكر الشكر والفضل بين الأصدقاء، فالصّديق أولى بأن يذكر حسنات صديقه، ففي ذكرها تعداد لمناقبه، وتذكير بحسن عشرته، وإظهار للفضل بينهما، وما أكرم ذاك الذي يقف عند حسنات صاحبه، ويتجاوز عن هفواته وزلاته، فإذا أبصر من صاحبه هفوة غفرها له، وسترها، ولم يخبر بها أحداً، وهذا الأمر يدعوه إليه ما يكون عليه الصّديقان من مماثلة روحية وعقلية، فإن فضح صاحبه، فكأنه فضح نفسه، فلا أقل من أن يستر عيبه، ويتجاوز عن سيئه، مكتفياً بالإشارة أو التلميح دون رقيب عليهما، عل ذلك يصلح ما كان منه، قال أنو شروان لِبُزْرجَمِهْر: "أي الأشياء خير للمرء؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن لم يكن؟ قال: فإخوان يسترون عيبه"[٤]، وكتب الحسن لبن وهب إلى أخ له: "لا تحسبني من الإخوان الذين هم إخوان البصر، والذين هم مع الأسفار والنظر، فإن غابوا غدروا، وإن طال العهد بهم تغيروا، ولكني أخو القلب، أصبر وأحفظ ودّه وأرعاه".[٥]

---

(١) البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت ٣٢٠هـ)، المحاسن والمساوئ، تحقيق عدنان علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٣٩. وقد تكررت هذه الوصية أو بعضها في عدد من مصادر التراث، منسوبة تارة للعطاردي، وتارة لغيره بلفظ مختلف، انظرها في: التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص١٩١، وفيه لعبدالله بن جعفر.

(٢) الوشاء، أبو الطيب، محمد بن أحمد، (ت ٣٢٥هـ)، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ط١، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٢٤٤.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢٦٧.

(٤) الماوردي، أدب الدين والدنيا، ص١٥.

(٥) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ج١، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس المقصود من الكلام السابق أن ينظر إلى الصّديق كالوكيل يكفي موكلّه مؤونته، فيقدم له كلّ ما يحتاج إليه من طعام أو شراب أو كسوة، فعلى غير ذلك يكون الصّديق، وحين قال التوحيدي للهائم أبي علي: مَنْ تُحِبُّ أن يكونَ صَديقُك؟ قال: "مِنْ يُطعمني إذا جُعْتُ، ويكسُوني إذا عَريتُ، ويحملُني إذا كَلَلْت، ويغفرُ لي إذا زَللت، فقال له علي بن الحسن العلوي: أنت إنما تريد إنساناً يكفيك مؤونتك، ويكفلك في حالك كأنما تمنيت وكيلاً، فسميته صديقا."(١)

ومن مؤشرات حسن خلق الصّديق أن يؤمل فيه كرم الأخوة، وكامل المروءة، ويتحقق فيه الوفاء وحفظ الود وصيانته، ما يجعله يخلف أخاه إذا غاب عنه، فإن حضر كنفه، ولقيه بالبشر والابتهاج، فتأنس به النفس، وتطرب له الروح، حدّث أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضي، قال: "كتب إلي أبو الشهم الحرمي أيام الشبيبة، في خلافة المعتمد، والزمان موآتٍ، والعيشُ رفيق، والأملُ قويٌ، وطائرُ السّعد مرنّق(٢)، وغديرُ الأنس مُغْدَودِق(٣): ما أحوجك أيها الفتى المقتبل، والصاحب المؤمّل إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروّة، إذا غبتَ خلفكَ، وإذا حضرتَ كنفك، وإن لقي صديقك استزاده لك من المودة. وإن لقي عدوك كفّ عنك غربَ العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحتَ. قال: فأجبته، هوّن عليك فليس هذا بأول متمنّى فائت، والسلام."(٤)

وينبغي للصاحب أن يكون محمود الأخلاق، مرضي الفعال، مؤثراً للخير وآمراً به، كارهاً للشر ناهياً عنه، فإن مودة الشر تكسب العداء، وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودة تجلب عداوة، وتورث مذمة وملامة، "فإخوان الشر كشجرة النار يحرق بعضها بعضا(٥)، و"إن إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال والأسماع، والأسماع بالأقوال: فإن رأوا خيراً ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شراً أو ظنوه أذاعوه ونشروه فإن أدمتَ مواصلتَهم فهو الداء المُعْضِل المخُوف على المقاتل، وإن استرحتَ إلى مُصارمَتهم، ادّعوا الخُبْرَة بك لطول العِشْرَة لكَ، فكان كذبُ حديثهم مُصَدَّقاً وباطلهم مُحقّقا." (٦)

وقال أفلاطون: "لا تستصحبوا الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم، وصحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتناً، وإذا مرت

---

(١) الصداقة والصديق، ص١٣٦.
(٢) رنق الطائر إذا خفق بجناحيه في الهواء وثبت فلم يطر، اللسان (رنق).
(٣) أغدودقت العين: غزُرت وعذُبت، وماء مُغدودق: غزير، اللسان (غدق).
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٠٤.
(٥) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص٧١.
(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الطيب حملت طيبا"[١]. لذا وجب على الصّديق أن "يجالس الكبراء، ويسائل العلماء ويخالل الحكماء، فإن مجالستهم غنيمة، وصحبتهم سليمة، ومؤاخاتهم كريمة."[٢]

فحسن الخلق يربأ بصاحبه أن يقترب من النموذج السابق للصاحب، ويدعوه إلى التزوّد من مكارم الأخلاق ومحاسنها، لينعم بصداقة حميمة ودائمة وخالصة من كلّ ما قد يشوبها، ويكدر صفوها. في ظل دين رادع لكليهما، وورع صحيح ينير قلبيهما، فيبصران بنور الله، يجتمعان عليه ويفترقان فيه، "فربما خلصت الصّداقة لأصحاب الدين والورع –على قلتهم– لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسهم لها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى[٣].

الديـــــن

ولا بد للأخلاق السالفة الذكر من أن تصدر عن دين صحيح، يأخذ بناصيتها نحو السداد، لتفوح منها رياح إيمانية، تعبق في جو الصّداقة، فتلطف الأجواء، وتهذب الأهواء، وتكون المعين العذب للأصدقاء، يستقون منها أمور حياتهم، وفلاح صحبتهم، وتسكن بها نفوسهم وتدوم مودتهم، وتركن إليه في تمثل جوانب الصّداقة الحقة وشروطها، قال بعض الرهبان لرجل: "إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سوراً من حديد فافعل، وانظر كلّ جليس وصاحب، لا تستفيد منه في دينك خيراً، فانبذ صحبته عنك."[٤]

فالدين يدعو إلى حسن الخلق، والتودد إلى الناس من حسن خلق المرء، وقد كانت الحكماء تقول: "إن ما يجب على المرء لأخيه مودته بقلبه. وكان يقال: أول المروءة طلاقة الوجه، والثانيةالتودد إلى الناس، والثالثة قضاء حوائج الناس"[٥]، وقد أكد الكتاب أهمية المودة بين المتصادقين، لما قد تحدثه من تثبيت للمحبة، واتفاق للقلوب، واغتفار للذنوب، وبذا يميل كلّ إلى صاحبه، رغبة في مؤاخاته، "فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة، وأمد لأسباب المصافاة، إذ ليس كلّ مطلوب إليه طالب، ولا كلّ مرغوب إليه راغب، ومن طلب مودة ممتنع عليه، ورغب إلى زاهد فيه، كان معنىً خائبا.[٦]

والدين يقف بصاحبه على الخيرات، ويدعوه إلى أداء الحقوق والواجبات، وتارك الدين عدو لنفسه، إذ قادها إلى ما فيه هلاكها، وسوء عاقبتها، فكيف ترجى منه مودة غيره، وهو

---

(١) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٤١١.
(٢) الأزدي ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت ٣٢١هـ)، المجتنى، ط٤، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٨٠م،ص٤٧.
(٣) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٣٣.
(٤) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص٥٨.
(٥) الوشاء، الموشى، ص٣٩.
(٦) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاجز عن تحققها في ذاته، ولذا وجب على الصّديق اصطفاء ذوي الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنهم أنس عند الوحشة، وزين عند العافية، وصاحب الدين ينهاه دينه عن الخداع والخيانة، ويأمره بالنصح والإخلاص، وإذا اصطحب الإخوان على الأمن والتقوى، فحينئذ يذهب الله بالخلف من بينهم، فتصفو النفوس، وتتفق القلوب على المحبة والمودة.

والصّديق الذي يحرص على ود صديقه يتحرى ما من شأنه أن يعزز هذا الود، ويزيد فيه، فيقدم على التماس ما يصفو به، فيبدأ صديقه بالسلام إذا لقيه، ويوسع له في مجلسه، ويدعوه بأحبّ أسمائه إليه[١] فإفشاء السلام من العوامل المؤلفة بين اثنين، وقد تستر التحية الحالة النفسية لصاحبها ومهما يكن من أمر، فإن المبادأة بالتحية عامل يؤلف بين الناس، وسبب للصفاء، والبدء بالتحية مبدأ إسلامي نص عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة[٢].

واحترام الواحد للآخر من الأمور التي تؤلف بين الأصدقاء، والاحترام هو اعتبار مكانة الآخر، وإضفاء القيمة عليه، بحيث يشعر أنه في مستوى جليسه ونديمه، فاختيار أحب الأسماء إليه يقرب قلبه، ويشعره بذلك الاحترام المتبادل، فيقبل عليك، ويستشعر التآلف بينكما.

وهذه خصال يصعب على منافق تتبعها، لما تنطوي عليه نفسه من شرور، وإخلاف واصطناع للمودة، ولذا قيل: لا تختر مصادقة منافق ما وجدت إلى مؤمن سبيلا[٣].

ويعد الدين أول مؤكدات الصّداقة وأبرزها، كما ورد في رسالة ابن عبيد الكاتب إلى ابن الجمل الكاتب، حيث قال بعد "بسم الله الرحمن الرحيم: "الصّداقة -أطال الله مدتك- التي قد وكّدها الله بالدين أولاً، ثم بالجوار ثانياً، ثم بالصناعة ثالثاً ... تتقاضاني لك حقوقاً، أنت عن التقصير فيها أغنى، وأنا بالإعفاء عنها أمّلى"[٤]

الصِـــــدْق والوفاء:

والصدق أصل في الصّداقة، وشرط من شروطها، ولا تتم الصّداقة إلا به، وقيل: "إنما سمي الصّديق صديقاً بصدقه لك، وسمي العدو عدواً لعدوه عليك لو ظفر بك."[٥] وهذا يؤكد أن لفظ الصّديق قد أخذ من الصدق، وهو خلاف الكذب، لذا وجب، ومن ناحية منطقية أن يكون لفظ الصّديق دالاً على مسماه.

---

(١) انظر التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٨٤. وابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٩. وقد تكرر هذا الكلام على لسان عمر بن الخطاب، يرويه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كنز العمال، رقم ٢٥٥٦٣.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: (وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها ...)، النساء، آية ٨٥. وقوله -صلى الله عليه وسلم- هل أدلكم على شيء، إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم. مسند أحمد، رقم ٩٧٠٧. ج٢، ص٤٤٢.

(٣) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص٦٩.

(٤) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٨٤.

(٥) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللصدق فضل على الصّداقة، فبه ينعم المتصادقون، ويعيشون حياة لا يكدر صفوها مكدّر، ولا يكون للوشاة فيه نصيب، وإن حاول أحد أن يَفُتّ في عَضُدها قوبل بالإنكار والإقصاء، قال محمد بن سليمان[١] لأبي السماك[٢]: "بلغني عنك شيء، قال: لا أباليه، قال: ولم؟! قال: لأنه إن كان حقاً غفرته، وإن كان باطلاً كذّبته".[٣] ويقرب من هذا القول ما ورد في رسالة غسان بن عبدالحميد المدني إلى جعفر بن سليمان الهاشمي، يعاتب فيها صديقا، حين قدم إليه واش، فصدّق مقولته، وكان الأجدر به ألا يقبل فيه مقولة قائل، للصداقة التي بينهما، وأساسها الصدق والثقة، فيقول: "وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي أحقّ منه بالتصديق في عَضيهته[٤] إياي، فإن الأخ المخبور أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور"[٥] ولا ريب أن "من أطاع التواني ضيّع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصّديق."[٦] فالصّديق يبادل صديقه صدق الحديث، ويبثه حبه ومودته، ويصاحب الأخيار الذين إن قالوا صدقوا، وإن فعلوا حققوا، وهذا دأب الأدباء من الدعوة إلى مصادقة الصادقين، وتجنب صداقة الكذابين ومصاحبتهم، "فالأخ الكريم الأخوة، الكامل المروءة هو الذي إن قلت صدّق قولك، وإن أصبت سدد صوابك"[٧] ، وإخوان الصدق زين في الرخاء، وعدّة عند البلاء[٨] ، وإنما كان التحذير من صداقة الكذابين والدعوة إلى اجتنابها ضرورة لا بد منها لسلامة هذه العلاقة الإنسانية والاجتماعية، فالصّديق الكذاب قادر على تغيير الأمور والحقائق، فهو"كالسراب يحسبه الظمآن ماء، يقرب البعيد، ويبعد القريب[٩] ، والكذاب لا يكون أخا صادقا؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه، وقد يُتهم صدق القلب، وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان.

وكان الرجل إذا صادق رجلاً آخر، أو صاحبه اشترط عليه الصدق، ودعاه إليه لما فيه من حسن العشرة، وطيب اللقاء، والاستعانة به على قضاء الحوائج، قال سليمان بن سعد: "لو صحبني رجل فقال: اشترط عليّ خصلة واحدة، لا تزيد عليها، لقلت: لا تكذبني. ويرى بعضهم أنه يمكن اصطحاب الكذاب على ألاّ يصدق فيما يقول، وألا يخبر عن كذبه، لما قد يحدثه

---

(١) محمد بن سليمان، من أمراء العباسيين ولد سنة ١٢٢هـ، ولي البصرة وعلت مكانته عند الرشيد فزوجه أخته "العباسة"، عرف بنبله وكرمه، مات متوليا بالبصر سنة ١٧٣هـ، تاريخ بغداد، ج٥، ص٢٩١-٢٩٢.

(٢) ابن السماك: محمد بن صبيح، أبو العباس مولى بني عجل، قاص كوفي زاهد، كان حسن الكلام صاحب مواعظ، اتصل بالرشيد، توفي سنة ١٨٣هـ. وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٠١-٣٠٢.

(٣) الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، (ت ٤٥٣هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، ٤م، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ج٢، ص٣١٩.

(٤)عضه الرجل عضّها وعضيها: كذب ونمّ وجاء بالإفك والبهتان، اللسان (عضه).

(٥) انظر الرسالة كاملة في التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص١٤٩- ١٥٠.

(٦) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص١٦٣.

(٧) الوشاء، الموشى، ص٢٩.

(٨) المصدر نفسه، ص٣٤.

(٩) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص١٠٩، وانظر التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخبار من الانتقال عن الود، ومن حدوث أي انتقال أو تغير في الطبع. [١] وهذا قول مردود؛ لأن الصحبة والصّداقة لا تكون بتحقق شرط دون آخر، وإنما بتحقق الشروط مجتمعة، لبدء صداقة مثالية يلذ بها المتصادقان، والصّديق لا يحتاج إلى مودة كاذب؛ لأن مودته التي يعتريها الزيف والخداع، قد تتبدد وتحول مع تقلب الأيام، وتغير المصالح، فهو قريب منك في مودته ما نفعته وحققت مصالحه، فإن انقطع خيرك عنه، انقطع عنك، وانتقل عن ودّه إياك إلى غيرك يلتمس عنده النفع. فلا حاجة للمرء إلى صداقة من كان هذا دأبه وطبعه.

ولا يمكن للصديقين الاستغناء عن الصدق في جميع أمورهما، فهما متصادقان ما دام الصدق سبيلهما، فإن دبّ الكذب بينهما دبّ النُّبوّ والاختلاف، ولذا لزم أن يكون الصّديق صادقاً فيما يبوح به إلى صديقه، ومن ذلك قول ابن عامر النّجدي: "والصّديق من صدّقك عن نفسه، لتكون على نور من أمرك، ويصدقك أيضاً عنك لتكون على مثله، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة، ولا ترحة، إلا وأنتما تحتاجان فيها إلى الصدق والانكماش، والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش."[٢]

وكما أن صدق اللسان يقوي عُرى الصّداقة فكذا صدق الصفاء، وكرم الوفاء، إذ لا بد للصديقين من التصافي وتبادل الصدق في المشاعر، حتى لا يكون حبهما متكلفاً، وإخاؤهما مزيفاً، فليس عن الصّديق المخلص، والأخ المشارك في الأحوال كلّها مذهب، ولا وراءه للواثق به مطلب، وكما قال أحمد بن سليمان بن وهب في بعض أصدقائه: "وأنت الأخ الأوثق، والولي المشفق، والصّديق الوصول، والمشارك في المكروه والمحبوب قد عرفني الله من صدق صفائك، وكرم وفائك على الأحوال المتصرفة، والأزمنة المتقلبة ما يستغرق الشكر، ويستعبد الحر ..."[٣] والصّديق الذي يحرص على دوام الصّداقة، وعدم الفت في عضدها يتجنب المراء لما قد يحدثه الأخير من احتمال وقوع الكذب بين الصّديقين، فيكون سبباً في حل الصّداقة وإفسادها، وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى: "لا أماري أخي فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه[٤]. وحين سئل أعرابي: "ما تقول في المراء؟ قال: وما عسى أن أقول في شيء يفسد الصّداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، أقل ما فيه أن يكون دُربة للمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة"[٥] .

---

(١) انظر التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٨٣. بتصرّف.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٦.
(٣) ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي، (ت ٦٢٦هـ)، إرشاد الأريب في معرفة الأديب أو (معجم الأدباء)، ط١، ٧م، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ج٣، ص٦٢.
(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢٦٧.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣١٣. صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو هذا الخلق جليا في القطعة الأدبيّة البديعة التي أنشأها ابن المقفع في وصف أحد إخوانه، وهو إذ ذاك لا يصف أخا بعينه، وإنما يصف المثل الأعلى للأخ الكامل، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل الذي كان أعظم الناس في عينه، "فهو لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا فهيما، وشهودا عدولا."[١]

ولا بد للصداقة من كرم الوفاء الذي يضمن سلامتها واستمرارها، فالصّديقان في خير ينعمان ما صح الوفاء بينهما، فإن تصادقا على غير ذلك، ونُقض عهد الوفاء بينهما دب الخلاف والهجر، وأقبلت بوادر الشر تلوح في أفق الصّداقة لقدوم مبشر الغدر والخيانة حالاً بينهما.

ولذا حذر الأدباء من صحبة من كان الغدر والمخاتلة طبعاً له، فهذا لا تصح معه صداقة، ولا ترعى به أخوة، ولا يحفظ له عهد، ومن كان هذا دأبه فلا حياء له ولا وفاء، ولا إخاء لمن لا وفاء له، قال الثعالبي: "لا تصح الصّداقة إلا بالوفاء، كالقول لا يصح إلا بالعمل[٢] . ودعوا إلى أن "يصحب المرء نظراءه، ومن يُؤمن غدره وغِبّ أمره، وبوائق شره"[٣] . ويسأل التوحيدي مسكويه عن سبب "اجتماع الناس على استشناع الغدر واستحسان الوفاء مع غلبة الغدر، وقلة الوفاء"[٤] فيجيب بأن الوفاء قيمة خير، وأن العقل الذي هو خير يستحسنها في حين أنه يقبح الغدر. وقال أردشير بن بابك: "يغتفر للأخ عظيم الجرم ما سلم من المواربة، حتى إذا كان كاشراً للغدر؛ فالبس له ثوب الهجر"[٥] .

وفي رسالة كتبها عمارة بن حمزة[٦] إلى محمد بن زياد الحارثي يطلب إخاءه، ويبين له فضل الوفاء في الود، والكرم في الحق، فأهل الفضل "لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يُشيد بفضلهم، ويخبر عن صحة وُدّهم، وثقة مُؤاخاتهم، فتجوز لهم بذلك رعيّة الإخوان، وتُصطفى لهم سلامة الصدور، وتُجتنى لهم ثُمرة القلوب[٧]." ثم يأخذ الكاتب بعرض مآثر من يطلب مؤاخاته، مؤكداً أن ما وصل إليه صاحبه من فضل، وذكر حسن بين الناس، إنما هو من فضل لزوم الوفاء والكرم يقول: "ولقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودةً نُسبت إليّ مرتبها في الفضل، وجَمُل بها ثناؤك في الذكر، وشهدَ لك بها لسان الصدق،

---

(١) الوشاء، الموشى، ص٢٥.
(٢) الثعالبي، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، ص٧١.
(٣) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٣٩.
(٤) التوحيدي، الهوامل، س/٤٣، ص١٢٠، ١٢١.
(٥) الوشاء، الفضل في صفة المرء الكامل، ج٣، ص٣٣٤.
(٦) عمارة بن حمزة من مبعوثي من وفد عكرمة مولى بن عباس، كتب من ولاة الأجواد والشعراء الصدور، كان المنصور والمهدي يرفعان قدره، وكان من نظراء، وجمع له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين، وفيه تيهٌ شديد يضرب به المثل: "أتيه من عمارة"، توفي عام ١٩٩هـ، الفهرست، ص١٣١.
(٧) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٣١- ٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعُرفتَ بمناقبها، وَوُسِمْتَ بمحاسنها، وأسرع إليك الإخوان بمحبتهم مُستَبقين، وبرغبتهم فيك متقاطرين، يَبْتَدِرونَ ودّك، ويَصِلون حَبْلك."[١]

وحق لمن فقد أخا وفيا أن يحزن على فقده، ويشتاق إليه اشتياقاً يكاد يعجز عن وصفه الخطيب المصقع، وفي مثل ذلك يقول أحد الكتاب: "وَحُقَّ لمن فقدك ألا يَقنع بغيرك، ولا يسكن قلبه دونك، لأن الله جعلك صفوا لا كَدَرَ فيه، ووفاء لا غَدْر معه."[٢]

والوفاء التزام ذاتي بالمودة نحو الآخرين، وهناك من يرى "أن من وفى لمن يُرجى، كان لمن لا يرجى أوفى"[٣]

الصبـــــر

والوفاء مرتبط بالصبر، والصبر عماد الصّداقة، وأساس العلاقة في مطلق الظروف التي يبتلى بها المرء، "وهو قيمة خلقية لها اتصال وثيق بالممارسة اليومية[٤] ، وأصعب ما يكون في الصّداقة الصبر على الجفاء، فإذا أخذ المرء بمبدأ المعاملة بالمثل، ولم يصبر على أخطاء الإخوان، فانهيار الصّداقة نتيجة متوقعة عند ذلك. "حكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: تناسَ مساوئ الإخوان يدم لك ودهم."[٥] فبالصبر يقاوم المكروه، وتستدفع البلية، وبه يؤدى شكر النعمة، وبه يحتمل العدو الذي يحسبه المرء صديقا، وبه يصبر الصّديق على هجر صديقه حتى يتبين الحقيقة، وإذا كان المرء يصبر على مداجاة العدو حين يظهر الود لغاية في نفسه، فأولى به أن يتحمل الأذى العارض من صديقه، وإذا كان بعض الناس يَعُدّ الصّديق بعضاً من صديقه، فلا عجب إذا ما صبر "عن بعض نفسه الإنسان، كما قال الشاعر:

كيف صبري على بعض نفســـي وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان[٦]

فالصابر على الصّديق كالصابر على نفسه، ولذا وجب على الصّديق أن يغفر زلات صديقه، ويعفو عنه، قيل لبعضهم: "أي إخوانك أوجب عليك حقا؟ قال: الذي يسدّ خللي، ويغفر زللي، ويقبل عللي." [٧]

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٧.
(٣) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج١، ص٣٢، ٣٣.
(٤) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٣٠.
(٥) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٦٤.
(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٧٤.
(٧) ابن دريد، المجتنى، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالإغضاء عن هفوات الصّديق من كرم الوفاء، وحسن العشرة بين المتصادقين، ولا ينبغي للصديق أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه، إذا رضي سائر أخلاقه، وحمد أكثر شيمه، لأن اليسير مغفور، والكمال معوز، وقد قال الكندي: "كيف تريد من صديقك خلقا واحداً، وهو ذو طبائع أربع؟ مع أن نفس الإنسان التي هي أخص النفوس به، ومدبرة باختياره وإرادته، لا تعطيه قيادها في كلّ ما يريد، ولا تجيبه إلى طاعته في كلّ ما يحب، فكيف بنفس غيره، وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره." (١)

ولا بد في هذه الأمور من التغافل الحادث عن الفطنة، والتآلف الصادر عن الوفاء، وقال بعض الحكماء: "وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل". فإذا ما التمس الصّديق لصديقه العُذر دام الود بينهما، وتحقق الوصل، وأدبر الهجر، وعلى المرء أن يحرص على دوام صداقة من ارتضاه لنفسه، ووثق به وذلك خير من أن يستأنف مودة وصداقة جديدة، وقيل: "الصبر على أخ تعتب عليه خير من أخر تستأنف مودته." (٢)

فالصّداقة القديمة محمودة ومنشودة، ولا ينبغي التفريط بها أيا ما تكن أسباب هذا التفريط، فصبر المرء على صديق يعرفه حق المعرفة، واتصلت به أسس الود والتفاهم من قبل أفضل من البحث عن صديق جديد، فالمنكر للصداقة القديمة، لا خير فيه لصداقة جديدة.

والصبر يدفع الصّديق إلى استصغار عظيم الذنب، فلا يقف عند ذنب صديقه وجرمه مهما تبلغ عظمته، إنما يصفح عنه ويتجاوز عن عثراته، وما هذا إلا من فضل حلمه، وكرم عفوه، ولأحد الكتاب: "وجدت استصغارك لعظيم ذنبي، أعظم لقدر تجاوزك عني، ولعمري ما جلّ ذنب يقاس إلى فضلك، ولا عَظُمَ جُرم يضاف إلى صفحك، ويُعوّل فيه على كرم عفوك، وإن كان قد وسعه حِلمك، فأصبح جليله عندك محتقراً، وعظيمه لديك مستصغراً، إنه عندي لفي أقبح صور الذنوب، وأعلى رتب العيوب، غير أنه لولا بوادر السفهاء، لم تعرف فضائل الحلماء، ولولا ظهور نقص بعض الاتباع لم يبن جمال الرؤساء، ولولا إلمام الملمين بالذنب لبطل تطول المتطولين بالصفح." (٣)

والصّديق لا يختار صديقه إلا بعد أن يحمد سيرته، ويرتضي وتيرته، ويعرف فضله، ويبطن عقله، فلا ينبغي أن يزهد فيه لعيب خفي، أو ذنب صغير بدر منه، فيكون هذا الذنب حاجبا يستر كرم فضله، وحسن مأثره، والمرء لن يجد ما لقي مهذبا لا يكون فيه عيب، ولا بقي

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٨.
(٢) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه ذنب، ألا ترى النابغة يقول: أي الرجال المهذب؟ والآخر يقول: مخافة أن أعيش بلا صديق[١] . "هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة الإخاء، وإنما وقفوا بالصفح والعفو على ما لا يخلو الإنسان يأنس به من مثله، نقول كما قالوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يسلم لنا جملة إخائه،" [٢] ومن عاشر الناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم."[٣]

ويرى الماوردي أن من حق الصّديق على صديقه أن يلتمس له الأعذار، ويعفو عن سقطاته وكبواته، "فلا ينبغي أن توحشك فترة تجدها فيه، ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه، ما لم تتحقق تغيره، وتتيقن تنكره"[٤] . والنفس الإنسانية قابلة للتغير والتبدل، "والإنسان قد يتغير عن مراعاة نفسه، التي هي أخص النفوس به، ولا يكون ذلك من عداوة لها، ولا ملل منها." [٥] فلا ينبغي أن يكون الظن مفسدا للصداقة إن صلح اليقين، قال جعفر بن محمد لابنه: "يا بني من غضب من إخوانك ثلاث مرات، فلم يقل فيك سوءا؛ فاتخذه لنفسك خِلاً. [٦] فالثقة في المحبة والعلم بالمودة يفترضان التسامح مع الصّديق، وبالتالي غفران زلته.

وتتلخص الأفكار التي عرضها الأدباء والكتاب بخصوص التسامح والصبر على الصّديق بأن المرء ليس عاريا من النقصان، وهذه صفة لازمة للمخلوق، وواجب الصّديق أن يأخذ هذه الحقيقة على محمل الجد، فيعذر صديقه، ويتغاضى عن عيوبه، فالصفح من السجايا الخلقية التي تديم المودة بين الصّديقين، وتزيل أثر الزلات الماضية، أما إحياؤها بالتذكير فينفي الصفاء الذي هو مرتع الصّداقة، ومع صفاء الودّ يكون التسامح والمسامحة، والعفو يقوم مقام العتق، فالصفح عن الرفيق أشبه ما يكون بتحليله من زلته؛ لذلك يرى بعض الناس أنه لا قيمة للصفح إذا أعقبه منّ، بل إن الموبخ بعد العفو أولى بالتوبيخ على فعلته خاصّة أن للصديق حقا على صديقه في المودة، أقلها غفران ذنبه. كما قال جعفر بن يحيى: "عندنا الاغتفار لما اقترفت، وتصديق كلّ ما قلت واحتججت بذكره، واعتذرت بوصفه، والإسقاط لما جحدته، والإكذاب للجور الذي اقترفته، والرجوع عما أنكرته، والزيادة فيما اخترته استدعاء لك وإن انصرفت، وحياطة لما قدمت وإن ذممت، وإيثارا للإغضاء والاحتمال فإنها أبلغ في الإصلاح، وأنجع في الاستنجاح، وأبلغ في التعليم، وأكبر في التقويم." [٧]

---

(١) إشارة إلى قول المبرد: وكنت إذا الصّديق نبا بأمري وأشرقني على حنق بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق
انظر الأبيات في: القالي، الأمالي ، ج٣، ص١١١، وبهجة المجالس ، ج٢، ص٦٦٩.
(٢) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٣١١.
(٣) المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص١٥٨، ١٥٩.
(٥) المصدر نفسه، ص١٥٨، ١٥٩.
(٦) المصدر انفسه، ص١٥٨، ١٥٩.
(٧) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٣٢٨، ٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يردّ "ابن ثوابة" كاتب المأمون على كتاب قد وصله من أخ له، على ما وقع بينهما من ظلم وعتاب ووحشة، وهو مع ما حمل الكتاب من قسوة وتجريح يبحث لصديقه عن مبررات لهذه القسوة، التي لم يعهدها فيه، وهو من أهل الصفح والعفو: "وصل إليّ كتابٌ مُخالف لما كنتُ أعرفك به من الصّفح والفضل، والأخذِ بمحاسن الأمور، فإن كنتَ شَفيتَ به غيظاً، وبرّدتَ به غَليلاً فما أسهَلهُ، وإن كنت لم تندم عليه ندم المتنزّه عن سوء المجازاة، ولم تراجع الجميل بعده فما أشدّه، وأيّ ذنب كان فأرجو أن لا يجتمع على عبدك الخطأ، والإصرار على الذنب، ولا أفارق استصلاح رأيك، وارتجاع ودّك ما حييت."[١]

والصبر على الصّديق يقتضي ألا يعامله بالمثل، فيقابل إساءته بإساءة مثلها، وتتحول العلاقة إلى مبدأ العين بالعين والسن بالسن. وهذا مناخ لا يتواءم والصّداقة، إذ الأجدر بالصّديق أن يصفح ويتغاضى، وينزع مبدأ المكافأة إنْ حَرِصَ على تجدد المودة وتوثيق الرابطة، فإن قطع أحدهم وصل الآخر، وإن أساء أحسن، وإن بعد قرب، وإن شدّ أرخى، فالصبر لا يتمثل في تحمل هجر الصّديق فحسب، وإنما يشمل أيضاً معاني الإيثار، إذ ليس التعادل في التعامل من مقومات الصّداقة، وإنما لا بد من الإيثار والتضحية، فالصّديق الحق هو الذي لا يقتصر من المكافأة على السواء دون أن يتجاوزه إلى الإفضال. ومن ابتغى غير ذلك فحاله أشبه ما تكون بحال ذلك الصديق الذي يعامل أصدقاءه بالمثل، ولا يأخذ بمبدأ الإحسان والتفضل والإغضاء، فيقول:

إذا المرءُ لم يُحببك إلا تكرُّها ... عِرَاض العَلوق لم يكنْ ذاك باقيا[٢]

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَـــه ... ونَحــنُ إذا مِتنــا أشدُّ تَغَــانِيــا

ولستُ بهيّاب لمن لا يَهابنـــي ... ولستُ أرى للمرء ما لا يَرى لِيَا[٣]

يقول التوحيدي: إن ابن كعب كان حين يسمع هذه الأبيات يقول: "أنا أستجفي هذا القائل، ولم لا أرى لصديقي فوق ما يرى لي؟ ولم لا اعتبده بالإغضاء، والإحسان والتفضل، والصبر؟ ولم لا أقارضه وأقايضه؟ ولم أرى أني مغبون إذا كان الربح له، ولم لا أظلم نفسي في مرضاته، وإن وجب أن نتساوى أبداً في الفعل والقول، ونتكايس[٤] في الانقباض والانبساط، ونتحافظ على

(١) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٣٢٩.
(٢) العلوق: المعارض من الأبل، التي ترأم بأنفها، وتمنع درّها. اللسان (علق).
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٣١.
(٤) كاس يكيس كياسة: ظرف وفطن وسكن ضد حمق، وكايسه مكايسة: غالبه في الكيس. اللسان (كيس)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اختلاس الحظ والنصيب، فهل تركنا لأصحاب المذاب[١] والتطفيف شيئاً من الدناءة إلا وأخذنا به، ورأيناه مرغوبا فيه، تالله! ما هذا من الصّداقة في شيء، وإنه إلى الخساسة والنذالة أقرب."[٢]

إذن فمبدأ المكافأة مرفوض في الصّداقة، وهو أقرب إلى الخساسة والدناءة من أي شيء آخر، ولذا كان الصّديق يأخذ على صديقه إن قابله بالمثل، مذكراً إياه بضرورة الصفح والعفو، وأن المكافئ شريك في الذنب، يقول أحد الكتاب: "إنّا -حفظك الله- لو كنا قطعناك، ثم كافأتنا بقطيعتك إيانا ما كان لك أن تفردنا بالذنب دون نفسك إذ صرت فيه نظيراً، لأنك أنكرت علينا ما ركبته، وطلبت منا ما تركته، وقد علمت أن المكافئ لم يدع وراء ما فعل، ولا يستوجب تقاصي ما جهل، فاحكم لنا عليك بمثل ما تحكم به علينا لك."[٣]

والصّديق يحرص الحرص كله على مواصلة صديقه، والتماس الأعذار له، فلا يفكر في هجر وقطع إلا بعد أن يستوثق من كلّ موجبات هذا الهجر، فإن تحقق منها مضى في هجره، وتحرر من عهده، وبما أن الأمر ليس بالهين فقد شدّد عليه الكتاب، ودعوا إلى المراجعة تلو المراجعة، والتحقق تلو التحقق، حتى لا يقدم الصّديق على اتخاذ خطوة قد يندم عليها حياته، يقول محمد بن مكرم[٤] في رسالة كتب بها إلى أحد أصدقائه: "وخاتمة الأعذار بيني وبينك صدقي إياك عما عندي أنك لا تُحْدِثُ نَبْوة، إلا أحدثتَ لي عنك سَلْوة، ولا يزداد أملي في إثابتك ضعفاً، إلا ازدادت مُنَّتي في قطيعتك قوة، حتى لا أقبل العُتبى، ولا أختار المراجعة، وحتى يُسلمني لليأس منك إلى العزاء عنك، فإنْ تَرْعَ فصفحٌ لا تثريبَ فيه، وإن تماديت فهجر لا وصل بعده."[٥]

ولا يدري المرء ما قد تحدثه الأيام من تقلبات، فقد تنحلّ عقدة الصّداقة بين صديقين، ثم يمضي كلّ في طريقه، وإذ بحادث يعيد روابط الألفة والمودة، والأخوة بينهما؛ فيتحول الهجر الذي هو كائن بينهما إلى وصل، ولذا فلتحرص أيها الصّديق ألا تقطع صديقك "إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة فينسدّ طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب تردّه إليك، وتصلحه لك." [٦]

والصبر يلزم الصّديق أن يحفظ ظهر غيب أخيه، فلا يهتك سرّه، والصّداقة الحقيقيّة تتجلى في حفاظ الأخ على أخيه حين يكون غائبا، وبذا لا بدّ من الوفاء الذي يضمن للصديق هذا

---

(١) ذب فلان: اختلف فلم يستقم في مكان، وأهل المذاب يروجون ويجيئون في السوق. اللسان (ذبب).
(٢) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص١٣٢.
(٣) المصدر السابق، ص٣٣٣.
(٤) كاتب بليغ مترسل، وله كتاب رسائل، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص١٣٨.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٣٠.
(٦) المصدر نفسه، ص١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلق، وما أقبح الصّديق حين يخون سرّ صديقه إذ يفشيه، قال بعض السلف: "توقّ من الرّجال من إن أنعمتَ عليه كَفَرَكَ، وإن ائتمنته خانكَ، وإن ائتمنك اتّهمكَ." (١)

ولا بد للصديق الذي يحرص على صديقه أن يتحلى بهذا الخلق، فيكتم سرّه ولا يطلع عليه أحد دونه، ولذا اهتم الكتاب بهذه القضيّة، وعدّت أساساً يركن إليه في توثيق هذه الرابطة بين الأصدقاء، يقول المهلبي في رسالة بعث بها إلى العباس بن الحسين: "إني حفظك الله -وحفظني لك- وأمتعك بي، وأمتعني بك، قد بلوتك طول أيام أبي جعفر -قدس الله روحه- فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك، وحسن الكفاية فيما يوكلّ إليك، كتوماً للشرّ إذا استحفظته" (٢)

فكتم السرّ مجلبة للخير، يقرب بين الصّديقين، ويوقع المودة بينهما، كما يعمل على زيادتها ونمائها، يقول العوامي لعليّ بن عيسى الوزير: إن الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة، فما الذي قرّبه منك، ونققه عليك، وأولعك به، قال: وجدته متواضعا ... كتوماً لسرّه." (٣)

وكان الرجل يحرص على مصادقة من كان للسر كتوما، ويشقي نفسه في البحث عنه، فإذا عثر عليه لزمه، وعضّ عليه بالنواجذ، وصف رجل رجلاً فقال له: "ما زلت أعلم أنك للسر ملء الصدر، وأنك في المساعدة أذكى من الجمر" (٤)

وآخر يقول: "استعنته على دهري فجمع لي لطف المكيدة، وبسالة النجدة، واستودعته سرّى فوليه بالحفاظ والأمانة." (٥) وحين سأل التوحيدي ابن برد الأبهري -وكان من غلمان ابن طاهر: من الصّديق؟! قال: من سلّم سرّه لك." (٦) ولذا وجب على الصّديق أن يبوح لصديقه بسرّه، وأن يطلعه عليه إذ ليس من الأخوة أن يسرّ الرجل عن أخيه الحديث.

إن المباثة أنس ولذة للصديقين، لكن ينبغي ألا يصل هذا البوح إلى حدّ الإسراف، فيقدم الصّديق على مباثة صديقه بكلّ ما في جعبته من أسرار، فمن يدري ما تحدثه الأيام، وما قد يعتري الصّديقين من ملال أو كلال أو هجر، فيغدو مَنْ تَوصّل بصداقته إذا قرُب إلى معرفة الأسرار، وعلم الأخبار، يغدو صديقاً ضاراً غير نافع حفظ الزلل، "والتقط الخلل، وأحصى الفلتات، وعدّ الهفوات، وراعى عثرات الألسن، وبوادر القول والعمل، عند الغضب والرضا، وفي أوقات الاسترسال التي لا يخلو الإنسان فيها من إغفال، ثم جعل ذلك سلاحاً معدّاً يحمله على صديقه وقت العداوة"(٧).

---

(١) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨١.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٤٥.
(٧) المصدر نفسه، ص٣١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا هو القرب الضّار بالصّداقة، فالثقة المتبادلة بين الطرفين تدفع أحدهما أو كلّيهما إلى التصرف بتلقائية تسقط كثيراً من الأقنعة الاجتماعية والنفسية، يكون الصّديق على سجيته حين يلقى صديقه، فلا يتحفظ، ولا يتورع، فإذا فترت هذه العلاقة، وتحولت إلى عداء طارئ، هتك أحدهما ستر صاحبه وفضحه، وهذا أخطر ما يكون في الصّداقة.

****

والحديث عن حفظ السرّ المستودع بين الأصدقاء يستدعي الحديث عن حفظ الصّديق في ظهر الغيب، وهذه السجية لا تكون إلا من صديق وفيّ، تحلى بالصبر، فالوفاء والصبر يدفعان الصّديق إلى بذل نفسه في سبيل صديقه، فيحفظه سرّاً وعلانية، ولا فرق عنده بين المشهد والمغيب.

ولذا فمن حق الصّديق على صديقه أن يحفظ غيبة أخيه، ويراعي ذممه فلا يترك للآخرين فرصة للنيل منه، والمساس به، وليكن من دأبه "حسن الذب والمدافعة عنه في غيبته"[١] ، ويروي الأصمعي أن أعرابيا وقف على قوم يعيبون رجلاً من إخوانه فقال: "أبطئوا عن عيب من لو كان حاضراً لسارعتم إلى مدحه."[٢] فهؤلاء ممن لا يؤمن جانبهم، ولا يركن إليهم في ملمّ، وهم ممن قال فيهم سفيان بن عيينة[٣]: "صحبت الناس خمسين سنة، ما ستر لي أحد عورة، ولا ردّ عني عيبة."[٤] فالصّديق الحقيقي من لا يتغير لك في غيبه، وكيف يتغير وهو مرآة أخيه، يحزن لحزنه، ويفرح لفرحه، إن رأى منه ما لا يعجبه قوّمه وسدّده ووجهه وحاطه في السرّ والعلانية.

---

(١) الوشاء، الموشى، ص٣٦.
(٢) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٧١.
(٣) سفيان بن عُيينة بن ميمون الهلالي الكوفي: محدّث الحرم المكي، ولد بالكوفة وسكن مكة، كان حافظا ثقة واسع العلم، كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له من التصانيف: الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير، توفي بمكة سنة ١٩٨هـ. تذكرة الحفاظ، ج١، ص٢٤٢، وفيات الأعيان، ج١، ص٢١٠، تاريخ بغداد، ج٩، ص١٤٧.
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

حقوق الصداقة والصديق وواجباتها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المـــــودّة

حين يختار الصديق صديقه، وفقاً للشروط السالفة الذكر يلزمه أن يقوم بما عليه من حقوق وواجبات تجاه هذا الصديق ولذا لزم في هذا الفصل دراسة ما يتوجب على الأصدقاء القيام به من صدق المودة، والتزاور لما يحدثه الأخير من توثيق لعرى المودّ و تقوية لرابطة الصداقة بين الأصدقاء.

وحرصاً من الصديق على مواصلة صديقه، ومشاركته أفراحه وأحزانه فإنه يقوم بتقديم التهاني والمباركة له إشعاراً لصديقه بأنه يهتم لأمره، ويراعي حقوقه وواجباته ، فيقدم له واجب التهنئة في شتى المناسبات التي يعيشها الصديق، كأن ينهاه بسلامته، وشفائه من مرضه، أو يبارك له مولوداً جديداً أو يهناه بحجه وغير ذلك مما يلزم التهنئة والتبريك، ولا ينسى الصديق تقديم واجب العزاء، ومشاركة صديقه أحزانه كما كان قد شاركه فرحته وبهجته.

والصديق حين يمرّ بضائقة لا يجد أفضل من صديق حميم يكون له خير معين على نوائب الدهر ومصائبه، ولذا لزم الصديق أن يتفقد أحوال صديقه، ويديم السؤال عنه، ويقضي حاجاته، إيماناً منه بضرورة القيام بحقوق الصديق وواجباته.

ومن حق الصّديق على الصّديق إذا صفت له أخلاقه، وأقدم على اصطفائه، ومؤاخاته، اعتقاد مودته، وقد طرح الحديث عن المودة سابقاً، حين تناول الباحث شروط الصّداقة والصّديق، ويأتي ذكرها هنا حقاً من حقوق الصّداقة، وتكون المودة بين الأصدقاء على أشكال وضروب، "فالمودة تعاطف القلوب، وائتلاف الأرواح، وحنين النُّفوس إلى مُبَائَة السرائر، والاسترواح بالمستكنات في الغرائز، ووحشة الأشخاص عند تباين اللقاء، وظاهر السرور بكثرة التزاور"[1]

فالمودة تقتضي أن يتبادل الصّديقان مباثة الأسرار، ولا تكون هنا إلا بعد أن تتعاطف قلوبهما، وتقبل المحبة بينهما، وتتحقق كذلك الثقة، ويركن الصّديق إلى صديقه، فيبثه أسراره ومكنونات نفسه، ولا حاجة للمرء أن يطلب مودة صديقه، فهي مكتسبة ومتحققه ما تشاكلّ الصّديقان، واتفقا في أمور كثيرة.

---

(١) الحصري، زهر الآداب وثمار الألباب، ج٢، ص١٦٠. وانظر في مثل ذلك البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٤١١. وابن دريد، المجتنى، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالمودة ينعم الإخوان، وتكون القلوب مغمورة بهذا الحب[١]، وكذا حال الثعالبي يبادل صديقه حبه ومشاعره، فيخبره بأن ودّه قد غمر أجزاء قلبه، فغدا يأنس به، ويكحل عينيه بقربه، ولا يتخيل الحياة دونه، "أنا أودّك بأجزاء قلبي، وأحبك من سواء نفسي، لا مرحباً بعيش أنفرد به عنك، ويوم لا اكتحل فيه بك، ولا أزال يا سيدي أحنّ إليك، وأحنو عليك، يا ليت قلبي يتراءى لك فتقرأ فيه سطور ودّي لك، وتقف منها على افتراجي بك، يعزّ عليّ أن ينوب في خدمتك قلمي دون قدمي، وخطّي دون خطوي، ويسعد برؤيتك رسولي قبل وصولي، ويَرد مشرع الأنس بكتابي قبل ركابي، قد مِلْتُ إليك فما أعتدلُ، ونزلت عليك فما أرتحل، ووقفت عليك فما انتقل، أنسى الأيام وأذكرك، وأطوي العالم وأنشُرك، مَسكنك الشَّغاف وحبّة القلب، وخِلْب الكبد، وسواد العين، أنا أعدّ نفسي بعض إخوانك في العدد وأفوقهم في التودد، أنا والله أجتني قربك، وأحتوي بعدك، والله ما تُظلّ الخضراء، ولا تُقِلّ الغبراء عبداً هو أشد مني لك محالفة، وأقل مخالفة، عهدي لك من أكرم العهود، ووفائي لك وفاء العِرق للعود." [٢]

فالصّديق يشعر بالوحشة عند فراق صديقه، أو عند غيابه عنه، فيغدو يتشوق إلى أيامه السعيدة التي قضاها بجانب صاحبه، ويقارن بين ماضيه وحاضره ومستقبله، فيجد لذة العيش في التماس قرب الصّديق، والتنعم بمرافقته.

والصّديق إن نأى بعيداً بمسكنه عن صديقه، فلا بد من تقارب الأرواح وامتزاجها، وكما قال رجل لابن المقفع: "الأخ نسيب الجسم، والصّديق نسيب الروح." [٣]

ومن علامات المودة بين الأصدقاء الابتهاج والبشاشة برؤية الصّديق، وهي سجية تُقرّب النفوس، وتُثلج الصّدور، وتُوقع المحبة بين المتصادقين، "واعلم أن أحسن ما تألف به الناسُ قلوبَ أخلائهم، ونفوا به الضِّغْن عن قلوب أعدائهم، البِشْرُ بهم عند حُضورهم، والتفقّد لأمورهم، وحسنُ البَشَاشَة، فذلك يُثبت المحبة والإخاء." [٤]

إن علامات الوجه لها الأثر الكبير في توثيق المودة والمحبة بين المتصادقين، وهي تدل على الحالة الشعورية تجاه فرد ما، تجاه الصّديق نحو صديقه، كيف يشعر إن حضر؟! وكيف يبدو إن غاب عنه؟! فلقاء الأصدقاء شفاء الصدور، وبراء العليل، وفرَج المكروب، يغذي كلّ

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص١٠.
(٢) الثعالبي، أبو منصور،عبدالملك بن محمد، (ت ٤٢٩هـ)، لباب الآداب، تحقيق أحمد حسن ليح، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٢.
(٣) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص١٩٥.
(٤) الوشاء، الموشى، ص٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا ما تظهر من علامات البشر والابتهاج على وجه الصّديق،" فأوّل المروءة طلاقة الوجه، والثانية التودد إلى الناس." (١)

ولا ينبغي أن تكون هذه المودة عابرة، تنقضي بتغير صُروف الدهر، "فشرّ الإخوان من كانت مودته مع الزمان إذا أقبل، فإذا أدبر الزمان؛ أدبر عنك، أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

شــرُّ الأخلاء من كانت مودّته مع الزمان إذا ما خَاف أو رَغِبَــــا

إذا وترتَ امْرَأ فاحذرْ عداوته مَنْ يزرع الشّوك لا يَحْصد به عِنبــا

إن العدوّ وإن أبدى مُسالمــة إذا رَأى منك يوما فُرصة وَثَبــــا(٢)

فشر الإخوان من لا يَصُون وُدّه، وخيرهم من أدام الود، وحافظ عليه وأخلص فيه صادقاً، يجمع بين صدق المودة والرأي الحزم، وبذا فهو يستحق مع المحبة الخالصة الطاعة اللازمة.

فإذا أخلص الصّديق في محبته صديقه، وصدق في مودته، لم تكن هذه المودة لتتغير وتحول بفعل أيِّ طارئ، ولم تكن ليعتريها النقص أو الزيادة إذا ما استعان الصّديق بصديقه، قال الأحنف بن قيس: "خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها." (٣)

الزيارة:

وإذا أراد الصّديق أن يديم المودة، ويجدد العهد، فعليه بالزيارة والصلة، وأن لا ينشغل عنه، فيقع الهجر والقطيعة بينهما، كما حدث بين محمد بن السماك وبين صديق له، كان بينهما مؤاخاة فانقطع عنه، فكتب إليه ابن السّمّاك يقول: "أما بعد، فإن لكلّ شيء ثمرة، وثمرة المودة الزيارة، والسلام، وكتب إليه في آخره:

لقد ثبتتْ في القلب منك مَودّة كَما ثبتت في الرَّاحتين الأصابعُ

فأجابه الرجل: "أما بعد يا أخي؛ فقد زرعت في قلوبنا مودتك، فتعهد زَرْعك بسَقْي الماء، وإلا فلا تَأمن، والسلام." (٤)

والتزاور فيه إشباع للحاجات النفسية عند الصّديقين؛ فعند اللقاء يتحقق الأنس والراحة والطمأنينة، وودّ بلا زيارة كزرع يترك من غير ريّ، واتصال الصّديقين عبر تزاورهما يحقق

---

(١) الوشاء، الموشى، ص٣٩.
(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٤.
(٤) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جوانب تربوية فضلاً عن إشباع النّزوع النفسي لدى الصّديق، فالصّديق أسوة يقتدى بها، والزيارة تحقق هذا الاقتداء حيث مثول الصّديق أمام صديقه، فيرقب حركاته ولفتاته وأقواله وأفعاله، وهذه جميعها أبلغ في النفس من الكلام المقروء أو المسموع، لأن في المشاهدة فرصاً مواتية للتأثير، إذ يتشرب الصّديق شيئاً من خلق صديقه، خاصّة إن كان لديه الرغبة في تحقيق التماثل معه، ولذا قيل: "خير إخوانك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه."[١] فسّر بُرهان الصوفي هذا الكلام مؤكداً سلامته، معتبراً أن الصّديق إذا رأى صديقه، فإنه يكون بذاك قد رأى "هيأته، وشارته، وحركته، ونظرته، وقومته، وقعدته، وهذه كلّها نواطق ولكن بلا حروف، وشواهد ولكن بلا لفظ، وإشارات ولكن بلا أدوات، وأما إذا جاء الكلام فقد استوعب أقصى البيان، وأتى على آخر الإرادة، فأراد هذا القائل أنه إذا أراك نفسه، فقد حَضّك على اتباع أمره، ودعاك إلى الاقتداء به."[٢]

وإذا كان الاقتصاد والاعتدال شرطاً من شروط المودة والحب للصديق كما تقدّم، فكذا الأمر في التزاور، ولذا حرص الكتاب على وعظ الناس وإرشادهم إلى تجنب إدمان الزيارة في كلّ يوم وساعة لموضع الملل والسلوان الذي هو طبع الإنسان، ويجب على أهل الصّداقة ترك المداومة على الزيارة، وكثرة الجنوح إليها، "فإن ذلك يُخلّق الحبّ، ويُذهل الصَّبّ، ويضجر المزور، ويُعدم السرور، ويُوقع البَدل، ويُبدي الملل."[٣] وقال أبو هريرة: لقد دارت كلمة العرب: زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً إلى أنْ سمعتُ من الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه، ولقد قالها لي."[٤] فإغباب الزيارة أمر مطلوب، لأن من كثرت زيارته قلّت بشاشته، "ومن أدمن زيارة الأصدقاء عدم الاحتشاد [٥] عند اللقاء، وفي ذلك يقول الشاعر:

"أقلل زيارتك الصديـــ ق تَكُنْ كثوبٍ تستجِدُّه

إنّ الصّديق يغمّـــــه أن لا يزال يراك عنده"[٦]

وروي أن العتابي دخل على يحيى بن خالد البرمكي، وكانت له جارية يقال لها خَلوب، تجالس الأدباء، وتناقض الشعراء، فقال لها: "سليه لإبطائه عنا جائزة، فقالت له: قُلْ على هذه القافية؛

إذا شئت أن تُقلى، فزُرْ مُتَواترا وإن شئت أن تزداد حُبّاً، فزُر غِبّا[٧]

---

(١)التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص٢٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٦.
(٣) الوشاء، الموشّى، ص٤٦.
(٤) التوحيدي، الصّداقة والصّديق، ص١٢٠. انظر الحديث في: صحيح ابن حبّان، حديث رقم (٢٤٢).
(٥) الاحتشاد: الاجتماع.
(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٢٠.
(٧) الوشاء، الموشّى، ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما سبق نلحظ أن التوسط في زيارة الصّديق صديقه أمر مستحب، فلا يقلل فيكون التقليل داعية الهجران، ولا يكثر فيكون الملال.

ولا بد للأصدقاء من التلاقي، فلقاء الإخوان نزهة القلوب، وشفاء الغليل، وعن سليمان بن وهب قال: "غزل المحبة أرق من غزل الصبابة، والنفس بالصّديق أنس منها بالعشيق."[١] ولذا حرص الأصدقاء على تبادل الزيارة، وأخذوا يدعون بعضهم إلى التزاور، وقضاء الأوقات الجميلة معا، يتبادلون فيها أطيب الكلام، وأرق الحديث، وينعمون بما فتح الله عليهم من الطيبات، كما يتضح في رسالة الحسين بن الحسن بن سهل[٢] إلى صديق له، يدعوه إلى الاستمتاع فيقول: "نحن في مَأدُبَة لنا، تُشْرف على رَوْضةٍ، تُضَاحِكُ الشَّمْسَ حُسنا، قد باتت السماء تَعِلُّها[٣]، فهي شَرِقةٌ بمائها، حالية بنوارها، فرأيك فينا، لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض."[٤] فردّ عليه صديقه ملبيا دعوته ومستجيبا لطلبه فقال: "هذه صفة لو كانت في أقاصي الأرض لوجب انتجاعها، وحثّ المطي في ابتغائها، فكيف في موضع أنت تسكنه، ويجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك، وطيب شمائلك! وأنا الجواب."[٥]

وكان الصّديق يدعو صديقه إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت في اللهو والشرب، أو سماع المغنين والقيان، أو في المسامرة المستحبة، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه، دعوة الحسن ابن سهل لبعض أصدقائه كي يصطبح معه في يوم دجن غامَتْ فيه السماء ولم تُمطر، فيقول: "أما ترى تكافو هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كُثير:

وإني وتهيامي بعزّة بعدمـــــا تخلّيتُ مما بيننا وتَخلّـــتِ

لكالمُرْتَجي ظِلّ الغَمَامة كلما تبوّأ منها للمَقِيل اضْمحلّتِ

وما أصبحت أمنيّتي إلا في لقائك، فليت حِجاب النأي هُتك بيني وبينك، ورُقعتي هذه وقد دارتْ زُجاجات أوقعت بعقلي ولم تَتَحيَّفْه[٦] ، وبعثت نشاط حركتي للكتاب، فرأيك في إمطاري سروراً بسارّ خبرك، إذ حُرِمْتُ السرور بمطر هذا اليوم موفقا إن شاء الله."[٧] فرد عليه الحسن ابن وهب معتذراً عن تأخر جوابه، وانشغاله عن الأمير، مقدراً للأمير حسن ظنه به، مادحاً إياه

---

(١) الثعالبي، أبو منصور، عبدالملك بن محمد، (ت ٤٢٩هـ)، م غاب عنه المطرب، دار طلاس، دمشق، ص١٥١.
(٢) الحسين بن الحسن بن سهل، ممن ذكرهم ابن النديم ضمن الشعراء الكتاب المقلين، من كتاب محمد بن داود، وقد ذكره الحاجب النعمان في كتابه. الفهرست ص١٩١.
(٣) عله وأعله: سقاه مرّة بعد مرّة. اللسان (علل).
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٧.
(٦) تحيفه: تنقصه من حِيفِه أي نواحيه، والحيف جمع حيفة بالكسر، وهي الناحية. اللسان (حوف).
(٧) الحصري، زهر الآداب وثمار الألباب، ج٢، ص١٨٦- ١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما يستحق من المدح والثناء فيقول: "وصل كتاب الأمير -أيده الله- وفمي طاعمٌ، ويدي عاملة، ولذلك تأخر الجواب قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجبَ ديناً استحقَّ به ذمّاً، لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضياءك، وإن أمطر حكى جُودك وسخاءك، وإن غام أشبه ظلك وفناءك، وسؤال الأمير عني نعمة من الله -عز وجل- عليّ، أعقي بها آثار الزمان السيء عندي، وأنا كما يحب الأمير، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه."[١]

وكتب الصاحب بن عبّاد إلى بعض ندمائه، يستدعيه إلى مجلس أنس، بلغة رشيقة رقيقة الحواشي، وأخذ يصف لصديقه هذا المجلس يغريه، ويستحلفه في الانضمام إليهم، فيقول له: "نحن في مجلس أنس، قد فُتِحَتْ عُيون النرجس، وفاحتْ مجامر الأُتْرُج[٢]، وفُتِقَت فارات النارنج[٣]، ونطقت ألسنة العيدان، وقامت خطباء الأوتار، وهبت رياح الأقدار، وطلعت كواكب الندمان، امتدت سماء النَّد، فبحياتي عليك إلا عجلت لتتصل الواسطة بالعقد، ونحصل من قربك في جنة الخلد."[٤]

وقد حرص الأصدقاء على دعوة أصدقائهم للمشاركة في الأنس واللهو، وأن لذة الليلة أو السهر لا تكتمل إلا بانضمام الصاحب إلى مجلس الأنس، وهذه محاولة جادّة كي يسرع الصاحب في تلبية الدعوة دون تباطؤ وكسل، ومثل ذلك ما كتبه الصاحب إلى صديق له، يطلب منه الإسراع وتلبية الدعوة، فيقول: "نحن في مجلس أبتْ راحُه أن تصفو إلا أن تتناوله يمينُك، وأقسم غناؤه لا طاب حتى تعيه أذناك، وعندنا خدود نارنجية قد احمرّت خجلاً لإبطائك، وعيون نرجسية قد حَدَقت تأملاً للقائك، وأحبّ أن تطير إلينا طيران السَّهم، أو تَطلع علينا طلوع النّجم."[٥]

فإذا نقص الإخوان واحداً لم يكتمل سرورهم، ولم تَهْنَأ أنفسهم باللقاء، ولا يكتمل السرور إلا بلمّ الشمل واجتماع الأحباب والخلان، وفي ذلك يقول أحدهم، متوسلاً إلى صديقه ألا يكون سبباً في تفرّق شملهم، وتشتت جمعهم كما تشتتت بَنَاتُ نَعْش: "قد تألف لي شَمْل إخوان كاد يفترق لعوز المشروب، واعتدنا فضلك المعهود، ووردنا بَحْرَك المورود، وأنا ومن سامحني الدهر بزيارته من إخواني وأوليائك وقوفٌ بحيث يقف بنا اختيارُك من النشاط والفتور،

---

(١) الحصري، زهر الاداب وثمار الألباب، ص١٨٧.
(٢) الأتْرُج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون، وهو ذهبي اللون ذكيّ الرائحة، حامض الماء. اللسان (ترج).
(٣) النارنج: شجرة مثمرة دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع. والفارات: نوافج المسك أي أوعيته.
(٤) الثعالبي، من غاب عنه المطرب، ص١٠٣.
(٥) الثعالبي، من غاب عنه المطرب، ص١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقي حقك علينا، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه، واستغنائه عن دوائه، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له، ولا تعيره عزله، ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك كما طالما رأينا نقصانك لكان ذلك فعلاً صائباً، وفي القياس واجباً."[١]

ولا تكون الزيارة في حال السلامة فقط بل تتعداها إلى حال المرض والعلة، فمن حق الصديق على صديقه أن يعوده إذا مرض، وأن يديم السؤال عن شأنه وأحواله، فلا أقل من زيارة يُسلي بها على صديقه، ويخفف عنه ما ألم به من علة أقعدته، وما أسعد الصديق برؤية صديقه حين العلة، لما يدخله حضوره من أنس وشفاء للقلوب وللصدور، ولا ينبغي للصديق أن يتخلف عن عيادة صديقه إلا لعذر بيّن يقعده عن ذلك، وحتى مع وجود هذا العذر ينبغي له أن لا يغفل ذكره في قلبه، قال أحدهم يعتذر إلى صديق له تخلف عن عيادته: "لئن تخلفتُ عن عيادتك بالعُذر الواضح من العِلة، لما أغفلَ قلبي ذكرَكَ، ولا لساني فحصاً عن خبرك، في مَمْساكَ ومصبحك، ولما بلغتني إفاقتك كنت مهنئاً، بالعافية مخبراً بالعذر معفياً من الجواب إلا بخبر السلامة إرسالاً." [٢]

وكان الصاحب يسعى جاهداً لعيادة صديقه، فلا يمنعه مانع ولا يحول دونه حائل، إذا ما بلغه الخبر لبّى على ضعف ألم به، وحين يمثل بين يدي صاحبه يطلب منه الصفح إن أبطأ عليه، ويدعو له بالشفاء العاجل قائلاً: بأبي أنت! بلغني أنك مريض، فضاق والله علي الأمر العريض، وأردت إتيانك، فلم يكن بي نهوض، فلما حملتني رجلان وليستا تحملان، أتيتك بجُحْزرة[٣] شِيْح ما مسّها عرنين قط، فاشممها واذكر نجداً، فهو الشفاء بإذن الله." [٤]

وإذا تعذر على الصديق عيادة صديقه فليس أقل من أن يكتب إليه مستفسراً عن حاله وعن قوته ونشاطه، وأن يدعو له بالسلامة والعافية، ومن ذلك ما كتبه رجل إلى صديق له يقول: "كيف أنت، بنفسي أنت! وكيف كنت؟ لا زلت! وكيف قوّتك ونشاطك؟ لا عدمتها ولا عدمناها منك، وأعادك الله إلى أحسن ما عوّدك! لولا عوائق يوجب العذر بها تَفَضُّلك لم أدع تَعرّفَ خبرك بالعين، فإنها أشفى للقلب، وأنفع للغليل، وأشد تسكيناً للاعج الشوق." [٥] ونماذج هذه الرسائل كثيرة في النثر العباسي.

---

(١) الخوارزمي، أبو بكر، محمد بن العباس، (ت٣٨٣هـ)، رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية، ١٨٩٢.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٥١.
(٣) الجحزرة: الحُزمة
(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التهاني والتعازي:

أخذت رسائل التهاني والتبريك تشيع بين كتاب العصر العباسي، والمتصفح لهذا الضرب من الرسائل يجدها على كثرة تستدعي الوقوف عندها، وربما كان هذا الشيوع لكثرة المناسبات التي يعيشها المجتمع من جهة، وتنوع مضامينها، وتباين أوقاتها من جهة أخرى، وأهم من ذلك ازدياد عدد الكتاب، واتساع مجالات الكتابة في هذا العصر، وقد أدى هذا الأمر إلى تحول التهنئة من غرض يؤديه الشعر إلى غر ض يقوم النثر على أدائه بصورة أكثر طواعية وانسيابا من المنظوم المقيد بالأوزان والقوافي." (١)

والتهنئة مظهر من المظاهر الاجتماعية التي ترتبط بمناسبة خاصة، تبعث البهجة والسرور في نفس صاحبها، وتكون سببا لإقامة أواصر المحبة عبر تبادل مشاعر الفرحة والتهنئة، والشعور مع الأخ بما تستدعيه الأواصر التي تنعقد عادة بين الندماء والمتحابين.

فالمناسبة هي الأساس الذي ينعقد به هذا النمط من المراسلة، وهي الحافز الذي يبعث على كتابة التهنئة، فلربما كانت المناسبة ذات ميسم ذاتي، كالتهنئة بالإفاقة من المرض، أو السلامة في السفر، أو بالعودة من الحج أو بإنجاب الأولاد، أو بولاية عمل من أعمال الدولة، أو نحو ذلك، وقد يتسع نطاق المناسبة شيئا فشيئا فتغدو مناسبة ذات ميسم اجتماعي عام، كما في التهنئة بعيدي الفطر والأضحى المباركين، وكما هو شأن التهنئة بالفتوح والانتصارات الإسلامية.

التهاني بالشفاء والسلامة

أخذ الأصدقاء يتبادلون هذا النوع من الرسائل، لما تحققه من تقارب، وتجانس، ولما تُحدثه من أثر في النفوس المتعطشة لسماع كلام الوُدّ والمباركة، ولذا غدا الأصدقاء يحرصون على أداء حقوق الصداقة فيما يتعلق بهذا الموضوع، وأخذ الصديق لزاما عليه أن يشعر بشعور صديقه، فيفرح لفرحه، ويحزن لحزنه. فهذا هو سهل بن هارون يكتب رسالة إلى صديق له وقد تماثل للشفاء من مرض كان قد ألمّ به فيقول: "بلغني خبر الفَتْرَة(٢) في إلمامها وانحسارها، والشّكاة في حلولها وارتجالها، فكاد يشغل القلق بأوله، عن السكون لآخره، وتُذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرّة في انتهائه، وكان تغيّري في الحالين بقدرهما ارتياعا للأولى وارتياحا للأخرى." (٣)

---

(١) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنيّة في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط١، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م، ص٢١٤.

(٢) الفترة: الوعكة والضعف. اللسان (فتر).

(٣) ابن نباتة المصري، جمال الدين، (ت ٧٦٨هـ). سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ١م، تحقيق محمد أبو الفضل (إبراهيم)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى تلميذ له يهنئه بالسلامة والشفاء، وهو سعيد بوصول كتاب تلميذه المبشر بفراق العلة، المضمّن قصيدة أخذ الخوارزمي يمدحها ويثني على قائلها، وهو يبين له أن المدح والثناء لا يكون إلا لمن هو أهل لهما، يقول: "وصل كتابك المبشر بخبر فراقك عن علتك بشارة لو تصدقت لها بمالي، وذبحت لها على وجه القربان أطفالي، لكان ذلك صغيراً جللاً، ومباحاً مبتذلاً، وفي ضمنه القصيدة التي كبرت بل صغرت، وقلت بل كثرت، أما كبرها وكثرتها فلجلالة قدرها، وعظم أمرها، وأما صغرها وقلتها فلأنها في جريدة الشعر وحدها لا مثل لها قبلها ولا بعدها، وفهمت وتعجبت من اعتذارك بالعلة، وما أرى هذه العلة زادتك إلا رجحاناً، ولا نقصتك إلا نقصاناً، ونقصان النقصان أوّل الرجحان ... وإني لضيق ذرع التزكية والثناء، قصير خطا المدح والإطراء ... [١]

وهو في هذه الرسالة يقدّم لتلميذه درساً في آداب المدح والثناء، ويعرض عليه جملة من الأخلاق التي يجب على المرء أن يتحلى بها، وهذا دأب الصديق الذي يحرص على تقديم النصح والوعظ لصديقه فلا يضن عليه بما هو قيم ومفيد، وفي ذلك يقول: "... لا أمدح إلا ممدوحا بكل لسان، ولا أرضى إلا مرتضى في كل مكان، ولا أقبل مدلس الفضل، ولا أتبع مغشوش القول والفعل، ولا يستفزني رعدُ كلّ سحاب، ولا يستخفني طنين كلّ ذباب، وسرعة الشهادة طريق من طرق الخفة، وابتذال المدح والتزكية باب من أبواب الملق والذلة ..." [٢]

مثل ذلك كتاب الصابي إلى بعض إخوانه، يشكر فيه المولى –عز وجل– على سلامته، ويعتذر لصديقه عن التقصير الذي لحق به، فهو يقدم على مدح صديقه وهو يعلم أنه لا يبلغ الغاية في ذلك، فصديقه تعجز عن وصفه الكلمات، يقول: "وصل كتابك مشحوناً بلطيف برّك، موشحاً بغامر فضلك، ناطقاً بصحة عهدك، صادقاً على خلوص وُدّك، فهمته وشكرت الله تعالى على سلامتك شكر المخصوص بها، ووقفت على ما وصفته من الاعتداد بي، وتناهيت إليه من التقريظ لي، فما زدت على أن أعرتني خِلالك، ونَحَلتني خِصالك، لأنك بالفضائل أولى، وهي بك أحرى، ولو كنت في نفسي ممن يشتمل على وصفه حَدّي إذا حددت، أو يحيط بكماله وصفي إذا وصفت، لشرعت في بلوغها والقرب منها، لكن المادح لك مستنفدٌ لك وُسْعَه وقد بَخَسك، ومستغرق طوقه وقد نقصك، فأبلغُ ما يأتي به المثني عليك، ويتوصل إليه المُطري لك، الوقوف في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومَدَاه." [٣]

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١.
(٣) الحصري، زهر الاداب وثمار الألباب، ج٣، ص٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الصديق إذا فارق صديقه كأن يكون لعمل أو لغيره مما يستدعيه فراق البلد الذي يجمع السادة والإخوان والأحباب، كان ذلك مدعاة لتبادل رسائل الشوق والسكون من وحشة الفراق ووطأته على النفوس، فهذا أحدهم يكتب إلى صديق له يهنؤه بسلامة الوصول إلى ذلك البلد، ويشكو به ما أصابه من الشوق والحنين إلى لقاء أخيه والاجتماع به.

وفي ختام كتابه يسأل المولى -عز وجل- أن يجمع الشمل، ويحقق الاجتماع الذي يدخل إلى النفوس المسرّة والعافية، يقول: "كتابي إليك عن سلامة، ووحشتي لفراق البلد الذي يجمع السادة والإخوان، والأهل والجيران، على حسب الأنس بمكاني فيه، والسرور به، ولكن المقدار يجري فيتصرف معه، وَقعَ ذلك بالهوى أو خالفه، ولئن كانت هذه حالي في الوحشة، إنّ أكثر ذلك وأوفره لفراقك، وما بَعُدْنا من الأنس بك، فأسأل الله أن يهب لنا اجتماعا عاجلاً في سلامة من الأبدان والأديان، وغبطة من الحال، وغنىً من المطالب برحمته."[١]

التهاني بالزواج

وما أحسب أن هذه المناسبة تمرّ بين الأصدقاء دون وقوف عندها، واستشعار لها، إذ إن فيها من الابتهاج والسرور ما يدفع المتصادقين إلى استغلال هذه اللحظات الجميلة، والاستمتاع بها قدر الإمكان، وكان الصديق يحرص الحرص كله على المشاركة العيانية في هذه المناسبة، لأن في المشاهدة والمعاينة ما لا يكون في غيرها، ولكن تجري الرياح أحياناً بما لا تشتهي السفن، فيطرأ على المتصادقين من الظروف القاهرة ما يحول دون المثول بين يدي الصديق، والاستمتاع باحتفاله، ولكن هذا لا يمنع من مواساة النفس بذلك وتعزيتها، واستشعار الابتهاج رغم الغياب كأن يجعل الصديق غيابه سبباً في استحضار صديقه قلبياً.

"قد بلغني ما هيأ الله لك من اجتماع الشمل بضم الأهل، فشَرِكْتُكَ في النعمة، وكنتُ أسوتك في السرور، وشاهدتك بقلبي، ومثّلتُ ما أنت فيه لعيني فحللتُ بذلك محل المُعَاين للحال وزينتها، فهنيئاً هنّأك الله ما قسم لك بالرفاء والبنين، وعلى طول التعمير والسنين."

التهاني بمولود

ويقرب من التهاني بالزواج، التهاني بإحدى ثمار ذلك الزواج وهي إنجاب الأولاد، فالصديق يبتهج بابتهاج صديقه، ولزاماً عليه أن يبادل صديقه الفرح، ويشعر بشعوره، وهو يعدّ

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٧٥، نقلاً عن : صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا حقاً من حقوق الأخوة والصداقة، وفي ذلك يقول أحدهم مهنئاً: "اتصل لي خبر مولودك، فسرني لك ما سرّكَ."(١)

ولذا أخذ الإخوان يهنئون إخوانهم إذ ما رزقوا بمولود يدخل السرور إلى ذويه، ويكون لهم ذُخراً، وقد تعددت رسائل التهنئة، وكلها كانت تحمل في طياتها عبر كلماتها توحد الموضوع من حيث المباركة وإظهار المشاعر الحميمة من ورود أخبار المولود، والدعاء للأخ بأنْ ينتفع بمولوده، وأن يجعله الله باراً تقياً، تقرّ به عيون ذويه، ومن ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه قائلاً:

"بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهَنَّأكَ نعمته بعطيَّته، ومَلاَّك كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته." ثم يأخذ الكاتب بالدعاء له، فيسأل الله –عز وجل– أن يجعله "باراً تقياً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء، مُبَلَّغاً غاية الأمل، مشدوداً به عَضُدَك، مكثراً به ولدك، مُدَاماً به سُرورُك، مدفوعاً به الآفاتُ عنك، مشفوعاً بأكثر العَدَد من طيِّب الولد."(٢)

وكتب أيضاً إلى بعض إخوانه يهنئه بمولوده الجديد، مبتهجاً بما قد بلغه، مظهراً صدق مشاعره نحو أخيه، مشاركاً إياه فرحته وعظيم بهجته فيقول: "أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حقك، وعرّفني من جميل رأيك، فزادك الله خيراً، وأدام إحسانه إليك، وقد بَلَغَني أن الله وهب لك غلاماً سرياً، أجمل لك صورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك." (٣)

وكدأب الإخوان دائماً يتبادلون النصح والوعظ، يكتب ابن المقفع رسالة إلى صديق له، وقد ولدت له جارية، يبارك له فيها، مبيناً ضرورة إكرامها ومحبتها، عارضاً فضائلها وما قد تدخله على أهلها من المحبة والمسرة، بما لا يقدر على فعله الذكور من الغلمان، يقول: "بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زَيْنَاً، وأجرى لكم بها خيراً، فلا تَكْرَهْهَا، فإنهن الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهن الباقياتُ الصالحاتُ، وربّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم." (٤)

فهذه الرسالة لابن المقفع تعكس النظرة الاجتماعية السلبيّة إلى البنات التي كانت سائدة، وقد سعى الإسلام إلى تغييرها، فهذه الرسالة تبين أن بعض الشرائح الاجتماعية تحتفظ بصورة

---

(١) ابن المعتز، رسائله، ص٥٢.
(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٣٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣٩.
(٤) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور ، ج١٣، ص٣٠٤ صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إيجابية لهن، وتنزلهن منازل الكرماء، وابن المقفع يحاول من خلال هذه الرسالة تبين ذلك فهو يُذكّر والدها بدور الأنثى في الحياة، فلولا البنات ما كان الذكور، فالإناث في تصوره يشكلن أواصر الأرحام، فمنهن الأمهات، ومنهن الأخوات، ومنهن العمات، ومنهن الخالات، ومنهن غير ذلك من القريبات.

وربما شارك الخليفة نفسه في تقديم التهنئة إلى بعض مشاهير الكتاب، كما في رسالة عمرو بن مسعدة –على لسان المأمون– إلى الحسن بن سهل، يبارك له مولوده، ويدعو الله أن يجعله بارّا تقيا، وهو في رسالته هذه يبين للحسن مقدار السعادة التي يشعر بها لورود هذا النبأ عليه، وكأنه صاحب المولود عينه، يقول في ذلك: "أما بعد: فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين، وزيادته إياك في عددك زيادة له في عدده، لمحلك عنده، ومكانك من دولته، وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سريّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارّا تقيا، مباركا سعيدا زكيا."[١]

وكما أنهم كانوا يهنئون بولادة فإنهم كذلك كانوا يهنئون بفطام هذا المولود أو ذاك، ومن ذلك ما كتبه رجل إلى صديق له يقول:

"أنا – أعزك الله– لما حملّني اللهُ من أياديك، وأودَعني من إحسانك وألزمني من شكركَ، أخذُ نفسي بمراعاة أمورك، وتفقد أحوالكَ، وتعرّف كل ما يحدثه الله عندك، لأقابله بما يلزمني، وأقضي الحقَّ فيه عنّي بمبلغ الوسع ومقدار الطاقة، وإن كانا لا يبلغان واجبكَ، ولا يستقلاّن بثقل عازمتك. وكل ما نقّل الله الفتى وبلغه من أحوال البلوغ، ورقاه فيه من درجات النموّ. فنعمة من الله حادثة تلزم الشكر، وحقّ يجب قضاؤه بالتهنئة. وكتب إليّ وكيلي المقيم ببابك يذكر ما وهبه الله من سلامته عند الفطام، وصلاح جسمه عند الطعام، وسلوته عند أول الغذاء، وسرورك ومن يليك بما وهب الله في هذه الحال من عافيته وحسن المدافعة عنه، فأكثرت لله الحمد، وأسهبت في الدعاء والرغبة، وتصدّقتُ عنه بما أرجو أن يتقبّله، وكتبت مهنئا بتجدد النعمة عندكم فيه[٢]."

التهاني بالولاية

أخذ الكتاب يهنئون إخوانهم من الولاة، وأولي الأمر، حين يتولون مناصب عديدة حرصا منهم على التواصل والانصياع إلى حق الأخوة والصداقة، وأن ما يحلّ بالأخ من خير أو شر هو كائن وحال بأخيه وصديقه، ولذا حرصوا على تبادل التهاني في هذا الموضوع، مذكرين

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور ، ج١٣، ص٣٠٣، نقلا عن: صفوت جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٥١٢.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إخوتهم ممن تولوا هذه المناصب بحق الأخوة، وما يستوجبه هذا الحق من مشاركتهم فرحتهم، فكم كان ارتياحهم واستبشارهم حين ورود أبناء الولاية وغيرها، وفي ذلك كتب بعض الكتاب تهنئة بولاية قائلاً: "فإنه ليس من نعمةٍ يجدّدها الله عندك، والصنعُ الجميلُ تُحدثه لك الأيامُ إلا كان ارتياحي له واستبشاري به واعتدادي بمَا يَهَب الله لك من ذلك، حَسَبَ حقّك الذي تُوجبه، وبرّك الذي أشكره، وإخائك الذي يَعِزُّ ويَجِلُّ عندي موقعه، فجعل الله ذلك فيه وله، ووصله بتقواه وطاعته. وبلغني خبرُ الولاية التي وَليتَها، فكنتُ شريكك في السرور وعديلك في الارتياح."(١)

ولا ينسى أخاه من الدعاء بما هو أهل له، وبما يحتاج إليه من أمور الولاية وغيرها، ولذلك فهو يسأل الله له "أن يعرفه يُمنَها وبركتها، وأن يرزقه خيرها وعادتها، ويحسن معونته على صالح نيته من الإحسان إلى أهل عمله والتألف لهم، واستعمال العدل فيهم، وأن يرزقه محبتهم وطاعتهم، ويجعلهم خير رعية."(٢)

وهذا آخر يبارك لأخيه فيما جدّد الله له بالولاية، ويدعو له الله أن يفتتحها له بالصنع الجميل، وأن يختمها بالسلامة، إن الله سميع قريب."(٣)

وليس أحد أقدر من الصديق على معرفة خلال صديقه، وسَبْر أغواره، وهو حين يمدح صديقه، ويطنب في مدحه فكأنما يمدح نفسه، ويغالي في هذا المدح، وحين يبارك لصديقه ولاية أو عملاً ما، ويهنؤه عليه فكأنما يبارك لنفسه بذلك، فهما صنوان لا يفترقان، ولا يختلفان، ومن طريف ما وقعت عليه هذه الرسالة التي بعث بها أحدهم يهنئ صديقه بعمل قد وُلِيَه، فأخذ يهنئ هذا العمل دون صديقه فيقول: "أنا أهنئ بك العمل الذي وُلّيته، ولا أهنّئك به، لأن الله أصاره إلى من يورده مَوارد الصواب، ويُصدره مصادر الحُجّة، ويصونه من كل خلل وتقصير، ويُمضيه بالرأي الأصيل والمعرفة الكاملة، قرن الله لك كل نعمة بشكرها، وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن، ويحوطها من النقص."(٤)

يرى هذا الكاتب أن لزاما عليه تقديم التهنئة للعمل بصديقه، لأن الإنسان لا يقوم بمنصبه، وإنما هو المسؤول عن المنصب، وهو الوحيد القادر على توجيه هذا المنصب التوجيه السليم، ولذا وجب أن يتشرف العمل بصاحبه لا أن يتشرف هو بالعمل.

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٧١-٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٧٣.
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمتصفح للرسائل آنفة الذكر يلحظ التركيز على الدعاء فيما مضى بما يتعلق في صلب الموضوع، وبما يضمن للصديق تحقيق النجاح في حياته بتوفيق من الله عز وجل، وكأنما يشير هذا الأمر إلى أن إدخال الدعاء في مثل هذا اللون من الرسائل كان يعدّ من نظر الكتاب آنذاك مما لا يستغنى عنه فيما تواضعوا عليه من أصول المكاتبات.

التهنئة بالعزل:

يلزم هنا التعريج على لون من رسائل التهنئة، لا يكاد يُنبئ –ولو على نحو– بمعنى الفرحة، والسرور في نفس صاحب المناسبة، ومع ذلك يسعى بعض أصدقائه في محاولة إقناعه أن ما طاله إنما يدعو في حقيقة الأمر إلى التهنئة لا إلى التعزية كما يتراءى من الوهلة الأولى، وربما كانت الرسائل المختصة بالتهنئة بالعزل عن عمل أوضح شاهد يمكن التمثل به في هذا السياق.

ففي مثل هذه الرسائل يحاول الصديق التخفيف عن صديقه، فيشعره أنه إلى جانبه، يغتم لما أصابه، ومع ذلك فإن الصديق يجعل الأمر هيناً على أخيه، ويذكره بفضله ونبل أخلاقه، وأنه لم يُقدّر حقّ قدْره، فاستخفّ به المستخفون وأنزل شأنه المنزلون، وكأن لسان حال صاحب الكتاب يقول: لا تربأ بهم واعلم أنك قد وليت أمراً أنت أهل له، فعدلتَ وفرّقت بين الغِواية والرُشد، فحسنت العاقبة، وكان انصرافك عن ولايتك محموداً، فاحمد الله ولا تغتمّ لما أصابك. ولاكتمال الصورة نقف عند كتاب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه يهنئه بعزل عن عمله، وهو مضمن بعض الشعر الذي يسوقه الكاتب معززاً به تهنئته فيقول: "جَعَلني الله من السوء والمكروه فِدَاءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك، وأتمّ نِعمَهُ عليكَ، وأحسن منها مَزيدَك، وبلّغك أقصى أمنيّتك، وقدّمَني أمامك، وقد بلغني ما اختار الله لك، فسُررْتُ من حيثُ يَغْتَمُّ لك مَنْ لا يعرف قدْرَ النعمة عليك، ولا يراك بعين استحقاقك، ولَئِن ساءني ما ساءَ إخوانكَ مِنْ عَزْلك، لقد سرَّني ما يَسُرّ الله لك، والحمد لله الذي جعل انصرافك محموداً، وقضى لك في عاقبتك الحُسْنَى، وأقول:

لِيَهْنِكَ أنْ أصبحتَ مُجْتَمَع الحَمْدِ ... وراعي المعالي والمُحَامي عن المجدِ

وأنك صُنْتَ الأمر فيما وَلِيتَـــه ... ففرّقتَ ما بين الغِوَايةِ والرُشْـــــدِ

فلا يحسبِ البَاغُون عَزْلك مَغْنَما ... فإن إلى الإصدار عاقبة الـــــــورْدِ

وما كنتَ إلا السيفَ جُرِّدَ لِلوَغى ... فأُحْمِدَ فيها ثم رُدَّ إلى الغِمْـــــــــدِ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الأول:

فمَنْ يكُن بوُرود العَزل مكتئباً فإنّني بُورود العزل مَسْـــرور

بعد الولاية عزل يَستبين بـــه طولُ الولاةِ وبَعد العزل تأميرُ"[١]

ثم يطلب من صاحبه أن يكتب إليه شارحاً ما حلّ به، وفيم كان العزل، وإلام صارت الأمور، مطمئناً إياه بأن ما قد حدث لا يتجاوز أن يكون "حيلة أو نيّة تكون ذات عاقبة محمودة، إن شاء الله."[٢]

التهاني بالأعياد والمناسبات الدينية

تشيع التهنئات بالأعياد الإسلامية والفارسية، وهذا هو الحسن بن وهب يكتب رسالة للمتوكل في عيد النيروز يهنئه بالعيد، وكلها دعاء وابتهال، يقول:

"أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكرّ الدُّهور، وتكامل السُّرور، وباركَ لكَ في إقبال الزَّمان، وبَسَط يُمن خلافتك الآمال، وخَصّك بالمزيد، وأبهجك بكل عيد، وشدّ بك أزْر التوحيد، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق، بطيب أيام الخريف المُغْدق، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل، وعمّر ببلائك الإسلام، وفسح لك في القدرة والمدة، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة، وسربلك العافية، وردّاك السلامة، ودرّعك العز والكرامة، وجعل الشُّهور لك بالإقبال متصدية، والأزمنة إليك راغبة متشوقة، والقلوب نحوك سامية، تلاحظك عشقاً، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً.[٣]

نلاحظ في رسالة الحسن الأدعية والابتهالات التي خَصَّ بها الخليفة، وهو دعاء يدور حول المعاني التقليدية من تمني السعادة والسرور، ودوام البهجة والسؤدد، والتمتع بإقبال الأيام وإدبارها، مع بقاء العافية، ودوام السلامة.

والاحتفال بالنيروز إشارة إلى استفحال الأثر الفارسي في الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية حينذاك، ويعد عيد النيروز، وهو أول أيام الربيع، أشهر الأعياد الفارسية التي حظيت بالاهتمام، إذ كان يحتفل بمقدمه أهل النواحي، التي كان للفرس فيها نفوذ واضح، وكانوا في هذا العيد يتبادلون صنوف الهدايا والألطاف، وقد لاحظت الدولة في خلافة المعتضد غلبة الصبغة الفارسية على كثير من شعائر هذا العيد، فمنعت الناس من إقامة بعضها. [٤]

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج٣، ص٣٠١، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، نقلا عن: جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٧.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ)، المحاسن والأضداد، تقديم عاصم عيتاني، دار إحياء العلوم، بيروت، ص٢٨٥

(٤) ابن الأثير، أبو الحسن، عزالدين، علي بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢م، ج١٠، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن التهاني بالمناسبات ذات الميسم الاجتماعي العام، التهاني والتبريك بقدوم شهر رمضان المبارك، حيث تفيض مشاعر الصدق والإيمان، ويبادل الصديق صديقه أسمى المشاعر وأنبلها حيث يهلّ شهر الصيام، ويأخذ بالدعاء له أن يكون ممن أتم صيامه وقيامه علىالوجه الأكمل، كما في رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى بعض إخوانه قائلاً:

"كتابي أطال الله بقاءك غُرّة شهر رمضان، عرّفنا الله بركة مَقْدَمه، وَيُمْنَ تَجَشُّمِه، وخصّك بتقصير أيامه، وإتمام صيامه وقيامه."(١)

وكذلك الحال مع تهنئة الخلفاء بالفتوح والظفر على الأعداء، ومثلها رسالة ابراهيم بن المهدي إلى المعتصم بعد فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ، حيث تشف هذه الرسالة عن نزعة إسلامية، فهي تتحدث عن جهاد المعتصم، وما يسر الله له من أمور هذا الجهاد الذي أذل به رقاب المشركين، وشفى به صدور قوم مؤمنين" فلله الحمد والمنة على ما يسره من تمام الرعاية للخليفة، الذي آب إلى أهله ووطنه غانما سالما، تحوطه رعاية الله –عز وجل–.(٢)

وبين أيدينا رسالة لابن المعتز كتبها إلى صديقه الوزير عبيدالله بن سليمان بن وهب، وهي تدور حول الاعتذار إلى الوزير عن العلة التي أخرت ابن المعتز عن الحضور للتهنئة، ويركز الكاتب فيها على الدعاء للوزير، كما جرت العادة في مثل هذا اللون من المكاتبات، يقول ابن المعتز: "أخرتني العلةُ عن الوزير –أعزه الله– فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوبَ عنّي، ويَعْمُرَ ما أخلّتْهُ العوائقُ مني، وأنا أسألُ الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبّ ويُحَبّ له، ويقبل ما توسّل به إلى مَرْضاته، ويضاعِف الإحسانَ إليه على الإحسان منه، ويُمتّعه بصحبة النعمة، ولِباس العافية، ولا يُرِيَه في مَسَرّة نقصاً، ولا يقطع عنه مَزيداً، ويجعلني من كل سوء فِداه، ويصرف عيون الغِيَر(٣) عنه وعن حظي منه." (٤)

التهاني بالدخول في الإسلام

ثمة لون طريف من التهنئات يختص بتهنئة من دخل من الأصدقاء في الإسلام، ويعدّ أبو العيناء أشهر الكتاب الذين طرقوا هذا الباب من التهاني، ومن رسائله ما كتبه إلى صديقه أبي نوح النصراني، يهنئه على نعمة الله أن هداه إلى التوحيد، وألهمه سبيل المؤمنين، وأنقذه من

---

(١) الهمذاني، أبو الفضل أحمد بن الحسين، (ت ٣٩٨هـ)، كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان، ابراهيم أفندي الطرابلسي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م، ص١٧٥، ١٧٦.

(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٢٩٨، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٩.

(٣) الغير: نوائب الدهر، حوادث الدهر المغيرة. اللسان (غير).

(٤) الحصري، زهر الآداب،ج١، ص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكفر والشرك، وأكرمه بأخوة المسلمين، ويثني الكاتب على حسن تفكير أبي نوح وتقديره حين تحول عن النصرانية واعتنق الإسلام، ولذلك فهو يحمد الله على اختيار صديقه طريق الهداية فيقول له : فالحمد لله الذي أفاز قِدْحك، وأعلى كعبك، وأنقذ من النار شِلْوك[١] ، وخلصك من لبْس الحيرة، وجمرة الشّرك، إن الشرك لظلم عظيم. [٢]"

ثم يأخذ بعد ذلك يبين لصديقه ما أفاء الله عليه بالدين الجديد من النعم، مذكراً إياه بالماضي فيقول له[٣] : "فأصبحت –أكرمك الله– وقد استبدلت بالبيَع المساجد، وبالآحاد الجُمَع، وبقبلة الشّام البيت الحرام، وبتحريف الإنجيل صحة التنزيل، وبارتياب المشركين يقين الموحدين، وبحُكم الأسقف، رأس الملحدين، حُكْمَ أمير المؤمنين وسيد المرسلين."

ويلاحظ من خلال هذه الرسالة إمعان إبي العيناء في سرد الشواهد والحجج من القرآن الكريم، فتارة نجده مستلهماً للمعاني القرآنية، وتارة أخرى يورد النص الحرفي للآيات فيقول[٤] :

"لقد عظمت نعمة الله عليك في منابذة أهل الذّلة والصَّغار، والكفر والإصرار الذين (أحلّوا قومَهم دار البَوار، جهنّم يَصلَوْنَها وبئس القَرار)[٥] والذين (جَعَلوا لله أنداداً) [٦] و (دَعَوا للرّحمن ولداً، وما ينبغي للرّحمن أنْ يتّخذ ولداً، إنْ كلّ مَنْ في السماوات والأرض إلا آتي الرّحمن عبداً).[٧]

وهذا كاتب آخر يهنئ صديقاً نصرانياً له بدخوله الإسلام، وهو في هذه الرسالة يحمد الله عز وجل أن هداه إلى جادة الصواب، وأرشده إلى ما فيه خير دينه ودنياه، "فوفق عزمه، وأوضح فضيلة عقله، ورجاحة رأيه[٨] ثم يبين له فضل اعتناقه للإسلام، فمثله أحق بأن يتبع ديناً صحيحاً، لا أن يتخبط في ضلالة النّصارى، وهذه الرسالة كسابقتها تستشهد بآي من الذكر الحكيم، تدعم قول الكاتب، أو تكون نوراً يستضاء به، "فالحمد لله الذي جعلك في سابق علمه ممن هداه لدينه، وجعله من أهل ولايته، وشرفه بولاء خليفته، وهنأك الله لنعمته، وأعانك على

(١) شلوك: جسدك. اللسان (شلا).
(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٠٥، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٦.
(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: (٢٨، ٢٩).
(٦) سورة إبراهيم، الآية (٣٠).
(٧) سورة مريم، الآيات: (٩١، ٩٢، ٩٣).
(٨) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكره، فقد أصبحت لنا أخا ندين بمودته، وموالاته بعد التأثم من خُلطتك، ومخالفة الحق بمشايعتك..." (١)

الاستعطاف وتلبية الحوائج

ولا بد للصديق أن يكون إلى جانب صديقه إن ألمّت به ضائقة، وهذا حق لازم بينهما، فقضاء الحوائج من أنبل ما تعارف عليه الإخوان، ولا أسرّ من الأخ حين يقضي حاجة أخيه، ويمشي في تيسير أموره، وهذا يقتضيه الوفاء المتعارف عليه بينهما، فإن نكث أحدهما، أو تقاعس عن أداء واجبه نحو أخيه نُبذ، وعُدّ مذموما، ولذا لا عذر لمعتذر إلا من قدّم أو التمس العذر البين الذي لا ينتطح فيه عنزان.

والصديق حين يقضي حوائج صديقه فكأنما يؤدي هذا الأمر إلى نفسه قبل أن يؤديه إلى صديقه، وما هذا إلا للتشاكل المعهود بينهما، فهما كالشيء الواحد وما ينزل بالأول من النوازل ينزل بالثاني، فها هو ابن المقفع في إحدى رسائله الإخوانية البديعية يكتب إلى أحد إخوانه مستعطفاً، يستقضيه حاجته، دون أن يصرّح بها، وهذا دأب كثير من الرسائل التي نسجت لتحقيق هذا الأمر، وفيها يذكر أخاه بأن "المعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع، لا بدّ لزرّاعه من حصاده، أو لعَقِبه من بعده."(٢) كأن ابن المقفع قد تبادر إليه جحود بعض الناس، فيقول إن المعروف غرس لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون، وهذه صورة جميلة للربط بين المعروف والزرع، وهي صورة تجمع في إطارها ملمحاً من الدقة المنطقية، وهذه الدقة تتمثل في النتيجة الحتمية التي ينتظرها المعروف والزرع، فكما أن الزرع لا بد من حصاده يوما ما، فكذا حال المعروف، إذ لا بد لباذله أو فاعله من جني جوازيه، حتى لو كان عند من لا يشكره على صنع الخير الذي فعله. ثم يقدم لأخيه ما يستحق من الشكر على هذا المعروف وهو بلا شك يعدّ نفسه ممن يذكر المعروف ويشكره.

والصديق حين تعوزه الحاجة، وتضيق به الأيام، يفرّ إلى صديق وفيّ يبثّه همومه، ويشكو إليه مسألته، وهو يدرك أن صديقه لن يتوانى في تقديم العون، وبذل الجهد قدر المستطاع، ولا ينسى أن يذكر صديقه بأنه يستحق العناية والرعاية، ولذا فهو لا يرضى بالقليل، لأنه بذل الكثير من الشكر، "ولا وراء الصديق مذهب، ولا عنه منقص"(٣)، ومثل ذلك ما كتبه الحسن بن وهب إلى أخ له مستعطفا، مادحا صديقه، ومذكراً إياه بحقوق الأخوة، وإجزال العطاء والعناية فيقول :

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٧٠.
(٢) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٠.
(٣) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل ، ج١، ص١٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"لا ترض لي بيسير العناية، كما لم أرضَ لك بيسير الشُكر، وضَعْ عني مؤُونة التقاضي، كما وضعتُ عنك مؤونة الإلحاح، واخطر من ذكري ببالك بما هو أكفى من قعودي نصب عينك، فإني أحق من فعلت ذلك به، كما أنك أحق من فعله بي وحقق الظن، فليس وراءك مذهب، ولا عنك منقص.[١] ولا أظن الصديق يحتاج إلى إلحاح السؤال والمسألة حتى يقضي له صديقه حوائجه، لأن الصداقة الحقة تقتضي أن يديم الصديقان السؤال عن أحوال بعضهما، وتقصّي شؤونهما، وإدامة التواصل الذي يتحقق به التعاون وحفظ ماء الوجه من السؤال.

والصديق إن علم بضيق أحوال صديقه، وما حلّ به، سارع إلى قضاء حاجته، وأغدق عليه من ماله، كما يتضح مما وقع بين العتابي حين استجدى صديقاً له، وكتب إليه شاكياً، ومذكراً إياه بفضل كرمه، وجوده، وأنه روضة من رياض الكرم، "تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نُعقِيها من النُجْعَه استتماما لزهرتها، وشفقة على خُضْرتها، وادِّخاراً لثمَرتها."[٢] وهو يبين له أن الوقت قد حان لانتجاع هذه الروضة لما قد حلّ به، وأصابه من الجدب والفاقة، "حتى أصابتنا سنة كانت عندي أشبه ما تكون قطعة من سنِيّ يوسف، اشتد علينا كَلَبُها، وغابت قطْرُها، وكَذَبتنا غُيومُها، وأخلفتنا بُروقُها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك." [٣] ثم أخذ يعدد مناقب صاحبه، وخاصة زمن قلّ فيه الإخوان، الأمر الذي دفع بصاحبه إلى مشاطرته ماله، حتى يقال إنّه قد أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه. [٤]

ونقف عند رسالة محمد بن عبّاد إلى صديقه جعفر بن محمد الإسكافي، يطلب معونته المادية فيقول: "ما زلتُ -أيّدك الله تعالى- أذمّ الدهر بذمّك إياه، وانتظر لنفسي ولك عُقباه، وأتمنّى زَوال من لا ذنب له إلى محمودة تكون بزوال حاله، وأترك الإعذار في الطلب، على الاختلال الشديد ضنًّا بالمعروف عندي إلا عن أهله، وحَبْسًا لشعري إلا عن مستحقّه."[٥] والكاتب في هذه الرسالة يحمل من معاني عزّة النفس الكثير، فرغم حاجته الماسة إلا أنه يحترم نفسه، ولا يقبل إراقة ماء وجهه، مهما بلغت به الضائقة، ولذلك تراه يسلك مسلكاً ذكياً في عرض حاجته المادية، فيذكر صديقه بصدق مشاعره تجاهه، وأنه يتفاءل لنفسه وصديقه بعاقبة حسنة لمحو الصورة السلبية الفائتة، وهذا الموقف الذي يجتلبه الكاتب يمهد لذكر الحاجة المستماحة على نحو يبعده عن السؤال المتذلل الخانع، ولذا يأخذ الكاتب بالحديث عن المعروف وأنه خير

---

(١) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ج١، ص١٠٨.
(٢) القالي، أبو علي أسماعيل بن القاسم ، (ت٣٥٦هـ).الأمالي، ط٣، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٣م. ج٢، ص١٣٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٥.
(٥) الحصري، زهر الاداب، ، ج٤، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ردّ هذا المعروف إلى أهله، وأنه لا يضيع عنده، وذلك عن طريق الشعر الذي يُقدّم لمن يستحق، فيحفظ مآثرهم ويسجلها عبر التاريخ.

وتظهر رسالة الكاتب ابن ثوابة إلى الوزير عبيد الله بن سليمان[١] مدى حاجة الصديق إلى صديقه وقت الضيق، إذا نزلت به نازلة أو حلت به ضائقة، وهو في هذه الرسالة يشكو لصديقه صروف الدهر ونوائب الأيام، وضنك العيش، وانحباس الرزق، وخمول الذكر، وهو يصور الأيام جانية لا يقدر على ردّ جورها إلا عدل الوزير، إذ في عدله ما يرفع الظلم الواقع على الكاتب، ويخلصه من مرارة الحرمان التي ذاقها، ثم يمضي ابن ثوابة في عرض حاجته فيقول: "والذي يملأ يدي من النَّصفة، ويُسْبِغ العَدْلَ عليّ، حتى تكون إليّ مُحْسِنا، وأكون بكَ إلى الأيام مُعْدِيا، أن تَخْلِطني بخَواصّ خَدَمِك الذين نقلْتَهم من الفَراغ إلى الشغل، ومن الخمول إلى النباهة والذكر، فإن رأيت أن تُعْدِيَني[٢] فقد استعديتُ، وتجيرُني فقد عُذتُ بك، وتوسِّع عَليّ كَنَفك فقد أوَيتُ إليه، وتَشْمَلني بإحسانك فقد عوّلتُ عليه، وتستعمل بدني ولساني فيما يصلحان لخدمتك فيه، فقد درستُ كُتُبَ أسلافك، وهُم الأئمةُ في البيان، واستضأتُ برأيهم، واقتفيت آثارهم اقتفاءً جعلني بين وَحشِيِّ الكلام وأنيسه، ووقّفني منه على جادة متوسّطة، يرجع إليها الغالي، ويسمو نحوها المقصّر، فعلت إن شاء الله تعالى."[٣] والمتتبع لهذه الرسالة يلحظ تأكيد ابن ثوابة الحقوق والواجبات التي تفرضها الصداقة بين المتصادقين من قضاء الحوائج والقيام بكل ما يضمن دوام الصداقة وتوثيق عراها.

وينبغي للصديق إن أراد الاعتذار أن يكون عذره مقبولاً عند صديقه، ولا يلجأ إلى الاعتذار إلا وهو صادق، لأن الكذب ليس من شيم الأصدقاء، وهو مما يقوّض بنيان الصداقة، ويفتّ في عضدها، ولذا حرص الأصدقاء على نفي هذه الخصلة فيما بينهم، كما يتضح في رسالة محمد بن سيابة إلى صديق له يستقرضه، فيجيبه بالاعتذار، فيصف الضائقة، ثم يردّ عليه بقوله : "إن كنت كاذبا جعلك الله صادقا، وإن كنتَ مَلوما، جعلك الله مَعْذورا."[٤] ولا غرابة أن تجد صديقاً يسأله صديقه العون والمساعدة، فيعتذر إليه، ذاكراً له "خلة شديدة، وكثرة العيال، وتعذر الأمور عليه."[٥]

---

(١) عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي أبو القاسم وزير، من أكابر الكتاب استوزره المعتمد العباسي، استمرت وزارته عشر سنين إلى وفاته، ت٢٨٨هـ، وفيات الأعيان، ترجمة عبيدالله بن عبدالله بن طاهر، ابن الأثير،ج٧، ص١٦٨.
(٢) أعداه: نصره وأعانه وقوّاه، واستعداه: استعانه واستنصره. اللسان (عدا).
(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٧، ص١٨٨.
(٤) الثعالبي، خاص الخاص، ص٢٣.
(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الرسائل التي يتضح فيها حسن الاعتذار عن التقصير في حقّ المستميح رسالة أحمد ابن يوسف إلى صديق له فيقول فيها: "وددتُ لو ملكتُ بغيتَك، لبلّغتُكَ أمنيَّتك، ولكني في عمل قصدتُ فيه اتخاذ المحامد وعَدَلتُ عن اقتناء الفوائد، فخَسّ نصيبي من الوَفْر، ووَفُرَ حظي من الشكر، وقد أمرتُ لك بما يَجِلُّ عنه قدرك، غيرَ مختار له، بل مُضطرا إليه، فليكن منك عُذْرٌ فيه، وشكرٌ عليه، إن شاء الله. [١]" وفي هذه الرسالة يبدي الكاتب شديد أسفه على عجزه إنجاز حاجة صديقه على النحو المأمول، ويطلعه على حقيقة ما أفضى إليه سخاؤه وطلاقة يدة من قلة حظه من الغِنَى، وتنامي نصيبه من الشكر فجوده لم يبق له سوى حسن الأحدوثة بين الناس، ولذا لا يجد الكاتب ما يقدمه سوى قليل لا يليق بقدر صديقه عنده، ملتمسا العذر في ذلك."

على أن بعض الأصدقاء لا يقبل عذر صديقه، وما ذاك إلا لعلمه المسبق بأنه يقدر على تحقيق ما ينشد، وإنجاز ما يَعِدِ، ومن ذلك ما كتبه الحسن بن سهل إلى بعض أصدقائه، يسأله حاجة، فيقول له: كتابي هذا يخطّي، بعد أن جمعت له ذِهني، فما ظنّك بحاجة هذا موقعها مني، فإن أحسنت لم أغفل الشكرَ، وإن أسأتَ لم أقبل العذرَ."[٢]

ونذكر من رسائل الاستعطاف رسالة إبراهيم بن سيابة الشاعر، التي استعطف بها يحيى ابن خالد البرمكي، وكان من أنكر منه شيئا، فكتب إليه يترضاه، ويطلب منه العفو والصفح، وفضل العطاء، وهذه الرسالة كما يقول الجاحظ: "إنّ عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة[٣]"، إعجابا ببلاغتها، وما جرى فيها من فصاحة القول وجزالته." ، وافتتح ابن سيابة رسالته هذه بذكر مناقب المستعطف (يحيى) بما يتناسب وحالة المستعطف الذي يرجو العفو والعطاء، فيحيى كما يقول فيه ابن سيابة: "الأصْيَد الجَواد، الوَاري الزَّناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشَمُّ الباذل، اللُّبَابُ الحُلاحِل."[٤] ثم يأخذ بعد ذلك بتصوير حاله، وما حلّ به حين غضب عليه الوزير، واطرحه، وأغفله حتى لم يجد من يفر إليه بعد الله إلا الوزير فقال فيه:

أسرعَتْ بي حَتْا إليك خِطائي ... فأناخَتْ بمُذنب ذي رجـــــاء

رَاغِبٍ رَاهبٍ إليك يُرَجِّـــــى ... منك عفوا عنه وفضل عطــاء

ولعمري ما من أصرّ ومن تا ... بَ مُقِرّا بذنبه بســـــــواء[٥]

---

(١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٤٥٩.
(٢) الوشاء، الفاضل، في صفة الأدب الكامل، ج١، ص١٠٧.
(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢١٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٥.
(٥) المصدر نفسه. ج٣ ص٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبين ابن سيّابة للوزير ما قد ألجاه للتضرع والتخشع والتذلل، مذكراً إياه أنها لم تكن، ولن تكون هذه سجيته وطبيعته، وما ذلك إلا لإيمانه بأنه إنما يتضرع ويتخشع ويتذلل "لِمَنْ التَّضرُّع له عِزٌّ ورفْعة وشَرفٌ"(١) وهذا تخلّص رقيق وعذب.

وكان الصديق إذا استَرْفد صديقه، وطلب نواله فلم يعنه ولم يسترفده، غضب عليه، وعدّ ذلك نقيصة لحقت بصديقه، فليس أقبح من البخل شيء، وإذا دبّ البخل بين الأصدقاء أفسد عليهم متعة الصداقة ولذتها، ونغصّ السرور الكائن بينهما، ومن ذلك ما كتبه أبو العتاهية في رسالة له، يهجو فيها الفضل بن معن بن زائدة، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره، فردّه ردّاً غير جميل، ممّا أغضبه وجعله يقول: "توسّلتُ إليك في طلب نَائلك بأسباب الأمل، وذرائع الحمد فراراً من الفقر، ورجاء للغنى، فازددتُ بهما بُعداً مما فيه تقرّبتُ، وقُرباً مما فيه تبعّدت، وقد قسمتُ اللائمة بيني وبينك لأني أخطأتُ في سؤالك، وأخطأتَ في مَنْعي، أمرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم، ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم."(٢) ولذلك فهو يلوم نفسه، لأنه وضع مسألته في غير أهلها، مما أوقعه في ذل السؤال وإراقة ماء الوجه بلا طائل عند أهل البخل، الذين توسم فيهم الخير فمنعوه، ولذلك فعلى المرء أن يطلب حوائجه إلى الخواص من الإخوان، فيرغب إلى أهل المقامات، ويتوسل بالأكفاء، ممن يعينون على الخير، ويبذلون الجهد سعياً وراء قضاء حوائج إخوانهم.

ومن الحقوق الواجبة بين الإخوان والأصدقاء العناية بهم والتوسط لهم عند أصحاب الجاه والأقدار بغية تحقيق مصالحهم، وقضاء حوائجهم، ومن قضى حوائج أخيه قضى الله حوائجه، وهذا ما تعارفت عليه السنة المحمدية، ولذا أخذ الإخوان على عاتقهم ضرورة التواصل والتعاون مما يوثق عرى الأخوة ويوطدها، وتفقد احوال الإخوان من أسمى ما تعرف به الصداقة.

والنثر العباسي غني بالرسائل التي تمثل هذا الواجب، وهذه الظاهرة، وهذه الرسائل تماثل ما يعرف في عصرنا الحاضر بالتوصية التي تكتب عادة مشيدة بكفاءة حاملها من أجل قضاء حوائجه الشخصية، وكانت هذه الرسائل توجه إلى ذوي الشأن ممن يقدرون على تلبية حوائجه الشخصية. وكانت هذه الرسائل توجه إلى ذوي الشأن ممن يقدرون على تلبية حاجة حامل الرسالة. وتقتضي أن تكون صادرة ممن له صلة طيبة بهؤلاء، وإلا لما كانت هذه التوصيات تجد أذناً صاغية من قبل المخاطبين بها، وهكذا كان يلزم رسالة العناية أن تكون مكتوبة إلى من يقدر الكاتب على مكاتبته في شأن تحقيق الحاجة التي تنطوي عليها هذه الرسالة.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢١٦.
(٢) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٢، ص١٩٦، الطبعة الأزهرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد توسم الإخوان بإخوانهم الذي يتمتعون بعلاقات طيبة مع ذوي الشأن، ممن يمتون بصلة أمير، أو صحبة وزير، أوصداقة وال، أو رفقة قاض، أو منادمة قائد، كانوا يتوسمون فيهم خيراً، ويؤمنون إيمانا لا شك فيه، أنهم يقدرون على تحقيق مصالحهم، وقضاء حوائجهم، فيلجؤون إليه يسألونهم العون، والتوسط لدى من يعرفون.

وأول ما يعرضه الباحث رسالة الحسن بن سهل التي كتبها عناية برجل، وهو يقول فيها : "فلانٌ قد استغنى باصطِناعكَ إياه عن تحريكي إيّاك في أمره، فإن الصنيعة حرمة للمصنوع إليه، ووسيلة إلى مُصْطَنعه، فبسط الله يدك بالخيرات، وجعلك من أهلها، ووصل بك أسبابها."[١] ونحسّ من هذه التوصية أن حاجة ذلك الرجل كانت راكدة عند المخاطب، وهو فيما يبدو من ذوي الأمر والنهي في الدولة، فكان لا بد من بعثها، حتى تجد سبيلها إلى التحقيق، والكاتب إذ يسعى في هذه السبيل يحاول أن يظهر مدى ثقة صاحب الحاجة بالمخاطب، وهذه الثقة مردّها انضواء الحاجة في إمرة المخاطب، فهو من صنائعه الذين يمتون إليه بحرمة، وهذا ما يجعل صاحب الحاجة يتوسل بالكاتب إلى مصطنعه في اتخاذ مطلب ودعاء الكاتب للمخاطب تذكير له بأنه أهل لأن يحقق مصالح صاحب الحاجة ويقضي له حاجته مما سيلحق به إن فعل من الخير والفضل وحسن الأحدوثة وطيب السمعة، وجميل الثناء.

والمطلب بن عبدالله بن مالك يكتب إلى الحسن بن سهل في رجل توسل به، وهو في هذه الرسالة يظهر فضل الأمير في قضاء حوائج الآخرين، وأن موارد إحسانه لا تنقطع، والطريق في هذه الرسالة أن المطلب يؤكد للأمير أنه لا يحتاج من توسل به إلى وساطة أو عناية شخص ما، إنما ذلك يصدر عمّن لا يعرفون فضل كرمه، ونبل أخلاقه، ولذلك يطلب منه العفو عن صاحب الحاجة مقدراً ما أوصله إلى هذه الحالة من ضيق ذات اليد، وتأزم أحواله، وهذه اللفتة من الكاتب بذكر بعض سلبيات صاحب الحاجة، وسيلة لرفق المخاطب به، وإنجاز حاجته، لذا فهو يقول: "طلبُ العافينَ الوسائلَ إلى الأمير –أعزّه الله– يُنْبِئُ عن شُرُوع مَوَارد إحسانِهِ، ويدعو إلى معرفة فضله، وما أنْصَفَه –أعزّه الله تعالى– مَنْ تَوسّلَ إلى معروفه بغَيره، ورَأيُ الأمير في التطوّل[٢] على مَن قصُرَتْ معرفتُه عن ذلك ما يريد الله تعالى فيه مُوفّقا."[٣] أسبغ الكاتب صفة التعظيم على المخاطب، حيث خصّه بلقب "الأمير" مقابلاً ذلك بما أسبغه على صاحب الحاجة من عدم الإنصاف تارة، وقصر الفهم تارة أخرى.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ، ج٢، ص١٩٣، الطبعة الأزهرية.
(٢) التطول: التفضل. اللسان (طول).
(٣) الحصري، زهر الآداب، ج٤، ص٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقيت هذه الرسالة ترحيباً وإجلالاً من الحسن، فردّ على صاحبه، شاكراً إليه ما ابتدأه في رسالته الأولى من إطراء ومديح، مؤكداً له امتثاله لطلبه، وقضاء حاجة صاحبه، فيقول: "وصلك الله فيما وصلتني في صاحبك من الأجر والشكر، وأراك الإحسانَ في قصدِكَ إليَّ بامتثاله برضا يُفيدك شُكْرُه، ويُعقبُك أجْره، ورأيُك في إتمام ما ابتدأت به، وإعلامي ذلك مشكوراً." (١)

وكانت فكرة الاعتذار عن التوسط واردة في كتاب آخر بعث به بعض إخوان محمد بن طيفور حين كان عاملاً على أصفهان، في شأن رجل استماحه له في منزله، ويظهر الكاتب في هذه الرسالة مبيناً لصديقه أنه جدير بالتوقير والإجلال، لما حباه الله من السماحة والكرم والإحسان، ولذا فهو سريع إلى قضاء حوائج إخوانه، وهو لا يحتاج إلى توسل وتوسط ليوفر العناية لمن يتوسط له، فيقول له:

"أنت – أعزك الله تعالى- أجلُّ من أن يُتوسّل بغيرك إليك، وأن يستماحَ جودُك إلا بك، غير أني أذكّرك بكتابي في أمر حامله ما شَرَع كرمُك، وزرعَ إحسانُك، من الأجر قبل الصادرين والواردين، فهَنَاكَ اللهُ تعالى بذلك، ولا زالت يد الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك."(٢) ويقال: إن محمداً قال للرجل: احتكم لك وله، فأخذ منه ألف دينار ولمن كتب إليه فيها مثلها، وهو في هذه الرسالة يذكر المخاطب بما يلحق به من الأجر والثواب مقابل إحسانه وكرمه.

وكان الصديق يحرص على تقديم العون لصديقه، وهو إذ يفعل ذاك إنما يفعله لنفسه، ولا غرابة في ذلك لما تربط الصديقين من روابط الأخوة الصادقة، ولذلك يصف صديقه بما يقربه من المخاطب حين يتوسط له. وكأن لسان حاله يقول للمخاطب، إن قضيت حاجة حامل هذا الكتاب فأنت بذلك تقضي حاجتي، كما يتضح في رسالة الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي، التي كانت غاية في الإيجاز، فيقول: "حامل كتابي إليك أنا، فكن له أنا، والسلام." (٣) ونلحظ هنا كيف يحاول الكاتب التأثير على المخاطب كي يستجيب له، فيقضي حاجة صاحبه، لمعرفة الصديق بما يكون عليه صديقه من مناقب، وخصال توجب مساعدته والقيام بأمره، فهذا الشخص الذي يحمل رسالته هو نفسه، في إشارة إلى موقع الموصى به من نفسه، وإذا كان هذا هو موقع الحامل من الكاتب، فإنه يلزم المخاطب أن يقوم بأموره.

---

(١) الحصري، زهر الآداب، ج٤، ص٢٦٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٤١-١٤٢.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص١٩٣، الطبعة الأزهرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقرب رسالة بشر بن غياث المريسي، التي كتبها إلى رجاء بن أبي الضحاك من رسالة العتابي، فيقول: "أما بعد، فإني قد وجهت إليك بفلان أنا، وأنا أنت فكن أنا أنت الفلان، والسلام."[١] ويبدو أن المريسي اطلع على رسالة سلفه وأفاد منها، ولا غرابة في لغة هذه الرسالة على ما جاءت عليه من الصيغة الكلامية التي تكسوها القدرة المنطقية وذلك أن بشراً استمدها من اطلاعه على ألوان الفلسفات التي كان المعتزلة يأخذون أنفسهم بدراستها، دراسة وثيقة معبرة عن أنظارهم العقلية.

ومما يلحظ على الرسائل السالفة تجاوزها ذكر اسم صاحب الحاجة، وكنه حاجته، وكان التركيز على تأكيد الكاتب على قرب صاحب الحاجة من قلبه، وأنّ له من حق الأخوة ما يحرك فيه دوافع التوسط له، والعناية به، ولكن تطالعنا رسالة إبراهيم بن المهدي إلى العباس بن موسى بنبرة خاصة، يصرّح بها أولاً بذكر اسم صاحبه، صاحب الحاجة للمخاطب، كما أنه يذكر مطلبه وحاجته وكنهها، مسمياً إياها ثانياً، فهو يقول في هذه الرسالة : "عبدالرحمن بن عبدالله، من لا أحتاج إلى وصف حاله لك، ولعلي عرفتها بعدك، غير أني أحب مسرته، بقضاء حقه، وواجب حرمته، في مودته ومولاته، وقد جعلك ممن يحافظ على ذلك ومثله، أراك الله ما تحب أن تحفظني ونفسك فيه، وتوليه ما جعلك الله أهله، وجعله حقيقاً به"[٢] فهو في هذه الرسالة، بعد أن يذكر اسم صاحبه، يؤكد على حرصه تحقيق السعادة والمسرة بقضاء حق صاحبه، ويذكر للمخاطب بما يعرفه عن عبدالرحمن مما يشجعه على طلب الولاية له، وهذا أمر فيه مكاشفة لم تعهدها كثير من الرسائل التي تناولت هذا الموضوع، والناظر في الرسالة، يلمح تجاوز الكاتب عن تعريف المخاطب بصاحب الحاجة – كما هو دأب رسائل العناية– وما ذاك إلا لأن المخاطب يعرفه حق المعرفة، فقد خبره وعرف عنه الكثير مما يفوق معرفة الكاتب نفسه، ولذا لا طائل من وراء ذكر مناقب الموصى به.

ومن الرسائل التي يصرّح فيها بذكر اسم الموصى به رسالة الحسن بن وهب إلى مالك ابن طوق، يسأله حاجة لابن أبي الشيص، لا يقبل من المخاطب عذراً، وقد عني برسالته ففرّغ لها ذهنه، وخطها بيمينه، فلا أقل من إنجاز مطلبه، لفضل ثقته بصديقه، فيقول : "كتابي إليك كتاب خططته بيميني، وفرّغت له ذهني، فما ظنّك بحاجة: هذا موقعها مني؟ أتراني أقبل العذر فيها؟أو أقصر في الشكر عليها، وابن أبي الشيص قد عرفت حاله ونسبه وصفاته"[٣].

---

(١) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٥، ص١٥٩.

(٢) الصولي، الأوراق، ج٢، ص٣٥، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٦.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص١٩٣، الطبعة الأزهرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذا الحال في رسالة أخرى له، يحتذي فيها حذو العتابي ويوصي بأحد أصدقائه، فيقول: "موصل كتابي إليك أنا، فكن له أنا، وتأمله بعين مشاهدتي وخلتي، فلسانه أشكر ما آتيت إليه، وأذم ما قصّرت فيه. [١]" فهو يستقي من رسالة العتابي عبارتين كاملتين، ثم تراه يزيد بعد ذلك عليها، كما فعل المريسي من قبل، وهذه الزيادة تحتم على المخاطب أن يقدم العون للموصى به، فلا يتوانى في تحقيق مصلحته، وإنجاز أمره، ويعلم المخاطب بمدى الصلة القوية التي تربط الكاتب، والموصى به، ولذا وجب على المخاطب أن ينفذ مطلبه، وليعلم أنما هو إذ يفعل ذاك للموصى به، فكأنه يفعله للكاتب نفسه.

وإبراهيم بن العباس يسأله بعض إخوانه أن يشفع له، فما يكون منه إلا السمع والطاعة التي تفرضهما الأخوة الصادقة، فيكتب له كتاباً، يأخذ فيه بذكر ما يحبب المخاطب فيه، فما إن يقرأ المخاطب الكتاب حتى يسارع إلى تلبية حاجته وقبول استشفاعه، فالموصى به، دون تصريح باسمه، "ممن يزكو شكره، ويحسن ذكره"[٢] وهو يؤكد للمخاطب متانة الصلة التي تربطه بالموصى به، فأمره يعينه، وكي يلزم المخاطب قضاء حاجة صديقه، يؤكد له ما يمتاز به الموصى به من صون للمعروف، وحفظ له، إذ هو أهل لذاك، فيقول : "والصيغة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها[٣]."

والثقة بالإخوان هي التي تساعد في التوسط والعناية، فيها يضمن للصديق امتثال صديقه لمطلبه، وهذا الأمر يدفعه ليطلب ما يشاء مؤمنا بوقوع ذلك من صديقه موقع القبول والاستحسان، ويبدو أن هذا هو ما دفع بالجاحظ للتوسط لأحدهم فيقول : "أما بعد، فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا، يلزمنا ذمامه[٤] ، وبلوغ موافقته من أياديك عندنا، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأولنا فيه ما يعرف به موقفنا من حسن رأيك، ويكون مكافأة لحقه علينا[٥]."والجاحظ في هذه الرسالة يتناول علاقته بالموصى به تارة، وتارة أخرى بالمخاطب، وهي علاقة تمتاز في شقيها بالمودة والثقة المتبادلتين، وهو ما يجعل أمل الجاحظ قوياً في تحقيق مطلبه.

وهذا ابن المعتز يجعل من ثقته بصديقه وسيلة لإنجاز توصيته، والحيلولة دون مطلها، فهو لم يعهده غير ذلك، ويسأله أن يصدق فيه الأمل وحسن الظن الداعيين إلى توثيق روابط الأخوة والصداقة بينهما، فيقول:

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ، ج٢، ص١٩٨، الطبعة الأزهرية.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص٢٥، طبعة دار الفكر.
(٣) المصدر نفسه، ج٩، ص٢٥، طبعة دار الفكر.
(٤) الذمام: الحق والحرمة. اللسان (ذمم).
(٥) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"موصّل كتابي فلان، وقد جعلت الثقة بك مطيته إليك، فلا تنضها[١] بمطلك، وأسرع ردّها بسابق إنجازك، وتصديق الأمل فيك، والظن بك[٢]."

وهذه رسالة كتب بها "بختيار" إلى أبي تغلب يستشفع في أخ له، وهو يبدو متوسلاً إلى المخاطب في أمر جلل، كان أخوه قد ارتكبه، مما أوقع بختيار في صورة ذلك الواعظ، الذي يذكر صديقه بما قد يرتكبه الأصدقاء والمقربون من أخطاء وحماقات وعقوق، مما يصعب تجاوزه ومغفرته، ولا ريب أن المخاطب يملك القدرة على إنزال العقوبة ممن هذه حالهم، وشأنهم، ولكن الكاتب يذكر المخاطب بضرورة التجاوز، فلا يبلغ به الأمر إلى قطع المعيشة، ومنع المادة؛ "لأن قباحة ذلك بمن يستعمله أكثر من مضرته بمن يعمل معه، وقد قيل: إن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان، هذا في الاتباع والأصحاب، فكيف في الأقران والأتراب؟" [٣] وما ذالك إلا لوقوع الثقة وحسن الظن المتبادلين بين الأصدقاء.

ومن رسائل الشفاعة للإخوان، ما كتبه أبو العلاء المعرّي إلى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً، بدأ المعرّي رسالته بمقدمة اشتملت على التحميد والصّلاة على النبي – صلى الله عليه وسلّم، وعلى آله وصفوته المنتخبين[٤]، ثم أخذ يعتذر إلى صديقه مقرّا بالتقصير في واجباته تجاهه، ويحاول أن يلتمس العذر في ذلك، فيقول: "فإنما ذلك لِهمٍّ شاغِلٍ، وخطبٍ شاغِلٍ ، وتوخيا للتخفيف، وتنكّبا عن التكليف[٥]. ولكنّ هذا لا يمنعه من البوح بما تجيش به نفسه من شوق إلى لقائه، والحنين إلى مناجاته، والاستماع إلى "أخباره الطيبة"[٦]، وهذا بسبب ما يكنّه لصديقه من مودّة في صدره، وبعد أن يصف حاله ومودّته وشوقه إلى لقاء صاحبه، يأتي على ذكر حاجته منه، ولا يدخل فيها دخولاً مباشراً، إنما يقدّم لذلك بوصف صديقه صاحب الحاجة، بالولاء والطاعة لمن أنعم عليه، وأخرجه من الضائقة، ولذا فلسانه يلهج بما أولاه السيد من عناية "بعد ما كُلِم واستنفذ بعدما وُقذ...، [٧] فأنجاه الله جلّ اسمه على يديه من صَقَر الإناءْ، ومَعَر الفناء[٨]، فأضاف الله له الأجر الآجل، إلى الشكر العاجل"[٩].

ويقف المعرّي عند وصف صديقه صاحب الحاجة، ومكانته من نفسه، آملاً من سيّده أن يقضي حاجته، لأنه بذاك يكون كأنه قضاها له عينه، لأنه وهذا الرجل "قرْعاً سَمْرة، وقضيباً

---

(١) أنضاها: هزلها.
(٢) الصولي، الأوراق، ج٢، ص٢٩٠، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤ ص٣٥٦.
(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٤.
(٤) أبو العلاء المعرّي، رسائله، ج١، ص١٢٨.
(٥) المصدر نفسه ، ج١، ص١٣٠-١٣١.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٣.
(٧) أي ضرب حتى أشرف على الموت. اللسان (وقذ).
(٨) خلوّه ، ويقولون: أعوذ بذلك من صفر الإناء، يعنون به هلاك المواشي. والفناء: ساحة أمام البيوت، ومعره: ذهاب أهله.
(٩) رسائله، ج١، ١٣٩ -١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أراكة، وطائراً وكر وأليفا وادٍ، تنصرنا الغمامة الواحدة، وتضيء لنا اللمعة الفاردة، بل نزيد على هذا التمثيل، فنكون بناني يدٍ، وريشتي جناح، وشعبتي غُصن، إذا أماله النسيم مِلتُ، وإن اعتدلَ له اعتدلتُ، فلساني ينطق عن ضميره نطق المزمار عن فم القاصبة، والأوتار عن أنامل الضاربة"(١).

وكي يضمن المعرّي التأثير في سيّده ، فيستدرّ عطفه، ويرقق قلبه، فيقضي حاجة صاحبه، ذكر ما آلت إليه حال أطفال صاحبه، "فهم لغيبته مبتئسون، وبشؤونه كل وقت يسألون سؤال المُجْدب بالكَلأ، والمستوحش من الوحدة عن المَلاء، ويرقبون طلوعه عليهم ترقب مَخلفات السِّرْب، مُوَافاة الأمّهات بالشِّرب"(٢).

وكان قبل ذلك ذكر صراحة حاجة صاحبه، ورغبته اللحاق بعياله، وإسعاده "باللفظة وراء النَّقْطة، والمشورة تلي المشورة، حتى يقدم على أطفاله"(٣).

التهادي والهدايا

تعدّ الهدية مظهراً من المظاهر الاجتماعية التي حرص الإخوان على الحفاظ عليها لما تحدثه من تقارب روحي وأخوي بين الإخوان والأصدقاء، ولذا غدا هذا المظهر لازمة من لوازم الحاضرة العباسيّة، وأخذت تشيع بين الإخوان عادة التهادي المشفوع بالتراسل، واعتاد الناس في العصر العباسيّ الأول أن يتهادوا التحف والطرف، وكانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم، أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة كي تظل أبقى أثراً، وأبعد صدىً عند كثير من الأفراد، ومن هذه المناسبات التي شاع فيها التهادي عيد النيروز، كما يتضح في رسالة سعيد بن حميد إلى صديق له حين يقول: هذا يوم سَهَّلت فيه السُّنة للعبيد الإهداء للملوك(٤)" وختانُ بعض الأولاد، وكان مما يتهادونه فيما بينهم: الحيوان كالفرس مثلاً(٥) ، والأقلام(٦) والدفاتر(٧) والسيوف(٨) ، والملح والأشنان(٩) والأعلاق النفيسة كالخرز(١٠)، والعطر والطيب.(١١)

---

(١) رسائله، ج١، ص١٤٥.
(٢) المصدر نفسه،ج١، ص١٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٦.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٠، الطبعة الأميرية.
(٥) الحصري، زهر الآداب، ج١، ص٣٠٧.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٦.
(٧) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٧.
(٨) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٢٨.
(٩) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٣٩.
(١٠)جمهرة، رسائل العرب، ج٣، ص٤٣٥.
(١١)المصدر السابق، ج٤، ص١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الصّديق يحرص في رسالته الحرص كله على رفع شأن هديته، ووضعها كأنها نادرة زمانها، فليس مثلها شيء، وذلك كي تليق بقدر من أرسلت إليه، فهذا عبدالله بن طاهر يهدي المأمون فرساً يقول فيه: "قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفَرس يَلْحَقُ الأرانب في الصَّعْداء، ويجاوز الظِّباء في الاستواء، ويسبق في الحُدُور[١] جَرْي الماء، فهو كما قال تأبط شراً:

ويَسْبَقُ وَفْدَ الرِّيح مِنْ حيثُ ينتحي بمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتداركِ[٢]

والبيت يُشخّص صورة هذا الحصان السريع الذي يسبق الريح، وهذه السرعة آتية من اتساع خُطُواته، ويبدو أن مقصد عبدالله بن طاهر من إضفاء صفات التميز على هذا الفرس إثبات التميز لنفسه، وللمأمون أيضاً، فالهدية المميزة لا يهديها إلا مُهْدٍ مميّز أيضاً.

وهذا كاتب يهدي أخاه أقلاماً، يطيل في وصفها ويدّق في رسمها، ويختار لها أعذب اللفظ وأرشقه، فهي "من القصَب النابت في الأعذاء[٣]، المغذوّ بماء السماء، كاللآلئ المكنونة في الصَّدف، والأحجار المحجوبة بالسَّدَف، تنبو عن تأثير الأسنان، ولا يثنيها غَمْزُ البَنان، قد كستها طبائعُها جوهراً كالوَشْي الخَطِير، وفِرِنْد[٤] الدِّيباج المنير فهي كما قال الكميت:

وبِيضٍ رقاقٍ صِفاح المتُون تَسَمَّعُ لِلبيض فيها صَريرا

مُهنّدة مـــن عَتَـــاد المُلُوك يَكاد سناهُنَّ يعشي البصيرا

وكَقِداح النَّبْل في ثِقَل أوزانها، وقُضُب الخيزران في اعتدالها، وَوَشِيج الخَطِّيّ في اطّرادها، كأنما خُرطت في شهر لاستدارتها، تمرّ في القرطاس كالبرق اللائح، وتجري في الصحف كالماء السائح، أحسن من العِقْيَان[٥] في نُحور القيان."[٦]

وكان للسيوف ونصلها نصيب من رسائل التهادي بين الأصدقاء، والصّديق حين يهدي صديقه سيفاً فإنما يلمح إلى فروسية صديقه، واستحقاقه هذه الهدية التي هو أهل لها، يصونها، ويحقق بها النصر والعزة، فالفارس أحوج ما يكون إلى صارم يهتز، ويجعل المُهدى إليه يهتز للمكارم اهتزاز الصارم، على حدّ تعبير يعقوب الكندي في كتابه الذي بعث به إلى أحد إخوانه مشفعاً بسيف يكون له خير هدية يقول: "الحمد لله الذي خَصّك بمنافع ما أهدى إليك، فجعلك تهتز

---

(١) الحدور: الجري السريع. اللسان (حذر).
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٢٢.
(٣) الأعذاء، جمع عِذْي بالكسر: وهو النخل والزرع الذي لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه. اللسان (عذي).
(٤) الفِرند: السيف. اللسان (فرند).
(٥) العقيان: ذهب متكاثف في مناجمه، خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة. العين: ج٢، ص١٧٨.
(٦) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأصدقاء العاجزين صنع خريطتين، وملأ إحداهما مِلحا مطيبا، والأخرى سُعدا معطّرا[١]، وكتب معهما رقعة، يعتذر فيها عن تقصيره، راجيا من صديقه أن يقبل هديته المتواضعة، وهو في كتابه هذا يبين للمهدى إليه أنه لو استطاع لفاق أهل النعمة، وجاوزهم ولكن "قعدت بي القدرة عن مساواة أهل النعمة، وقصرت بي الجِدَةُ[٢] عن مباهاة أهل المَكِنَة[٣]." [٤]

ولكنه يخشى أن تطوى صحيفة البر، وليس لها فيها ذكر، فلم يجد إلا الملح، و"المختتم بطيبه ونظافته وهو السُعد، باسطا يد المعذرة، صابرا على ألم التقصير، متجرعا غصص الاقتصار على اليسير."[٥]

ثم يستشهد بآية من الذكر الحكيم تناسب موضوعه، وعذره، وتكون خير شاهد على ما يقول: (ليس على الضعفاء، ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج).[٦]

وكثيرا ما ذاعت رسائل التهادي بالجواهر والأعلاق النفيسة، وبخاصّة في البيئات الممتلئة غنى وثراء، فها هو أحمد بن يوسف يهدي المأمون، في يوم نيروز طبقا من الخرز اليماني الثمين، وعليه مِكْحَال من ذهب، وكتب معه. [٧]

"هذا يوم جرت فيه العادة بإلطاف العبيد السادة، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل."[٨] والرسالة مفرطة في القصر، إذ يكتفى المهدي بإشعار المهدى إليه بلزوم الهدية، واستحقاقها من العبيد للسادة، ثم يأخذ بذكرها وتسميتها دون إغراق في ذكر صفتها.

ومن نماذج هذا اللون هدية أهداها أحدهم إلى المتوكلّ، وهي قارورة من دهن الأترج، وأخذ يلتمس العذر فيها، مبينا للمتوكّلّ أن الهدية تتدرج في نمطين كلّ منهما يشاكل قدر المُهدي، فهدية الإنسان المتواضع إلى غيره من ذوي الشأن، يجدر أن تكون متواضعة تواضع مرسلها، وكلّما كانت الهدية تناسب حاله، وتأخذ من صفاته كانت أبهى موقعا، وأحسن قيمة في نفس المُهدى إليه، لعلمه بحال صاحب الهدية، وإذا كانت الهدية من ذوي الشأن إلى من هو أصغر منهم، كانت على قدر وجاهتهم فعظمت وجلّت، ولذلك يقول: "وأرجو ألا تكون قصّرتْ بي همة أصارتني إليك، ولا أخرني إرشاد دلني عليك وأقول:

---

(١) السّعد: نبت طيب الريح. اللسان (سعد).
(٢) الجدة: الغنى. اللسان (وسع)
(٣)المكنة: القوة والشدة.
(٤) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص٤٤٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٤٨.
(٦) سورة التوبة، الآية رقم ٩١، وتمامها: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾.
(٧) الحصري،زهر الآداب، ج٢، ص١٧٢.
(٨) أي المكحال.اللسان (ميل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما قصَّرت همّة بلغت بها بَابك يا ذا النداء والكرم

حسبي بودّك إن ظفرتُ به ذُخراً وعزّاً يا واحدَ الأمم[١]

وربما مال بعض الكتاب إلى تقديم الهدايا المعنوية لا المادية، وحجتهم في ذلك أنهم لم يجدوا ما يفي حق المهدى إليه، ولا شيء يبلغ قدره ورفعته، ولذا ليس من اليسير أن يجد المهدي ما يناسب المهدى إليه، وهذا ضرب من الحيل والمداورات يُعفي بها المهدي نفسه من إرسال الهدية الملموسة، ومن أجل ذلك يتحول بمفهوم الهدية من المادة إلى المعنى، فأحسن الهدية –عنده– ما كانت هدية معنوية، كما جاء في رسالة سعيد بن حميد، أو في الواقع هما رسالتان: الأولى يعترف فيها بالتقصير عن الوفاء بحق صديقه الوزير، ويجعل هذا الاعتراف هدية إليه، فيقول: "ولم أجد فيما أملك ما يفي بحقك، ووجدت تقريظك أبلغ في أداء ما يجب لك، ومن لم يؤت في هديته إلا من جهة قدرته فلا طعن عليه."[٢]

أما في الرسالة الثانية، فقد شغلته الحيرة، فأطرق وأخذ يتساءل عما قد يصلح أن يكون هدية تليق بالوزير، صاحب النعمة عليه، فينظر الكاتب في نفسه ليجعلها هدية له، لكنه سرعان ما يتراجع عن ذلك عندما يجد نفسه مملوكة للوزير، ثم يفكر بعد ذلك في المال الذي بين يديه، ليقدمه له، ولكن كيف يتأتى ذلك وأكثر ماله هبة منه، فإن أهداه من ماله، فكأنما هو كالذي يهدي مال الوزير للوزير، لذا وجب أن يفكر في هدية أخرى، فأخذ يبحث فيما بين يديه، مما قد يصلح أن يكون هدية له، فيفزع إلى مودّته يزفها هدية للوزير، لكنه يجد أن مودّته باتت قديمة غير جديرة أن تُقدم في ذلك اليوم الجديد، وبعد ذلك يقرّ بتقصيره، فيقول : " ... ولم أقس منزلة من شكري بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق، وكانت النعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة، ولم أسلك سبيلاً ألتمس بها براً أعتدّ به، أو لطفاً أتوصل إليه، إلا وجدت رضاك قد سبقني إليه، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك، وقد قلت في ذلك:

إن أهْدِ نفسي فهي من مِلْكِه أو أهدِ مالي فهو من ماله[٣]

التعازي:

إن من حق الصّديق على صديقه أن يشاطره أفراحه وأحزانه، وإذا كان الصّديق يسارع إلى تهنئة صديقه حين يصيب فرحاً أو ابتهاجاً، فإنه في الكرب والمصائب أحوج إلى ذلك

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٣، ص٣٠٩، الطبعة الأزهرية.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٠، الطبعة الأزهرية.
(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٣٩، ٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعور، إذ لا غنى للمرء عن إخوانه وخلانه حين تحل الكروب وتتأزم الأحوال، ولذا أخذت تشيع رسائل التعازي بين الناس في الحاضرة العباسيّة، وأخذ الإخوان يتبادلونها إحساساً منهم بعظم المسؤولية، وإكراماً منهم لأصحابهم الذين هم بحاجة إلى وقفة يركن إليها، ودعم معنوي يخفف عنهم وطأة المصاب، ويشعرهم بأن المصاب ما عاد ليكون جللاً، ففي الإخوان الصبر والسلوان، ولذلك أخذ الإخوان يدعون إخوانهم إلى التحلي بالصبر، فهو أعظم نعمة يستعان بها على المصاب، وإن عظم، فهذا إبراهيم بن إسماعيل يعزّي أخاً له مبيناً فضل الصبر، وحق الأخوة في العزاء فيقول :

"إني لم أتك شاكاً في عزمك، ولا زائداً في حلمك، ولكن حق الصّديق على الصّديق، فإن استطعت أن تسبق السلوة بالصبر فعلت." (١)

ويعظ ابن السماك الرشيد حين كتب له يعزيه بابن له، ويبين له فضل الشكر والصبر عند البلاء، وأن عليه أن لا يجمع على نفسه مصيبتان: مصيبة الفقد ومصيبة الجزع؛ لأنّ وقعهما أليم، يقول له :

"أما بعد، فإن استطعتَ أنْ يكون شكرُك لله حين قَبَضَهُ أكثر من شكرك حين وهبه، فإنّه حين قَبَضَه أحرزَ لك هِبَتَه، ولو سَلِمَ لم تَسْلم من فِتنتِه، أرأيتَ حزنَكَ على ذهابه، وكُرْهك لفِراقه! أرضيتَ الدارَ لنفسك فترضاها لابنك! أمّا هو فقد خلص من الكَدَر، وبقيتَ أنت معلقاً بالخَطر، وأعلم أن المصيبة مصيبتان إن جَزَعْتَ، وإنما هي واحدة إن صَبرتَ، فلا تجمع الأمرين على نفسك(٢)".

وأهم ما يميز رسائل التعزية تأكيد الكتاب زوال هذه الدنيا وفناءها، وأنها لا يُركن إليها أبداً، فمن سرّته عاماً، ساءته أعواماً، ومن أضحكته قليلاً أبكته كثيراً، فهي غرّارة، تكدّر الصفاء، وتنغّص السرور، والله المستعان في كلّ الأمور، وإنما كان هذا الوصف للدنيا على تلك الحال تسلية للمعزّى فلا يجزع ولا يحزن على ما أصابه، فإن الكأس يذوقه الصغير والكبير، الصحيح والعليل، فلا مفرّ من الموت، ومَنْ يتصفح رسالة الحسن بن وهب، إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ يعزيه عن ابنه، يجد فيها من الوعظ والإرشاد ما يكون خير معين للمعزّى على نسيان ما حل به، أو على التحلي بالصبر، وهو في هذه الرسالة يبين الحال التي كان عليها مع الفقيد من مودة ومقة وبرّ وصلة، يتبادلان المحبة والإخلاص، وهو يصور ما حلّ بالدنيا بعد فقده خلّه فيقول: "... ولقد كانتْ الدنيا تزدادُ حبّاً إليّ بمكانه، وتضعّف حسناً في عيني بحياته، ولقد

(١) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب، ج١، ص١٣١.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحدثتْ لي ميتتُه زُهْدَاً في الحياة، وقصْدَاً في الشُحّ عليها، وذمّاً للدنيا واستقباحاً لِصُورها، ولكنْ ما الحيلة، جُعلتُ فِداءك!؟ وممن الظّلامة!؟ وما نصنع بهذه الغرّارة [١] ".

يكتب الخوارزمي إلى رئيس طوس يعزيه في شقيق له، واعظاً إياه، مبيناً زوال هذه الدنيا، مذكراً إياه بكأس الموت، وأن شباك المنايا له منصوبة، "فأفٍّ لهذه الدّنيا ما أكدرَ صَافيها، وأخيبَ راجيها، وأغدر أيامها ولياليها، وأنغصَ لذّاتها ومَلاهيها، تفرّق بين الأحبة والأحباب بالفوَات، وبين الأحياء والأموات بالوفاة" [٢] ثم يبين الخوارزمي ما حلّ به حين ورد عليه خبر الوفاة فيقول: "دارت بي الأرض حيرة، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة، وملأ الوله والوهل[٣] قلبي وسواسا." [٤]

ولكي يخفف المعزّي على المعزّى عظيم المصاب، يأخذ في وصف الدنيا، ويذكره بالموت الذي قهر الله به عباده، فلا فارّ منه، ولا مغير لحكم الله، فقد انتفى الخلود عن مخلوق، وهذه كلّها دروس يحاول المعزّي بها تذكير المُعزَّى بصغر هذه الدنيا وتفاهتها، يقول ابن المقفع مُعزّيا أحدهم، ومذكراً إياه بما سبق:

"أما بعدُ، فإنّ أمر الآخرة والدنيا بيد الله، هو يدبّرهما، ويقْضي فيهما ما يشاء الله، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقّب لحُكمه، فإنّ الله خلق الخَلْق بقدرته، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة، لئلاّ يطمع أحدٌ من خلقه في خُلد الدنيا، ووقت لكلّ شيء ميقات أجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت، لا يرجو أن يخلّصه من ذلك أحد، نسأل الله خير المنقلب"[٥].

وذكر الموت عند الكتاب، يستدعي ذكر الدهر والإنحاء باللائمة عليه في كلّ ما يصيب الإنسان من بلاء ومصاب، فصروفه قاسية عليهم، وتقلباته توقع الحسرة في قلوبهم.

ولا غرابة أن تجد ذكره في رسائلهم، يخاطبونه ويعاتبونه ولكن دون جدوى، يقول الخوارزمي في أحد رسائله التي عزّى بها صديقاً له:

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣١٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٦.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص١٠.
(٣) الوهل: الفزع. اللسان (وهل).
(٤) الخوارزمي، رسائله، ص١٠.
(٥)ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٢٥، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ولو كان الدهر يُجيب من خاطبه، ويُعتب من عاتبه، لاستدركتُ هذه الفِعلة عليه، ولفوّقت سِهام اللوم إليه[١]، لكنّه أصمُّ عن الكلام، صبورٌ على وَقع سِهام الملام، يختضر العِيدان، ويَهْتَصِرُ الأغصان[٢]، ويَخترم الشبّان، ويُبلي الآمال والأبدان، ويلحق من يكون بمن كان." [٣]

ولا يغفل عن بال الأصدقاء والإخوان فضل التعزية، وما يمكن أن تقوم به من أثر على نفسية المعزَّى، فالصّديق إن بُلي بمصيبة يحب أن يرى خلّه مجتمعين حوله، وهذا يخفف عنه آلام الفراق ووحشته، وتهون به عظائم الأمور، ولا بد من مفاجأة المصيبة وعظمها، ولكن المصاب يهون ويستراح منه بمثابة الصّديق، وما أحوج صاحب المصيبة إلى تسلية الأخ الشّفيق، فقد يأنس المريض إلى العائدِ وإنْ علمَ أنّه لا يملك شفاءه، ولا يدفع بلاءه، كما يتضح في رسالة محمد بن مكرّم إلى سليمان بن وهب يعزّيه عن أخيه الحسن، وهو في هذه الرسالة يبين فضل التعزية وقيمتها المعنوية، وما تصنعه بالمعزَّى، ويبين كذلك للمعزّى أنه ليس وحيداً في هذا المصاب فيقول له: "إن الرَّمَض والهَلَع إنما يكونان للمصيبة الخاصّة التي لا تعدُو صاحبَها، ولا يجدُ مُسْعِداً عليها، ولا شريكاً فيها، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشج[٤] رَحِما بك، والبعيد نَسَبًا منك، وجَمَع في ثِقْل مَحْملها، وألمَ فجْعِهَا صديقك وعدوّك، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبَال وَحْشَة، ومُنطوٍ على دخيل حزن، وناظرٌ من أعقابها في مَنْظَر وَعْر، فجميعهم فيها مشترك، وأنت بالتعزّي حقيق قمِنٌ"[٥]. [٦]

يجمع الكاتب في التعزية الأصدقاء والأعداء، فهما مشتركان في ذلك لعظيم المصاب، ولعظيم قدر المعزَّى، وإن التعزية هي أقل ما يمكن أن يفعله صديق، ولو استطاع الصّديق أن يقدم أعظم من ذلك لفعل، ولو استطاع أن يصرف البلوى عن المعزّى لفعل، ولكن خطوب الأيام مقضيّة على هذا الخلق، كما قال ميمون بن إبراهيم[٧]، حين عزّى الحسن بن وهب عن أمّه، وقدّم نفسه فداء للمعزّى، وتمنى أنه لو يستطيع دفع ما قد حلّ به فيقول :

"خُطوب الأيّام مَقضيّة على هذا الخَلْق، ولو كانت مدفوعة عن أحد، لكثرةِ مَنْ يَقِيهِ من إخوانه، ويَفْديه منهم الأخصُّ فالأخصُّ من أعِزّائه وخُلّانه، سَلِمْتَ منها وعَرِيت من مُلِمّها، وكان سَبْقي إلى ذلك أبرز سبق، وحظّي في التقدم فيه أوفرَ حظّ، ومصيبتك –أكرمك الله– بالوالدة لي مصيبة، وما نالك من ذلك لقلبي مُوجِع، ولو كان في طاقتي أن أعلم كُنْهَ ما خَامرَ قلبك من ألم

---

(١) الفوق من السّهم: حيث يُثبت الوتر منه، وهما فوقان. اللسان (فوق).
(٢) يهتصر الأغصان: يسقطها. اللسان (هصر).
(٣) الخوارزمي، رسائله، ص١٢.
(٤) وشجت بك قرابته: اشتبكت، والواشجة: الرحم المشتبكة. اللسان (وشج).
(٥) اي حقيق أيضاً، بكسر الميم وفتحها. اللسان (قمن).
(٦)ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣١٩، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٤٧– ٢٤٨.
(٧) ميمون بن ابراهيم كاتب، كان إليه خاص المكاتبات في أيام المتوكل. وكان بليغا فصيحا مترسلا وله كتاب رسائل. الفهرست. ص١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك، لحَمَلتُ مثله على نفسي، وإني أحب أن أكون أسْوَتَك في كلّ سارٍّ وغَامٍّ، ولا أتمتّع بأيام غُمومك، ولا أقصّر فيها عن مقدار حالك، فعظّم اللهُ أجرك، وجَبَرَ مُصابك، وضاعفَ ثوابَك، فإنا لله وإنّا إليه راجعون، والحمدُ لله الذي لا يُحمد على المكروه غيرُه" (١).

وكانت تدور بين الإخوان رسائل التعزية، فيقدّم أحدهم واجب العزاء، ويوصي صديقه بالصبر الذي ينال به الأجر والثواب، ومن ذلك ما كتبه عبدُالله بن طاهر إلى أبي دُلف ينحو فيه منحى الوعظ والإرشاد: "المصائب حالةٌ لا بُدّ منها فمنها ما يكون رحمة من الله ولطفاً بعبده، وآية ذلك أن يوفقه للصبر، ويُلهمَه الرِّضا ويَبْسُط أمله فيما عنده من الثواب الآجل والخَلف العاجل. ومنها ما يكون سُخْطا وانتقاما، أوّله حُزن وأوسطه قنوط وآخره ندامة، وهي المصيبة حقا الجامعة لخُسران الدنيا والآخرة... وإن يك ما نالك الآن أعظمَ مما أتى عليك في مَوَاضي الأيام، فالأجر المأمول على قدر ذلك"(٢).

لاقت الرسالة السابقة استحساناً من أبي دلف، الأمر الذي دفعه إلى الرّد عليها، مستجيباً لوعظ الأمير وإرشاده فيقول:

"إن تكن المصيبة جلّتْ، إن فيما أكرمني الله به من جميل الأمير، وما وضّح للناس من فضل عنايته وابتدائه إياي بكتبه ما عجّل العوض من المفقود." (٣) وفي كتاب آخر يقول له :

"لئن كانت المصيبة جلّت، إن فيما أبقى الله ببقاء الأمير عِوَضا وافياً وخَلَفاً كافياً" (٤).

وقد برزت عبارات الدعاء للمعزّى بروزاً يستوقف الناظر والمتصفح لرسائل التعزية، يجد أنّ الكتاب قد تفنّنوا فيها، وخرجت منهم صادقة موحية بالمشاعر العميقة، المتأثرة بالمصاب الجلل الذي أصاب خلانهم وإخوانهم، وتركزت هذه العبارات على العوض، والخلف الصالح، والأجر على الفجيعة، وعدم حرمانه منه بالجزع، يقول ابن المقفع معزياً عن بنت: "لا يَنْقُص الله عَدَدَك، ولا يَنزع عنك نَعمته التي ألبَسَك، وأحسَنَ العِوَض لك، وجعل الخَلف لك خيراً مما رَزَأكَ به، وما أعطاك خيراً مما قَبَضَ منك"(٥) وله أيضا تعزية عن ولد يقول فيها:

"أعظمَ اللهُ على المصيبة أجرَك، وأحسنَ على جليل الرُّزْء ثوابك، وعجّل لك الخَلف فيه، وذَخَرَ لك الثوابَ عليه. (٦)"

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣١٧ نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٥.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٥.
(٥) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٥٨.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ابن المعتزّ يعزّي الوزير عبيدالله بن سليمان عن ابنه أبي محمد، داعياً له بأن يعظم الله أجره، وأن يكثر عدده، ويزيده ولا ينقصه، ويسرّه ولا يسيئه، ويذكره بأن المصائب وإن عظمت، فإنها لا شيء أمام ثواب الله عز وجل- وأمام نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، فيقول : "وكلّ مصيبة وإن عظمت صغيرة في ثواب الله عليها، ضئيلة بين نعم الله قبلها وبعدها"(١).

ويلحظ على رسائل التعازي أن الصّديق يحرص على ذكر كلّ ما من شأنه أن يخفف المصاب عن صديقه، ومن هذه الوسائل اللجوء إلى وصف الفقيد أذكرا كان أم أنثى، وذلك بتعداد مناقبه، وما اشتهر به على مدى الزمان، وما يدخل السرور إلى قلب المعزّى رغم عظم مصابه، وذلك بتذكر مأثر الفقيد، تلك التي تنزل على قلبه -أي المعزّى- نزول القطر على الأرض اليباب. ومن هذه الرسائل، رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته، وقد ابتدأ الرسالة بذكر مناقب الفقيد، وكيف فقد الشباب بفقده فيقول:

"وغلبت الأيام على ذلك الحر أطرى ما كان غصنا، وأتمّ ما كان حسنا، وأبعد ما كان أملاً، وأظهر ما كان جذلاً، حتى كأن المنون أخذته خِلسة، وانتهزت فيه فرصة، وفقد الشباب الطري أكثر جزعا، وكسر العود الرّطب أشدّ وجعا"(٢).

ثم يأخذ بالترحم على الفقيد، وتعداد مناقبه فهو ذو" الخلق المعسُول، والكنَف المأهول والطعام المبذول، صاحب المرعى الخَصيب، والقلب الرّحيب، والوجه الطّلق، والجناب الغَدق، الشاب سناء وجلادا، والشيخ حلما وسدادا، الذي كان زيناً إذا دنا، وذخراً إذا نأى، وعدّة للآخرة والأولى، الذي كان يهين ماله ليكرم نُزّاله، ويبذل دينار ه وداره ليصون زوّاره، ويضحك في وجه النازل عليه عند نظره إليه، كأن الموت ينتقد الأفاضل، ويبهرج الأراذل، وكأن الآخرة تختار الأخيار، وتترك على الدنيا الأشرار"(٣).

وحين يصل إلى الفقيدة يختار لها أفضل الصفات وأعفها، بما يليق بأنثى، وهو يحرص الحرص كلّه على تعداد مآثرها بما هي أهل له، وبما تتصف به الأنثى ذات العفاف والشرف المصون، فقد كانت حياتها "عفافاً وستراً، ووفاتها ثواباً ودُخْراً، ولقد كانتْ في زمان النّجابة في رجاله غريبه، في نسائه عجيبه، والعفاف في ذكرانه معوز، وفي إناثه معجز ... فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها، وبالتراب بعد وفاتها، فأسبل الله على سيدنا سترين واستوجب منه ومنا

(١) ابن المعتز، رسائله، ص٤٨.
(٢) رسائله، ص١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له شكرين ... فرحمها الله رحمة تلحقها بمريم وآسية في الأولين، وبخديجة وفاطمة في الآخرين، وبأم الدرداء ورابعة في نساء الصحابة رحمة الله تعالى عليهم أجمعين"(١).

وقد تكون التعزية بين الأصدقاء تتعلق بصديق أخر يربطهم به روابط الأخوّة، كما يتضح في رسالة الحسن بن وهب التي عزّى بها صديقه إسحاق بن ابراهيم عن صديقهم يحيى بن خاقان، حيث كان الأمير يأنس بصداقته، ويستريح إلى خلوته، فيقول الحسن، معدداً مناقب أبن خاقان في كتاب تعزية بعث به إلى إسحاق بن إبراهيم، وهو في كتابه هذا يؤكد مأثر الشيخ، وما عرف به من حسن الصيت والمعاشرة، وقد كان خير جليس في مجلس الأمير يستأنس به، لما حباه الله من فضل معرفة لفضائل الأمير، ولا يعلم الحسن بن وهب في دار الأمير "رجلاً أصفى من جانبه، ولا أطهر من محبته، ولا غائباً كان يغيب عنها بأنقى من غيبه وسريرته، ولا أنصح من جيبه ونيته، وكان لي مع ذلك أباً بعد أبي، وكافلاً بعد من كان يكفلني، وكانت عنايته بلغتي، حتى خلطني بإخوته وأقاربه." (٢)

والمتصفح للرسالة السالفة يلحظ التركيز على الصفات المعنوية التي يرغبها الأصدقاء في أصدقائهم، ويطمح كلّ واحد منهم إلى التماس هذه الصفات، فالمودة وحفظ الغيب وكتمان الأسرار والنصح الصادق والعون كلّها مناقب وخصال محمودة بين الأصدقاء، ولذا يعزّى من فقد صديقاً يستحق اسم الصّديق.

وابن المعتز ممن برعوا في وصف الإخوان، ويتمثل هذا في رسالته التي عزّى بها الوزير عبيدالله بن سليمان عن ابنه أبي محمد، حين أخذ يعدد مناقبه ومآثره في كلّ ما وكّل إليه من مهام، فهو "قد نهض بما حمله، ووفى آماله، وأقر عينه، وغاظ حاسده، واكتسى لباس كرامته، وقام للخلافة بخلافته" (٣)

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص١٤.
(٢)ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣١٧، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٠.
(٣) ابن المعتز، رسائله، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
صورة الصديق

- صورة الصديق المثقف
- صورة الصديق السياسي
- صورة الصديق المتدين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعرض هذا الفصل ملامح الصورة التي رسمها الناثرون في العصر العباسي للصديق، سواء على المستوى الواقعي أو المثالي، ونظراً لتنوع أبعاد هذه الصورة، رأى الباحث أن يتناولها مجزأة طلباً لكمالها، فقدّم الصورة لتشمل المجتمع بطبقاته المتنوعة بدءاً من أعلى الهرم الاجتماعي ممثلاً بالعلماء والفلاسفة والقضاة والأدباء، الناثرين منهم الذين يمثلون حقبة الدراسة لا الشعراء، ومروراً بالطبقة السياسية من حاكم أو وزير أو سلطان أو وال أو غير ذلك ممن تولّوا أمور الرعية في أي شأن، فلزم العروج بطبقة المتدينين من وعاظ وزهاد ومتصوفين، وانتهاء بالطبقة الشعبية العامة، وما صدر عن الأعراب والعيارين وغيرهم ممن مثّلوا هذه الطبقة.

والناظر في المادة النثرية بما اشتملت عليه من أقوال وحكم وكتب وتوقيعات ورسائل ووصايا ومقامات يلحظ عرضاً لما يشكل صورة الصديق وأخلاقه، إما عبر جزئيات تحمل شيمة أو أكثر من شيم الأصدقاء، وإما عبر تركيبة تكاد تكون متكاملة من رسم ملامح الصورة الأخلاقية للصديق، ولذا رأى الباحث أن يقدم أبرز الظواهر الأخلاقية التي تحلّى بها الأصدقاء على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ودرجاتهم.

تنوعت المظاهر الأخلاقية التي صورها النثر العباسي ورسم ملامحها من خلال كتابات الطبقة المثقفة في المجتمع والتي بدء بها لقيمتها في الدراسة كونها تثري الموضوع، وتصبغه الصبغة الأدبية التي تليق به، فلا أبرز مما أبدعه العلماء والحكماء والفلاسفة والأدباء والقضاة ممن حسنت بلاغتهم، وجادت لغتهم، وعذب لفظهم، فتألقت ريشتهم وأخذوا يرسمون صورة متناغمة لما يكون عليه الصديق، وهو إذ ذاك يرسم ما تنمّ به قريحته عبر تجارب حياته، وزبدة معرفته، فتتلاقح التجارب والمعرفة ليولد نثراً تتناقله الألسن وتلذّ به الأعين.

أ) صورة الصديق المثقف العالم:

أولاً: الجوانب الأخلاقية

ولكي تكتمل صورة الصديق كما تصوّرها الأدباء والمفكرون في العصر العباسي، لزم الأمر أن يُنظر إلى هذه الصورة نظرة كلية، من خلال ما أبدعه الناثرون.

ولما فرغ الباحث من تعداد ملامح الصورة الجزئية كما يراها الأدباء، يأخذ بعد ذلك بعرض ملامحها مفصلة كما بدت في الكتابات والرسائل الإخوانية والقطع النثرية الفريدة. وأهم ما يميز هذا الجزء من الدراسة استيعابها للمظاهر الأخلاقية التي وُصف بها الأصدقاء، وحَرص الأدباء على تقصيها، والاحتذاء بها على المستويين الواقعي والخيالي، فإن لم توجد هذه الصورة حقيقة، قلا أقل من تخيلها وتمني تحققها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدأ الباحث بعرض هذه الصورة للصديق، كما يرسمها أبو العيناء، حين وصف صديقاً له، أخذ يعدد مناقب هذا الصديق، ويعرض المظاهر الأخلاقية التي يتسم بها صاحبه، وهو إذ يعرض هذه المظاهر، إنما يحاول رسم ملامح الصورة الأخلاقية التي ينبغي على الأصدقاء تمثلها، والأخذ بها، فصديقه يجمع بين الوفاء، وصفاء المودة وصدقها، وبذل النفس والطاعة، والتجانس الذي يؤدي إلى المشاكلة، وهو الصادق الذي إذا حدث صدق، وإن وعد أمضى وعوده، فلا تجده إلا أمينا، حافظاً للسر كتوماً له، وحافظاً لغيبة صاحبه، فلا يغيره نأي ولا فراق، ضاحك السن، مستبشر الوجه، لا يظهر خِلاف ما يبطن، فيقول: "لم أرَ من الناس وفياً بعدَ واحد كان أصفَى لي مودّته، وبذل لي مُهجته، كانَ أطوع لي من كفّي، وكنتُ أذلّ له من نَعلِه، أتكلم بكلامه، فينطق بلساني، إن قلتُ خيراً أعانني، وإن مِلت إلى سيء ردَعني، كان واللهِ إذا قال فعل، وإذا حدّث صدق، وإذا أؤتمن لم يَخُن، ضاحكُ السنّ، مُسْفر الوجه، كان إذا غابَ فكأنه شاهدي، وإذا غبت عنه فكأنه يراني، ولا ينطقُ لسانه بخلاف ما يُضمر جِنانُه" [١] .

ثم يأخذ أبو العيناء بالحديث عن التجانس والمشاكلة بينهما، إلى الدرجة التي دفعت به إلى تمني الموت، وأن ينزل به من الشقاء ما نزل بصاحبه، فهو له بمنزلة الروح من الروح، بل هو أعز عليه من نفسه التي بين جنبيه، فهما لم يفترقا إلا يوماً واحداً، وما أطول ذلك اليوم، وما أشقاه على النفس، وهو إذ يصرح بذلك إنما يمهد لما سيذكره في هذه القطعة الأدبية، مما حلّ به بعد خطف الموت هذا الصديق يقول: "ما تفرقنا طول صحبتنا إلا يوماً حسبناه حولاً، أغبط ما كنا إذا رمى الدهر، فلم يُشق إذا رمى من كان روحه روحي، ونفسه أعز علي من نفسي، فليته أصابني وأخطأه، وإذا لم يخطئه أصابني معه، فيكون موتنا معاً كما كان عيشنا معاً[٢] .

ولتأكيد فداحة الموقف، وصدق المشاعر، يمضي أبو العيناء في تصوير ما حلّ به بعد موت صديقه، وهذا مظهر أخلاقي تبرزه هذه القطعة البديعة، وتؤكده، فالصديق يفرح بفرح صديقه، ويغتم باغتمامه، فكيف إذا حلّ الموت بينهما وفرق اجتماعهما، فبموت صاحبه "مات الوفاء بعده"،[٣] وفقدت الحياة لذتها، وكل مقومات المتعة فيها، فلم يعد يلذّ بطعام، ولا يستسيغ شراباً، غمّاً له، واكتئاباً عليه، وشوقاً إليه، "فلو كنت أقول الشعر لرثيته آخر الدهر، ولأتعبت بالقوافي الكاتبين" [٤].

وليس من الغرابة في شيء أن نجد الكاتب يشكو تغير الحال بعد فقده صديقه، واستشناع كل العلاقات التي كانت بعده، وما هذا إلا لكشف صدق مشاعره تجاه صديقه، ولم يعد قادراً على إيجاد من يكون بمثل أخلاقه وشيمه، وقد بُلي بعد صاحبه "بمن إذا أحببتُه أبغضَني، وإذا وَددتُه

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاداني، وإن أقبلتُ نحوَه ولّى عنّي، فهو كالذئب والغراب، ما للذئب يَناله الغراب، وما للغراب فالذئب لا يطمع فيه، حسبكَ به غادراً، تراه عن الوفاء مُبطئاً، وإلى الخيانة مُهَمْلجا. (١)

وهذا خالد بن صفوان(٢) يموت صديق له، فيصور شيمه وأخلاقه التي كان يتحلى بها، ويركز على الجوانب المعنوية والمادية، التي يلزم توافرها، حتى تتوثق الصداقة بين الصديقين، فصاحبه -يرحمه الله- كان "يملأ العين جمالاً، والأذن بياناً، ولقد كان يُرجى ولا يَخْشَى، ويُخْشى ولا يَخْشى، ويُعطِي ولا يُعْطى، قليلاً لدى الشر حُضُوره، سليماً للصديق ضميره." (٣)

وصدق الضمير مما يوثق هذا الرابطة، ويقوي عضدها، والإنفاق علىالإخوان والأصدقاء دون انتظار مقابل لهُوَ من كرم الأخلاق وحسنها، وهذا ما يؤكده خالد بن صفوان في كلماته الموجزة تلك.

ويقف الباحث في رسم هذه الصورة الكلية عند رسالة ابن المقفع الأديب، يصف فيها أحد إخوانه، وهو لا يصف صديقاً بعينه، إنما يحاول أن يمثل ما ينبغي أن يكون عليه الصديق، وهو بلا شك يرسم الصورة المثالية، التي يرغب فيها كل إنسان، وهو حين يرسم هذه الشيم الأخلاقية يعلم مسبقاً، بصعوبة تحققها مجتمعة، ولكن لا أقل من تحقق بعضها، والاجتهاد على الاحتفاظ بها، لذلك يقول: "فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها -ولن تطيق- ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.(٤)

وهكذا يرى ابن المقفع أن الصديق ينبغي أن يكون حازماً وشديداً، فلا تتلاعب به شهواته، فتقوده إلى ما فيه هلاكه، ومن ثم تقويض روابط الصداقة، التي تربطه بأصدقائه، فالدنيا في عينه تبدو صغيرة، لا قيمة لها، وهذا ما يجعله عظيماً في عيون الآخرين، كما أنه يتحلى بالقناعة، "فلا يتشهَّى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد"(٥)، وهذا الصديق عفيف الفرج لا يدخل مداخل الشبهات والريب.

ثم يأخذ ابن المقفع في الحديث عن عقل صديقه، وهذا هو شأن الأدباء الذين حرصوا كل الحرص على تحقق العقل شرطاً أساسياً في الصداقة، وحذروا من صداقة الجاهل، لما قد تسببه هذه الصداقة من مضار وكوارث تلحق بالصديقين، فصديق ذو عقل كبير، وذو رؤية ثاقبة،

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٦، ومهملجا: مشى مشية سهلة في سرعة.

(٢) خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو بن الأهتم التميمي: من الأدباء الفصحاء النجلاء، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالكوفة . توفي سنة ١٣٣هـ. (وفيات الأعيان، ج١، ص٢٣٤. معجم البلدان، ج٤، ص٣٨٧).

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٤، ص٩٢.

(٤) ابن المقفع، الأدب الكبير، ج٣، ص١٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدرك محاسن الأمور، ومواقع الصواب،"فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم."[١] والمِراء من الأمور التي تفسد الصداقة، وتَفُتّ في عَضُدِهَا، لذا جنب هذا الصديق نفسه المراء، والجدال فيما لا يعلم، وما ذاك إلا لخروجه من سلطان الجهالة، واستمتاعه بنعمة العقل، التي لا ينعم بها صاحبها وحده، إنما يشاركه نعمته هذه من صادقه، فالعقل يدفعه إلى التماس الشيم التي تحببه إلى الناس، والصمت من هذه الشيم، فما اقل كلامه، وما أكثر صمته، فهو لا يتكلم إلا حين تستدعي الحاجة، وإذا تكلم بَدّ القائلين، وفاقهم بسعة علمه، وحُسن خلقه، و "كان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يَرَى قاضياً فهمًا، وشهوداً عدولا."[٢]

ولا ينسى ابن المقفع أن يعرج على مظهر العفو والصفح والتسامح، وهو ذلك المظهر الذي تؤكده الصداقة الحقة، ويحتاج إليه الأصدقاء فيما بينهم، وهذا الصديق الذي يتحدث عنه ابن المقفع من أهل العفو والتسامح، وكظم الغيظ، "فلا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره."[٣]

ويمضي ابن المقفع في حديثه عن مناقب صديقه، وما يحسن التحلي به لدى الأصدقاء، فالصديق يعلم كيف يختار صديقه، ويعلم أين يضع ثقته، وممن يطلب مسألته وحاجته، ولذلك من حسن العقل والتدبر ألا يسأل الصديق من لا يثق به، ومن لا يقدر على تلبية حاجته وقضائها، والصديق ملاذ الصديق، ومستودع سرّه ومحطّ همه وشكواه، فالمباثة والمصارحة تكون الراحة بينهما، فلا يشكو الصديق إلا لمن يرجو البُرء عنده، وهذا حال صاحب ابن المقفع الذي يقول فيه: "وكان لا يشكو وجعه إلا من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة."[٤]

وفي ختام كتابه يؤكد مظهر الإيثار والمروءة، وذلك أن يبلغ الأمر بالصديقين مبلغ التوحد في كل شيء، فيكونا نفساً واحدة، وجسداً واحداً تتفق الرغبات والحاجات والنزوات بينهما، وحين يحب الصديق لصديقه ما يحبه لنفسه، تكتمل الصورة الإيجابية، وتتوثق الرابطة، ويعم الخير عليهما، وتتجاذب النفوس على المحبة والطاعة، فيغدو أحدهما "لا يَخُصّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه، وحيلته، وقوته." [٥]

---

(٦) ابن المقفع، الأدب الكبير، ص١٢٩.
(١) ابن المقفع، الأدب الكبير، ص١٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٩.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٩.
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب ، ج٣، ص٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذا يكون ابن المقفع قد رسم صورة لما يكون عليه الصديق، أو بعبارة أدق لما يطمح أن يكون عليه، وهو في كتابه هذا يؤطر صورة الصديق المثالية، ويحدد لها مؤكداتها وظواهرها الأخلاقية، التي يدعو إلى الاحتذاء بها، وتمثل جوانبها قدر المستطاع.

ويبقى الباحث مع ابن المقفع فيما رسمته ريشته من صور بديعة، لما ينبغي أن يكون عليه الأصدقاء، من أخلاق، وطبائع تضمن لهم دوام هذه الرابطة، فهي رسالة يكتبها إلى يحيى بن زياد الحارثي"، يطلب فيها مؤاخاته، يبرز المظاهر الأخلاقية التي يتسم بها صديقه يحيى، الأمر الذي أغراه بمصادقته وإخائه، وكما تبرز هذه الرسالة مأثر يحيى ومناقبه، فإنها تؤكد براعة ابن المقفع في تجسيد هذه المأثر، واستغلال هذه البراعة الأسلوبية والمقدرة اللغوية في تحقق مراده ومرامه.

يبدأ ابن المقفع رسالته بمقدمة عامة لا مخصوصة، يعرض فيها ما يكون عليه الأصدقاء عادة من صدق الود، وكرم الخلق، الأمر الذي يحقق لهم الذكر الطيب، حيث يكون مثلاً يُحتذى، وخُلقاً يقتدى، خاصة وأن الناس لا تذكر بالخير إلا من كان الخير دأبه وطبعه، عند ذلك يأخذ الناس بتخير من كانت هذه طبائعهم وسجاياهم، ويحرصون الحرص كله على مصادقتهم ومؤاخاتهم، ليس هذا فحسب بل يكون البذل والجود بكل ما تجود به النفس، من صدق في المحبة والمودة، فيقول: "أما بعد، فإنّ أهل الفضل في اللب، والوفاء في الودّ، والكرم في الخُلق، لهم من الثناء الحَسن في الناس لسان صدق يُشيد بصدقهم، ويُخبر عن صحّة وُدّهم، وثِقة مؤاخاتهم."[١]

ثم يأخذ ابن المقفع ينسب هذه المأثر إلى صديقه يحيى، وهي لفتة لطيفة منه، حيث جعل صديقه موطن هذا الإطراء، الأمر الذي دفع بالإخوان إلى التنافس، والتسابق في مؤاخاته، لأنه أهل لذلك، ولأن فضله يغمرهم، ومن وثق به فهو في شعب مأمون، وهو ذو حظ وفير، ولا ينسى الأديب أن يجعل صاحبه من أهل حفظ العهود والكرم، وحين يفعل ابن المقفع ذلك، مصرّحاً بهذه الخصال كأنه يقدم لطلب المؤاخاة، ويضع بين يدي صاحبه ما دفعه إلى التماس مودته، والاستمتاع بمؤاخاته، ولا يفوته أن يؤكد كل ما من شأنه أن يحبب هذا الصديق به، فلا يرفض له طلباً، ولا يعصي له أمراً، وفي ذلك يقول: "فإني لم أدع شيئاً أستَمِلي به منك الرغبة، وأجترُّ به منك المودّة، إلا وقد اقتدتُ إليك ذريعتَه، وأعملتُ نحوك مطيّته، لترى حِرصي على مودتك، ورغبتي في مؤاخاتك"[٢].

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠١، نقلا عن صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٤-٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخذ ابن المقفع يبين لصديقه، أو بعبارة أدق -لمن يطلب مصادقته- بأن فضله وكرمه فاق الجميع، وتجاوز الحدّ، فهو سبّاق إلى الخير، يكافئ الآخرين، ويتفضل عليهم دون انتظار لمقابل، وما ذاك إلا لعجز الآخرين عن الإتيان بمثل فضله وكرمه، ولذا لزم ألا يظن ظان أن من "صادقك جاراك، ومن آخاك ماثلك في جودك ومأثرك، ولو كنت لا تؤاخي من الإخوان إلا من كافأ بودك، وبلغ من الغايات حدّك، ما آخيت أحداً، ولصرت عن الإخوان صفراً، ولكن إخوانك يقرون لك بالفضل، وتقبل أنت ميسورهم من الود، ولا تجشمهم تخلف مكافأتك، ولا بلوغ فضلك، فيما بينك وبينهم، فإنما مثلك في ذلك ومثلهم كما قال الأول:

ومن ينازع سعيدَ الخير في حَسَبٍ يَنْزع طَلِيحاً وَيُقْصِرْ قيدَه الصَّعَدُ"[١]

وكأن ابن المقفع أدرك حين وصف صاحبه ما قد يجعل هذا الصاحب يظن ظن السوء، فيذهب هذا الإطراء مذهب النفاق والملق، وأنه لم يقل ما قاله إلا تقرباً، ونفاقاً، علّه يحقق بذلك المؤاخاة التي نشدها، ولذا فهو لم يؤخر دفاعه، ولم يترك للظنون مجالاً، كي تحلّ في رأس صاحبه، فتحرفه عن مراده ومبتغاه، فأخذ يبين له بأنه تحرّى الصدق في كل ما ذهب إليه، فيقول: "ولم أُردْ بهذا الثناء تزكيتكَ، ليكونَ ذلك قُرْبة عندك، وآخيةً[٢] لي لديك، ولكن تحرّيتُ فيما وضعتُ من ذلك الحقّ والصدق، وتنكّبتُ الإثم والباطل." [٣]

وكدأب ابن المقفع دائماً يُغني رسائله وكتبه بالمواعظ والعبر والدروس، فهو في رسالته هذه يتحدث عن الصدق والكذب، موظفاً لهما لخدمة مطلبه، ولتوثيق قوله، ليكون حجة دامغة على صدق ما ذهب إليه، ولذلك يقول: "فإن القليل من الصدق البريء من الكذب، أفضل من كثير الصدق المشوب بالباطل."[٤] فهذا الحديث وهذه العبارات من شأنها أن تنفي كل الظنون، التي قد تتبادر إلى ذهن صاحبه من عدم تصديق قوله.

ومن هذه الحجج التي أخذ يثري بها رسالته لتكون دليلاً على صحة مذهبه، ما نعت به صاحبه من رجاحة عقله، ووصفه إياه باللبيب، الأمر الذي يعين على نفي العُجْب، "وخُيَلاء الكِبْر، ويحمله على الاقتصاد والتواضع." [٥]

وفي ختام رسالته يؤكد لصاحبه ثانية ما دفعه إلى طلب مؤاخاته، والتماس مصادقته، علّه يظفر بهما، فيتحقق نصيبه من الود ودوام العهد، وهو إن لم يغتنم هذه الفرصة، فيكون أول

---

(١) طلح البعير كمنع: إذا أعيا وسقط من السفر، فهو طليح، والصّعد: المشقة. اللسان مادة (طلح)

(٢) الأخية بالتخفيف والتشديد: مثل عروة تشد إليها الدابة، ومعناها هنا وصلة وقربة. اللسان مادة (أخي).

(٣) تنكب: عدل وتجافى. اللسان مادة (نكب).

(٤) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠١، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٦.

(٥) المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتسابقين إلى وده ومصادقته، فهو الغبن عينه، والجهل ذاته، "لأن التارك للحظ داخل في الغبن، والعائد عن الرشد موجف إلى الغَي."[١]

وعندما قرأ يحيى بن زياد "رسالة ابن المقفع، التي يطلب فيها مؤاخاته، كتب إليه برسالة[٢]، جمع فيها بين الفصاحة والبلاغة من جانب، وبين رجاحة العقل وحسن الرد من جانب آخر، وكما أن ابن المقفع بدأ رسالته بمقدمة عامة فكذا ابن زياد، حين قدّم لرسالته بمقدمة طويلة قربت من نصفها، تناول فيها المظاهر الأخلاقية التي ينبغي أن يلتمسها الأصدقاء في صداقاتهم، وأولها الوفاء، حيث يرى أن الإخاء لا يستحق هذا الاسم إلا بتحقق هذا المظهر الأخلاقي، والوفاء لا يكون إلا بالصبر الذي يضم الكرم والنجدة والصدق، والحياء، والنجابة، والزكانة، وغيرها من المحامد التي لا يأتي مقام الرسالة على ذكرها، فاكتفى بهذه المحامد، ثم بين بعد ذلك أن الإخاء لا يقوم إلا من هذه الخصال كلها، الأمر الذي جعل بعض الناس يوجسون من الإخاء خيفة، فقعدوا دونه، واحتبسوا عنه، خوفا من الندم بعد بذله، ولقد كان يحيى واحداً ممن احتسبوا إخاءهم، وهو يتردد من إخاء ابن المقفع، وقد بدا هذا التردد جليا في معرض رسالته، وذلك بعد أن صنّف الناس بعد الاحتباس عنهم من الإخاء إلى صنفين: "صِنف عذرونا بالتحبّس للتخيّر، إذ كان التخير من شأنهم، وصِنف هم ذوو سُرعة إلى الإخاء، وسُرعة في الانتهاء، فقدّموا اللائمة، واستَعجلوا المودة، وتركوا باب التروية، واستحلُوا عاجل المحبّة، ولهوا عن آجل الثقة، فكانوا بذلك أهل لائمة، ولم يجد المعْذِرون إلا الصبر على تلك، والاستعمال للرأي، والاستعداد بالعذر عند المُحَاجّة."[٣]

وقد غدا ابن زياد من المترددين في قبول مؤاخاة ابن المقفع، رغم اعترافه بتأثير رسالة ابن المقفع فيه، إذ حركت فيه مشاعر الشوق إلى لقائه، ومصادقته"، فنازعتْ إليك نفسي بمثل الذي نازعتْ إلي نفسك" ولكنه مع ذلك حكّم التروّي والخبرة، فجال عن الكتاب مرتين متواليتين، ثم عاوده التشوق، وعصى تحيّره، فما كان منه إلا إطاعة شوقه، وتقديم طرف حبل الإخاء، "في غير الخروج في سبيل التخير."[٤] ولكنه يستدرك ويطالب صاحبه أن يتمهل، مشترطا عليه حسن المَلَكة، وعدل السيرة، وعَقْد اللُب، وأن "تستمكن بي في المطالب، قبل أن أعرفك بقصد الهمة."[٥]

---

(٦) المصدر نفسه.

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠١، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص٤٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ختام رسالته يرحب بابن المقفع صديقا صدوقا، ينعم به ويلذ بقربه منه، ولا بد من اللقاء الذي يكشف حقيقة صدق الإخاء، فإن أثمر اللقاء ما تطيب به نفوس الأصدقاء، كانت المؤاخاة وتحقق عند ذلك لابن المقفع ما طمح إليه، وذاق ما تشوق إليه، مما ادعى لصديقه من المآثر والتفضل على الإخوان.

ويبقى الباحث مع ابن زياد في هذه الرسالة التي كتبها إليه أبو نصر الرّقاشيّ في الإخاء، يعرض فيها مناقب ابن زياد، ومآثره التي عرف بها في الصداقة، ونلحظ الكاتب يؤكد المظاهر الأخلاقية التي وسم بها صديقه، فهو كريم الأخوة، لا يتوانى في تقديم النصح والإرشاد لأخيه، يأخذ بيده إن أصاب، ويقوّمه إن أخطأ، ويعلمه ما قد جهله، وبذا يكون من ذوي الفضل والإنصاف، ممن ينعم الإخوان بمودته، ويلذون بقربه، وما ذاك إلا لكريم فعاله التي هي فعل ذي الشرف بذي الشرف، وفعل الوالد ذي النعمة، فكان باراً بإخوانه، لطيفاً بهم، ينزلهم منزلة الإخوان، فيكون لهم بمنزلة الأب الكريم، ويكفيهم الهم بإذن الله، ويسدد عنهم ثلمة البعيد.

ولذا لزم أن يقابل الكاتب الإحسان إحساناً، والعرفان شكراً، وهو -كما يبين في رسالته هذه- مدرك لقيمة الشكر، والاعتراف بالفضل، ولذا يقول: "لم أتحلل من عقدك عُقدة، ولم أزدد من فضلك إلا وفراً، ولم يقصّر بي عن أداء حقك، والمحافظة عليه، وعلى ما يجب من المعرفة بفضلك، تضييع الأمانة، ولا نسيان النعمة، ولا نقصان الشكر. فقد علمت أن لك عني الشكر رأياً، وفي استخراجك الشكر مني دليل على أني من أهله إن شاء الله." [١]

وفي ختام رسالته يبين له أن شكر الصديق من الوفاء، ولكنه يطلب عفو صديقه على تقصيره، إذ لم يكن الدّهر له معيناً على ذلك.

ويأتي جواب "يحيى بن زياد"، يحمل في طياته بعض اللوم، والعتاب، والتقريع، ولا ينوي الباحث الوقوف على جزئيات هذا التقريع واللوم، بل يتجاوزها وصولاً إلى ما حملته الرسالة من عرض للمظاهر الأخلاقية للصديق الناصح، والمتصفح لرسالة ابن زياد يلمح فكراً منظماً، وعقلاً ثاقباً يجعله قادراً على اختيار ما يوثق روابط الصداقة بين المتصادقين، وأول ما يلحظ في رسالته وقوفه عند مسألة الشكر بين الأصدقاء، فهو يرى أن الصداقة الحقيقيّة لا تؤدي بالشكر إلى درجة الإذلال، أو العذاب، "فإنه من يتخذ أيادي الإخوان عذاباً على نفسه، ووقراً[٢] على

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٧، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب ، ج٣، ص٧٠، ٧١،
(٢) الوقر: الحمل. اللسان (وقر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوته، فقد تعرّضَ لمعاودة بعض الأدب، للاستزادة من الأوْقار المُغْتَمِّ بها، الملول من حملها، وبئستْ اليدُ يدٌ جريرتها استثقال الكتب، وضيق الذراع من فوائد الأحبة.

وبعد ذلك يطرح موضوع المودة، ويربطها بالعقل، الذي به تُعْظَم منزلتها، وقد جاء حديثه هذا رداً على صديقه، الذي يشكو إليه قلة حيلته، وإبطاء الدهر عنه بالتقوية على مساعدته، مما دفع بابن زياد إلى تأكيد ربط المودة بالعقل، وهذا أمر يفوق العون المادي، ويعلوه منزلة، ولذا أخذ يبين لصديقه أن "العقل يكسب المال، وأن المال مَعْجوز به عن مَكسبة العقل، حسبي وحسبك ممن لم تكن له أخاً أن تجعله أخا، وحسبنا ممن كان بعيداً أن نجعله قريبا، وحسبنا من المخالفين أن يكونوا موافقين." (١)

وفي ختام رسالته يبين له أن الالتزام بحسن الخلق بين الأصدقاء، كان يصل بالصديق إلى درجة تجعله يكره أن يعد إخوانه الوفاء، "فيضر اختلاط المواعيد بصادق النية المكسوب عليها، مع ما في المواعيد من التغرير بالعجز عنها، وما في الزمان من الخيانة لأهله، وما في الاختلاط من الضعف."(٢)

ويرسم إخوان الصفاء صورة للصديق الذي لا يتلوّن مع أصدقائه، ولا يتغير خلقه مع إخوانه، وذلك لأن كلّ صداقة تكون لسبب ما "فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة، إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض، ويرث بعضهم بعضاً." (٣) وهذا يؤدي بهم إلى التشاكل وتوحّد النفس، مع تباين الأجساد وافترافها، "فكيف ما تغيرات حال الأجساد بحقيقتها، فالنفس لا تتغير ولا تتبدّل." (٤).

ووفق نظر إخوان الصفا فالإحسان إلى الصديق لا يصحبه منٌّ ولا أذىً، لأنه حين يحسن إليه فكأنما يحسن إلى نفسه، وإن أساء إليه أخوه، لم يقابله بالإساءة، ولم يستوحش منه ، "لأنه يرى أن ذلك كان منه إليه. فمن اعتقد في أخيه مثل ذلك، واعتقد اخوه فيه مثل ذلك، فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته أن يتغير عليه في يوم من الأيام بسبب من الأسباب، أو بوجه من الوجوه(٥).

ومجدداً يقف الباحث مع ابن المقفع في بعض الوصايا التي يقدمها للناشئة، وتحمل في ثناياها الحث على التحلي بمكارم الأخلاق، لما تكسبه للمرء من الخير الكثير والسداد، فيكون

---

(١) رسائل إخوان الصفاء، ج٤، ص٤٧-٤٨.
(٢) ابن طيفور ، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٧، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٧٤.
(٣) رسائل إخوان الصفاء، ج٤، ص٤٧-٤٨.
(٤) المصدر نفسه ، ج٤، ص٤٧-٤٨.
(٥) المصدر نفسه،ج٤، ص٤٧-٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"محبوباً كذلك عند أهل الفسق، وأصحاب الشر والفجور، وتستحكم وترسخ مودته في ضمائر عموم الناس، وخواطرهم، وتستقر محبته في قلوب الطوائف، ويثنون عليه ويحمدونه في جميع الأفعال، ويذكرونه بالخير في رسائلهم." (١)

وهو بهذه الأخلاق يكسب الأصدقاء والخلان، ويحصل على الأحباب والإخوان، ممن ينتفعون بصداقته ومعاشرته، فيبادلونه المودة والتسامح والمواساة في احتمال المشقات، والتكفل بعوارض المهمات، ويشاطرونه همه، ويعينونه، ويتحملون ما يصدر عنه.

ثم يتابع وصاياه بما يضمن سلامة هذه الرابطة، وصيانتها مما قد يشوبها، فتراه يحذر من التماس ذميم الأخلاق وسيئها، كالضجر، والتبرم، وقلة الصبر في الأمور، فهذه خصال وعادات منبوذة، ومن كانت دأبه وطبعه، فإنه "لا يستقيم له أي صديق، ولا تدوم صداقته، وينفر منه جميع الناس، ويتجنبون مخالطته"(٢).

ويعرض "العتابي" الأديب بعض المظاهر الأخلاقية التي تلزم المتصادقين، ولا تكون الصداقة إلا بها، حيث تجمل وتطيب، ويجني المتصادقون ثمارها، فينعمون بها، ومن هذه المظاهر الأخلاقية كرم الأخوة وكمال المروءة، وهما سجيتان تصلحان لكل زمان ومكان، وبهما يعيش المتصادقان حياة تملؤها السعادة والهناءة، فالصديق كريم الأخوة ذو المروءة يحفظ أخاه في غيبته، ويخلفه خيراً في أهله إن غاب عنه، "فهو إذا حضرتَ كنفكَ، وإذا نكرتَ عرفكَ، وإذا جفوتَ لاطفكَ، وإذا بررتَ كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية(٣)، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثته استرحت." (٤)

تشكل كلمات الأديب أجزاء الصورة الأخلاقية، والمتصفح لها، يلمح تأكيده حسن معاملة الصديق متجاوزاً مبدأ المقابلة بالمثل، فلا يكون الإحسان إلى الصديق منوطاً بإحسانه، ولا الإساءة إليه منوطة بإساءته، لذا لزم على الصديق أن يديم إحسانه ووصله، حتى وإن أساء الصديق، وهجر.

فالصديق يحتاج من صديقه الملاطفة والمبائة، والبشر في حضوره، لما يحققه هذا السلوك الإنساني من إدخال السرور إلى نفس الصديق وقلبه، فيأنس بهذا الاستبشار، ويستريح بهذه

---

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٧-٤٨..

(١) رسائل إخوان الصفاء ، ج٤، ص٤٧-٤٨.

(٢) كففت من غربه أي من حدّته، اللسان مادة (غرب) العادية: مؤنث العادي وهو العدو والجمع عُداة. اللسان (عدو).

(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٤٤- ٤٥. لأبي السائب عتبة بن عبيد الله القاضي كلام يشبهه في الصداقة والصديق، ص١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المباثة، قيل لابن المقفع: بأي شيء يعرف الأخ؟ قال: "أن ترى وجهه منبسطا، ولسانه بمودته ناطقا، وقلبه ببشره ضاحكا." (١)

ولا ينبغي – كما يرى العتابي– ان يكون للوشاة دور في تقويض هذه الرابطة السامية، ولذلك يقول: "لا أحبّ رجلاً نقل إليّ ما كرهتُ عن صديقي فغيّرني له، ولا عن عدوّ فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستح بأن واجهني بما ساءَني سماعُه."(٢) فهذا شأن الوشاة يسعون دائما للإفساد، وما همهم إلا تدمير العلاقات الأخوية عن طريق بثّ سمومهم في المجتمع، وبين أفراده، فلعل غافلاً يستجيب لمطامعهم، ويُصغى لأقوالهم، إلا أن بعض فئات المجتمع لا تزال ظاهرة علىالحق، عارفة للخير، مؤمنة به، تَصُمّ آذانها عن أقوالهم، وترد الكيد إلى نحورهم، وتقابل سعيهم بالرفض والإعراض والإنكار، وهذا هو حال العتابي الأديب حيال هذه الفئة الباغية لنفسها، الجانية على غيرها.

وتحمل رسالة أبي تمام الزينبي، التي كتبها إلى صديق له بعض المظاهر الأخلاقية المحمودة بين الأصدقاء، وترسم صورة الصديق الأديب الذي يطمح إلى توثيق الرابطة الأخوية عبر أدائه لحق الأخوّة، وقيامه بما هو لازم لاستمرار هذه العلاقة، وقد تناولت هذه الرسالة موضوع العتب بين الأصدقاء، حيث يرى أبو تمام أن الصداقة الحقة، التي تلتقي فيها أرواح المتصادقين، فيتبادلان مشاعر الودّ والمحبة، ويعيشان معا حلاوة الحياة ومرارتها، يراها تتجنب العتب على أن يكون بين المتصادقين من تقصير تجاه أحدهما، لما يحدثه العتب في الصداقة، "من قدح في عينها، ونحت لجانبها، وخدش لوجهها."(٣) ولذا لزم أن يكون العتب محظوراً، وأن يعذر صاحب التقصير، فلا يجوز للصديق أن يتتبع هفوات صديقه، ويقف عندها محاسبا ومعاتبا، ولا حاجة بنا للوقوف عند هذا المظهر من صفح الصديق، فقد سبق القول فيه، في موضعه من هذه الدراسة.

ومظهر أخلاقي أخر يقف عنده أبو تمام يتمثل في الرفق بالصديق، والحيلولة دون تكليفه ما لا طاقة له به، وما هذا إلا من كرم السجايا، ونبل المروءة، "وأنا أعوذ بالله من أن يَرِدَ على أحدنا من صاحبه ما لا يطيق، أو يعدل بصاحبه من السَّعة إلى الضيق."(٤)

---

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٨.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص١١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٢- ٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المظهر الثالث، فهو ما نعت به صاحبه من صدق اللسان، وسلامة العقل، وعلو منزلته وشرفه بين الناس، وهذه صفات يزين أبو تمام بها صورة صاحبه، فيبدو ذلك الصديق الذي يفخر بصداقته، ولا شيء في حياته يعدل التصافي بينهما، "ما يقوم لي شَعْث ما بيني وبينك في المنام، بحيازتي جميع الأماني في اليقظة"[١].

فيأتي جواب ابن معروف على رسالة صديقه، مؤكداً المعاني الأخلاقية التي ذكرها صديقه، ومشيراً إلى إحاطة الحال التي بينهما بالنفس والروح، وأنه لا يمكن لأي طارئ أن ينغص العلاقة التي بينهما، أو يفسد عليهما سرورهما، وما ذاك إلا للرأفة والرحمة التي وكلت بهما، وللثقة التي احتضنت حاليهما، "فالنفس إلى كل ما يرد منها، أو يصدر إليها ساكنة."[٢]

وهذه صورة جميلة يقدمها ابن عبيد الكاتب "لصديقه" ابن الجمل الكاتب في رسالة كتبها إليه يتحدث فيها عن مؤكدات الصداقة التي تقوي هذه الرابطة، وتدفع بعجلتها نحو التقدم والاستمرار، فصاحبه هذا يظهر في هذه الرسالة بأخلاق مثالية، الأمر الذي زاد من متانة هذه العلاقة، ودفع بابن عبيد إلى وصف صاحبه بما يتناسب وأخلاقه الحميدة، حتى لكأنه حين يوصف له، يرى وصفه "ما لا يراه أحد من البشر لأحد من البشر".[٣] وهو طيب الذكر عبقه، كريم الأخوة، لا يتوانى في حقوق إخوانه، ولا يقصر عن القيام بواجباته، ومن كانت هذه حاله، وأخلاقه فلا سبيل لحاسد يفسد ما صلح بينهما، وليس لمتكلف عليهما دليل.

ثم تأتي رسالة ابن الجمل "رداً على رسالة ابن عبيد، عارضاً فيها أخلاقه ومناقبه، معترفاً بفضله وحسن خلقه، مادحاً أدبه وسحر لفظه، وحسن عقله، وإنصافه وعدله، وهذه الأخلاق تروق له، وتدفع به إلى تقديم شرف الولاء والطاعة لصديقه، والائتمار بأمره، والتشرّف بمناجاته، والانتساب إليه إذا قبله، والاعتماد عليه إذا أذن له، فكيف "ونحن نجتمع في نصابونجتلي في نقاب، ليس لنا في إخلاص المودّة شريك، ولا يتقدمنا فيها ضريب، وما أسأل الله بعد هذا كله إلا دوامها، وصرف العيون عنها، ومد الإمتاع بها، وسكون النفس والروح إليها." [٤]

ويقف الباحث وهذه رسالة "أبي النفيس" كتبها إلى صاحب له كان يغشاه كثيراً، ويباته طويلاً، وهو في هذه الرسالة يقدم صورة الصديق الناصح وأخلاقياته، موصياً فيها صديقه ألا

---

(٤) المصدر نفسه، ص٨٣.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون ممن لا يقبلون النصح والمشورة، فيغضبون إن نُصحوا، والصديق أقدر الناس على فهم صديقه، ومعرفة ما يكون من أحواله وأفعاله، لكثرة الوقوف على دقيق أموره وجليلها، ولذا فحري بالصديق أن يقدم النصح ولا يتوانى في ذلك، ويلحظ في هذه الرسالة ما يتوجب على الطرفين اللذين يتجاذبان أطراف هذه العلاقة السامية.

فالصديق إن نَصح، وجب على الطرف الآخر أن يتقبل نصحه، مصدقا قوله ومشورته، وألا يغضب منه، لأنه لم يرد له إلا الخير، وصلاح أمره كله، والأخلق له أن يبدي البشاشة في وجهه، ويشكره على وعظه، ونصحه لما يحدثه الشكر بين الأصدقاء من تقوية لهذه العلاقة، واستزادة في كل ما يجمل بين المتصادقين.

ثم يؤكد "أبو النفيس" بعد ذلك أهمية الثقة ودورها في نماء هذه العلاقة، فإن وثقت بصديقك، أدركت حقيقة مشاعره، ومراده من تقديم النصح والوعظ لك، وعرفت أنه لم يرد بك إلا خيرا، وعند ذلك ستأخذ بهديه، وتسير على نهجه في سلوكه وأخلاقه، فالقرين بالمقارن يقتدي، ولا ينسى أبو النفيس تذكير صديقه بما يتوجب عليه، من مشاركته في السراء والضراء، وهذا مبدأ أخلاقي تجمل به الصداقة، وتصل أرقى درجاتها، وفي ختام رسالته يبين له دور هذه الأخلاق وأهميتها في تحقيق السعادة، وعلو الشأن، "فمتى ظفرت بهذا الموصوف، فاعلم بأن جدّك قد سعد، ونجمك قد صعد، وعدوّك قد بَعُدَ[١]."

ويظهر الحوار الآتي بين "البنوي" والتوحيدي الصفات المطلوبة عند الصديق، والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها، وذلك حين سأله التوحيدي عمن يحب أن يكون صديقه فقال: "من يقيلني إذا عثرتُ، ويقوّمني إذا ازوررتُ، ويهديني إذا ضللتُ، ويصبر عليّ إذا مَللتُ، ويكفيني ما لا أعلمُ، وما علمتُ."[٢] فهذه الصفات من محاسن الأخلاق، والناظر في الكلمات السالفة يلمح عناية خاصة من الأدباء لبعض القيم الأخلاقية، التي تسمو بالصداقة، كالصبر والمواساة في النفس والمال وإغاثة الصديق، ووعظه، والقيام على أموره وشؤونه، ومراقبته في حركاته وسكناته، لكي يكون الصديق بحق مرآة صديقه، فيرى فيه ما لا يراه في غيره.

وهذا "إبراهيم بن سنان الحرّاني"[٣] يكتب إلى صديق له، كان قد دُهِلَ عنه وجفاه، مما دفع بإبراهيم إلى تذكيره بما يتوجب على الصديقين، وقد ظهر في رسالته هذه بمظهر الصديق ذي الأخلاق النبيلة، الذي غلبه اليقين من صديقه على الظن به، وما هذا إلا للثقة التي تعاشرا عليها،

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(٣) ابراهيم بن سنان الحرّاني، يكنى أبا اسحاق بن ثابت، توفي عن سن قليلة، وكان فاضلا في علم الهندسة، ولم يُرني زمانه أذكى منه، وهو من تلاميذ ثابت بن قرّه الذي توفي سنة ٢٨٨هـ كما ذكر ابن النديم. الفهرست، ص٣٣١-٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباحث تناول هذه الرسالة على طولها، لما فيها من تكاملية الصورة، وعنايتها برسم الجزئيات الأخلاقية، رسماً تفصيلياً يكاد يصل درجة التكامل في الوصف، والناظر في هذه الرسالة يكاد يصنفها ضمن رسائل التشاؤم، لما فيها من توجع وشكوى من الزمان، ومما أحدثه من تحول وتغيّر في أخلاق الأصدقاء وطبائعهم، و "كأنّ الزمان يخصّ أهله من كَدَره ونكَده بما لا يعمّ به غيرهم، فما تشاء أن ترى ذوي صَفاء قد فرّقت بينهما نوىً فحصلا من التزاور على التكاتب، ومن أنس الاجتماع على وحشة الافتراق، ومن بهجة اللقاء إلى لدغة الشوق، وكثرة التَّوق، ومن راحة المُباوحة والمفاوضة على ضيق الصدور بالأسرار، وكرب النفوس بالكتمان... فاجتماعهما في معنى التفرّق، وقربهما في صورة البُعْد" (١)

وبعد ذلك يبدأ يتحدث عن الصنف الأول من الإخوان، ويسميهم إخوان اللقاء، وعبيد العيون، الذين تجمعهم الرغبة والرهبة، وهم ممن يعيشون، ويتعاشرون بالتستر، فلا يجمعهم الشوق إذا افترقوا، ولا يزيدهم اللقاء ابتهاجا، ولذا لا يتحقق الأنس بينهما، ولا تقرّ عيونهم باللقاء، ثم يمضي الكاتب في توسيع دائرة هذه الصورة، فيتناول جزئيات رئيسة في تكوينها، ومن هذه الجزئيات تنافر ظاهرهم وباطنهم، فهم يُظهرون غير ما يسرّون، ويسرّون غير ما يظهرون، ومع هذا الطبع لا تكون الصداقة ممن يكتب لها النجاح، ومع ذلك فهذا الضرب من الأصدقاء قد يجدون متعة في هذه المعاشرة على هذه الحال، وذلك "لأن كلاً منهم قدَّم التحرّز من صاحبه، واستشعرَ الاحتراسَ منه، فليس يَستودعه ما يخافُ ضَياعَه، ولا يأمنه على ما يَحتاج إلى الاهتمام به، وأعطاه مقداراً من ظاهره، وقفتْ عليه عادتُه، وأسقِطتْ مؤونةُ التحصيل عنه، ولبسته على علم به، فإن أظهرَ جميلاً لم يغترّ بظاهره، وإن وقفَ على غِلٍّ أو غِشٍّ لم يجدد له علماً بباطنه، فليس يبدو من أفعاله ما ينفّره فيقطعه، ولا يغيب عنه منها ما يأمنه فيسكن إليه، ويخاف جناية الاسترسال عليه، ولا يبقيه في مشهده ومغيبه منه ما لا يعرفه."(٢) ولذا فهما يعيشان معاً مدة طويلة، متمتعين بالمؤاكلة، والمشاربة، واللقاء، والمحادثة.

أما الصنف الثاني من الإخوان، فهم ممن يرغب الكاتب أن يكون واحداً منهم، فيأخذ برسم صورة جميلة، تحمل في ثناياها أسمى المظاهر الأخلاقية، التي ترفع من شان الصداقة، وتأخذ بها نحو السداد والصلاح، وهذا الصنف يُسميه "أحمد بن إسماعيل" إخوان الثقة، ومن خلال الثقة يتبادل الصديقان مناقب وخصالاً يُعرف بها صدق هذه الرابطة، ولذا يأخذ كل واحد منهما بمتابعة صديقه في حركاته وسكناته وإشاراته وإيماءاته، فإن وقع على خطأ أو زَلل، أحكم عقله،

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٣١٢، ٣١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشغل خبرته ليعرف مواطن الخلل، وأسباب العلل، وبناء عليه يستبين موقع المنكرة من العَمْد أو الخطأ، ومقدارها في الصغر والكبر، وهل يقلّ صغيرها عن المعاتبة، أو يبلغ كبيرها ترك المراجعة، ويُنزل الأمور بين هذين الطرفين منازلها." [١] وهو إذ يفعل ذاك يكون حريصاً على تنقية هذه الرابطة من كل ما قد يشوبها، ولا بد للأصدقاء من التصافي والمصارحة والمكاشفة، لكي يكون كل واحد منهم كتاباً مفتوحاً لصديقه، يقرأه فيه، ويعرف مكتونات صدره، حتى وإن لم يتفوه ببنت شفة.

وعلى النقيض من الصنف الأول ممّن أطلق عليهم "إخوان اللقاء" فإخوان الثقة يتقابلون، ويتزاورون ويتحقق الأنس بينهم، وتقع المباثة والمكاشفة، ويُشدّ بهم الظهر، فيركن إليه في النوائب والشدائد، فلا يتوانى في تقديم العون والمساعدة لصديقه، "فيُفْزَعُ إليه في النَّوائب، فيعدّ للمشهد والمغيب، واليوم والغَدِ، والمَحْيَا والمَمَات والنفس والعَقِب، ويُستَظهر بإخائه على الزمان، ويُعتضد به في الحَدَثان." [٢]

وما استحق هذا الصديق ما استحقه مما سلف ذكره إلا بما نَقي جيبه، وسَلم غيبه، وخلص قلبُه، وصَحّ لُبّه، ولذا أخذ صديقه يبادله هذه الأخلاق فيركن إليه، ويودع أجلّ ودائعه، ويجعله أفضل عدده؛ لأن مثل هذا الصديق -كما يبين الكاتب- نَدَرَ وجودُه، فلا أقل من التمسك والوثوق به، وفي ختام رسالته يحمد الله الذي جعله صديقه، ومن وجه إليه رسالته، ممن طبع على هذه الخصال، فجُعِل مقدماً في إخوان الصّفاء، يثق به الصديق، لكرم عهده، وتمسّكه بعِصَم الدين التي تشتمل على المناقب، و"تنفي المَقابح والمعايب، وتؤدي صاحبها إلى فوز الأبد، وتحوز له النّعيم المقيم." [٣]

وهذا جرير بن يزيد يطلب مؤاخاة أحدهم، مذكراً إياه بما حباه الله من محاسن الأخلاق، الأمر الذي شجعه لطلب مؤاخاته، وهو في هذه الرسالة يرسم صورة الصديق الذي تجب مصادقته، ولا سبيل للمرء إلا التماس مودته، والوثوق به، فهو ذو وفاء وفضل، يرغب الناس في خُلته، ولا ينسى جرير أن يَذكر لهذا الصديق ما يحثّه على الاستجابة لهذه المؤاخاة، ويدفعه إلى قبوله أخاً وصديقاً، فهو أيضاً صديق يستحق المصادقة لما طبع عليه من كرم الأخلاق، وحسن المروءة، ووصل الإخوان والتماس الوُدّ لهم، والإفضال عليهم، لذا أخذ يطلب منه حسن الإجابة والوصل، وتحقيق المراد بينهما، لأن جريراً "يقول: ولا تَكْرَهَن أن تكون لنا إذ دعوناكَ

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُجيبا، وإذ سبقناك بالفضيلة تابعا، فإنّا قد أحسنّا إجابة فضلك، وأعلم أنك لو كنتَ سبقتنا إلى الصِّلة، وتقدمتنا إلى الرّغبة، وطلبتَ فضلنا عليك بالمودة كنتَ بذلك للطَّوْل أهلاً، وبه جديراً، لأن مثلك في فضلك عَطفَ نفسه على نفسه، ومثلنا رغب في صِلته." (١)

وهذا آخر يطيل في وصف صاحبه ورسم أخلاقه، فهو ممن جلّت صداقته، فعرف كيف يَسُوسها، ويقوم بحقوقها، ويؤدّي واجباتها، لأنه ذو فضل وبرّ، وأيادي بيضاء، تشهد له بجميل المساعدة، وعظيم المعاضدة، أحسن إلى أصدقائه، وتفضل عليهم، فقدم لهم يد العون، وأغدق عليهم مما أنعم الله به عليه، فلا يشكّ أحدٌ ولا يرتاب في نيته، لأنه لا عناية فوق عنايته لأصدقائه، وبهذا اليقين سكنتْ نفوسُ الأصدقاء، ومِن بينهم صاحب هذه الرسالة، يعتذر إلى صديقه عن تقصير شكره، الذي لا يلحق بفضله وكرمه، وهذه عادة الأصدقاء في تصوير هذه السجية الأخلاقية، فهذا الصديق بلّغه ما أراد، وأوطأه "خَدّ الزمان على قَسْر"(٢) فأيّ شكر يكافئ نِعَمه، وأيّ فضل يُوازي فضله، وكدأب كثير من الرسائل التي صورت أخلاق الصديق، نجد هنا تصويراً لأخلاق منشئ الرسالة، فهو إذ يعدّد مناقب صاحبه، لا ينسى أن يذكّره بما هو عليه من صدق الإخاء، وخلوصه من الأقذاء، "يتصل شكره واعتداده، "وتدوم محبته ووداده." (٣)

ثم يمضي الكاتب في صورة صاحبه، الذي عظمتْ رعايتَه له، وكثرتْ عنايتُه به، والمِنّة في ذلك له، وهذا الصاحب قد جدد ما دَرَس ذِكْرُه، وأحيا ما تقادم عهدُه، ووكد اليد عند من تمنّى عنده، وأخذ يدعو الله –عز وجل– قائلاً: "وأنا أسأل الله أن يُعلّي يدك بالمكارم والفضائل، ويبسطها بالعُرف والنائل، ولا يُخليك من جميل أقسامه، وجزيل مواهبه وإنعامه." (٤)

ويقف الباحث وقفة متأنية أمام صورة متكاملة، رسمها أحد الكتاب لصديق له، واصفا إياه بسجايا وأخلاق تصلح أن تكون مدرسة في الآداب، والقيم وهي أخلاق قد يحتاج إليها المتصادقون فيما بينهم، وهي –بلا شك– رسالة طويلة، والأمر فيها أن تقسّم وفق ما يتناسب وموضوعاتها، فيكون البدء بما يتصف به هذا الصديق من كرم الأخلاق ونبلها في مواطن العفو والعقوبة، وعنه يخبر صاحبه، بانه لم يعهده إلا من أهل الصفح والعفو، فإن رأى من صاحبه هفوة أو سقطة، أخذ يتفحص أمره، فإن وجد عذراً تجاوز عن هفواته، وإلا أخذ ينظر في ذنب

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٣٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصديق، وهل ذنبه يستحق العقوبة أم لا؟! فإن استحق عقوبة، ورأى أن العقوبة رادعة له، نافعة لاستمرار روابط الصداقة بينهما، أخذ بها، ولكن دون أن يتجاوز بعقوبته قدر مبلغ الجُرم[١].

وهذا الصديق من أهل الفضل والتكرم على الإخوان، فله من الأيادي السابغات ما له، وليس من خُلقه أن يَحرم العائدة مَنْ يستحقها. وهو من أهل العلم والنصيحة، يركَن إليه الأصدقاء، ويأخذون بنصحه ومشورته، ويستعينون به على الدهر، فقد جمع لصحبه "لطفَ المكيدة، وبَسَالة النجدة"[٢].

وهو حافظ للسر، كاتم له، ما استودعه أحد سرّه إلا وَلِيَهُ بالحفظ والأمانة، كما أنه يسارع إلى ما فيه خير أصدقائه وخِلاّنه، يَطّلع على أمورهم، ويَسْبُر أغوارهم، فيعرف ظاهرهم وباطنهم، وما يوافق هواهم فيسارع إليه، ويلتمسه أينما كان بالاجتهاد والمسارعة، وأما ما يخالف هواهم، وما يكرهونه، فيدبر عنه "بالتوقي والهيبة"[٣].

ثم يمضي الكاتب في الحديث عن عقل صاحبه وتجاربه وخبرته في الحياة، هذه الخبرة التي جعلته مضطلعاً بنوائب الدهر، "صبوراً على الحق الواجب، محافظاً على الحقائق، لازماً لِعُرَى الوثائق."[٤] ومن أخلاقه ما وُصف به من الحَزْم والتروّي، والتثبّت من الأمور قبل الإقدام عليها، وإن لم يتثبت فلا يمنعه ذلك من التقدم؛ للحزم الذي وصف به، وعندما يرى ما يكرهه من الإخوان والخُلطاء، فإنه يُظهر التغافل والإغضاء، وما ذاك إلا لكرم أخلاقه، خوفاً من إلحاق التقصير بهم، فينظر في مواقع العُذر متفحصاً إياه، مدركاً حقيقته حتى يكون لومه وعتابه مُبَرَّرَيْن، دون أن يُفضي به إلى ندم؛ جراء تسرّعه في إصدار الأحكام، وتنفيذ العقوبات[٥].

وحتى تكمل محاسن أخلاقه، وينال بذلك الحظوة لدى الأصدقاء والخلطاء، فلا بد له من التوسّط في الأمور، والاقتصاد في كل الحالات، دون أن "يَدع الاستكثار من الإحسان بجهده، والتحفظ من الإساءة بمبلغ رأيه"[٦]، فلا شيء أكره عليه من التقصير، فلا يُحبّ أن يظهر بمظهر المقصر، "فلا يستخفه السّرور، ولا يُضَعْضِعُهُ المكروه، ولا تَزْدَهِيه الخَاصّة، ولا تمهله الضرورة." [٧]

---

(٥) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٤١.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٤٢.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصدق من أهم المظاهر الأخلاقية التي تكون بين المتصادقين، وهذا دأب صاحبه الذي "قدّر أموره على الصِّدق، ونزّه نفسه عن الكذب"،[١] وصدقه مع إخوانه دفعه إلى حفظ المعروف، وعدم إنكار الجميل، فهو يجتهد في أداء كل ما يجب عليه من الشكر، ويحرص الحرص كله أن تكون مكافأته فوق ما يقابل به، فهو مُفْضِلٌ لا يُتْبِع أفضاله منّا ولا أذى، وحين يَتَفَضَّلُ على الإخوان، فإنه لا ينتظر منهم مكافأة ولا شكرا، وهذا يعني أن بذله وتفضله ليسا مَقرونَيْن بما يُقدِّمه له الآخرون، ومن نبله أنه لا يلزم أحدا شكرا أو مكافأة، فهو إنما يفعل كل ما يفعله، ويقدم جلّ ما يقدم؛ لينال بذلك الأجر والحمد والفضل[٢].

وهذه أخلاق لا تكتمل إلا لرجل كان التدبير من طبعه، والتبذير بمنأى عنه، وفي ختام رسالته يوصي كل من يجد صديقاً أن يلتمسه، ويلتزمه فلا يفارقه مهما حدث بينهما، وأن يلقاه بالبشر والقبول، ويخلص له المودة، ويركن إليه مودعاً أسراره عنده، ويخلطه بمهمّ أمره؛ فإنك إن فعلت ذلك "تبلغ بيسير خلطته من معرفة فضله، وكرم إخائه، وصحة وفائه، ونُبْل رأيه ما يكتفي به دليلاً على كل ما تحب من أمره." [٣]

هذه رسالة كتبها "أبو الربيع شهاب الدين"[٤] إلى أحد إخوانه، واصفا إياه، عارضا ابرز المظاهر الأخلاقية التي يتصفان بها، فهو حين يتكلم عن صديقه لا يغفل نفسه، إذن فالقارئ لهذه الرسالة يدرك أنه امام صورتين متقابلتين، يتمتع فيهما الصديقان بأخلاق تقوى هذه الرابطة بينهما، فأبو الربيع صديق وفيّ لصديقه، وتستطيع الشهود إثبات حقيقة هذا الخُلق المتمثل فيه، وفي المقابل فلا بد لصديقه أن يتمثل بهذا الخلق، "فيشتمل عليه وفاءه، وينفعني اليوم ما سلفت فيك بالأمس." [٥] وإذا تحقق هذا من الصديق، وتحلى بهذه الأخلاق لزم على أبي الربيع، أو لنقل ألزم أبو الربيع نفسه بأن يكون وكيلاً لسمعه في قلبه، وأمينا لعينه عليه، كيف لا وهو الذي يتّصف بالصفات الآتية، كما يخبر عن نفسه فيقول: "فإني خفيف المؤونة، لطيفُ المعونة، لا قابل غنما، ولا سائل أكلاً، ولا ساخط منك منزلة فُويق العامة، ودُوين الخاصة، ما لم ترفعني فوقها، وتوجب لي ضعفها." [٦]

---

(٧) المصدر نفسه ، ص٣٤٢.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع أديب، كان من رجال المعتصم العباسي، ولد عام ٢١٨هـ، وتوفي عام ٢٧٢هـ، الأعلام، ج١، ص٢٠٥.

(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٤٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف الثعالبي صديقا له بصفات تصلح أن تكون صورة جميلة، لما يجب أن تكون عليه الصداقة، ويكون عليه الأصدقاء، فصاحبه كريم العهد، يشدّ به الإخوان ظهورهم، ويستعينون به على قضاء حوائجهم، فهو عدّة لهم يشدهم ويقويهم، وهو نور يسعى بين أيديهم، وكما أنهم يستمدون من الشمس ضياء ونوراً، فكذا الحال بهذا الصديق يجعلونه نوراً يهديهم إلى سبيل الرشاد، وهو حافظ لرُكن الإخاء فلا تغيره الأيام، يديم صفوه لصحبه وخلانه، ويتعامل معهم بالوفاء الذي هو أساس الصداقة، فيحفظ غيبهم، ويستر عيوبهم، ولا يظهر ما خَفيَ من أمورهم، ولا يعرف المُدَاهنة ولا المُوَاربة، فلا تجد لها مكانا في قلبه، وهو من أهل العفو والصفح، يغفر ذنوب أصحابه، ويتجاوز عنها "فهو مراد للصحبة، وزاد للركب، هو في حبل الوفاء خاطب، وعلى فرض الإخاء مواظب." (١)

إنّ الناظر في الأخلاق السالفة يلحظ عناية خاصة بخلق الوفاء، الذي يفرض على الصديقين أن يتعاشرا معاشرة طيبة، شعارها حفظ الإخاء، وأداء الحقوق والواجبات، وغفران الذنوب، والتجاوز عن الهفوات والسَقطات، وما هذا إلا من الصفاء والتصافي اللذين يُحتمان على الصديقين التجاوز عن كل ما قد يَشُوب هذه العلاقة، ويضعفها.

وهذه رسالة عمرو ابن بانة(٢) الموجهة إلى إبراهيم بن المهدي تبرز أخلاق الصديق، خاصة وقت الشدائد والملمات، وقد كتبها إليه حين دعاه يوماً فامتنع من المصير إليه، لسخط السلطان عليه، فكتب إليه هذه الرسالة، يُعدد فيها مناقب الصديق، مذكراً إياه بأن الصديق المثالي هو الذي يرعى أخاه وقت الشدائد، وحين تنزل به النوائب، أو حين يَنبُو به الدهر نَبْوَة، يستوي فيها "عدوه وصديقه في الجفاء به، والاحتراس من خُلطته وعِشرته، وترك معونته على دهره"(٣). وحين يجفو الصديق صديقه فلا يستحق عند ذلك اسم الصديق، ولكان اسمه معلقاً على غير معنى، "ولكانت حُرمة مودّته، واعتقاد إخائه في أيام الرخاء، وزمانه ضياعاً لا حظ فيه." (٤)

ثم أخذ ابن بانة يبين له أن الصديق ينبغي أن يكون على غير ما سبق من الأخلاق المنفّرة، فعليه أن يكون معطاء، ويبذل لأخيه في النكبة ماله، ويوافق صديقه في حِلّه وترحاله، فيكون الصديق عنده مقدماً على الأهل والأوطان، يؤثر موافقته عليهم.

---

(١) الثعالبي، سحر البلاغة وسرّ البراعة، ص٦٢.

(٢) عمرو بن محمد بن سليمان شاعر وعالم بالغناء، كان نديم المتوكل، وتوفي بسامرّاء عام ٢٧٨هـ، انظر: الفهرست، ص١٦٢.

(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه رسالة "الحسن بن مسلم" إلى صديق له، يبدأها بالدعاء له بأن يزيد الله في عمر صاحبه، وأن يرفعه درجات توازي قدره، ويضاعف له الكرامة والنعمة والسعادة، وأن يجعله الله فداءه، فإنه يستحق كل هذا، وزيادة، وما ذاك إلا لأنه الصديق الذي يقع من قلبه موقع الربيع من سائر شهور السنة، ويلحظ اختيار هذا الشهر لما فيه من الخير والسعادة والابتهاج والحياة، فهو ينعم بنعيم صديقه، ويحيا بحياته، فيفرحان معا، ويحزنان معا، يشتركان في السّراء والضراء، وكما أن الربيع يروق للعيون ببهيج زينته، "ويجود به على الأرض من غيوثه، ويلبسها من زخارفه، وينشر عليها من مُوَشّى حُلله، ويملأها من خِصبه وبركتِه." فكذا صديقه تبهجه رؤيته، ويأنس بقربه، ويونق بصره من بهيّ منظر صديقه، ويرتع في لبه من رياض علمه وأدبه، ويجدد له من فوائده، وثمار وده التي طاب جنيها وقطافها، وإذا غاب عنه صديقه استوحش لفراقه، وفاته الكثير من الحُظوة والسعادة لديه، وتغيّر ربيعه إلى جدب وما يمكن أن يتبع هذا الجدب من الأضداد.

ولا يفوت الكاتب أن يتغنى بعقل صاحبه، وما يحققه له هذا العقل، وهذه الصداقة من منافع ومكاسب، فما يفيده في ساعة يتقوت به زمناً طويلاً، وما ذاك إلا دليل على صدق ما قاله أنوشروان الملك: "قوت العقول الحِكَم، وقوت الأجساد المطعم." [١] وبقرب هذا الصاحب يحيا الصديق، فإن نأى فإنه يحيا بالتذكر، والرجاء مدى النأي إلى اللقاء.

ويختم الباحث صورة الصديق في الأوساط الأدبية والعلمية بهذه الرسالة التي كتبها "اليزيدي أبو عبدالله بن العباس" إلى صديق له، ويَظهر فيها بصورة ذلك الصديق، الذي ملك صديقه أمره ونفسه، يوالي به، ويعادي فيه، ويصافيه ويصاديه[٢]، ويبين في هذه الرسالة أنه يبذل ما عنده للصديق رغبة في التقرب إليه، وتوثيق روابط الأخوة بينهما، وأوّل ما يبذله مودة يتعاشران بها وعليها، ويقضيان حياتهما ينعمان بها، فيؤدي بها حقوقاً لازمة عليه، ثم طاعته لصديقه والقيام على أمره، وموافقة حاله، فلا يخالفه، وبهذه الطاعة يصحح سرّه وعلانيته، ثم يلي الطاعة شكر بالعقل والقلب واللسان، وثناء حسن، وذكر جميل يقوم به ويقعد.

ثم يبين لصديقه في ختام رسالته بأنه يجتهد في تقديم ما وُسِعَ قدْرُه، ولو ملك غير ذلك لبذله إلى صديقه، ولسعى جاهداً في تحقيق مراده، و "لو علمت وراء ما أنا عليه مكاناً لبلغته." [٣]

ثانياً: الجوانب الثقافية والعلمية والأدبيّة

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣١٩.
(٢) صاداه مصادة: راجاه وداراه وساتره وعارضه. اللسان مادة (صدو).
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلحظ المتتبع لصورة الصديق المثقف والعالم والأديب تأكيدا على الجوانب الثقافية والعلمية والأدبية، يحرص أهل هذه الطبقات على التماسها، إذ يمكن اعتبارها ركائز تقوم على أساسها الصداقة، وهذه الركائز تميز هذا الصديق عن غيره من أصحاب الطبقات الأخرى، ولا يعني هذا احتكاره لهذه الجوانب، واقتصارها عليه دون غيره، ولكن ما يميز أهل هذه الطبقات عنايتهم بهذه الجوانب عناية كبيرة، حتى غدت تنسب إليهم.

ويمكن تصنيف ما تضمنته صورة الصديق المثقف والعالم والأديب ضمن المحاور التالية: العقل، والأدب والتأديب، والبيان.

أولاً: العقل

برز دور العقل، وما يرتبط بمفهومه بروزا جليا، وقد ورد ذكره في جملة من نصوص النثر العباسي، مثل قول ابن المقفع على لسان بروزيه: وأحببت إخاءك، فلا أعلم أني رأيت رجلا أرصن عقلا[١]، وقول الحسن ابن مسلم متغنيا بعقل صاحبه: "وأجدُ عقلي بما أفدت في ساعة منك متصوتا زمنا طويلاً، كقول أنوشروان" قُوت العقول الحِكَم[٢]." وقول اليزيدي: "وشكرا أشغل به خاطري وعقلي[٣]".

ويؤكد ابن المقفع على ضرورة الرّبط بين العقل والكرم ، فيقول: "فالعاقل الكريم كاملٌ، والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة"[٤].

ويبدو أنّ العقل كان دافعا من ابن المقفع إلى مؤاخاة يحيى بن زياد، فالأخير "لا يتكلّم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم"[٥]، وما ذاك إلا لخروجه من سلطان الجهالة، وعلمه بما قد يُحدثه المراء من إفساد لروابط الصداقة، وبذا يكون المراء منافيا لسلامة العقل، فلزم التحذير منه وتجنبه. إضافة إلى ذلك انتسابه إلى أهل الفضل في اللبّ، وفق تعبير ابن المقفع[٦]، ولذا تراه في موقع آخر من كتاباته يقيم شأنا عظيما للعقل، ويجعله ركيزة هامة لعقد صداقة ناجحة، فيحث

---

(١) كليلة ودمنة، ص٦١.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٩.
(٤) كلية ودمنة ، ص١٤٣.
(٥) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٨.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على التزام العاقل والاستمتاع بعقله[١]، وكذا الزينبي يقول في صاحبه : "وعقلك أعلى وأشرف من أن تتخذني غير شاكر ولا حامد"[٢].

ويجعل يحيى بن زياد النّجابة والزكانة من شروط المؤاخاة[٣]، ولذا تراه يطلب من صاحبه أن يكون ممّن يستضيء به في ظلم الجهل، قبل أن يعرفه بعقد اللبّ[٤]، وكذا الجاحظ الذي يربأ بنفسه أن يكون ممّن ينسبون إلى نزق السّفهاء، ويجانب سُبل الحكماء[٥]، وعندما استعطف صاحبه جعله من أهل الفطنة والعلم، وحسبه أن يكون متصنّعا بهما، حتى يحقق الإنصاف الذي ينشده الجاحظ في رسالته[٦].

ولا بدّ للصديق العاقل من إفادة صديقة، ومشاركته نصحه ومشورته، فلا يَضنّ عليه بما قد تجود به قريحته ن رأي سديد، ومشورة حسنة، وهذا ما عرفه الكاتب أحمد بن يوسف في صديقه، حين مدح فضل رأيه واتّساع لبّه في حال العِزّة والنّماء[٧].

وينسب أحمد بن اسماعيل فضل ما يتّصف به إخوان الثقة إلى صحّة العقل وسلامة اللبّ، فالعقل يقود إلى التدبير، ولذا نعت الصديق العاقل بحسن تدبيره، وتجاوزه التبذير[٨].

ثانياً: الأدب والتأديب

برز دور الأدب والتأديب في الصورة التي رسمها أصحاب هذه الطبقة للصديق، كما يتضح في رسالة أبي نصر الرقاشيّ، إلى يحيى بن زياد في المؤاخاة التي جمع فيها بين الأدب والتأديب، حين بيّن له فضل الأدب الصالح، وأنه على الصديق أن يتأدب به، لأنه يكشف غطاء الجهل، وبه تنجلي غشاوة العمى، ويُستنبط به مذخور العلم ، كما أن يُستدل به على سبيل الرشاد[٩]، ولا يغفل الأديب جانب التأديب، وفضل صاحبه عليه، حين علّمه ما لم يكن يعلم، وبصّره بأمور كثيرة كان يجهلها[١٠]، فالصديق الأديب والعالم يحرص الحرص كلّه على أن تكون صُوره منتزعة من واقع حياته وثقافته واهتماماته، فليس غريبا أن يكون الأدب والعلم ركيزتين من ركائز تمثيل صورة الصديق.

---

(٧) ابن المقفع ، كليلة ودمنة، ص١٤٣.
(٨) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٨٣.
(٩) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٢، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٨.
(١٠) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٨.
(١١) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٢٣٠-٢٣١.
(١) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ، ص٢٣٠-٢٣١.
(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٢٦. نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٩٩.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٤٢.
(٤) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٠٦. نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٩.
(٥) ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى ابن المقفع أن الصديق ينبغي له أن يكون ذا أدب حسن، فتحسن صداقته، ويقبل الناس مؤاخاته، إضافة إلى ذلك، فإن الأدب الجميل يكسب صاحبه محبة الآخرين، كما بين أحد الحكماء في وصية أوصى بها صديقاً له، أراد سفراً فقال له: "إنك تدخل بلداً لا يعرفك أهله، فتمسّك بوصيتي تنفق بها فيه: عليك بحسن الشمائل، بأنها تدل على الحريّة، ... والأدب الجميل فإنه يكسب المحبّة ، وليكن عقلك دون دينك[١]. ومما يلحظ على وصية الحكيم ربطه بين العقل والأدب وإبراز فضليهما في تحسين ركائز الصداقة، والعلم على تقويتها.

ثالثاً: البيان

ومما اعتمد عليه الأدباء والعلماء في رسم صورة الصديق المثقف والعالم، البيان والبلاغة والفصاحة، إذ لا ينكر أحد ما لهذه الجوانب من قيم عظمى تسمو بالإنسان، ويحرص على التحلي بها، ومن ذلك ما ذكره خالد بن صفوان، حيث تحدّث عن مناقب صديقه فيقول فيه كان" يملأ العين جمالاً، والأذن بياناً"[٢].

وإذا كان اللسان أداة الفصاحة والبلاغة، فقد كثر تداول الكتّاب له، واستخدامه، بما يدل على عناية كبيرة، وحرص شديد منهم على تلمس جوانب البلاغة والفصاحة فيمن يصادقون، ومن أمثلة ذلك قول أبي العيناء يصف صديقاً له: " أتكلّم بكلامه فينطق بلساني"[٣]، وفي موقع آخر من الرسالة يتمنى أن يكون شاعراً ، فيقول:"فلو كنت شاعراً لرثيته آخر الدهر، ولأتعبت بالقوامي الكابتين"[٤]. وابن المقفع في قوله: "ولسانه بمودّته ناطقاً"[٥]، وقول عُمارة بن حمزة حين كتب إلى محمد بن زياد الحارثي، يطلب إخاءه: "إن أهل الفضل في اللّب، لهم من الثناء والحسن في الناس لسان صدق يُشيد بفضلهم، ويخبر عن صحّة ووهم"[٦].

وقد يعتمد الكتاب على الوصف، والوصف ملمح أدبي ينبيء عن مقدرة الكاتب الأدبيّة، وقدراته الإبداعيّة، فتجعله قادراً على التعبير مما يجول في نفسه تجاه صديقه، كما يتضح في رسالة أحمد بن يوسف ، حين كتب إلى صديق له قد اعتلّ: "لأني إذا استقصيت في الكتاب وصف ما يُداخلني طال، فعققت به من قصدتُ برّه، والرسول فلا يحمل ما يتضمنه صدري، فينزِل كُنْه ما عندي، ولا يلقاك بسَخْنةِ مُرسِله، التي تترجم عن نيته، فإني لكذلك أميّل بين التقرير

---

(٦) الحصري، زهر الاداب، ج١، ص١١٢.
(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج٤، ص٩٢
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(٥) المصدر نفسه، ص٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في إتيانك قبل استئذانك"[١]، فالحديث عن مكنونات النفس، وخواطرها، وإبراز ما تخفيه النية من أسرار، بظاهر اللفظ، الذي يغدو مترجماً حال صاحبه، وفاضحاً مشاعره وأسراره.

ويفصح ابن العميد في رسالة إلى بعض إخوانه عما اختلج صدره حين وصله كتاب صاحبه، فأخذ يعرب عن إعجابه بفصاحته، وسحر تعبيره، ولذا يقول في أكثر من موقع في رسالته: "تأملت مُفْتَتَحه، وما اشتمل عليه من لطائف كلمك، وبدائع حكمك، فوجدته قد تحمّل من فنون البرّ عنك، وضروب الفضل منك، جدّاً وهزلاً، ملأ عيني، وعمر قلبي، وغلب فكري، وبهر لبّي، فبقيت لا أدري: أسمطُ درٍّ خصصتني بها ، أم عقود جوهر منحتنيها ... وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه، وأغذي نفسي ببهجته، وأمزج قريحتي برقته وأشرح صدري بقراءته[٢].

وذكر الخطباء والفصحاء، غدا جليّاً في بعض الرسائل، حين يعجز الكاتب عن التعبير عما يجول في خاطره تجاه صديقه، كأن يكون قد اشتاق إليه شوقاً "يستوي في العجز عن صفته الخطيب البليغ، والعمُّ المُفْحَم.[٣]"

صورة الصديق السياسي:

أولاً: الجانب الأخلاقي

يتناول هذا المبحث المظاهر الأخلاقية التي رسمت للصديق في الأوساط السياسية ممن ارتبطوا بهذه العلاقات من الملوك والسلاطين والأمراء والولاة إلى غير ذلك، ممن ولي شيئاً من أمور المسلمين في العصر العباسي، وهدف الدراسة استقصاء ملامح هذه الصورة، والوقوف على جزئياتها، وتحليلها التحليل الأدبي المنهجي، وفق معطيات ذلك العهد وتطوراته، وقد يلتبس الأمر حين الحديث عن صداقة تربط ذوي السلطان، والمراكز السياسية الحساسة في البلاد لمن هم دونهم، وإنما يقع الالتباس حين يظن ظانّ أن مثل هذه العلاقات والروابط لا تستقيم لهم، ولا تصلح أن تكون لأمثالهم، لما جبلوا عليه من السلطة والجبروت.

يقول التوحيدي:"وأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفى بعهودها، إنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف[٤]." الأمر الذي يدفع من يعاشرهم، ويصاحبهم إلى اتخاذ جميع وسائل الحذر، واليقظة من تغيّرهم، وتغير أحوالهم، وتقلبهم بما تفرضه عليه طبيعة مناصبهم، ومراكزهم.

---

(٦) المصدر نفسه، ص٣٣٢.
(١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٢٤٣.
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج١، ص٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفوت الوعاظ والحكماء والأدباء أمر تحذير الناس من عقد روابط الصحبة والصداقة مع هؤلاء، لما فيها من الخطورة، وتوقع البلاء الشديد، لذلك قالوا: "اشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً." (١)

والتحذير من صحبة السلطان قائمة ومكررّة، وأمرها متداول بين الكتّاب في العصر العباسي، فتارة تراهم يجعلون صاحب السلطان كصاحب الحية التي في صدره، لا يدري متى تهيج عليه(٢)، ومنهم من يجعله –أي صاحب السلطان– كراكب الأسد، يهابه الناس، وهو لمركبه أهيبُ، ومن صحب السلطان صبر على قسوته، كصبر الغواص على ملوحة بحره(٣)، وهذا جميل بين الصريري يوصي ابنه ، بأن يحذر من صحبة السلطان فيقول له: "يا بني اصحب السلطان بشدة التوقي، كما تصحب السبع الضاري، والفيل المُغتَلم، والأفعى القاتلة(٤)، وإنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه."(٥) و"من ذا الذي صحب السلطان فدام منه الأمن والإحسان"(٦)، وكما أن البحر لا أمان له فكذا صاحب السلطان، يعيش في خوف دائم، واضطراب لا مثيل له، يشبه اضطراب أمواج البحر، وتغيره من حالة السكون إلى حالة الهيجان، ويكون كقوم رَقوا جبلاً، ثم وقعوا منه فكان أقربُهم إلى التّلف أبعدَهم في المَرْقى، وهذا يدل على أن بعضهم يشبه السلطان بالجبل، أو يشبه تلك الصحبة بالجبل الصعب "الذي فيه كلّ ثمرة طيبة، وكل سبع حطوم، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد." (٧)

ولكن ما سبق ذكره لا يمنع من عقد روابط الصداقة مع السلطان، وذوي الجاه من أصحاب المناصب، والمراكز، وما وصلنا من نصوص يثبت هذه الرابطة، فهذا المبحث يتناول جانباً بارزاً من جوانب الصداقة، ويرسم صورة لأخلاق الصديق السياسي، ويضع بين يدي القارئ أبرز المظاهر الأخلاقية التي مثلها تاريخ الدراسة، ولا يظنن ظانّ، ولا يقع في خَلده أن الأمر من صحبة السلطان قد تُرك على عواهنه، ودون قيد أو تشريط، إنما أخذ المختصون في هذا الشأن على عاتقهم رسم حدود هذه الرابطة. وتحديد أطرها، وتقديم النصح والوعظ لمن أراد أن يرتبط برابطة كهذه، الأمر الذي يضمن للمتصادقين استمرارها، ونجاحها، وتقدمها على المدى البعيد، وشددوا على الأخذ بهذه الوصايا، حرصاً منهم على ضمان سلامة العلاقات التي تربط أبناء المجتمع، بجميع طبقاته.

---

(٤) كليلة ودمنة، ص١٤٣.
(٥) ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص١٣٨.
(١) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص١٠٩.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٧٧.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٤٥.
(٤) ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص١٢٧.
(٥) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمتتبع للنثر العباسي يلحظ جملة من الوصايا والنصائح، التي قيلت في هذا الموضوع، وإن اختلفت هذه الوصايا في أساليبها، وطرق تقديمها، فإنها تصبّ في مَعين واحد، وهو أخلاق الصديق السياسي، ومهما يكن من أمر هذه الوصايا فالتحذير من صحبة السلطان يبقى قائما، ومتداولاً بين الكتاب، لأن "صحبة السلطان خطرة، وإن صوحب بالسلامة، والثقة، والمودة، وحسن الصحبة، فربما عثر مُصَاحبه العثرة، فلا ينتعش، ولا تقال عثرتُه." (١)

وينبغي لمن صحب السلطان أن يصحبه بالحذر، وألا يكتم عنه نصيحة، وإن استثقلها، وليكن كلامه له كلام رفق، لا كلام خُرْق، حتى يخبره بعيبه، ويطلعه عليه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضرب له الأمثال، ويخبره بعيب غيره؛ ليعرف عيب نفسه، ويرى بعضهم أن "من صحب السلطان بالصحة والنصيحة كان أكثر عدوّا ممن صحبه بالغش، والخيانة، لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فصديق السلطان ينافسه في مرتبته، وعدوّه يبغضه لنصيحته." (٢)

ويقدم ابن المقفع جملة من الآداب التي يُصْحَب عليها الملوك، أوردها الثعالبي في كتابه "آداب الملوك"(٣) وهو يبين فيها أن صحبة الملوك لا تكون إلا بعد رياضة ممن صحبهم لنفسه على طاعتهم حتى فيما يكره، وفيما خالفه، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواه، وهذا الخلق ليس بالجديد إذ يعلم المتصادقين أن الموافقة والتشاكل أساسان في صحة هذه الرابطة، وتقويتها واستمرارها، لذا لزم على الصديق أن يكون موافقا لصديقه، فكيف به إذا كان السلطان هو من يصادقه، أفلا يكون مطواعا، لينا يجعل رضاه في رضاه، وهواه في هواه، وعليه أن يكون حافظاً إذا وُلِي أمراً من أمره، فيرعاه ويصونه، ويؤدي حقه على الوجه الأكمل، حرْزاً إذا قربوه، أميناً إذا ائتمنوه، لما للأمانة من أثر ووقع في نفوس المتصادقين، وعليه أن يكون صاحب عقل سديد، يُحْسن استخدام عقله، كما يحسن فعله إذ "ليس شيء أضرّ بالسلطان من صاحب يُحْسن القول، ولا يحسن الفعل."(٤) ولا خير في القول إلا مع الفعل، وحسن العقل وسداده يدفع بالصديق إلى تقديم الخير والفائدة لمن يصادق، لذا لزم على مصاحب السلطان ذي العقل أن يعلّمه وكأنه يتعلم منه، ويؤدبه وكأنه يتأدب به، ويشكر له ولا يكلفه الشكر، فليصحبهم على هذه الآداب، كما بين ابن المقفع، وإلا "فالبعد عنهم كل البعد، والحذر كلّ الحذر."(٥)

ويمضي ابن المقفع في وضع أدبيات مصاحبة السلطان، فيذكر أمر ملازمة الملك في غير معاتبة، وإذا وثق الملك بصديق ما، فليعزل هذا الصديق عنه كلام المَلق ولا يكثرَنَّ له من

---

(٦) ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص١٢٩.
(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٤٦.
(٢) (تحقيق : جليل العطية)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٣٥-٢٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدعاء، إلا أن يكون ذلك على رؤوس الخلائق، وإذا أراد الصديق من صديقه الملك شيئا، أو أمرا، أو مسألة، فلا ينبغي أن يطلبنها بالمسألة، وإن طلبها واستبطأه الملك، فلا يشعرنه بذلك، وليطلبها بالاستحقاق، فلا يخبره بأن له عليه حقا، وأنه يعتد عليه بخدمته وحرمه، كما ينبغي للصديق ألا يعطيه المجهود كله في أول الصحبة، فيقول: "وإذا سأل غيرك فلا تكن المجيب، واعلم أن استلابك للكلام استخفاف به، ولا تسارّ في مجلسه أحدا، فإن السّرار يخيل إلى كل من رآه من سلطان، أو غيره، أنه المراد به، وإذا كلمك فأصغ لكلامه، ولا تشغل طرْفك عنه بنظر، ولا قبلك بحديث."[١]

وتبرز القصة الآتية قيمة الوفاء الذي يلتزم به المتصادقون، فتسمو صداقتهم، وتصلح به أحوالهم، ويتعاشرون على الخير والمودة والتراحم، وما أجمل الوفاء بين المتصادقين في حياتهم، وأجمل منه ما يكون من وفاء بينهما حتى بعد ممات أحدهما، وهذا ما وقع بين المأمون وصديق شيخ كان يدخل عليه في السَّنة مرّة، كما حدث بذلك يحيى بن أكثم[٢]، وكان المأمون يخلو به خلوة طويلة، ثم ينصرف فلا يسمع له خبر، ولا يرى له أثرٌ، وحين يفارق هذا الشيخ الحياة، يحزن المأمون لموته، ويأخذ بذكر مناقبه، وحسن معاشرته، وصداقته له، فهو -لديه- الصديق الذي كان يسكن إليه، ويثق به، و "يُلقى إليه العُجَرَ والبُجَرَ[٣]، ويقتبس منه الفوائد والغُرَر.[٤]

وقد كان هذا الشيخ صديقاً للمأمون، يستريح إليه استراحة المكروب، ويجد به ما يجد بالولد السار المحبوب، وقد كان يستمد منه رأياً يقوّم به أودَ المملكة، ويصل به إلى رضاء الله في سياسة الرعية، ثم تبينُ القصة بعد ذلك الدور الذي كان يقوم به الشيخ، من تقديم النصح، والمشورة للمأمون، وهو واجب تقتضيه وتحتمه الصداقة المعقودة بينهما، فالصديق كونه أكثر الناس وقوفاً على ظاهر صديقه وباطنه ومعرفة أحواله، وشؤون حياته، لا بدّ له أن يكون الناصح له، المشفق عليه، فإذا ما رأى خللاً من صاحبه وقف عنده، واستوقفه وأعاد النظر فيه، محاولاً ردع صاحبه عن هذا الخلل، وإصلاح ما يمكن إصلاحه مما أفسد، والشيخ صديق المأمون يُوَدّعه بكلمات تذهب عِبَراً ودُروساً يُستفاد منها، لاستقامة الراعي والرّعية. فيقول: "يا أمير المؤمنين إذا استَفَشَّ ما بينك وبين الله تعالى فابْلُهُ، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده، فإنه يحب الإحسان إلى عباده، كما تحب الإحسان إلى ولدك

---

(١) الثعالبي، آداب الملوك، ص٢٣٦.

(٢) انظر القصة كاملة في التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٦، ٩٧.

(٣) العُجَر: مفردها عُجرة وهي العقدة في الخيط والعصا وعروق البدن ونحوها يقال: "ذكر عُجره وبُجره، أي عيوبه أو أحزانه، اللسان (عجز) والبُجر: مفردها بُجرة وهي السُرة والوجه والعيب." اللسان مادة (بجر).

(٤) التوحيدي ، الصداقة والصديق، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من حاشيتك، والله ما أعطاك الله القدرة عليهم إلا لتصرّ على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم، والتغمّد[١] لسيئاتهم، وأي شيء أوجه لك عند ربك من أن تكون أيامك أيام عدل، وإنصاف وإحسان وإسعاف ورأفة ورحمة." [٢]

وفي نهاية القصة، يترحّم المأمون على هذا الصديق، ويتأسف على فقده، مدركاً حقيقة ندرة الصديق الوفيّ، الذي يصدق صديقه النّصح، ويذكره بما هو صائر إليه.

وعند الحديث عن مبدأ المقابلة بالمثل بين الأصدقاء، يلحظ المتتبع لنثر الأدباء والعلماء رفضاً قاطعاً لهذا المبدأ، إذ لا يجيزون بأي حال من الأحوال معاملة الصديق بمثل ما يُعامل، إن أخطأ أخطأنا، وإن أصاب أصبنا، إن قابل معروفنا بإنكار له قطعنا عنه هذا المعروف، لأننا ننتظر منه شكراً واعترافاً بالجميل، فهذا المبدأ عندهم مرفوض، بل منبوذ ولا يعول عليه أبداً.

هذا ابن كعب يعبر بصدق عن هذه المشاعر لصديقه بعد سماعه قول شاعر:

إني إذا ما الخليل أحدث لي ... صرما وملّ الإخاء أو قطعا

لا أحتسي ماءه على رَنَق ... ولا يراني لِبَيْنِه جَزِعا

فيقول: لم لا أحتسي ماءه على رَنَق، ولم لا أجزع لِبَيْنِه، ولم لا استَصْلحُه، وأتلطّف له، ولِمَ أحرج عنه إذا أحدثَ لي صَرْماً، ولعلّ صرمه عارضٌ، ومَلَلهُ من غير عقيدة، وقطعه غلط، كأنَّ الصديق مكسوبٌ بسهولة، وموجود متى طُلب، وهيهات." [٣]

وإنما ساق الباحث هذا الشاهد من الحياة الأدبية، ليقابل به ما قاله ابن المعتز بصفته ممن يمثّلون الطبقة السياسية في موقف مشابه للموقف السابق، وذلك أن عَيّاراً سمع رجلاً يقول: "إذا عز أخوك فهُن، فقال للقائل: أخطأت، إذا عز أخوك فاهن شأنه." [٤] وهذا القول ينسجم وقولَ ابن المعتز، الذي يأخذ بمبدأ المقابلة بالمثل، ويراه أمراً يوافق طبعه ومركزه السياسي، ولذا يذكر التوحيدي أن ابن المعتز أبا العباس يقول: "لستُ لمن خاشنني ألين، ولا إذا عزّ أخي أهون، ولعل هذا مُسَلّم لأبي العباس؛ لِسُمُوق رُتبته، وشرف نسبه، ومُسْتفيض أدبه وكرمه." [٥] إذن فالأمر على غير ما هو عليه عند رسم بعض ملامح صورة الصديق، وفق ما يناسب الطبقة السياسية.

---

(٥) غمّده وتغمّده: ستر ما كان، تغمّده الله برحمته: غمره بها، تغمّد الإناء: ملأه. اللسان مادة (غمد).

(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٧.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١١٦، ١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُظهر الموقف الآتي بين "عَلّوَيه" والمأمون نظرة تشاؤمية، واستيحاشاً من الصديق الوفي الذي يقوم بحق الصداقة، وواجباتها، ولا يقابل صديقه بالمثل، فيرقّ، ويصفو حتى وإن كدر عليه الصديق، وقد بدأ الموقف: حين غنّى علويهُ المَأمونَ قول الشاعر:

وإنّـــي لمشتاق إلى ظِلّ صَاحبٍ يَرِقُّ ويَصْفُو إنْ كَدَرْتُ عليـــــه

عَذِيري من الإنسان لا إن جفوتُه صَفا لي، ولا إن صرتُ طوعَ يديه

فأعجب المأمون بهذا البيت واستعاده مرات ثم قال: "هات يا "عَلّويه" هذا الصاحب، وخُذ الخلافة." [١] ثم أخذ يشكو سوء أحوال الأصدقاء، وتغير أخلاقهم، ومدى الحاجة إلى صديق يُركن إليه، فيكون فضله غامراً لنقصه، وخيره زائداً على شرّه، وعدله أرجح من ظلمه، وإن لم يبذل الخير كله، لم يستقص الشرّ كله، ولكن ماذا عسى أن يفعل المرء أمام هذه الشكوى إلا أن يرضى بهذا أو ما دونه، ويخرج بالكَفاف والعفاف.

تبرز الحادثة الآتية ما تصادق عليه "ابن العميد" أبو الفضل، والحاجب النيسابوري، فقد كانا يتصادقان على المودة والتصافي والمشاكلة، حتى دبّ بينهما ما دبّ من أمور الوزارة، ففرق ذلك بينهما، والذي يلفت الأنظار هنا تصوير ابن العميد أخلاق صاحبه، وصدق مشاعره رغم ما وقع بينهما، فقد كاد أن يكون الحاجب النيسابوري مشاكلاً لابن العميد للتصافي الذي كان بينهما، والملح الذي يجتمعان عليه، الأمر الذي دفع بالآخرين إلى التعجب مما وصلت إليه الحال الكائنة بينهما من الخصومة، وفي ذلك يقول ابن العميد: "يا أبا الحسن والله لقد كدت أن أكونه لولا أن الله بَسَط يدي عليه، وأظفرني به."[٢] فهو رجل "خطيب اللسان، بعيد الغَوْر، خفيف الفور، يَمْري من ثَبَج بَحْر[٣]، ويلقى جميع أموره بصَدْر ونحر."[٤] وكان ابن العميد يهنأ بصداقته، ويتعاشران على المودة والثقة المتبادلة بينهما، وكانا يتمازجان في كل شيء، فلا يستطيع أحد أن يميز بينهما لتوحدهما، فكانا يجتمعان معاً، ويفترقان معاً، وحين وقع ما وقع بينهما، تحيّر الناس فيهما، فما يستطيع أن يفصل الناظر بينهما الظالم من المظلوم، وحقيقة ما كان بينهما أن الحاجب النيسابوري كان يحدّث نفسه بالوزارة، ويطلب من الحظوة عند ركن الدولة ما كان ابن العميد قد أفنى شبابه، وعمره وذخره له، الأمر الذي أوقع الغيرة بينهما، لأن "منازل الأولياء عند الملوك محوطة بالغيرة الشديدة، والحميَّة المُشتعلة." [٥]

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥١.
(٣) مرى يمري الشيء: استخرجه، والدم ونحوه: أرسله. اللسان مادة (مرى) والثبج من كل شيء: وسطه ومعظمه، يقال: يركبون ثبج هذا البحر: أي معظمه. اللسان مادة (ثبج).
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٥٢.
(٥) المصدر نفسه، ص١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحادثة السابقة توحي بمبدأ أخلاقي كان يتعامل به بعض من يمثلون هذه الطبقة، من ذوي الشأن من الجاه والسلطان، وهو مبدأ المقابلة بالمثل، ويظهر هذا جلياً من الأبيات الشعرية التي استشهد بها ابن العميد فيقول: (١)

ولســـــت مُكَلفـــا أبدا صديقا ... معاشـــرتي على خُلق مُمضٍ

ولا أن يستقيمَ على اعوجَاجي ... ويغفـــرَ بعضَ أحوالي لبعض

ولكنـــــــي له عبدٌ مطيـــــع ... على علاّته أرضى وأغضـــي

حريـــرٌ حين يلمسُني صديقي ... حديدٌ تحت ضِرْس رام عَضّي

فـــإنْ باشرتني فإليك أمـــري ... وإنْ باغضتني فإليـــك بُغضي

فالأبيات تُفصح عمّا يجول في خاطر ابن العميد من حيث المبدأ الذي يعامل به أصدقاءه، ولا حاجة للوقوف على أسرارها ومكنونها، فهي تفصح عن نفسها بنفسها.

وهذه صورة أخرى للصديق السياسي، كما يبدو في كتاب "أبي محمد المهلبي" إلى "أبي الفضل العباس بن الحسين"، وصف فيه صديقه أبا الفضل، فهو –أي أبو الفضل– صديق ذو شهامة، يمكن للصديق أن يتّكل عليه، ويوليه أموره، فيقوم بها على الوجه الأكمل، وهو مساعد لصحبه وخلاّنه، كتوم للسرّ إذا استحفظه، ولا يغفل المهلبي قيمة العقل عند صاحبه، فالعقل قوام ذلك كله، وهو الذي يأخذ بناصية الأخلاق، وبه تجمل، وعليه تتكل، ولذا وصف المهلبي صاحبه بأنه محمود المختبر، ذو عقل ومشورة ونفاذ رأي، ومأمون الطبيعة والسجية، ولذلك رغب المهلبي فيه، وشجعته هذه السجايا على اجتبائه، وتقريبه، وتقديمه، ومصادقته، فهو يجريه "مجرى الصديق الذي يفاوض في الخير والشر، ويشارك في الغث والسمين، ويستنام إليه في الشهادة والغيب." (٢)

هذا ما كان من امر صاحب المهلبي وخلقه، أما المهلبي نفسه فيظهر في هذا الكتاب في صورة الصديق الحريص على صديقه، الذي يبادله صدق المودة والمشاعر، وحسن الثقة، فهو يسر بإحسان صديقه إليه، ويغفر هفواته وزلاته، ولا يقف عندها محاسباً أو زاجراً، وهو ركنٌ للوفاء، حافظٌ لأصحابه، يثق بهم، ويركن إليهم، ويبادلهم الصفاء، ولا يترك فرصة للكاشحين للنيل من أصدقائه وخِلاّنه، وفي ذلك يقول لأبي الفضل: "فلا تقعنَّ في وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقا لنقص، أو لمحبٍّ لنا فيه باباً إلى الزيادة." (٣)

---

(٦) المصدر نفسه، ص١٥٢.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٤، ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يأتي جواب أبي الفضل عن كتاب المهلبي، فيذكر فيه مناقب صديقه ومآثره، ويقدم الولاء والطاعة له، ويعده بأن يكون خير معين له على أمره، فقدْ وكَّلَ ناظِرَهُ بلحْظِه، ووقفَ سمعه على لفظه، "انتظاراً لأمره ونهيه اللذين، إذا امتثلت أحدهما، وَمِلْتُ عن الآخر ملكت المُنَى، وأحرَزْتُ الغِنَى، وكانت شمسي به دائرة وسط السّماء، وعيشي جارياً على النعماء والسّراء، فلا يبقى لي غمّ إلا تَفَرَّى[١]، ولا وَغْمٌ[٢] إلا تَسرّى، ولا إرادةٌ إلا مبلوغةٌ، ولا بُغْيَةٌ إلا مُدْرَكَةٌ." [٣]

ويختم كتابه بالدعاء إلى صديقه، وهذا حق من حقوق الصداقة، ولازمة من لوازمها، يقوي من أمرها، ويشدّ في عضدها، ويدعو إلى استمرارها.

ويصف "علي بن عيسى الوزير" صديقاً له، ذاكراً أخلاقاً اجتمعت فيه، وحسبه أن يكون على واحدة منها، فكيف بها إذا اجتمعت له، فهو– أي صديقه، "عالمٌ متواضعٌ في عِلمه، ومتدين هَشٌّ في نُسُكِه، كتومٌ للسرّ، وحافظ للمروءة، يعامل خلطاءه معاملة لطيفة، ولينة، ويشفق على أحوالهم، ويلتمس لهم الأعذار، ولا يتكلم إلا بالحديث الحسن، وإلا صمت فحُمِدَ صمته"[٤]، ويبين الوزير أن هذه الأخلاق التي جبل عليها صديقه جعلته مقرباً منه، محبباً لديه، فأولع به ولعاً شديداً، على الرغم من أن الحال كانت بينهما صَفِيقَة، كما ذكرت الرواية. ولا شك أن هذه الرواية تكاد تبرز أهم المظاهر الأخلاقية التي تروق للسلطان وذوي الجاه، ويرغبون في تلمسها فيمن يصادقون، فهم يتحرون الشامل لمحاسن الأخلاق، من تواضع، وتديّن وحفظ للسر، ولين في المعاملة.

وهذه رسالة ودية بعث بها وزير المتوكل العباسي، "عيسى بن فرخانشاه"[٥]، إلى صديق له، يذكر فيها ما يتحلى به من أخلاق، مصوراً وده وشكره لهذا الصديق، ويظهر الوزير في هذه الرسالة محافظاً على ود صديقه، شاكراً له، حريصاً على العناية به، مراعياً أحواله وأموره، ثم أخذ بعد ذلك يحدّث صاحبه عن الأنس، وما يحققه من لذة ومتعة، وهو في حديثه هذا، إذ يَذْكر فضل الأنس في تحقيق السعادة بين المتصادقين، وإثراء هذه الرابطة بينهما، إنما يؤكد لصديقه حرصه على التماس الأنس، وأنه يفرح بلقائه، والجلوس إليه، فبه "تُنال راحة المفاوضة والمباثة، وعليه تُبنى الثقة والمشاورة، وإليه ينتهي إخاء المودة."[٦] وحين يبلغ الإخوان الأنس فإنهم يستوفون شروط الصداقة، ويقضون حقوقها، ولن يَبْخَل الوزير على صديقه بحقق هذه المتعة،

---

(٣) تفرّى: تشقق وانشقّ. اللسان مادة (فرى).
(٤) الوغم: الحقد الثابت في الصدر. ورجل وغم: حقود. اللسان مادة (وغم)، سرّى عن قلبه: كشف عنه الهم.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٥٦-١٥٧
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٥٨ بتصرف.
(٢) هو أبو موسى عيسى بن فرخاشاه وزيرالمتوكل العباسي، ثم المعتز من بعده. الفهرست، ص١٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيُلبّي دعوة صديقه له باللقاء والمثول بين يديه، وتحري الأنس المتوقع من هذا اللقاء، خاصة وأن الصديق الوزير "ممن لا يخصّ بأنسه إلا من ترتضي أخلاقه، وتحمد مذاهبه، وكفى بذلك فضلاً لمن ناله." (١)

ويقف الباحث على المزيد من أخلاق الوزير، لكي تكون الصورة جلية، فهو في رسالة أخرى يبين لصديقه ما يلتزم به من الولاء والإخلاص، وصحة المودة، وهو ممن "إذا شدّ عُرْوة أوثقها، وإذا عَقد مودّة صدقها." (٢) ولا يكتفي بذلك، بل ينفي عن نفسه أن يكون ممن يشوبون ودّهم ولا يخلصونه، فلا يعرف النفاق طريقا إلى قلبه، ولا يُعطي العائبين فرصة للنيل منه، وذكره بما يكره، وهو ليس بالملول الذي يستاء منه صحبه وخلانه، وهذا خُلق ينفر منه المتصادقون، لما يوقعه من ضعف ونخر في هذه الرابطة.ولذا ألزم نفسه بحسن اختيار أصحابه، لأن "الرجل بمواقع اختياره إذا مال ووالى، وإذا انحرف وعادى، وإذا اجتنب واجتبى." (٣)

وهذا سعيد بن عبدالملك يقدم صورة للصديق الموافق، الذي يودّ صاحبه، ويرى أن هذه المودة ليست برّاً، بل مِنّة وحقاً، أوجبتها النيّة الخالصة، والإحساس الصادق، وهو صديق يوافق صديقه في كل أحواله وشؤونه، ولا يستريب بما يوجبه عليه هذا الصديق، "بل أشكرك على النية دون الفعل، وتلك إرادة مثلي ومثلك."(٤) ولا يُخفي حقيقة مشاعره تجاه صديقه، بل يُصارحه بما تجول به خواطره، فيبين له ما يكن من المحبة، والمودة، وأن ما رآه الصديق منه، ما هو إلا نَزْرٌ يسير، فعنده المزيد لكل ما يحب الصديق، ليس ذلك فحسب، بل من شأنه –كما عرفه أصدقاؤه– أن يتحرى كل ما يحقق السعادة لهم، فيسارع إلى ما يهوى الصديق ويريد.

ويرى سعيد أن رابطة الصداقة التي يرتبط بها المتصادقون تنفي عنهما التعامل على أساس قطبين متنافرين، بل هما شخص واحد، تتشاكل أرواحهما فلا يميز أحدهما عن الآخر، ولا يبين عنه، فإذا ما وقع خلاف ما، أو هفا أحدهما، فليس شيء أفضل من التلاقي، لما فيه "من تجديد البر، وفي التخلف من قلة الصبر." (٥) أما إذا تعاملا على أساس لزوم تقديم مواضع العذر والقبول، عند ذلك سيكون أحدهم "معتذرا مُقصّرا، والآخر مُقيلا متفضّلا. (٦) وهذا أمر يكرهه المتصادقون، وينفرون منه ولا يلجئون بعضهم إليه، لما يحدثه من خرق لهذه الرابطة السامية.

---

(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣١٨.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٣١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكفى بالصديق الإقرار بما يُلزمه، وإن لم يكن لازماً، وهو إن سلك هذا السلوك ولجأ إليه منصرفاً عن الحجة، فقد لطف استعطافه، وحسن خلقه، فاستوجب استعطافه المسامحة والإنصاف.

وهذا "جعفر بن يحيى "وزير الرشيد، يقدم صورة الصديق الصدوق، الذي يتعامل وأصدقاءه بأخلاق مثالية في الصفح وكظم الغيظ، واغتفار ذنوب الصديق، والإغضاء عن هفواته وزلاّته، واحتمالها، ولذا فهو لا يكلّف صديقه إن هفا ما لا تطيق نفسه، وما ذاك إلا لما جادت به أخلاقه، من الثقة بالصديق، وتصديقه في كل ما يقول، ويحتجّ بذكره، ويعتذر بوصفه، ولا يتوقف الأمر عنده إلى درجة قبول عذر الصديق، بل يتجاوز ذلك إلى إنكار هفواته، وإسقاطها من حسبانه، حتى كأنها غير كائنة، ويحرص الحرص كله على تجاهل مبدأ المعاملة بالمثل، فيقبل على صديقه وإن انصرف عنه، ويحوطه لما قدم وإن ذمّه، وهو إذ يفعل ذلك، وإذ يتحلى بهذه الأخلاق إيماناً منه بأن ذلك، "أبلغ في الإصلاح، وأنجعُ في الاستنجاح، وأبلغ في التعليم، وأكبر في التقويم." [١]

ولعمارة بن حمزة جملة من الأخلاق يصورها في كتاباته ورسائله، وقد تجلّى بعضها في رسالة إلى "محمد بن زياد الحارثي" حين طلب إخاءه[٢]، فهو يرى أن الصديق يحتاج من صديقه إلى عقلٍ رادع، ووفاء في الودّ، وكرم في الحق، فمن تحققت فيه هذه الأخلاق وجبتْ صداقتُه، وحسنتْ معاشرتُه، وأخذ الإخوان يبتدرون وده، ويصلون حبله، ويتسابقون إلى محبته.

ومن جملة الأخلاق التي يراها عمارة تصلح أن تكون متمثلة في خير الإخوان، الحلم، وحسن اللفظ، وشر الإخوان من "عجلت بادرته، وساءت مقالته." [٣]

وفي موقع آخر من كتاباته[٤] يتحدث عن أخلاقه ومعاشرته لإخوانه، فهو المأمون في إخائه، المداوم لمن عاهد بوفائه، الذي يتلافى الظنون بأصدقائه، وهذه أخلاق محمودة، ويوصي بها كل من كان حريصاً على التماس النجاح في هذه الرابطة، واستمرارها وتوثيقها.

وبعد؛

فهذه جملة من الأخلاق التي صورت الصديق من ذوي الجاه والسلطان والمُلك، من خلال الكتابات النثرية في العصر العباسي، ومما سبق توضيحه وعرضه من هذه الأخلاق يمكن

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمشاركة الوجدانية تقتضي مشاركة في السراء والضراء، فكما أنهم كانوا يكتبون لإخوانهم مهنئين بزواج أو إفراق من مرض، كذلك كانوا يكتبون إليهم حين العزاء أو المرض، مقدمين أحرّ التعازي علىالمصاب الجلل الذي لحق بالصديق، حرصاً منهم على تقديم المواساة للأخ بالنفس والمال، وهذا حق لازم بين الأخوة، ومن ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف إلى بعض خلانه وقد اعتل[١]، وما كتبه يعزي فيه عبدالله بن طاهر بأبيه[٢]، وفي هذا الكتاب يوصي صديقه بالصبر والاحتساب، ويعظه مؤكداً له دوام العهد بينهما، وصدق المودة، والنصيحة له.

ويختم الباحث صورة الصديق السياسي بهذه الرسالة اللطيفة، ذات الموضوع الطريف الذي مفاده، أن صديقاً للخوارزمي طلب منه التوسط لدى نائب الوزير "ابن عباد"، وألحّ عليه في ذلك، مما دفع الخوارزمي إلى تنفيذ أمره فأخذ يكاتب نائب الوزير، وما حصل أن النائب لم يتكلف الإجابة عن كتبه، مما دفع به إلى مكاتبته معاتباً ومستعتباً على حد قوله: "كتبتُ إلى الأستاذ معاتبا مرّة، ومُستعتبا كرّة، فما وجدتُ للعتاب أعتابا، ولا قرأتُ عن الكتاب جَوابا، وليتَ شعري ما الذي منعه عن صِلةٍ لا تضرّه وتنفعُني، وعن تواضع لا يَضَعُه ويرفعُني." [٣]

ويبدو أن صديق الخوارزمي قد أثقل عليه في كتبه، وكان له معاتباً عتاباً شديداً، الأمر الذي لم يستطع الخوارزمي منه فراراً، فقد حاول أن يقدم لصديقه أعذاراً تحول بينه وبين القيام بأمره، وأنه قد لحق من التقصير بحق صاحبه ما يمنعه من التوسّط له، ولكن "لم تقابل حُجّتي إلا بالجَحْد، وعُذري إلا بالردّ،وما زادني على كتبه العريضة الطويلة، ومعاتباته الوخيمة الثقيلة."[٤]

وفي ختام رسالته يطلب على استحياء من صديقه أن يكون محسناً لهما، ملبياً مطلبهما، غير رادّ لمن قصد بابه، فإنه كما يقول الخوارزمي في حقه "أوحدُ في النَّوال." [٥]

ثانياً: الجانب السياسي

يقف الباحث مع الحكاية التي رواها يحيى بن أكثم في وصف المأمون لأحد أصدقائه، حيث يمكن التمثل ببعض الجوانب السياسية في هذا الوصف، ومن ذلك ما ذكره المأمون أنه كان يستمدّ من صاحبه رأياً يقوّم به أود المملكة، ويصل به إلى رضاء الله في سياسته الشرعية،[٦] لقد كان المأمون يستريح إليه وثِق بمشورته، فهو دائم النصحح له، إذ لا ينصحه إلا بما فيه الخير لسياسة الرعية وفلاح حكمهم، وحين فارقه هذا الشيخ قدّم له نصحاً وإرشاداً فقال له: "يا أمير

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٢.
(٣) الخوارزمي، رسائله، ص١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٤.
(٥) المصدر نفسه، ص١٤.
(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٦-٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المؤمنين إذا استقسّ ما بينك وبين الله تعالى فابتّلهُ، قلت: بماذا يا صاحب الخبر؟ قال: بالاقتداء في الإحسان إلى عباده"[١]. والنصح والمشورة مبدأن يتعامل بهما الأصدقاء، ولكنهما برزا في الصورة السياسية للصديق، بروزا يرتبط بما يتعلق بأمور الدولة، والقيام على شؤون الرعية، وذلك بما يضمن نجاح العلاقة بين الراعي والرعية، وهذا ما أبرزته هذه الحكاية التي ساقها الباحث، فصديق المأمون أشبه ما يكون بعضو من أعضاء مجلس الشورى يستريح إليه "استراحة المكروب، ويجد به ما يجد بالولد السارّ المحبوب"[٢].

والمتتبع لهذه الحكاية يلمح تركيزا على جوانب العدل والإنصاف والرحمة، وهي ركائز يعتمد عليها الحكم، ولا غنىً عنها بين الحاكم والمحكوم، وفي ذلك يقول راوي الحكاية على لسان صديق المأمون: "والله ما أعطاك الله القدرة عليهم إلا لتصرّ على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم، والتغمد بسيئاتهم. وأيّ شيء أوجه لك عند ربك من أن تكون أيامك أيام عدل، وإنصاف، وإحسان، وإسعاف، ورأفة، ورحمة"[٣].

ويبدو أن معاني المسامحة والإنصاف تتكرّر في صداقات الطبقات السياسيّة كما يتضح في كلمات الوزير سليمان بن وهب، يتحدّث عن الاستعطاف، ويرى أن الصديق الذي يقرّ بذنبه دون إلزام بهذا الإقرار، فقد "استوجب المسامحة والإنصاف"[٤].

دارت مفاهيم العدل والظلم والإنصاف والمسامحة والعفو دورانا ملحوظا في النصوص ذات الجانب السياسي، وهي مفاهيم ترتبط بنظام الحكم ارتباط وثيقا إذ لا بد للرئيس أو للمسؤول أن يكون منعما على رعيته بعفوه، وعدله، فيقع الإنصاف والتسامح ممن سَمَتْ رتبته، على أنه لا يمنع أن يكون الأمر خلاف ذلك، كما يتضح في رسالة الوزير ابراهيم بن المدبر إلى صديق له، كان متخوّفا من إملال الوزير لكثرة كتبه التي بعثها إليه، مما دفع الوزير إلى نعت صاحبه بالظالم، الذي تجاوز العدل والإنصاف فيما يقول، فيقول له: :لم أرزق فيما قلته عدلك، هل يملّ الروح جسده، والجسد جوارحه، والجوارح سلامته، والسلامة دوامها؟ ظلمتني عفا الله عنك."[٥] وكذا جعفر بن يحيى يخاطب صديقا له، فيقول له: "عندنا الاغتفار لما اقترفت، وتصديق كل ما قلت، ....، والإكذاب للجور الذي اقترفته"[٦].

---

(٧) المصدر نفسه.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقف الباحث مع رسالة أبي محمد المهلبي الوزير إلى أبي الفضل العباسي بن الحسين، وكان بينهما تواصل، وهو في رسالته هذه يعرض صورة صديقه، مركزاً على ما يركن إليه من أمور السياسة، وقد قيّدت هذه الأمور في المحاور الآتية:

- صديقه ذو شهامة فيما يناط به.
- حسن الكفاية فيما يوكل إليه.
- كتوم للسرّ إذا استحفظه.
- حسن المساعدة.
- تقديم العون للصديق لما عرف به من العقل والمشورة ونفاذ الرأي.
- يُفاوض في الخير والشرّ.
- يُشارك في الغثّ والسمين.

فجميع ما ذكر سابقاً يُعدّ من ركائز السياسة، ومن الأمور الهامة التي يحرص الصديق ذو المنصب الرفيع على اختيار من كانت هذه خصاله ومناقبه، كي تحسن به الصداقة، ويكون ضمن البطانة الصالحة التي تعين الحكام في أمور الحكم، وإقامة العدل بين الرعية.

ويختار علي بن عيسى الوزير صديقه ابن مجاهد لما عرفه فيه من كتم السرّ، وحفظ المروءة، مع ما يتحلى به هذا الصديق من حسن الحديث في حينه، وإلاّ فيصمت ويكون صمته محموداً، وهذه صفات تصلح لمصاحبة ذوي الجاه والسلطان، لأن ليس أخطر على المرء من خذلان اللسان، ووقوعه في الزلة والخطأ، ولذا برز إعجاب ابن عيسى بابن مجاهد وأثر إخاءه رغم الحال الصّفيقة التي بينهما[١].

بقي أن يذكر الباحث ما كان يبرز أحياناً في صور الصديق السياسي المتعدّدة من حديث عن مبدأ المعاملة بالمثل، حيث يجد الباحث تبايناً في وجهات النظر حول الأخذ بهذا المبدأ أو نبذه، ومن الذين نبذوا هذا المبدأ جعفر بن يحيى حيث يقول: "والرجوع عما أنكرته، والزيادة فيما اخترته، استدعاء لك وإن انصرفت. وحياطة لما قدمت وإن ذممت، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال"[٢]. ولكن تماشياً مع سموق رتبة بعض ذوي الجاه والسلطان، أخذ فريق منهم بهذا المبدأ، وعدّه يناسب وضعه السياسي، ومثال ذلك ما ذكره التوحيدي عن ابن المعتز حين

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٥٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال:"لست لمن خاشنني ألين، ولا إذا عزّ في أهون[١]." يعلق التوحيدي على هذا الكلام بقوله: "ولعل هذا مسلّم لأبي العباس لسموق رتبته، وشرف نسبه، ومستفيض أدبه وكرمه[٢]".

صورة الصديق المتدين:

أولاً: الجانب الأخلاقي

يعرض الباحث في هذا الجانب من الدراسة أبرز المظاهر الأخلاقية التي التمسها المتدينون، والزهاد، والوعاظ، والقضاة، والمتصوفة، وأصحاب المذاهب الإسلامية، واقفاً عند ملامح الصورة التي رسمت للصديق عبر كتاباتهم وإبداعاتهم النثرية في العصر العباسي.

ولا بد من تتبع ملامح هذه الصورة، ورسم جزئياتها وصولاً إلى كمال الصورة، ولذا سيقف الباحث عند أبرز الكتابات، والرسائل الإخوانية، والمواعظ، والوصايا، وتتبع جوانبها الموضوعية، وقوفاً عند أهم القضايا التي تصلح لتكون دروساً أخلاقية يتمثل بها المتصادقون في ذلك العصر.

وأول ما يمكن أن يُصْحَب المرءُ عليه حسن الخلق، وذلك أن القرين بالمقارن يقتدي، حتى وإن كان صاحب الخلق الحسن من الفاجرين، فقد شجع أهل الدين على مصادقته، وهو لديهم أحب من العابد ذي الخُلق السّيء، وفي ذلك يقول "برهان الصوفيّ الدينوري"، فيما سمعه من "الجنيد": "لو صحبني فاجرٌ حَسَنُ الخُلق كان أحب إليّ من أن يصحبني عابدٌ سَيّء الخُلق؛ لأن الفاجر الحَسَنَ الخُلق يصلحني بحسن خلقه، ولا يَضرُّني فجورُه، والعابد السيء الخلق يفسدني بسوء خلقه، ولا تنفعني عبادتُه، لأن عبادة العابد له، وسوء خلقه عليّ، وفجور الفاجر عليه، وحسن خلقه لي." [٣]

التقوى أمر منشود في الصداقة، إذ يطلب الأصدقاء فيمن يصادقون أن يكون تقياً، وَرِعاً، لِيَحْسُنَ به القُدْوة، ويُحتذى به في جميع أمره، لذلك كان "ابن الجلاء" الزاهد بمكة يقول لأصحابه[٤]: "اطلبوا خِلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوى فتنفعكم في الدار الآخرة، ألم تسمعوا أن الله تعالى يقول: (الأخلاء يومئذ بَعْضُهم لبعض عدوّ إلا المتقين)[٥] فالمرء يُظَنّ به ما يُظَنّ

---

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٥.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٢.
(٣) الزخرف، آية رقم ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقرينه، والإنسان مَوْسُوم بسيماء من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صَاحب، و "ما من شيء أدَلّ على شيء، ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب. وكان يقال: اعرف أخاك بأخيه قبلك."[١] ولذا لزم على الصديق أن يتحرّز من دُخلاء أهل السوء، ويتجنّب أهل الرِّيَب، ليكون موفورَ العِرض، سليمَ الغيب، فلا يلام بعلاقة غيره.

ويبدو أن اختيار الصديق لم يكن بالأمر الهين، فقد كان يؤرق الكثيرين، ممن يحرصون على انتخاب صديق، يصلح لدنياهم وأخرتهم، ولذا كان الناس يتوجهون إلى المتصوفة والزهاد والوعاظ ممن حسن أدبهم، ورجح عقلهم يسألونهم من يصحبون؟ وإلى من يُخلصون؟ ومَن الصديق الذي يستحق أن يُرْكَن إليه؟ وهذا أحدهم يسأل برهان الصوفي عمن يكون الصديق؟! فيرسم برهان له صورة الصديق، ويذكر الأخلاق التي يصاحب عليها الناس، ومن جملة الأخلاق التي يذكرها أن يكون واسع الخلق، مؤنسا بنفسه، يواسي الإخوان في نفسه وماله، ولا يؤدي به الرضا إلى الغِلْظة، ولا السّخط إلى المَقْت، "ويبدي لك خيره لتقتدي به، ويواري عنك شره لئلا تستوحش منه".[٢]

ويُلحظ التوسط في الأخلاق السالفة، وكأن "برهان الدين الصوفي" قد اكتفى من الأصدقاء بذلك، وهو حين يقدم هذه الأخلاق، ويعرضها للأصدقاء إنما يصور بذلك ما هو كائن من صداقة، وما يتعامل به الأصدقاء فيما بينهم، فهو يقدّم صورة واقعية لحال الصداقة، والمتمثلة في كون الصديق يتماثل وصديقه في كل شيء، مهما تلوّن بهم الدهر، فالهمّ واحد، ولا يكتفي بأن يساوي بينه وبين صديقه في أحواله، وشؤونه، وتصريف أموره، بل يقدمه على نفسه، فيقدم حظّ صديقه على خطه،و"يسارق النظر بلحظه، ولا يغلظ له بلفظه،ولا يتغير لك في غيبه، ولا يحول عما عهده في شهادته، يعانق مصلحتك بالاهتمام، ويثبت قدمك عند الإقدام من الإحجام."[٣]

فهذه هي الصورة المثالية للصديق، ولكن "برهان الدين" الصوفي يراها غير متحققة، لأن الناس سدوا دونها كل باب، ولم يطمعوا في تحقيقها، فهي لا تتجاوز أن تكون إلا متخيلة أو متمنية.[٤]

ويبدو أن من كان يتحرى الصورة المثالية للصديق والصداقة، طلب مُحَالاً، وانتهى به الأمر إلى اليأس مما يَنْشُد، الأمر الذي جعل بعض الزهاد يقعدون عن طلب الصديق؛ ليأسهم من وجوده، قيل "لِرُويم"[١] ما الذي أقعدك عن طلب الصديق؟ قال: يأسي من وجدانه."[٢]

---

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٠.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقرب من هذا وصف "ابن المولّه" للصديق حين سأله "أبو المتيم الرّقيّ" عمن يُخلِص إليه، ويشتمل عليه بسرّه وعلانيته، والسؤال يبرز قيمتي الإخلاص وحفظ السر عند الأصدقاء، فيأتي جواب ابن المولّه بعرض صورة أخلاقية مثالية للصديق الذي يبذل لصديقه نفسه وماله، ويكون عوناً له في سرّائه وضرّائه، وعقله الذي يرشده إلى الخير، ويصدق له النصح، وهو مع هذا كله يتّصف بالصِّدق، فلا يقول إلا حقا، ويلتمس الأعذار لصديقه إن زلّ أو كَبَا، وإن رأى منه خيرا شكره وأعانه عليه.

هذه جملة من الأخلاق المثالية أوقعت أبا المتيّم في حيرة من أمره، فهي صورة لم يعهدها متحققة في واقع الأمر، ولذا تراه يقول "لابن المولّه": "يا سيدي، من لي بمن هذا نعته"[٣]، فالعبارة تبرز نظرة تشاؤمية من تحقق الصورة المثالية، وهو كلام يقرب من كلام برهان الصوفي"، لكن المتتبع لجواب "ابن المولّه" يدرك بصيص أمل في إمكانية تحقق هذه الصورة، وإن كان يُعَدُّ كلاماً لا يتجاوز التوجيه النظري للقضية، فهو يطلب من "أبي المتيم" أن يكون هو هذا الصديق بأخلاقه، وسجاياه، أي أن يلتمس هذه الأخلاق فيبدأ بنفسه أولاً محققا إياها، عاملاً وملتزماً بها، فإذا لاحظ الآخرون أخلاقه، وتتبعوها، وأدركوا كنهها وفضلها، حرصوا كلّ الحرص على مجاراتها، ومصادقة صاحبها، علهم يظفرون منه بما فيه صلاح أمرهم، وإنجاح مقاصدهم.[٤]

وتجدر الإشارة هنا إلى اهتمام التوحيدي وإعجابه بمواقف صوفية تعطي الأولوية للإيثار، وإنصاف الآخرين، وقضاء حقوقهم دون الامتنان عليهم، لذلك نجده يُعَرّف الصديق أحياناً بقوله هو "من قدر أن ينسى ماله، ويقضي ما عليه."[٥]

فالكرم صفة تتخطى حقوق الصديق وواجباته، والمشاركة في العسر واليسر سمة خلقية تبلغ شأواً عالياً في الأخوة.

ويبقى الباحث مع أبي المتيم الصوفي الرّقيّ، وهو يتحدث عن طبيعة العلاقة بينه وبين أحد أصدقائه، الذي يتعايش معه بالرِّياء، ولا يصلان حد المكاشفة والتصافي، وما ذاك إلا لأنه يخاف أن تؤدي المكاشفة بينهما إلى المفارقة، وانقطاع العلاقة بينهما، ثم يبين أن الحال ستكون أفضل لو وقع التصافي بينهما، لأن المؤونة في الصبر في حال الرياء والنفاق تكون أغلظ منها في حال

---

(٤) قد يكون رويم بن أحمد بن يزيد، أبو محمد من أهل بغداد، من جلة مشايخهم، كان فقيها على مذهب داود الأصبهاني، مات سنة ٣٠٣هـ، السلمي ، طبقات الصوفية، ص.

(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٨٧.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصافاة بينهما، ولكن التصافي يجب أن يكون من قطبي الصداقة، وليس من أحدهما، ويبين الصوفي أن الرغبة في التصافي لعلها تكون موجودة لدى صاحبه، فهو يتمنى ذلك منه، كما يتمناها أبو المتيم نفسه، ولكنه –أي صديقه– لا يطابق ذلك، "لحيلولة الزمان، والفساد العام، وغلبة ما لا سبيل إلى تغييره." (١)

ثم يقترح أبو المتيم علاجاً ناجعاً، حتى تأتلف القلوب، وتنتفي العيوب إذ لا بد من كلمة طرية، ودعوة فاشية، وأمر جامع وألا يتمنّى المرء ما لا يُوجد، ويرى أن هذا لن يكون إلا بأمر الله وتوفيقه، فليس إلا الرضا بما قسم المليك "إن حلْوا فحلْوا، وإن مرا فمرا، إلى أن يأذن الله بالفرج من حيث لا يحتسب." (٢)

وهذا موقف "سفيان بن عيينة" من الصداقة والأصدقاء، وهو يقدم صورة منفرة للصداقة، تكاد تصل درجة التشاؤم، والقعود عن طلب أي صديق، ويبدو أن سفيان قد مرّ بتجارب سلبية في حياته، دفعته إلى النظرة السوداوية من الناس والأصدقاء، حتى بلغ به الأمر إلى القول: "صحبت الناس خمسين سنة، ما ستر لي أحد عورة، ولا رد عني عيبة، ولا عفا لي عن مظلمة، ولا قطعته فوصلني، وأخص إخواني لو خالفته في رمّانة فقلت: هي حامضة، وقال: هي حلوة، لسعى بي حتى يشيط دمي.(٣)" (٤) وإن كانت الأخلاق السالفة أخلاقاً منفرة تتقزز منها النفوس، وتنفر منها القلوب، ولا يطمح الأصدقاء إليها، فإن فيها تركيزاً على الأخلاق المنشودة في الصداقة، والتي يرغب الأصدقاء من ذوي الطبقة المتدينة التماسها، والتمسك بها، فكل ما يأتي ضد الأخلاق السالفة يصلح أن يكون مناسباً لدوام الصداقة، واستمرارها كحفظ الصديق، وستر عيوبه، وغفران ذنوبه، والتجاوز عن سيئاته،والأخذ بمبدأ أن أرى لصديقي فوق ما أرى لنفسي، مُتَجَاهِلِين مبدأ المعاملة بالمثل.

ويقرب من نظرة "سفيان بن عيينة" كلام سفيان الثوري حين أوصى بعض أصدقائه، وقدم له النصح والموعظة، فحذّره من الأصدقاء، وطلب إليه أن يُقلّ من معرفة الناس، وأن يكون منكراً لمن يعرفه منهم، وما ذاك إلا لفساد الأحوال، والناس، ويركز في وصيته على قضية إغضاب الصديق، إذ يبدي تشاؤما، ونظرة سوداوية، فهو لا يكاد يقع على صديق يضمن سلامة

---

(٤) المصدر نفسه، ص٩٤.
(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٥.
(٢) أشاط السلطان دمه: أهدره. اللسان (شيط)
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلبه وصدره، في حالتي الرضا والغضب، وكل ما يمكن أن يقع عليه من الرجال ما إن لاحاه في زمانه فغضب، لم يأمن أن يترامى به غضبُه إلى سفك دمي." (١)

ويبدو أن النظرة السائدة في الأوساط الدينية هي اعتزال الناس، والتنفير من عقد بعض أنواع الصداقات، وهذا أمر فرضته ظروف الحياة، وتغير صروف الدهر لأحوال الإنسان وأخلاقه، الأمر الذي دفع بأحد الرهبان إلى القول: "إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سورا من حديد فافعل، وانظر كل جليس وصاحب لا تستفيد منه في دينك خيرا، فانبذ صحبته عنك."(٢)

ويبرز "التوحيدي، أبو حيان" النظرة المتشائمة من الصداقة، ويعقد شبها بينه وبين "جميل بن مُرّة" في الزمان الأول، حيث أن الأخير كان في زمان كان الدين فيه يعانق بالإخلاص، و"المروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قَعْرَ البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبا، ولا ستروا لي عيبا، ولا حفظوا لي غيبا، ولا أقالوا لي عَثْرة ولا رحموا لي عَبْرة، ولا قبلوا مني معذرة، ولا فكّوني من أسرة، ولا جَبروا مني كَسْرَة، ولا بَذلوا لي نُصرة." (٣)

ولذا قرر أن يعتزلهم وألا يضيع حياته بالشغل فيهم، ومن هذا الموقف يخرج التوحيدي ليعلن نظرته السوداوية من الأصدقاء، فيقول: "وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لاصديق ولا من يتشبه بالصديق."(٤)

ولكن ما سبق ذكره من نظرة سوداوية، لا يمنع من وجود بعض الصور الإيجابية والمشرقة للصداقة، فها هو الصوفي "ابن السَّرَّاج" يطالعنا بهذه الأخلاق، التي يتصف بها صديقه "المهلّبي"، الذي كان من مشايخ الشام، في كتاب تشوّق يستحق أن يكتب بماء الذهب، لروعته وحسن سَبْكه، وهو في هذا الكتاب يضع القارئ أمام جملة من الأخلاق، التي إن تحلى بها امرؤ تسابق الناس إلى وده، وتقاطروا على مصادقته، فهو- أي المهلبي- "أحلى من ماء الحياة إذا طابتْ، وأطيب من العيشة إذا لذّتْ، وأعذبُ من الزُّلال على الحرَّة(٥) وأدبّ في الضمائر من الخَواطر، وأعلق بالعيون من النّواظر." (٦) ولم يكن ما كان من وصف ابن السراج لصديقه، إلا لأنه أشبه عنده

---

(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٨.

(١) الثعالبي، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، ص٥٨.

(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٤) الحرّة: العطش. يقال: "رماه الله بالحرّة تحت العرّة، أي أعطشه أوان البرد.اللسان (أحرّ).

(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالرّوح، وهذا تشاكل واقع وكائن بين الصديقين، والمهلبي صديق يستحق -وفق وجهة نظر الصوفيّ- ما نُعت به، "ولذلك غدت الأحداق طامحة نحوه، والهمم طائحة من الوجد به، لأن المجالس تكون نضرة بأحاديثه، والمسامع صاغية إلى لذيذ لفظه، وشهي جدّه وهزله." (١)

والكتاب السابق يبرز قيمة التزاور بين الأصدقاء، لما فيه من تحقيق الأنس والابتهاج برؤية الصديق، إذ برؤيته تُسرُّ القلوب، وتَبْتَهجُ النفوس، وتطلب المزيد، ولذا حرص الأصدقاء على التماس هذا المظهر الاجتماعي، ودعوا إلى الحفاظ عليه، مدركين قيمته، وما يمكن أن يحدثه لهذه الرابطة من توثيق، وانتعاش.

ولأن الصديق يحرص على رؤية صديقه والاجتماع به، فإنه كذلك يحرص على تحقيق النفع والفائدة من هذه الرؤية وهذا الاجتماع، ويرى بعض الصوفيين أن الصديق قد يتعظ برؤية صديقه، ويقتدي به، دون الحاجة إلى تلفظه ونطقه، ومن هؤلاء "برهان الصوفي"، وذلك بقوله: "لأنك إذا رأيته رأيت هيأته، وشارته، وحركته، ونظراته، وقومته، وقعدته، وهذه كلها نواطق، ولكن بلا حروف، وشواهد ولكن بلا لفظ، وإشارات ولكن بلا أدوات، وأما إذا جاء الكلام؛ فقد استوعب أقصى البيان، وأتى على أخر الإرادة." (٢) وعندما يريك الصديق نفسه، فقد حَضّك على اتباع أمره، ودعاك إلى الاقتداء به.

وينبغي أن تكون مودة الصديق غالبة على مودة غيره، ممن وجب حبهم، وإخلاص محبتهم، حيث سُئل "الأوزاعي"(٣)عن محبة الصديق، فقيل له: "أيبلغ حبّ الرجل لأخيه أن يكون أحب إليه من أخيه لأمه وأبيه؟ قال: نعم، ومن أمه وأبيه." (٤)ولذا لزم الصديق أن يتحرّى هذه المودة كيفما كانت، وأن يعمل على نمائها وزيادتها، فيلتمس كل ما من شأنه أن يذهب الحقد بينه وبين إخوانه، ومن ذلك ما رآه "حاتم الأصم"(٥)من أخلاق بين المتصادقين تصلح لتحقيق هذه الغاية، وإنجاح هذه العلاقة، ومن هذه الأخلاق، مُعَاونة الصديق ماديّاً ومعنويّا، واللطف باللسان، والمواساة بالمال، والدعاء في الغيب." (٦)

---

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٢٥٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو من الأوزاع، قبيلة، له من الكتب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه، توفي سنة ١٥٩هـ، ص٢٨٤.

(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٥٧.

(٤) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان المعروف بالأصم، اشتهر بالزهد والورع والتقشف، له كلام مدوّن في الزهد والحكم ، كان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفي سنة ٢٣٧هـ، تاريخ بغداد ، ج٨، ص٢٤١.

(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومحبة الصديق لا تكون في أرقى مستوياتها إلا عبر الموقف الصوفي، الذي يرى محبة الناس غاية في ذاتها، ووسيلة لنيل رضا الله، ولا تقتصر هذه النظرة على العلاقة بين الصديقين، وإنما تتعداها لتشمل الإنسانية جمعاء، وذلك أن المتصوّفة يعتقدون أن انشغال القلب بحبّ الله هو الطاقة التي تُخلّصه من كره الآخر، ومن الممكن تحويل الكراهية التي يكنها بعض الناس للعابد الزاهد إلى محبة، إذ يعني الحب أو الكراهية التوجه نحو الآخر بالصداقة أو العداوة، فإذا ما بدر من هذا "الآخر" شرّ قابله المتصوف بالتسامح، والدعاء له بالخير، ولأن المتصوف يشكل من خلال ممارساته، وإنكاره لذاته، قدوة حسنة، فإنه يجذب الآخر، ويجعله متشوقاً إلى اللحوق بمكانته، والتماس صداقته، حتى وإن كان يكرهه أصلاً، وعندما قيل لصوفي: "صف لنا الصديق؟ قال: هو الذي إذا عرض لك بالمكروه، صرحت أنت له بالمحبوب، وإذا صرح لك بالمحبوب ساعدته عليه." (١)

يرى الماوردي ضرورة الإقلال من الأصدقاء، فالإقلال أولى، لأنه أخف أثقالاً وكُلَفاً، واقل تنازعاً، وخلفاً، وإنما يبني الماوردي رأيه بالأخذ بالإقلال انطلاقا من مبدأ التجانس والتشاكل اللذين يعدان من قواعد الأخوة، وأسباب المودة، وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن يكون وفور العقل، وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه، "لأنه يروم مثله، ويطلب شكله، وأمثاله من ذوي العقل والفضل، أقل من أضداده من ذوي الحمق والنقص، لأن الخيار في كل جنس هو الأقل، فلذلك قل وفور العقل والفضل... فقلّ بهذا التعليل إخوان هذا الفضل لقلتهم، وكثر إخوان ذوي النقص، والجهل لكثرتهم." (٢)

ولا بد من الوقوف عند موقف التوحيدي من تعدد الأصدقاء، والتكثير منهم، إذ لا شك أن توسيع دائرة الأخوة أمر هام وضروري، لأغراض المساعفة والمساعدة، وقضاء حوائج الإخوان، ولكن التوحيدي يرى أن أهمية الصداقة لا تكمن في زيادة عددهم، والتكثير منهم، وإنما تتمحور حول الأخوة الخالصة من الشوائب، أي حول النوعية لا الكمية، والحدّ من عدد الأصدقاء قدر الإمكان أفضل، فقليلهم نافع، في حين أن كثيرهم مهلك، ولذا ينصح التوحيدي بأن "يقتصد في المؤاخاة، ويقتصر من العدة على من تفي طاقته بما يجب لهم، فإن حقوقهم – إذا زادت على وسعه– لحقته الإضاعة لبعضها، وجنت الإضاعة عليه العداوة ممن أضاع حقه، ولذلك قيل: كثرة الأعداء من كثرة الأصدقاء." (٣)

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٨٨.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٥٦.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن، إذا ما رام المرء الاقتراب من النموذج الأسمى للصداقة المثالية، صَعُب عليه أن يوسّع دائرة أصدقائه، وأن يفي بحقوقهم وواجباتهم في الوقت نفسه، خاصة الأخذ بعين الاعتبار أن وقته وفعالياته الحيوية لا تسمح له بهذا التكريس من ناحية عملية، ولذا فاحتذاء النموذج المثالي للصداقة والتماسه يفرض الاهتمام بنوعية الصداقة والأصدقاء، بعيدا عن الاهتمام بكثرتهم أو قلتهم.

ثانياً: الجانب الديني

والمتتبع للصور التي رسمت للصديق المتدين يلحظ اهتماما بالجوانب الآتية:

- **التقوى:** كما يتضح في وصيّة ابن الجلاء الزاهد بمكّة لأصحابه:

"اطلبو خِلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوى تنفعكم في الدار الأخرى، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: *(الأخلاء يومئذٍ بعضُهُمْ لبعض عدوّ إلا المتّقين)*[١].[٢]

- **حسن الخُلق:** يبرز هذا الجانب في قول الجنيد، فيما يرويه عنه برهان الدين الصوفي: " لو صحبني فاجر حسن الخلق وكان أحبّ لي من أن يصحبني عابدٌ سيء الخلق"[٣].

- **التوسّط في الحب والبغض:** ويظهر ذلك في قول التوحيدي، حين ربط بين الدين والوفاء: "فإن على العاقل في شريطة الإخاء إذا وجد موضع الدين والوفاء، أن يقتصد في المؤاخاة"[٤]. ويقرب منه ما وصف به برهان الصوفي أو النقل ما عرّف به الصديق حيث يقول: "إن رضي عنك لم يُغلظك، وإن سخط لم يمقتك"[٥].

- **مبدأ الإيثار:** كما يتضح في وصف برهان الصوفي للصديق، الذي يقدّم خط صاحبه على خطّه، ولا يسارق النظر بلحظة[٦]، وهذا مبدأ ديني ينسجم والتشريع الإسلامي الحنيف.

- ستر العورات[٧].
- الرِّياء والنفاق[٨].
- الفساد العام[٩].

ويقف الباحث مع هذه الصورة التي يعرض فيها أبو عبدالله الروذباري بعض الجوانب الدينية، التي غدت جليّة في شوقه وعتابه فهو يقول لصاحبه: "وليس بضائر أن تجعل اهتمامك

---

(١) سورة الزخرف، اية رقم (٦٧).
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٧٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١١.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(٦) لمصدر نفسه، ص٢٣٢.
(٧) المصدر نفسه، ص٢٨٨، وانظر: ص٣٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٩٤.
(٩) المصدر نفسه، ص٤٦، ص٩٤، ص٢٣٢، ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهم، وطلوعك عليهم، وتجديدك العهد بمناسمتهم في عرض ما تتقرّب إلى الله به إن كان حسناً، أو في جملة ما تستغفر الله منه إن كان قبيحاً. [١]" ولا غرابة في استخدام أبي عبدالله لهذه الصور، فهو من مشايخ الشام، ولا بدّ له في استلهام مادة صوره مما صقل به نفسه من ثقافة دينية ، يستمد منها الأخلاق التي يعامل بها أصحابه. والمتصفّح للرسالة كاملة يلحظ فيها المزيد من المعاني الدينية والصوفية التي تداولها كتّاب هذه الطبقة، كما يلحظ قدرة بارعة على تجسيد مشاعر الشوق والتلهف للقاء الصديق فيقول: والله الذي هو مالك همنا، والسابح في سرائرنا، لولا أنّك أحلى من زلال الحياة إذا طابت، وأطيب من العيشة إذا لذّت، وأعذب من الزلال على الحرّة، وأدبّ في الضمائر من الخواطر، وأعلق بالعيون من النواظر، ما اهتززنا مشتاقين إليك، ولا التهبنا متهالكين عليك، ولكنك الروح، والصبر على الروح معوز، والحياة والبقاء مع فقد الروح معجز... فتصدّق علينا بنفسك إنّ الله يجزي المتصدّقين[٢]." فالنص السابق يبرز النزعة الوجدانية التي يركز عليها التصوّف، وهذه النزعات تبني العلاقات على الروحانيات لا الماديّات، وتقوّي الصفاء النفسي، والتجرّد المادي والخلقي، في إطار من المثالية والنزعة الإخوانية اللطيفة.

---

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع
ظواهر أخلاقية تلتبس بالصداقة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطرح هذا الجانب من الدراسة أبرز المظاهر الأخلاقية التي تلتبس بالصداقة، وتحدث فيها خرقا وخللاً مما يفضي إلى تقويضها، والفتّ في عَضُدها، هذا إن كتب لها أن تنعقد أصلاً، ولذا يُعنى هذا الفصل بتتبع هذه المظاهر ورصدها، وتحليلها وفق النصوص النثرية في العصر العباسي.

والمتتبع للنصوص النثرية يلحظ عناية الأدباء بهذه المظاهر، حين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إعلانها، وفضحها أمام الملأ، ليكونوا على اطّلاع واسع بها، فيحذروها ويتجنّبوا التماسها، وما ذاك إلا حرصا منهم على دوام هذا النوع من الروابط الإنسانية التي لا يحسن العيش دونها، ولن تكون للحياة هنأة بمنأىً عنها.

فالصداقة أسمى الروابط التي يرتبط بها الناس، ولا ريب أن ما قُدّم في الفصول السالفة خير بيان على ذلك، فلا حاجة للوقوف عندها.

والحديث عن المظاهر التي تُخِلّ بالصداقة، وتنفي عنها تماسكها وثباتها فتؤدي بها إلى الانهيار، حديث ذو شجون، والأمر فيه يقود القارئ والمتتبع للنثر العباسي إلى مواضيع رئيسة وفرعية، تضم في ثناياها الحديث عن كل ما يصلح أن يكون سببا في إفساد الصداقة وحل عقدها بين المتصادقين، ولذا لزم الوقوف عند أبرز هذه المظاهر الاجتماعية الأكثر تداولاً وطرحاً في النثر العباسي مع التعريج على بعض المظاهر الفرعية التي لا تصلح أن تشكل ظاهرة أخلاقية بعينها.

التحذير من صفات سلبيّة حول الصداقة والصديق:

المكر والغدر:

يمكن لهذين المظهرين أن يشتملا على كثير من المظاهر الأخلاقية الأخرى لما يتصفان به من الشمولية، واتساع الحديث فيهما، إذ إنه من كان المكر من شيمه وطبعه، فقد بَغَى على من قارن وصادق، وقد اقترن المكر كذلك بالغدر، فمن خان وأدخل في الصداقة ما ليس بحق، فقد تنافرت منه القلوب، وتعكرت له النفوس، وانحلّت عُقد الرابطة الأخوية، لأنه لا أمان مع الغدر، الأمر الذي دفع الأدباء والوعاظ إلى التحذير من الصديق الغادر، بل إلى الاستعاذة بالله منه، كما تكون الاستعاذة من الشيطان الرجيم، ولذا قال أعرابي: "اللهم إني أعوذ بك من سلطان جائر، ونَديم فاجر، وصديق غَادر." [١] والغادر ليس له دواء إلا الهجر والقطيعة؛ لأن الصداقة لا

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصلح به، ولن يكون لها استمرار أو بقاء، لما جبل عليه من أخلاق تسيء إليه وإلى غيره، ولا يتوقف الأمر على غدر الصديق بغير صاحبه، فمن غَدر بغير صاحبه، كان قادراً على الغدر بصاحبه، ولذا لزم الصديق أن يحذر غدر صديقه بغيره، "فإذا صاحب أحد صاحباً وغدر ممن سواه، فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة مَوْضع، فلا شيء أضيع من مودةٍ، تُمْنَح مَنْ لا وفاء له." (١)

وقد يرى بعضهم أن الصديق ينبغي أن يتجرد من المواربة(٢) فلا تكون خلقاً يتصف به، لأن ذلك يُنفر منه الأصحاب، فيُبْعَدُ ويُقْلي، ويكون ممن يَتفادى الناس الارتباط به بأي رابطة أخوية، لعجزه عن القيام بحقوق هذه الرابطة وواجباتها، فمن كان عاجزاً عن تحقيق الخير لنفسه، فهو لغيره أعجز، ولذلك قال بعض السلف: "أحق الناس بأن يتقى: العدو القوي، والصديق المخادع، والسلطان الغَشوم." (٣)

والصداقة الحقة، تقتضي التجاوز عن هفوات الصديق وزلاته، وخير الأصدقاء من كان التسامح خُلقه وطبعه، يصفح ويعفو عن ذنوب صاحبه، ويغفرها له مهما عظمت، ومهما بلغ جُرْمه، لكن أن يصل الأمر إلى الخداع والمخاتلة، فهذا أمر لا تصلح معه مغفرة، ولا يستقيم له عفوٌ، وفي ذلك يقول "أردشير بن بابك"(٤): "يغتفر للأخ عظيم الجرم ما سَلِم من المُواربة، حتى إذا كان كاشراً للغدر؛ فالبس له ثوب الهجر"(٥).

والشكوى من خيانة الأصدقاء كثيرة، "والذين ضجّوا من إخوانهم الذين وثقوا بهم فخانوهم، وبكوا بالدموع الغزيرة على ما فاتهم منهم، وساءت ظنونهم بغيرهم، فكثير بَثِير(٦)، لا يحصيهم إلا الله تعالى"(٧)

و"يقف الباحث عند رسالة "غسان بن عبدالحميد"(٨) التي يفصل فيها القول، في خيانة الأخ لأخيه، وتضييعه لنعمة الوفاء التي أنعم الله بها على عباده، فيقول: "فليس من كانت منه فجيعةٌ لأهل الإخاء والحُرْمَة، الذين ارتادوه ارتياداً، واختار واختاروا، فوقع رأيُه عليهم، ووقع رأيُهم عليه، وارتضَوه لأنفسهم، وارتضاهم لنفسه، واقتصروا عليه بمودتهم، واقتصر عليهم

---

(١) ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص١٤٤.
(٢) الخداع والمخاتلة.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٤٢.
(٤) أردشير بن بابك ملك بابل، من نسل ساسان. الفهرست، ص٣٠٠.
(٥) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ج٢، ص٢٤٣.
(٦) البثير: الكثير يقال: "كثير بثير" على الاتباع.
(٧) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٠٧.
(٨) غسان بن عبد الحميد كان يكتب لجعفر بن سليمان بن علي، وكان بليغا حلو الكلام لطيف المعاني. الفهرست ، ص١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمودّته، فحمّلوه أخُوّتهم، وحمّلهم أخُوّته، واسترعَوْه الوفاءَ لهم، حتى ثبّت اللهُ بينهم وبينه ما كان داعيا لكلّ رأيٍ جميل، نافيا لكل صَنيع مَعيب، وأمر مُريب، فأيُّ نقص أكثرُ، وأيُّ دناءةٍ أبينُ من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقةٍ، قد حُفِظت منه حُرمة، واعتُقدتْ بها عليه أمانة، فوجبَتْ منه مُصافاةٌ وانتُظِرتْ منه صِلة، ثم ينكشفُ عن خِيانة وغَدْر وقطيعةٍ وفجعةٍ؟." (١)

فغسان هنا يصور مذمة قطيعة الإخوان، ويجعلها فجيعة فيمن أؤتمن فخان، وعاهد فغدر، وأيّ غدر؟ إنه غدر بالحرمة التي قامت بينه وبين إخوانه، حرمة الوداد الصادق الذي لم يحدث فجأة، إنما حدث عن طول اختيار، وتفقد، وتوقف، وتثبّت، فإذا من وثقت فيه، وملكته زمام نفسك، قد نكثَ كلّ عهوده، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التي ليس منها برء، ولا إقالة، ولذا قال الأحنف: "لا خير في صديق لا وفاء له." (٢)

والصديق الغادر يبدي لمن يصادق خلاف ما يخفي، فإذا التقى بهم قابلهم بالبشر والسلام، وإذا تفرّق عنهم أخذ يطعن فيهم، متناسيا أيّ مبدأ، وهذا خُلق ينفر منه المتصادقون، ويحملون على صاحبه متجاهلينه، ومدركين كنه أخلاقه التي جعلت النفاق والرياء منبعا لها، وهؤلاء هم من نعتهم عبدالله بن المبارك، بقوله: "أعداء غيب، إخوة تلاق." (٣)

ويتحدث "أحمد بن إسماعيل" في رسالة إلى صديق له، يتحدث عن فئة من فئات المجتمع سمّاها: "إخوان اللقاء، وعبيد العيون الذين تجمعهم الرغبة والرهبة، ويتزاورن في المواصلة من العهدة إذا ولّت مُطعمة، وأخلفت مُخيّلة(٤)، أو نابت نائبة، فاكتراثهم لأغراض الدهر بينهم تستر، لأن الحاضر منهم لا تزعجه من أخيه الغيبة، والغائب لا تقر عينه بالأوبة، فالفرقة لا تورثهم وحشة، والاجتماع لا يجدد لهم أنَسَة، وربما وجدت تراضيهم بمخالفة ظاهرهم باطنهم". (٥)

وهذه الفئة من المجتمع قلما اتفق معها أحد، وقبل بمعاشرتها لما تتصف به من أخلاق تعكس صورة سلبية للصداقة، وأنّى تُعقد صداقة يكون أطرافها ممن يستوي عندهم الخير والشر؟! ولا يتحقق لديهم أسمى ما يتعامل به المتصادقون من أنس، وتزاور، ووحشة، ولقاء، وموافقة تكاد تصل درجة المشاكلة في كل شيء، فيصلان حد التوافق، وهذه الأخلاق لا يمكن أن تتأتى بأي حال من الأحوال لأخوة جمعتهم الرّهبة والرغبة.

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٢، ص١٩٨، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١١٣.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٥.
(٣) المصدر نفسه، ص١٣٤.
(٤) مُخيّلة والمخيّل: السحابة التي تحسبها ماطرة. اللسان (خيل).
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم إن هؤلاء الإخوان –إن صح التعبير– لا يمكن أن يكونوا ممن يُقدمون الثقة والتصافي، فلا سبيل مع ذلك إلى التعايش بما يضمن استمرار هذه الرابطة، ولذلك فقد قدم كل واحد منهم "التحرّز من صاحبه، واستشعر الاحتراس منه، فليس يستودعه ما يخاف ضياعه، ولا يأمنه على ما يحتاج إلى الاهتمام به." (١)

وهؤلاء هم من سَمّاهم "الحسن بن وهب" بإخوان البَصر، الذين هم مع الأسفار والنظر فإن غابوا غَدَروا، وإن طال العهد بهم تغيروا." (٢) فلا خير فيهم يرتجى، ولذا لزم على الصديق أن يكون أخ القلب، يَصْبر، ويحفظ الودّ ويرعاه، وينأى بنفسه عن الغدر والمخاتلة والمكر.

ويرى فيلسوف أنه ليس يبعد عنهم من نعتوا بإخوان السوء الذين "ينصرفون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسّل بالإخلاص والمحبة، إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيراً ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شرّاً أو ظنّوه أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مواصلتهم فهو الدّاءُ المُعْضِل المُخوف على المقاتل، وإن استرحتَ إلى مُصَارمتهم ادّعَوا الخُبْرة بك لِطول العِشرة لك، فكان كذب حديثهم مُصدّقاً، وباطلهم مُحققاً." (٣)

ويطلق الثعالبي على هذه الطبقة من الإخوان اسم "صيارفة الإخاء والخلة" واصفاً إياهم بصفات سلبية، لا يصلحون بها لدهر، ولا يستعان بهم على أيّ أمر، وهم في وصفهم يقربون إلى الدناءة، ونقص المروءة، والغدر بمن تقرّب منهم، "فأحظى الناس لديهم من أحسن إليهم، فإن قصّر عنهم رفضوه، وأبغضوه ووتروه، ولم يعذروه، فإن حضروا داهنوا، وإن غابوا شَاحنوا، يُبطئون على الإحَن، ولا يرثون لِلمُمْتَحن، غَنيّهم شَحيح، وفقيرهم مجيح، إن رأوا خيراً دفنوه، وإن ظنوا شراً أعلنوه، الواثق بهم على غرر، والمتمسك بهم على خطر، تراهم بين طاعن ثالب، ومُتقوّل كاذب، وحسود مُوارب، إذا اختبرتهم تكَشّفُوا، وإن اعتبرتهم تزيّفوا." (٤)

فهم يعاشرون الناس بالزيف والنفاق والرياء، ويتوسلون بشتى الطرق للحصول على مآثرهم ورغباتهم، ومصالحهم الذاتية، دون أدنى اهتمام بالوسيلة المتبعة لتحقيق هذا الهدف، وليس بغريب أن يكون الكسب المادي أبرز غاياتهم، وأسمى ما يطمحون إلى تحقيقه، متناسين أن "من اغتنم مال أخيه، انقطعت العصمة بينه وبينه." (٥) وآلت الصداقة إلى الضعف والانهيار، ولذا

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٣٤.
(٢) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ج١، ص١٠٨.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٨٤، وينظر ص٢٧٢.
(٤) الثعالبي، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، ص٥١.
(٥) المصدر نفسه، ص٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصح الأدباء والمجرّبون بتجنب مؤاخاة من كان هذا طبعه وخلقه، وفي ذلك يقولون: "لا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك، فإذا قضى حاجته منك، ذهب ما بينك وبينه." [١] وفي المقابل دعوا وحثّوا علىمصادقة من "إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن عثرت عضدك، وإن احتجت إلى مؤونة رَفدك." [٢]

وهذا الصنف من الإخوان تحدث عنه الماوردي، حين صنّف الإخوان، وجعله مم يَستعين ولا يُعين، فهو لئيم كلٌّ، لا خير فيه يُرتَجى، ولا يُؤمَن شرّه، "وحسبك مهانة من رجل مُستثقل عن إقلاله، ويُستقلّ عند استقلاله، فليس لمثله في الإخاء حَظّ، ولا في الوداد نصيب، هو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا دوائهم، ومن سمّهم لا من غذائهم." [٣]

والصديق حين يذكر مساوئ أخيه، ويكتم خير ما فيه، فإنه يكون بذاك قد وقع في ظلم، وأي ظلم أشد من ظلم الأخ لأخيه، وأي بغي أكبر من إنكار المعروف، اوصى "علقمة بن لبيد العطاردي" ابنه، بأن يصحب من الرجال من يشتمل على محاسن الأخلاق، فيقول له: "يا بني إن نازعتك نفسك يوما إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم فاصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق." [٤] فالمتتبع للنصيحة السابقة يلحظ تأكيدا على خلوّ الصديق من الأخلاق المتصلة بالغدر والخداع، وكل ما يمكن أن يؤدي إليهما.

وهذا أخر يوصي ابنه بالتماس أخلاق الصداقة، الداعية إلى نجاحها واستمرارها، وذلك عن طريق نبذ المُلاحاة، وتجنب الظالمين، لما يوقعوه من ظلم لأنفسهم أولاً، ومن ثمّ للآخرين، مما يعني فشل هذه الرابطة، لأن أساسها العدل والإنصاف، فعلى كل طرف أن ينصف أخاه، وفق ما يرتضيه، ويجده صالحا لتوثيق روابط الصداقة بينهما، أما الظلم فلا يوقع بين الصديقين إلا البُغض والشّحناء، ولا صداقة تقوم على البغض، إذ المودة شرط رئيس من شروط صحتها وإقامتها، ولذا نجد من يُوصي ابنه، فيقول له: يا بني لا تُلاحين حكيما، ولا تحاورن لجوجاً ولا تعاشرن ظلوماً، ولا تؤاخين متهما."[٥]

الجهل:

نُهي عن إخاء الجهول وصحبته لما يتصف به من مظاهر أخلاقية منفرة، لا تصح بها صداقة، ولا يقوى على تحملها صديق، ولذا أوصى الأدباء بترك هذه الفئة من المجتمع، وقاموا

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٣، ص٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٦.
(٣) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٧.
(٤) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٣٩.
(٥) القالي، الأمالي، ج٢، ص١٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بفضحهم وتعريتهم أمام الخلق، ليكونوا على دراية بأخلاقهم، فلا يقربوهم، وليحذروا الآخرين من شرورهم، ليكون المجتمع نقيا منهم، فلا يرتبط أحد بهم ليعيشوا في معزل، بعيداً عن عقد العلاقات والرابطة الإنسانية السامية، فهؤلاء يعرف الواحد منهم بأنه "سريع غضبه، غالب لهبه، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، يرى ما يعطيك غرما، وما يأخذه منك غنما، فهو يرضيك ما طمع فيك، وإذا أيس من خيرك مال إلى غيرك." (١)

خبث السّريرة:

نقاء السريرة وصفاؤها يؤدّي دوراً بارزاً في توثيق روابط الصداقة بين أفراد المجتمع، وبها ينعم المتصادقون، أما إذا خبثت النيات، وفسدت السرائر، دب الخلاف بين الصديقين، وأخذ كل واحد منهما يتحرّز من صاحبه، لافتقارهما إلى الثقة التي لا تتحقق إلا بالصفاء والمصافاة ونقاء السريرة، وعند ذلك لم يعد يأمن أيّ منهم صاحبه على سرّ يستودعه إياه، ولا حاجة بهما إلى المفاوضة والمباثة التي لا تكون إلا بين صديقين قد أحسنا الظن، فهذا أبو العباس، محمد بن يزيد المبرّد يصف صديقه "عبد الصمد"، والعلاقة بينهما فيقول: "كان شديد الإقدام عليّ، رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، خبيث النية، يرصد صديقه بالمكروه، تقدير أن يعاديه، فيسوؤه بأمر يعرفه."(٢) وقيل: "من أساء الظن بأخيه كان آثما."(٣)

قرين السّوء:

وهؤلاء ممن سبق وصفهم يدخلون في عداد الأشرار، وقد نُهي عن صحبة أمثالهم، وعن عقد أي روابط إنسانية معهم، لأنهم لا يصلحون لإقامة مثل هذه العلائق، وقد تعددت تحذيرات الأدباء منهم، وأخذت اشكالاً مختلفة في النثر العباسي، لكنها في مجملها تحمل المضمون ذاته، وهو تحذير المجتمع من هؤلاء، ورسم صورة منفرة لهم، كي يتجنبهم الناس، ولذا تراهم يصفونهم بالنار تارة، كما في قول القائلين:"إخوان الشر كشجرة النار، يحرق بعضها بعضاً." (٤)، "وصاحب السوء جَذوة من النار." (٥) وتارة أخرى يجعلونهم "كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنا، وإذا مرّت على الطيب حملت طيبا." (٦) وإنما كان التحذير من هؤلاء لِطباع جُبلوا عليها، وأخذوا يتعاملون وفق ما تمليه عليهم هذه الطباع، فكّره الناس أخلاقهم، والارتباط بهم، وإن كتب

---

(١) الثعالبي، ترجمة الكاتب في اداب الصاحب، ص٦٩.
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٨٨، ٨٩.
(٣) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص٦٤.
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٧٢.
(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٧٩.
(٦) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٤٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهذه الفئة أن تعقد مثل هذا النوع من الروابط الإنسانية، فلا ثبات لها، إذ كان يقال: إن من الأمور التي لا ثبات لها: "ظل الغمام، وخلّة الأشرار."[١] فالأشرار لا يمكن استصحابهم، لأن المرء لا يسلم من شرهم وشرورهم، وإن سلم منه، لم يسلم منهم عليه بهذه السلامة، ولذا قال أفلاطون: لا تستصحبوا الأشرار، فإنهم يمنّون عليكم بالسلامة منهم." [٢]

ويرى ابن المقفع أن مجالسة أهل السوء والشر وصحبتهم لا يمكن أن ترجع على المرء إلا بالشر، مهما كان سموه ونقاؤه، فالقرين بالمقارن يقتدي، والخليل يحشر على دين خليله، ولذا حذر من صداقاتهم، وأوصى بالتقليل منهم قائلاً: قلل من مجالسة أهل السوء، لأن صحبة السيء تدنسك، وإن كنت طاهراً، فإن الشمس بهذا العلو تحجبها ذرّة من السحاب." [٣]

وحين يفضح الأدباء والحكماء قُرناء السوء، ويكشفون حقيقية أخلاقهم ذاكرين المظاهر الأخلاقية التي يوسمون بها، فإنهم يكونون بذلك قد وضعوا للناس معايير أخلاقية بعضها يصلح للصداقة، وبعضها الآخر ينبغي تجنبه لما يحدث من خرق لهذه الرابطة، وتقويض لبنيانها، وحين تعرض أخلاق قرناء السوء، يحذرهم الناس، ويطلع على طباعهم، وطرق حياتهم، وتعاملهم مع أصدقائهم.

المُدَاراة:

ينكر "يحيى بن معاذ"[٤] على الصديق أوّلاً أن يضطر صديقه إلى تذكيره بما هو نافع لهما، وصالح لدوام الصداقة واستمرارها، إذ المفروض على الصديق أن يكون واعياً لحقوقه وواجباته، ومدركاً لها، أما أن يقول له: "اذكرني في دعائك،"[٥] فهو بئس الصديق، والأمر الثاني الذي ينكره بين الأصدقاء هو المداراة، فالصديق لا يحتاج إلى مداراة صديقه، وإن كان بالمداراة – كما يقول أحد الأعراب –: "تستخرجُ الحيّة من جُحْرها، وتَستنزلُ الطائر من الهواء، وتَقْتَنِصُ الوحش من البيداء."[٦] والأمر الثالث أن يلجئك الصديق إلى الاعتذار، وهذا موضوع سبق القول فيه.

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٦٧.
(٢) الثعالبي، ترجمة الكاتب، ص١١٠.
(٣) الأدب الوجيز، ص٤٢.
(٤) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا أحد الوعاظ الزاهدين، مات في نيسابور سنة ٢٠٦هـ، وله كلمات سائرة في الزهد، الفهرست ، ص٢٣٥.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٩٨.
(٦) المصدر نفسه، ، ص٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التجنّي والهجر:

ومما يُنْهى عنه في الصداقة التجني، لما يحدثه من مساوئ، تودي بهذه العلاقة، وكفى بالتجنّي أن يكون "رسول القطيعة، وداعي القِلى، وسبب السلوّ، وأول التجافي،ومنزل النّهاجر" [١] وعلى الصديقين أن يحرصا الحرص كلّه على التماس ما يوثّق العلاقة بينهما، ولا يفضيان إلى أسباب تؤدي إلى الهجر والقطيعة، وإن يُطرح موضوع الهجر، يتبادر إلى الذهن ما قد يُلاث بين الصديقين، فيُفضي إلى الهجر والعُتب.

وحين سئل "أبو سليمان السجستاني" عن احتمال وقوع ذلك للصديقين قال: "أما ما دامت الصداقةُ قاصرةً عن درجتها القاصية، فقد يعرض هذا كلّه بينهما، لكنهما يرجعان فيه إلى أُسّ المودّة، وإلى شرائط المروءة، وإلى ما لا يَهْتِكُ سَجْفَ الفُتُوَّة[٢]، وأما الهجر فإنْ حدثَ حدثَ جميلاً ولا مستمر لحوافز الشوق إلى المعهود، ومحرّكات النفس إلى التلاقي."[٣] ولكن العاقل لا يسرع إليه لعدم الإنصاف، بل يستأني، ويقف، ويكظم، ويتجاوز عن هفوات صديقه، مخافة أن يعيش بلا صديق، وكما قال الفضل بن يحيى: "الصبر على أخ تعتب عليه خير من آخر تستأنف مودته." [٤] فإدمان الهجر يُفضي في النهاية إلى فقد الصديق، وإنهاء العلاقة بينهما.

التغيّر والتنكّر:

الملول، وهو سريع التغير، وشيك التنكّر، وداده خطر، وإخاؤه غَدَر لأنه لا يبقى على حالة، وهو على نوعين: من يكون مَلّله استراحة، ثم يعود إلى المعهود من إخائه، فهذا أسلم المَلّلين، وأقرب الرجلين، يسامح في وقت استراحته وحين فتْرته، يرجع إلى الحُسنى، ويؤوب إلى الإخاء، من يكون مَلّلهُ تركا واطّراحا، ولا يراجع إخاء ولا وداً، و "لا يتذكر حفاظاً ولا عهداً، وهذا أذم الرجلين حالاً، لأن مودّته من وَساوس الخطرات، وعَوَارض الشّهوات، وليس إلا استدراك الحال معه، بالإقلاع قبل المخالطة، وحسن المتاركة بعد الوَرْطة." [٥]

والملول ليس له صديق[٦]، ولا تصلح معه صداقة، وذلك لما يعتريه من تغيرات وتقلبات، فهو لا يثبت على حال، ولا يقوم بحقوق الإخوان وواجباتهم، فترك هؤلاء أسلم، والابتعاد عنهم أغنم.

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٢٧٤.
(٢) السّجف: أحد الستريين المقرونين بينهما فرجة.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٠٠.
(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص١٥٩، ١٦٠.
(٥) المصدر نفسه، ص١٥٩، ١٦٠.
(٦) انظر في ذلك: القالي، الأمالي، ج١، ص٣٧. والتوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ميلاً في مودتهم، ولكن ما يحدث أحياناً خلاف ذلك فإذا ما ابتسمت الأيام لصديق، وأخذت الدنيا تعرض زينتها له، فملكته نفسها، وأخذ زمامها، وحاز الغنى، مال بجانبه عن صاحبه، وأعرض عنه بدلاً من مشاركته ما أنعم الله عليه من النعماء، فكان هو في عيش رَغَد، يهنأ وينعم، وصديقه يشكو مرارة العيش، وضنك الفقر، وينسى تلك اللحظات السعيدة التي قضياها معاً، متمتعين بأنس الصداقة ورونقها، وعند ذلك تطغيه النعمة، ويرى نفسه فوق صاحبه، وفيما ينخرط في هذا السلك، ما كتبه "بديع الزمان الهمذاني"، إلى أبي نصر بن المرزبان، يقول: كنت أطال الله بقاء الشيخ سيدي وأدام عزّه – في قديم الزمان اتمنى الخير للإخوان، وأسأل الله تعالى أن يُدرّ عليهم أخلاف الرزق،[١] ويمدّ لهم أكناف العيش، ويؤتيهم أصنافَ الفضل، ويوطّئهم أكناف العزّ، وينيلهم أعراف المجد، وقُصاراي الآن أن أرغب إلى الله تعالى ألا ينيلهم فوق الكفاية، فشدّ ما يطغون عند النعمة ينالونها، والدرجة يعلونها، وَسرْعَ ما ينظرون من عالٍ، ويجمعون من مال، وينسون في ساعة اللدونة أوقات الخشونة، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة."[٢]

فبديع الزمان يتحدث عما أحدثه الدهر في أصحابه، حين نالوا ما نالوه من الغنى، والدرجات العالية، فأخذوا يتطاولون على إخوانهم، متناسين الأيام الشديدة، التي كانوا يعيشونها، وما ذاك إلا من ضعفهم، "وغلبة الجهل عليهم." [٣]

وبالتواضع تتم النعمة، ولا ثناء مع الكبر، ولذا ينبغي للأصدقاء أن يتعاشروا بالتواضع، وينكروا الكبر والتطاول اللذين ما دخلا في شيء إلا أفسداه، وحسبهما ألا يخرجا إلا من الجاهل، فقد قيل: "أجهل الناس من كان على السلطان مُدِلاً، وللإخوان مُذِلاً." [٤]

ومن رام إذلال الإخوان والأصدقاء، لم يسلم له صديق، ولم يتحنن عليه شفيق، وعاش منعزلاً لا يجرؤ على الاختلاط به أحد، لسوء أخلاقه التي يتعامل بها مع الآخرين، فكيف يَزْهَى الصديق على صديقه، وهما قد جُمعا على التشاكل، والمساواة في كل شيء.

ويظهر في رسالة بعث بها أحمد بن إسماعيل إلى بعض أصدقائه، وقد نال رتبة، فنقص إخوانه في الدعاء، يظهر عرض "أحمد ابن اسماعيل" لمظهر الكبر، وأثره في تقويض الصداقة، وانحلالها، معاتباً صديقه لتطاوله على إخوانه، لكبر أصابه، فيقول: الكبر– أعزك الله– معرض يستوي فيه النبيه ذكراً، والخامل قدْراً، ليس أمامه حِجاب يمنعه، لا حاجز يحظره، والناس أشدّ

---

(١) الأخلاف: جمع خلف، وهي حلمة ضرع الناقة. اللسان (خلف).
(٢) الهمذاني، رسائله، ص١٥٧ والحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٧٣.
(٣) الثعالبي، ترجمة الكاتب فى اداب الصاحب، ص١٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ص١٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحفظاً على الرئيس المحظوظ، وأكثر اجتلاء لأفعاله، وتتبعاً لمعايبه، وتصفحاً لأخلاقه، وتنقيراً على خصاله، منهم، عن خامل لا يُعْبَأ به، وساقط لا يكترث له، فيسيرُ عيب الجليل يقدح فيه، وصغير الذنب يكبر منه، وقليل الذم يُسرع إليه." (١)

ثم يبين له دور الصديق في نصح صديقه، وتقديم المشورة له، لردعه عما ارتكب من الكبر، خاصّة أنه قدم لذلك مشيراً إلى أن أي ذنب عظيم الشأن، مهما صغر فإنه كبير وجليل، حاضّاً إياه على ترك ما اقترف من الذنب، فيقول: "والمودة تقتضي النصيحة، والمِقة تدعو إلى صدق المشورة، وليس يَحْرُس النعمة ويحوطها، ويحسِمُ الأطماع، ويصرفُهَا، ويستجيب القلوبَ النَافرة ويُطلِقها، إلا تَرْكُ ما أراك تستعمله في ترتيب المكاتبة، وتمييز المخاطبة والمُخَاصَّة في ألفاظ الدعاء، والبخل بيسير الثناء، وتطبيق(٢) إخوانك ومعاملتك في ذلك، حتى صار عندك كأنه نَسَبٌ لا تتعداه، ونَعْت لهم لا تتخَطّاه." (٣)

وفي ختام رسالته يوبخ صديقه، مبيناً له جرم ما اقترف، وعظيم ما ارتكب من حماقة الكبر، وسخف التطاول، وأنه لا يحق له أن يفعل ما فعل بأصدقائه، فيقول له: "فأما إخوانك فليس من حقك أن تحطّهم حالّ رفعَتكَ، وأن تنقُصهم دولةُ زادتْكَ، كما ليس من حقك عليهم أن يغالطوك، فيمسكوا عن خطابك، ويتحاموا عن عتابك."(٤)

البخل:

والبخل مظهر أخلاقي ينفر منه الناس، ويتجافى عنه المتصادقون، إذ لا يصلح أن يتصادقوا عليه، لما يحدثه من تعطيل لمصالح الطرفين، فما الصديق إلا ليركن إليه، ويعتمد عليه، ويكون اليد الطولى لصاحبه، فإذا منعه ماله، وضَنَّ عليه به، فلا خير فيه، ولا يصلح للاعتماد عليه، ولذا حُذِّر من صداقة البخيل، ونُصح بتجنبه، كما عد كمال الرجل في كرمه لقول القائلين: "كمال الرجل بخلال ثلاثة: مشاورة أهل الرأي والفضيلة، ومداراة الناس بالأخلاق الجميلة، والاقتصاد من غير بخل في القبيلة، فذو الثلاث سابق، وذو الاثنين مُلاصق، وذو الواحدة لاحق، فمن لم تكن فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق، ولم يَتَحَنَّن عليه سفيق، ولم يَسْعَد به رفيق." (٥)

---

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص١٠٥.
(٢) أي تعميم وتسوية.
(٣) الصولي، أدب الكتاب١٠٥.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(٥) الثعالبي، ترجمة الكاتب في اداب الصاحب، ص٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكيف يسعد الأصدقاء بصحبة البخيل، وهو غير قادر على تحقيق السعادة لنفسه لبخله الذي يلحق به، فإن كان يضنّ بماله على نفسه التي هي بين جنبيه، فكيف لا يضنّ به على الآخرين، ولذا عد الكرم أساسا في الصداقة، واشترط المتصادقون على أنفسهم نبذ البخل كي تسلم الصداقة، وتصحّ. وفي ذلك يقول "هرمز" أحد الفلاسفة: "شرط الصديق أن لا يَضنُنّ عليك بماله، فإن ضنّ عليك بماله فهو بنفسه أضن." [١] وحسب البخيل أن يقطع بك في مالك أحوج ما تكون إليه.

الانانية:

الإيثار مظهر خلقي تتحلى به الصداقة الحقة، والصديق الذي يحرص على دوام صداقته، ونجاحها يوطن نفسه على مثل هذا الخلق، فيعاشر صديقه وهو مدرك أن له حقوقاً وعليه واجبات، ينبغي أن يوازن بينهما، وعادة الأصدقاء، وما دأبوا عليه تقديم ما تجود به النفس، والنفس الكريمة لا تجود إلا بالنفيس والغالي، والنفيس لا يكون إلا لمن يستحقه، ومن ذا يفوق الصديق استحقاقاً، ومن ذا يفوق الصديق حقاً وواجبا؟! ولذا ليس عجيباً أن يؤثر الصديق صديقه على نفسه، فهو إذ يقدّم، أو يجود للصديق فكأنما يجود على نفسه، لتوحد الذاتين، واجتماعهما على السرّاء والضرّاء، وكما قال "ابن كعب" فيما ينخرط في هذا السلك، مخبراً عن سلوكه تجاه صديقه: "لِمَ لا أرى لصديقي فوق ما يَرى لي؟ ولم لا أعْتَبدُه بالإغضاء والإحسان، والتفضّل والصبر؟ ولم لا أقارضه وأقايضه؟ ولم أرى أني مغبون إذا كان الربح له؟ ولم لا أظلم نفسي في مرضاته؟ وإن وجب أن نتساوى أبداً في الفعل والقول، ونتكايس في الانقباض والانبساط، ونتحافظ على اختلاس الحظّ والنصيب، فهل تركنا لأصحاب المذاب والتطفيف شيئاً من الدناءة إلا وأخذنا به، ورأيناه مرغوباً فيه، تالله ما هذا من الصداقة في شيء، وإنه إلى الخَسَاسة والنَّذالة أقرب." [٢]

ومن الخساسة والنذالة أيضا أن يكون الصديق أنانيا، فيصادق الآخرين على أساس المنفعة، والمصلحة الذاتية، متناسيا سموّ هذه الرابطة، وترفعها عن كل ما يطعن فيها، ويؤدي إلى فشلها، ولذا تراه يريد أن "يجمع هوى أخلائه له، حتى يحبّوا ما أحبّ، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى منهم زللاً، ولا خللاً" [٣]، فهؤلاء من لا إخاء لهم، ولا تدوم معهم صداقة، والعيش دونهم هو السلامة عينها.

---

(١) الوشاء، الفاضل في صفة الأدب الكامل، ج٢، ص٢٤٤.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٣١، ١٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوشاية:

أنكر الأدباء والحكماء والمجربون هذا الخلق، وعدّوه مما يسيء إلى الصداقة والأصدقاء، ويُوغر صدور المتحابين، ويوقع بينهم البغضاء والبأساء، ولذا تراهم يحذرون من صداقته، كما يحذرون من دور هؤلاء وأثرهم في الإخلال بالأصدقاء، لما يقومون به من الوشاية بالأحباب والإخوان، وكي تستقيم الصداقة، وتبقى على العهد والودّ المتبادل بين المتصادقين، وجب على الصديق إذ ما جاءه واش يسعى بالكذب أن يعرض عن وشايته، ولا يلتفت إليها، وأن يقابل كلامه بالتكذيب، لأن من اعتاد الوشاية بالإخوان هو أحقر الناس، وعلى الصديق أن يعمل على تحقيره واستصغاره، "لأن الناقل إن كان صادقا، كان الموشى به إما خائفا منك، وإن كان يمنعه الحياء من أن يواجهك ويشافهك الكلام، ويكاشفك بتلك العبارة، والنمّام والساعي الذي يفضي إليك بذلك الحديث هو الشاتم لك في الحقيقة، والتأذي منه ألزم، فقد جاء في الأمثال "إنما سبك من بلّغك." [١] فالواشي أحق الناس بأن يظن به السوء، ويوسم ويتّهم بالخلق الذميم، والسيرة غير الحميدة، لأن كل فعل وخصلة غير مرضية لمن يحيل عليه الواشي تكون في حجاب الارتياب وموضع الاشتباه، ولا يوجد أي شك وشبهة في وشاية الواشي، وسعايته التي هي أذم خصلة، وأرذل عادة وقد أصبحت يقينا.

ولذا لزم علىالصديق، إن نُقل إليه عن صديق كلام مكروه يوجب التأذي منه، لزمه أن يستهين بهذا الكلام، ويُعرض عن تلك الوشاية، ولا يلتفت إليها، وفي ذلك يقول "العتابي": "لا أحب رجلاً نقل إلي ما كرهت عن صديقي فغيرني له، ولا عن عدوّ فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءَني سماعه." [٢]

تُحدث الوشاية تغييراً في العلاقة بين المتصادقين، وتغير أحدهما على الآخر، حتى وإن قوبلت بالاستهانة والتكذيب، فلا أقل من أن تحدث شيئاً في نفس سامعها تجاه صاحبه، وعند ذلك تأخذ الظنون والشكوك تلعب في ثنايا خاطره، وإن سعى جاهداً إلى تجاهلها، ولا أقل من أن تؤدي هذه الشكوك إلى ضياع الصديق، "فمن أطاع النّواني ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصديق."[٣] ولذا أخذ الأصدقاء على عاتقهم مسؤولية نبذ الوشاة، وتجنب مصادقتهم، لسوء الأخلاق التي هم عليها، ومن أجل ذلك أخذوا يشترطون على من ينوي مصادقتهم أن لا يكون واشياً، أو ملاذاً للوشاة، فيقبل منهم ما يفترونه، ويغيرونه على صاحبه، وهذا حال "مطيع بن

---

(١) ابن المقفع، الأدب الوجيز، ص٨٥.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١١٠.
(٣) الثعالبي، ترجمة الكاتب في آداب الصاحب، ص١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إياس" حين جاءه رجل فقال له: "جئتك خاطبا، قال: لمن؟ قال: لمودَّتك، قال: أنكحتها، وجعلت الصداق أن لا تقبل فيّ مقالة قائل." (١)

وهذا غسان بن عبدالحميد المدني يكتب إلى جعفر بن سليمان الهاشمي معاتباً إياه لتصديقه كلام الوشاة، والساعين بينهم بالكذب والزور، ويبين لصديقه في هذه الرسالة أنه ما كان ينبغي له أن يقبل كلام الواشين فيه ويصدّقه، للثقة التي هي في "حصن حصين، ومحل مكين، لا تناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المغترين." (٢) وأن التهمة إنما ينبغي أنْ تُلصق بالواشي لا بالصديق المخبور بالثقة والمودة، وفي ختام رسالته يبين لصديقه خطر الواشين، ودورهم في تقويض بنيان الصداقة فيقول: "وإذا كان تحافظ الإخوان، إنما هو معلق بأيدي السفهاء، إذا شاؤوا سَعوا، فقبل قولهم، فكيف تبقى على ذلك أُخوة، أو تُرعى معه حُرمة، أو يصلح عليه قلب، أو يسلم معه صبر؟!" (٣)

المزاح :

وقف أهل المعرفة والعقلاء، وذوو المروءة والظرفاء، موقفاً سلبياً من المزاح، وما ذاك إلا حرصاً منهم على سلامة الصداقة والأصدقاء، وضمان دوامها واستمرارها، وصونها من كل ما يسوؤها، ولذا حذروا من التماسه والخوض فيه، وشجبوا المبدأ العملي الذي يصطنع فيه المرء المزاح وسيلة لتحقيق غرض ما في الآخرين، لأن المِزاح "يُذلّ المرء، ويضع القدْر، ويُزيل المروءة، ويُفسد الأخوّة، ويُجري على الشريف الحرّ أهلُ الدناءة والشرّ." (٤)

ولا بد لمن يخوض في المزاح من أن يهجو به أصدقاءه، وينتقص من كرامتهم بحجة المزاح، وهذا ما يسمى "بفلتات المزاح.

وهذا الامر يجعل للمزاح قيمة سلبية في مجال الصداقة خاصة، فهو مفتاح الضغائن، إضافة إلى أنه قد يُسقط هيبة الإنسان، ويصِمه بالسوء، هذا عدا الأضرار التي يلحقها بالآخرين في كثير من الأحيان.

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٤٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٠.
(٤) الوشاء، الموشى، ص٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الكاظم في وصية له لبعض ولده، يوصيه فيها بترك المزاح، ويحذّره منه، قائلاً: "إياك والمزاح، فإنه يَذهب بنور إيمانك، ويستخفّ مروءتك."[١] وهذا آخر يوصي بما يقرب من ذلك، فيقول لبنيه: "يا بَنيّ، إياكم والمزاح، فإنه يذهب بالبهاء، ويُعقب الندامة، ويُزري بالمروءة."[٢]

وإذا كان ما سلف حال المزاح، فلا أقل من أن يؤدي إلى إيقاع الضرر بالصديقين، وإحداث الشحناء والبغضاء بينهما، وإذا ما وقع الخلاف بين الأصدقاء، وأوغرت الصدور، وعُمرت بالنقص نفيت المجانسة، والموافقة، ودب الهجر والقطيعة بينهما، وكان المزاح سبباً رئيساً في إيقاع ذلك، ولذلك قيل: "أوكد أسباب القطيعة المراء والمزاح."[٣]

ويُقرن المزاح عادة بالمراء والجدال، لما يحدثه الأخير من إيقاع الخصومة بين الناس عامة، وبين المتصادقين خاصة، فالمراء يتعارض مع الصحبة، وقد يُفضي إلى العداوة، لذا لزم الصديق أن يتجنبه، ويُعرض عن استخدامه، لأنه صفة مكروهة، وخُلق ينفر منه الناس والأصدقاء، إذ يلحق الأذى بهم، فضلاً عن إلحاق الأذى بصاحبه أوّلاً، ولا غرابة في ذلك إذ المراء يتضمن النقد والتجريح للآخرين، وذلك بالاعتراض على أقوالهم وأفعالهم، والطعن فيها، فالمجادل يُدلي بحجته ليفوق بمنطقه الآخر، ويعلو عليه، محاولاً بذلك إظهار عجز الطرف الآخر، وإبداء نقصه، وقلة حيلته في مجاراته، والإتيان بمثل ما أتى به، وفي هذا كله ضرب من الكبر لعجب في نفس الممازي، وإظهار فضله على الآخر. قيل لأعرابي: "ما تقول في المراء؟ قال: ما عسى أن أقول في شيء يُفسد الصداقة القديمة، ويَحُلُّ العقد الوثيقة، أقل ما فيه أن يكون دُربة للمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة."[٤]

ففي المغالبة يكون إفحام الصديق، وفي الإحجام تكون النتيجة إما التكذيب، وإما الإغضاب، وفي كلتا الحالتين يُخلق الحِقد في صدور الأصدقاء، ويقع ما لم يكن في الحسبان من الهجر والقطيعة، وفي ذلك يقول "عبدالرحمن بن أبي ليلى": "لا أماري أخي، فأما أن أكذبه، وأما أن أغضبه."[٥]

وقد يرى بعضهم أن ما قيل في أمر المزاح سابقاً، إنما يتمثل في المزاح المنبوذ والممجوج بين الأصدقاء، الذي يورث العداوة والبغضاء، ويوغر صدور المتصادقين، وهذا هو المزاح

---

(١) الثعالبي، ترجمة الكاتب في اداب الصاحب، ص١٤٢.

(٢) الوشاء، الموشى، ص٢٢.

(٣) انظر في ذلك: الثعالبي، ترجمة الكاتب في اداب الصاحب، ص١٤٢. والتمثيل والمحاضرة، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦١م، ص٤٤٩.

(٤) القالي، الأمالي، ج١، ص٢٥٤.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٢٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرفوض عندهم، أما إذا كان المزح غير متجاوز حدّه، ولا مفض إلى ما يكره المتصادقون، فلا بأس به، وهذا يعني ضرورة أن يتوخى الحذر في تعاطيه، وإن كان تجنبه أولى، وأدرأ للشبهات، كي تستقيم صداقة المتصادقين، ولا يعتريها النقص من أي خلق مَمْجوج قلّ أو كثر.

الحسد:

وهي طبيعة من ألأم الطباع، وأشدها خطرا على الصداقة والصديق، إذ لا يمكن أن تنشأ علاقة أخوية، يكون أساسها المودة والمحبة، ثم يدخل فيها الحسد، ليوقع التباين والتضاغن بين المتصادقين، "فحسد الصديق من سقم المودة." [١] ولذا حُذر من مصاحبة الحسود، للطّبع الذي جُبل عليه، إذ يتمنى زوال نعمة الأخ والصديق، غير مبال بروابط الأخوة، وحقوقها وواجباتها، فلا تصلح به صداقة، ولا يمكن أن يصادق وهذه حاله، وتلك خِصاله، وإذا كانت ممارسة الحسد مع الأعداء فيها شر كبير، فكيف إذا كان الحاسد صديقا، والحاسِد لا يحب الخير لأحد، بل يسعى جاهدا للإضرار بأصدقائه وبنفسه، كي يلحق بهم الأذى والمكروه، فهو أي الحسود – إنسان يتصف بالأنانية، والتمركز حول الذات، وهاتان صفتان وطبعان في الإنسان، لا تصلحان لإقامة صداقة ناجحة، يكتب لها الاستمرار والثبات والسعادة.

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس
العتاب بين الأصدقاء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلحظ المتصفح للنثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس، عناية كبيرة من الأدباء بموضوع العتاب بين الأصدقاء، ولذا أخذت تشيع قضايا العتاب في الرسائل والوصايا والكتب التي تناولت موضوع الصداقة والصديق، فلا تكاد تقع على مصنّف إلا وقد أخذ بطرف من هذا الموضوع، ونظراً لأهميته ودوره الذي يؤديه في نماء رابطة الصداقة أو تقويضها لزم إفراده في فصل خاص، يعرض أبرز مظاهره وجوانبه، فضلاً عن وجود عينة كبيرة من الرسائل التي صنّفت فيه.

ويحمل العتاب في طياته معنى من معاني الحساب، وهذا بدوره يؤدي إلى لوم ثنائي الصِّبغة، يُزعج النفس، ويقلقها سواء أكان لوم الآخرين، أم لوم الذات نفسها، وسواء أكان العاتب محقاً أم لا فإن فيه إحراجاً للصديق، خاصة أن بعض الأدباء كسهل بن هارون يرى "أن الصديق لا يحاسب." (١)

والناظر في النثر العباسي، والمتأمل فيما كتب في موضوع العتاب، يلحظ تبايناً في آراء العلماء والناثرين، واختلاف وجهات النظر، فمن قائل بضرورة العتاب بين الأصدقاء، على أن يكون عتاباً رقيقاً، وتقريعاً لطيفاً، وأصحاب هذا الاتجاه يرون أهمية العتاب تكمن في دور المصالحة التي يقوم به، لأنه ربما "أصلحَ وَرَدَّ الفائت، وشَعَبَ الصِّدع، ولم الشَّعْث."(٢) وعمل على صفاء القلوب، وربما "كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكَدَر، فوق ما عهدَاه في الأول." (٣) أي أن العتاب بين المتصادقين قد يقوّي الرابطة، ويزيد المودّة التي هي قوام الصداقة بينهما، هذا إن جاء العتاب لطيفاً، وعلى أحسن صورة له، ولأن النصح بين الأصدقاء حق لازم من حقوق الصداقة، يقتضيه أحد الطرفين من الآخر، عدّ أصحاب الاتجاه السابق العتاب شكلاً من أشكال النصيحة المطلوبة بين الأصدقاء، ولذا لزم على الصديق إن رأى عيباً في صديقه ألا يكتمه فيخونه، وألا يصارح به غيره فيغتابه، وألا يواجهه به فيوحشه، بل يُكنّي عنه، ويَعرض به، ويجعله في جملة الحديث. وهذا كله يدخل النصيحة باب الأمانة والثقة، وحسن النية.

ولا شك أن إساءة الصديق إلى صديقه تتناقض ومنطق المودة الخالصة، التي هي قوام الصداقة، ومع ذلك فقد يسيء الصديق إلى صديقه، وقد يستخف به، مما يدفع بصديقه إلى عتابه واستعتابه، طالباً منه الرجوع عن ذنوبه، وتجاوزها، وفي مثل هذه الحالة يلزم الصديق المُسْتَعْتَب ألاّ يغضب من العاتب، فإن غضب منه، يكون بذاك قد عادى العقل، وانتهك حقوق

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخوة أيضا، لأن "من احتَجّ في إساءته، وأغضبه على أخيه أن يَستعتبه، فقدْ جعلَ العقل خصمَه، وظلم الإخاء حقه." (١)

ويرى أبو بكر الخوارزمي أن العتاب بين الأصدقاء إن وقع بعد شكاية وجناية، وكان بعد فتْرَة في الوُد، أو ثُلْمَة في الإنْصَاف حدثت "جَمَعَ الشَّملَ، وجدَّدَ الوصلَ، وصَقَل ما صَدِئ من العِشرة، وأزال ما وقعَ من الفتْرَة."(٢) ولذا فهو علاج يأتلف على أثره الصديقان، وتركه يعمل على إضعاف العلاقة بينهما، لأنه "حدائق المتحابين، وثمار الأودّاء، ودليل على الظن بالضعفاء، وحركات الشوق، ومستراح الوجد، ولسان الإشفاق."(٣)

والعتاب مستحب عند من يرى أن عتاب الأخ قد يعيد أخاه إلى الحقّ، وهذا خير من انهيار الصداقة في حالة غياب المعاتبة، ولذلك "كان الصبر على أخ تعتب عليه، خير من آخر تستأنف مودّته.(٤)

ومن قائل بنبذ العتاب، ورفض مبدئه، والتحذير منه، إذ يعتقد أصحاب هذا الاتجاه بأن "العتاب مذلة، وقلّ من بدأ به متظاهراً إلا وثاب عنه خاسراً، وربما أورث ما هو أضر مما عُتب عليه."(٥) لأن ثمة تباينا بين أمزجة الأصدقاء، وإن كانا مقترنين على التشاكل القائم بينهما، ولكن هذا التشاكل لا يمنع وجود بعض الاختلاف -حتى وإن كان طفيفا- في سلوك الصديقين، مما قد ينتج عن هذا التباين اختلاف في السلوك، يؤدي إلى وقوع بعض الهفوات والزلات من الصديق، وبناء على ذلك فالأجدر بهما، والأكمل لهما التغاضي والتجاوز، حتى لا تنقطع أواصر المودة بينهما، ومن هذا المنظور لزم تجنب العتاب ونبذه، وأنه لا بدّ من أن يتقبل كل منهما الطرف الأخر على علاته.

وثمة أدباء يستنكرون العتاب؛ لأنه من عوامل الفرقة التي تؤدي إلى الهجر، وبالتالي تهديد العلاقة الحميمة برمّتها، ويتفق أصحاب هذا الرأي مع آخرين يرون أن للعتاب أثراً سيئاً على الأخوة؛ لأنه "ما افترق متعاتبان قطّ إلا على حَسِيكة."(٦) وعموماً فإن هذا الاتجاه يرى أنه لا خير، ولا فائدة ترجى من أصدقاء يعاتب بعضهم بعضاً في كلّ كبيرة وصغيرة، وأن العتاب "يقدح في مودة الصديق."(٧)

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٣١.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص١٠٧.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٧٤. وانظر الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص١٦٠.
(٤) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٤٠.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٥.
(٦) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٨٥، والحسكة والحسيكة: الحقد على التشبيه، قال الأزهري: وحسك الصدر: حقد العداوة. اللسان مادة (حسك).
(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأدباء من يَردّ على أصحاب الاتجاه القائل بنبذ العتاب، ويرى أن ترك العتاب يعني عدم الاكتراث بالآخرين، خاصة الأصدقاء الذين تربطهم روابط الصداقة والألفة والمودة، وعليها يتعاشران، فإذا شعر الصديق بتجاهل صديقه له، وعدم اكتراثه لما اقترفه أو ارتكبه من ذنب أو جرم، أدرك حقيقة الاستخفاف به، وبأخوته، مما قد يوقع التراخي والإضرار بالصداقة، وربما أدى ذلك إلى انهيارها، وتقويض بنيانها، ولذا تراهم يعملون بالمبدأ القائل: "كثرة العتاب إلحاف، وتركه استخفاف." (١)

إذن لزم التوسط في العتاب، وإلى هذا دعا الأدباء، مدركين حقيقته وأثره في نجاح هذه الرابطة، واستمرارها، والعمل على نمائها، فلا يكون عتاباً مُسرفاً، مشوباً بالتعنت والحقد، الذي يفرق بين الأصدقاء، ويوقع الهجر والقطيعة، إذ إن الإكثار منه "ربما عرض بالحقد، وأحدث نوعاً من النبوّ." (٢) بل ينبغي أن يكون لوماً هيناً، من غير شدة تؤذي إحساس الأصدقاء، وتحدث شقاقاً أو نفوراً بينهم، ولا يُترك فيقع الاستخفاف، ويحدث الهجر، وما لم يكن بالحسبان.

والصديق يلجأ إلى العتاب الذي يراه بعضهم "علامة الوفاء، وخاصّة الجفاء، وسلاح الأكفاء."(٣) إن وجد على صديقه مَوْجِدَةً، وأنكر منه شيئاً من فعله، أما إن خلا قلبه من الموجدة، فيمكن أن يُعزى عتابه إلى عوامل نفسية، تُعدُّ سلبية في مجال الصداقة، وإذا لم يتحفظ الصديق منها، ويحذر الخوض فيها، فسدت الصداقة، وانهارت. وهذا يعني ارتباط العتاب بالظنّ والتجنّي، والتجنّي معاتبة الصديق في غير ذنب ارتكبه، أو جرم اقترفه، الأمر الذي يفضي إلى نتائج غير محمودة بين الصديقين، فيؤدي إلى المخاصمة، "والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة."(٤) ولذا لزم الأصدقاء، الذين يحرصون على سلامة صداقاتهم، تجنب العتاب وسوء الظن الذي يؤدي إلى التجني.

وما ذاك إلا لأن بعض الظن تجنّ وافتراء، وسبيل هين للجفاء، إن "التجني رسول القطيعة، وداعي القِلى، وسبب السلو، وأوّل التجافي، ومنزل التهاجر." (٥) وهناك أسباب كثيرة يمكن أن تحول أية علاقة إنسانية إلى عداوة، ومن هذه الأسباب كثرة التجني، وكثرة صدّ الصديق صديقه، ودفعه عنه، وجفاؤه له. وقد تحيل هذه المُضَارمة عداوة، لأن "التجني والاستزادة يعتورانها، والاعتداء والاحتجاج يمحقانها." (٦)

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.
(٣) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص١٦١.
(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤، ص٣٠.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٧٤.
(٦) التوحيدي، مثالب الوزيرين، تحقيق ابراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ص١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا تقدّم طرح لأبرز ما قيل في موضوع العتاب، وتباين وجهات النظر، أخذا به، أو طرحا له، وفق ما يتناسب والمعطيات الفكرية لكل اتجاه، انطلاقاً من تجاربهم، ومعاياناتهم للعلاقات الإنسانية، استناداً إلى ما توافر لدى الباحث من نصوص اعتمد عليها لتوثيق النتائج التي خرج بها في هذا الموضوع.

وحتى يُستكمل الجانب العملي من الدراسة، لزم الباحث الوقوف عند أبرز مظاهر ظاهرة العتاب كما تتجلّى في المادة النثرية التي تمثل هذا الجانب من الدراسة، جانب العتاب بين الأصدقاء، فكانت عينة الدراسة التي اعتمدها الباحث تشمل جمهرة من رسائل التوحيدي في الصداقة والصديق، ورسائل الخوارزمي والهمذاني وأبي نصر العتبي والصاحب بن عباد وغيرهم ممّن سطّروا بأقلامهم حياة أدبيّة زاخرة بالجواهر والنفائس والعلائق، كالجاحظ وابن المدبر وأحمد بن اسماعيل وغسان بن عبد الحميد، ويوسف بن صبيح، ومحمد بن الليث وأبي علي البصير وأبي العيناء، وابن العميد، والقاسم بن محمد الكرخي، وابن ثوابة، وابن أبي البغل.

وتهدف هذه الدراسة إلى عرض رسائل العتاب مبرزة موضوعاتها، محللة وشارحة أسبابها ودواعيها التي كانت تضطر الأصدقاء لاتخاذه واستخدامه إلى طرق تفكير الأدباء، عبر النصوص المدروسة، فيما يتعلق بقضية لها قيمتها في الصداقة والصديق.

تنوعت موضوعات العتاب بين الأصدقاء، واشتملت على كل ما قد يطرأ من أمور، وإشكال على أي رابطة إنسانية خاصة رابطة الصداقة – موضوع الدراسة–، وقد لاحظ الباحث أن أكثر موضوعات العتاب تداولاً وشيوعا، هو الجفاء والهجر والقطيعة، واخترت أن أبدأ به دون غيره للدور الذي يؤديه في موضوع الصداقة، كونه يعلن بداية العلاقة أو نهايتها، ولا شيء في هذه الرابطة يفوق أهمية بدء العلاقة وانتهائها.

الهجر والقطيعة:

ويكون البدء بهذه الرسالة التي بعث بها "يوسف بن القاسم"[١] إلى محمد بن زياد الحارثي، يعاتبه فيها عتاب المتحضر المهذب، الذي قد يمس شخص الصديق، ولكنه لا يخدش، وتظهر هذه الرسالة بوضوح دقة الحس، ورهافة الشعور تجاه الصديق الذي قطعه "قَطَعَ ذِي السِّلْوَة،أو أخِي المِلَّة" [٢] وهو يبين في هذه الرسالة سبب عتابه صديقه الذي انقطع عن مواصلته بكتبه، ولم يطلعه على أخباره، مما أوقع الصديق في وحشة الفراق، وصبابة الشوق له، فيقول: "حفظك الله

(١) من الكتاب المترسلين،ممّن دوّنت رسائله، وكان مُقلا. الفهرست، ص١٣٥.
(٢) الصولي، الأوراق ، ج١، ص١٥٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاطك، رأيتك -أكرمك الله- في خَرْجتك هذه، رغِبتَ عن مواصلتنا بكُتبكَ، وإبلاغِنا خبرك...، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مُشتاقاً، وإلى البعد منا توّاقاً." [١] ويسأل صديقه عن أسباب تأخر كتبه، بالرغم من عتابه المستمر له، محاولاً بذلك إبراز قيمة المكاتبة، وإظهار دورها في توثيق العلاقة بين الصديقين، فضلاً عن "مُحادثة الحُضُور، وتَنائي الدُّور، والقلوبُ بها مشاهِدة، وإن كانت الأبدان متباعِدة." [٢]

وفي ختام رسالته يتمنى أن يكون عتابه صديقه ناجعاً، فيحقق الوصال المشكور به، وإلا فسيجد لصديقه عذراً على قطيعته وهجره، فيقول: "وقد أصبتُكَ من مرارة العتاب، بما لا تُقيم بعده على قطيعةٍ، ولا جفاءٍ، ولا تتوهمنَّ أني أردتُ إعانتَك بإعتابي، ولا أن أزري عليك بكتابي، فإن وصلتَ فمشكورٌ، وإن قطعتَ فمعذورٌ، والسلام." [٣]

وهذا "ابن ثوابة" [٤] يبعث بكتابه إلى صديقه يعاتبه على الجفوة والقطيعة، مستنداً في عتابه على خبرته بصديقه الذي ما عهده إلا واصلاً لإخوانه، فكيف به يعقّهم، ويناى عنهم، ويرضى بالبين الفاجع، ويكتفي بالدهر المفرق للجماعات، فيقول له: "عهدي بك يا سيّدي يَتطوّعُ بنافلة الابتداء، فكيفَ تُخِلّ بفريضَة الجواب، وهل يَرضَى الصديق منك أن تبرَّه قريباً، وتجفُوه بعيداً، وتُذيقه حلاوةَ الوَصْلِ دانياً، وتُجرّعه مرارة القطيعة نائياً" [٥]، فالصديق ينبغي له أن يدوم على العهد، ولا يحول عنه، إذ إن ثبات المودة في القرب والبعد، من حسن حفظ العهد بين الأصدقاء، ولذا جاء عتاب ابن ثوابة في مكانه، مذكراً صديقه، ناصحاً له بحفظ العهد، والدوام على المودة التي كانت متحققة بينهما، في الأيام السالفة، وقد جعل من تذكره لتلك الأيام السعيدة التي قضاها مع صديقه سبباً قوياً لدعوته إلى مراجعة تلك الأيام، فيقول: "فكم أتلهّفُ على ما أنفذناه في حال الاجتماع من عيشٍ رخيٍّ، ويوم فتِيّ، وسرورٍ امتدتْ ظِلالهُ، وليلٍ غابَ عُذّالهُ، فارغبْ إلى الله في إعادة تلك العهود، إنه فعّال لما يريد." [٦]

ولا يخفى على ابن ثوابة أن يكون الناصح المشفق على صديقه، ولكنه في نصحه له، يتجنب الوعظ والنصح المباشرين، فلا يصارحه بحقيقة جرمه، بل يُكَنّى عنه، ويتحدث فيه كأنه يتحدث في قضية عامة، كي لا يحرج صديقه، ويسيء إليه، وهذا له أثر عميق في إنجاح

---

(١) الصولي، الأوراق، ج١، ص١٥٢، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٦.
(٤) هو أبو العباس، ويذكر ابن النديم أنه من الثقلاء البغضاء، وله كلام مدوّن مستهجن مستثقل، توفي سنة ٢٧٠هـ، وله كتاب رسائل مجموع، الفهرست، ص١٤٤.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٢٥.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العتاب، وإحداث الفائدة المرجوة منه، كأنه يتحدث عن أخطاء صديق أخر غير صديقه المعني بالعتاب، ولذا تراه يقول: "فما ظنّكَ بمن يجري ذوي المروءة مَجْرَى سائر من يَرَى باطنَه يخالف ظاهره، وتأويلهُ ينافي تنزيله، وهذا هَزَل يُترجم عن جِدّ."(١)

ومما يلاحظ على هذه الرسالة استخدام التصريح بداية فيما ينفع معه التصريح، ولا حاجة بالكاتب فيه إلى التورية، كأنه يخبره بالقطع أو الهجر، أما الأمر الثاني مما قد يحدث إساءة للفهم، ويخلق انزعاجا لدى الصديق، فيكون العتاب سببا في مضاعفة الجرم والهجر، ولذا لجأ فيه الكاتب إلى التورية، وكنّى به، ولا يفوت المخاطب الفهم ليدرك حقيقة جرمه، ولكن تورية الكاتب وأدبه مع صديقه ستغفر له جرأته، وتكون أنجع في العتاب.

ويبدو أن كاتبا ما، عاتب صديقه بعتاب رقيق لطيف، سلك فيه سبيل النصح، فلم يَمِلْ به إلى غُش ولا إلى خيانة، بل كان أمينا في نصحه، وصادقا فيه، لما وصف به من حفاظ للعهد والود، في السر والعلن، وفي وقت الرخاء، ووقت الشدة، ولكنّ صديقه لم يقابل هذا العتاب بصدر رحب، ولم يستمع إلى نصحه، بل أعرض عنه، وقطعه وجفاه، الأمر الذي دفع بصديقه إلى أن يبوح له بحفظ عهده ومودته قائلا: وإن الذي (يعلم السر وأخفى)(٢) ليعلم أني لم أحُلْ لك عن عهدٍ، ولا رجعتُ لك عن وُدٍّ، ولا انطويتُ لك عن غِلٍّ، في وقت رخَاء، ولا شِدّة ولا نِعمة ولا مِحْنَة ولا خَلفتُك بقبيح في نفس، ولا مال، ولا عَرَض من الأعراض" (٣) ولم تصرح هذه الرسالة بحقيقة ما وقع بين الصديقين من خلاف، أو غير ذلك، مما أحدث هذه النبوة والجفوة، وإنما اكتفت بالحديث عن صفات العاتب، وما يمكن أن يحققه العتاب الرقيق بين الإخوان من تجاوز للذنوب والهفوات.

والجفوة بين الأصدقاء تحدث اشتياقا لديهم، فتجيش المشاعر، وتفيض بمكنونها، لتعبر عن هذا الاشتياق، مصرحة به لما أصابها من اكتواء تارة، ومعلنة ثورة عتابيّة على من ألحق بها هذا الاكتواء، تارة أخرى.

وهذه رسالة "الرّوذباريّ أبي عبدالله" إلى صديقه "المهلبي" تفيض بمثل المشاعر السابقة، وتحمل فيها عتابا رقيقا، فيما يعاتب فيه الصديق صديقه، ليرتدع عما اقترفه، ويعود إلى رُشده، ولذا ترى "الروذباري" يبدأ رسالته بدعاء، يظهر مدى الشوق الذي يعانيه، جراء قطيعة صاحبه التي لحقت به، فيقول: "أراحَكَ اللهُ يا سيدي من شَوْق من لا تشتاق إليه، وعَنَّب من لا تعتابه." (٤)

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٢٥.
(٢) سورة طه، الآية رقم ٧.
(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما هذا الدعاء إلا ليحقق للعاتب ما يصبو إليه من فراغ سيده الذي يحقق له وصلاً، ولقاء بمن يهوى وصله ولقاءه.

ويبدو هنا أن الصديق العاتب يصرح بما يعاتب به صديقه، طالبا منه أن يصل إخوانه فيستريح من عتابهم، وبثهم إياه شكوى الشوق والاشتياق، "لو رحمتَ أصدقاءك في شوقهم إليك؛ صُنْتهم وإياكَ عن عتبهم عليك، وليس بضَائرٍ أن تجعل اهتمامك بهم، وطلوعَك عليهم، وتجديدَك العهد بمُنَاسمتهم في عرض ما تتقرّب إلى الله به، إن كان حسناً، أو في جملة ما تستغفر الله منه إن كان قبيحا." [١] ثم يشتد في عتابه، مبينا له أن الصديق مهما امتلك القدرة في نفسه على الجفاء والهجر، وأعين على ذلك بالصبر، فهذا لا يُجيز له أن يهجر إخوانه، ويتبرّأ من خلصانه، فهم إليه محتاجون، وإلى لقائه راغبون ومشتاقون.

ولذا جعل في ختام رسالته مطالبته صديقه بالوصل، بمنزلة الصّدقة الجارية على الأصدقاء، "فتصدق علينا بنفسك إن الله يجزي المتصدقين." [٢]

ويحاول الصديق جاهدا أن يستدل على ما اقترفه من جرم، يدفع إلى هجره وقطعه، ولكنه ينعم النظر في نفسه، وسلوكه مع صديقه، فلا يقع على علة أو هفوة تبرّر هذه الجفوة، مما يدفع به إلى تقريع صاحبه، محاولا بذلك معرفة ما جهله من أسباب الجفوة والقطيعة.

وهذا كاتب يعجب من صديقه، فيم كان هجره له؟ وهو مؤمن بأنه لم يرتكب من الذنوب ما يوقع هذا الهجر، ومما زاد في أمر حيرته، وشدد من عتابه، إنكار الصديق للجفوة التي يُبديها بحجّة أنه لا يَنويها، وللهجر الذي يظهره، ولا يستشعره، بمنزلة درس وعظيّ، يطرح موضوع ظاهر الإنسان وباطنه، وأن السرائر مغيّبة عن العيان، فيقول: "إن الواجب أن تردّ باطن الناس إلى ظاهرهم، وتستشهدَ أفعالهم على سرائرهم، إذ كانتْ الأفعالُ نتائجَ النيَّات وثمراتها." [٣]

وتقرب من الرسالة السالفة، فيما يتعلق بموضوع السؤال عما ارتكبه العاتب من جرم، ألجأ صديقه إلى الهجر والقطيعة، رسالة "لبديع الزمان الهمذاني" كتب بها إلى صديق له هجره، فيقول له: "وليت شعري أيّ مَحْظور في العِشْرة حَضَرْتُه، أو مَفْروض من الخِدمة رفضتُه، أو واجبٍ في الزيارة أهملتُه." [٤] وكان لسان حال الهمذاني يصرح بأخلاقه التي يعاشر بها خِلاّنه، ولا يستحق منهم جفوة ولا هجرا، الأمر الذي جعله يثير تساؤلات عدة في رسالته هذه، ويمضي

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٢٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٤
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٧
(٤) رسائله، ص٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهمذاني مخففاً وطأة عتابه على صديقه، وذلك حين يصف حاله قبل أن يعرف آل ميكال، وهنا يقابل بين حالين تصفان وضع الصديق، وتغير أحواله من الضيق إلى السعة، ولا غرابة في هذا، إذا لا يخفى على ذي لبّ تأثير كلمات الإطراء والثناء في نفس الصديق، خاصة إن كانت صادقة، وخالصة من النفاق والرياء، وفي ذلك يقول: "وهل كنتُ إلا ضيفاً أهداه مَنْزَع شاسِعٌ، وأدّاه أملٌ واسعٌ، وحَدَاه فضلٌ وإن قلّ، وهَداه رأيٌ وإنْ ضلّ، ثم لم يَلْقَ إلا في آل ميكال رَحْله، ولم يَصِل إلا بهم حَبْله، ولم يَنْظم إلا فيهم شِعره، ولم يقف إلا عليهم شكرُه." (١)

أفيستحق بعد كلّ هذا إلا الخير، ولكن أنّى يأتيه الخير، وقد لمس تغيّراً وتبايناً في مواقف صديقه، وما عاد ذلك الصديق الذي يكرمه، وينعم عليه، "وصار وَابلُ الإعظام قطْرة، وعاد قميصُ القيام صُدْرَة... وذلك التقريبُ ازوراراً، وذلك السلامُ اختصاراً، والاهتزازُ إيماء، والعبارةُ إشارة." (٢)

وحين حاول الهمذاني عتابه يريد إعتابه، وكاتبه يريد جوابه، وسأله يرجو إيجابه، لم يحرك ساكناً، ولم ينفع معه عتاب وإعتاب، بل قابله بالسكوت، وأعرض عنه، ولكن هذا الأمر لم يُثْن الهمذاني عن صديقه، ولم يقابله إساءة بإساءة، بل ازداد له ولاء، وعليه ثناء، وهو راض بما حدث له، ومقتنع بما قام به، فقد قدم حجة مودته، وعظيم عذره واعتذاره أملاً من صديقه –أطال الله بقاءه– "أن يُنْعم بالإصغاء لما يورده مُوقفاً إن شاء الله – عز وجل."(٣)

ومن الرسائل التي يحتدّ فيها العتاب، رسالة أبي نصر العتبي إلى صديق له، صدرت منه جفوة، جعلت "العتبي" يسطر بكلماته، وحسن بلاغته قبح أخلاق صديقه، الذي كان يحسن الظن به، ولكنه أخلف هذا الظن بسوء فعلته، حين "أودع القلب أحرّ من النار، وتعقبته بخلع عِذار الوفاء، ومعاقرة ندمان الجفاء نهاراً وليلاً، وشغلك خمر الهجران، وخِمار النسيان، عن ترتيب أمور المودة، وتهذيب جرائد الوصال والمقة، واستعراض روزنامجة الكرم(٤)، واسترفاع ختمات العهد المقدم." (٥) ولكن هذا الصديق لم يَرْع حُرْمة، ولم يَفِ بشروط الاعتماد عليه، وكان مضيِّعاً لحقوق إخوانه، ومن استأنسوا به، وركنوا إليه، غير مُبال بما تجريه عليه أفعاله هذه من وبال في غده. ثم يأخذ "أبو نصر" يزيد من عتابه صديقه، وذاك لعظيم جرم صاحبه الذي استعرض

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٩٨

(٢) المصدر نفسه ، ص٩٨

(٣) رسائله، ص٩٨

(٤) وأظنها الرّزنامة: وهي كتيب يتضمن معرفة الأيام والشهور وطلوع الشمس والقمر على مدار السنة. ويمكن أن تكون إدارة صرف مرتبات أرباب المعاش. المعجم الوسيط (رزم).

(٥) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جريدة أفعاله، واستقرأ صحيفة أعماله، فتبين له "ما جنى عليك سوء صنيعك، وما الذي حاش إليك فرط تضييعك، فتصحو تارة عن سَكرة جفائك، وتسكر أخرى عن سورة أحبائك." (١)

وعند ذلك سيقرع هذا الصديق أسنانه، ويعضّ بنانه؛ ندماً على ما فرط تجاه إخوانه، ومع كل هذا فالعاتب لديه أمل قوي في إنجاع عتابه، وأن صديقه لا بدّ أن يرعوي، ويعود إلى مراشد الأمور، وينتهي عن تماديه وغلوائه، ويكفّ عن فرط جماحه، ولذا لا يتوانى في طلب ذلك من صديقه، كي يعود الصديق الذي عرفه، فيقول له: "فاجلُ، أعزّك الله، الغشاء عن عين رعايتك، واطرح القذى عن شرب مخالصتك، وارْعَ ما استحفظته من أمانة الفؤاد، واعلم بأنك مسؤول عن عهدة الوداد، واكتب في الجواب بما نراعيه منك، وتعذّر إن كان فيما أقدمت عليه لك، إن شاء الله تعالى." (٢)

والصديق الذي يحرص على مودة صديقه لا يجعل جفاء صديقه له، وإبطاءه عليه، سبباً في تقويض بنيان الصداقة وانهيارها، وانطفاء شعلة المودة القائمة بينهما، بل يتوسّل بالعتاب الرقيق، الذي به يُلتأم الجرح، ويُلم ما تفرق من الأخوة، وهذا ما فعله العتابي، حين كتب إلى بعض إخوانه معاتباً إياه على تماديه وقسوته، تلك التي أحدثت جفوة وشوقاً، ولكن حسن الظن بصديقه، وتعظيماً لقدر مودته، جعله يؤمن بأن صديقه "أحقّ من اقتصّ لصِلتنا من جَفائه، ولشوقنا من إبطائه." (٣)

ومن المواقف الطريفة في العتاب، موقف "الزهيري أبي بكر" للعوامي(٤)، ولكن هذه المرة، ليست كسابقاتها، فالصديق لا يعاتب صديقه على هجره، ولكنه يعاتبه على هجره لجماعة من الناس، كان يألفهم ويألفونه، وأخذ العاتب "يعيد القول في ذاك ويُبدي، والعوامي لا ينبس بحرف"(٥)، ولكن هذا الأمر دفع بالزهيري إلىالظن باستهانة صديقه بخطابه، ولذا أخذ يحذره ألاّ يفعل؛ لأنه سيوجه له عند ذاك سهام اللوم والعذل، مما ألزم العوامي الدفاع عن نفسه، وأخذ يوضح لصديقه أن الأمر ليس كما يظنه، ولكن نفسه أبية، ولا تقبل الذلّ ولا المهانة، وأخذ يستشهد بقول إسماعيل بن يسار النسائي:

---

(١) الثعالبي، يتمية الدهر ، ج٤، ص٤٦١.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٦١.
(٣) الحصري، زهر الاداب، ج٤، ص١٧٠.
(٤) أبو بكر محمد بن ابراهيم النحوي القاضي، له من الكتب؛ كتاب الإصلاح والإيضاح في النحو ؛ كتاب الإصلاح والإيضاح في النحو، وهو صديق لابن النديم. الفهرست، ص٩٤.
(٥) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٧٣، ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إنّي لصعبٌ على الأقوام لو جعلوا رَضْوَى لأنفي خِشَاشًا لم يقودوني

نفســي هي النفس أبى أن أواتيــها على الهــوان، وتأبى أن تواتينــي[١]

وما الموقف السابق إلا لأن الصديق يحرص على سلامة العلاقات التي تربط صاحبه بغيره، ففيها سلامة علاقته بصاحبه، لأن من عرف بالوفاء لغير صديقه كان أكثر وفاء للمختارين من أصدقائه، المصطفوين منهم لديه. ولذا فالزهيري حريص على وصل العوامي لخلانه وإخوانه، وحرصه هذا نابع مما تفرضه عليه حقوق الأخوة والصداقة وواجباتها.

في الشّماتة:

ويقرب من ذلك موقف "الهمذاني، بديع الزمان" وصاحبه الذي بعث إليه بكتاب تهنئة بمرض أبي بكر الخوارزمي، مما دفع بالهمذاني إلى استقباح هذا العمل، واستشناع هذا الأمر، فأخذ يعاتبه، مبينا له سوءة ما اقترف من الشماتة، محاولاً بعتابه أن يعنف صاحبه الذي غفل حقيقة الدهر، وأحواله وتقلباته، وأن نعمه "ما دامت مَعْدُومة فهي أمانيّ، وإن وجدت فهي عَوَاريّ، وأن محَن الأيام وإن طالتْ فستنفد، وإن لم تُصب فكأن قد."[٢] ولذا فالشامت بالمحنة لن يعدمها في جنسه، وإن أفلت منها، فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت.

ولا يكتفي الهمذاني بتقريع صاحبه وتعنيفه، إنما يتجاوز ذلك إلى ذكر محامد الخوارزمي، ثم يختم رسالته مبينا ما حل به من التوجع بعلته، والتحزن لمرضه، آخذا بالدعاء له بأن يقيه الله المكروه، ويقيه سماع المحذور فيه[٣].

في تأخر المكاتبة وانقطاعها:

وقد تكون المكاتبة بين الأصدقاء سببا في إحداث الجفوة بينهم، مما يؤدّي إلى انقطاع أخبار الصديق، ومعرفة أحواله وأموره، الأمر الذي يولّد الشوق والاشتياق إلى الصديق، لتحقيق الأنس والابتهاج بينهما، ويبدأ الباحث بهذه الرسالة الموجزة في القصر لصديق عبدالله بن شبيب، حين بعث بها إليه، وقد تأخرت كتب عبدالله عنه، مصورا فيه شوقه، فيقول: "أطال الله بقاءك كما أطال جفاءك، وجعلني فداءك إن كان فيّ فِداؤك:

كتبتُ ولو قدرتُ هوىً وشوقا إليك لكنتُ سَطْرا في الكتاب" [٤]

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق ، ص٧٤

(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص١٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٧.

(٤) الصولي، أدب الكتاب، ص١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتأخر المكاتبة بين الاصدقاء يخلق جواً من الغضب والمشاحنة، وسوء الظن، فتأخذ الوساوس تسرح في خواطرهم، وربما أورث ذلك حقداً، وعداوة، ولذا كان العتاب سلاحاً لتدارك الأمر، والحيلولة دون استفحال الداء، فإنه إن استفحل استعصى على الشفاء.

وهذا ما فعله محمد بن عبدالله بن حرب[١]، حين كتب معاتباً صديقه الذي كان قد بعث إليه بكتاب، فحال عليه الحول دون أن يأتي جواب ابن حرب عليه، الأمر الذي جعل الصديق يعاتب ابن حرب متهماً إياه في صدق مودته، مصنفاً إياه في جُملة من يساء بهم الظنون، فلم يكن من ابن حرب إلا أن انبرى لمكاتبة صديقه، مدافعاً عن نفسه، ومعاتباً له، وعارضاً براهينه وأدلته التي استند فيها إلى العقل والمنطق، ليثبت له بطلان ما ذهب إليه، من الطعن فيه، وفي مودته وظنونه، فيقول: "وقد كان أتاني منك كتاب حال عليه الحول عندي، ولم يمنعني من أجابتك فيه في البدء، إلا أن رسولك الموصل له أخبرني بإجماع منك على بعثه خاصة من أهلك لمطالعتي... ثم رأيتك – والله يصلح بالك– قطعتَ رُسلك عنّي، فصار ذلك سبباً لإبطاء جوابي عنك، غير زاهد في إخائك، ولا راغب في ودادك، ولا مُنكر لجميل حَالك." [٢]

ثم أخذ يبين لصديقه بطلان ما ذهب إليه من إخلاف الظن به، وأنه كان له "كبرق الخُلّب الذي يضيء قليلاً، ويَضمحلّ وشيكاً." [٣]، وهو ليس كذلك فمحبته لصديقه، ومودته له تفوق أي وصف، وهي راسخة في قلبه، مستكنة في سريرته، مودة قوامها الثقة المتبادلة بينهما، وهي تدعوهما للتمسك بحبالها المتينة التي لا يعتريها نقص ولا تغيير، والشاهد –كما يبين– على صدق مزاعمه في ذلك قوله: "لاحتفاظي بكتابك إلى منذ سنة قد مضت له، وهو عندي غير مضيّع، ولا مُغفل لديّ، وقد أتلفت ما يناهز المائة الألف من مالي في معاريض نوائبي وحاجاتي، وأنا متمسك بكتابك، متلوّم بحوائجك، وتأدية الواجب من حقك." [٤] وفي ختام رسالته أخذ يدعو لنفسه ولصديقه، بما فيه صلاح الخلة، ودوام المسرة والسعادة بينهما في الدنيا والآخرة.

وكان أبو بكر الخوارزمي قد وعد صديقاً له أن يبقى على اتصال به، وأن يديم مكاتبته، وحين لم يوف بما وعد، بعث إليه صديقه معاتباً، مما دفع بالخوارزمي إلى مكاتبته مبيناً له، وشارحاً أعذاره وعلله التي حالت دون إيفائه وعده، "ولكني عُورضتُ من المِحَن بما لم يتركْ لي قلباً يَعقل، ولا بناناً يعمل، وأقلّ ما لحقني غضب الأمير عليّ، وهذه حالة يُفقد بها العقل، ويشيب

(١) كاتب الحسن بن قحطبة على أرمينية، ثم كتب ليزيد بن أسيد، ثم كتب للفضل بن يحيى. الفهرست، ص١٣٩.
(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٩٩، نقلاً عن:صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٨٦– ١٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لها الطفلُ، ويُتوقع معها الموت بل القتل" [١] ولا ريب أن هذا الصديق كان يحتل مكانة عالية ورفيعة في نفس الخوارزمي، ولذلك كان يطلعه بأخباره، ويفضي إليه بعجره وبجره، ويستأمنه في جل أحواله، ودقيقها، وفي باطل أشغاله وحقها.

ويبقى الباحث مع الخوارزمي، في هذه الرسالة التي بعث بها إلى صديقه، معاتباً إياه؛ لانقطاعه عن مكاتبته، ممّا جعل الخوارزمي يشعر بالاستياء من فعل صديقه الذي كان أقرب ما يكون إلى "الكبر حتى اعتقد ملّته، واستقبل قبلته والعجب حتى تبوّأ سَاحته، واستوطنَ راحته... والجفاء حتى عَلق أسبابه، ولبس جلبابه." [٢] ثم أخذ يتساءل عمّا اقترفه من ذنب، وارتكبه من جرم من بين الإخوان، حتى يخصّهم، ويفردهم دونه بالمكاتبة، الأمر الذي جعل الخوارزمي في هذه الرسالة يبدو كأنه قاطعٌ لصديقه وقد برّه الإخوان، وناس وقد ذكروه، وجافٍ وقد برُّوه، وكأن صديقه أخذ يعرض جريدة الإخوان، فوجد اسمه ملحقاً في حواشيها، ومثبتاً في أخريات أساميها"[٣].

وهذا الأمر أحزن الخوارزمي، وأقلقه، ودفعه إلى استعطاف صديقه، وطالبه بالإنصاف، وأن يتصدق عليه بالمكاتبة التي هي حياة الأصدقاء وسعادتهم، وحتى يبرهن لصديقه أنه يستحق هذه الصدقة، أخذ يعرض له الحالة الشعورية التي يكون عليها حين ترده كتبه، "فكنت أجعلُ يوم وصول كتابه إليّ عيداً، ونيروزاً جديداً، وأتصدق بمالي فيه طريفاً وتليداً، وأطوف بكتابه في إخوانه وإخواني، وأباهيهم به مباهاة الأخ بأخيه."[٤] ومع استغراب الخوارزمي، وحيرته التي تبدت أول رسالته، بما يرتبط بموضوع الذنب، والجرم الذي ارتكبه، إلا أنه في معرض رسالته اعترف به، دون تصريح بذكره، وقد توصل إلى ذلك بطريقة أدبية لبقة، حين قرن بين فعله وفعل صديقه، وأن الصديق هو شبيه صديقه في كل شيء، "فمساعيه مساعيه، ومساويه مساويه، وكل شيء من فضيلة أو رذيلة فهو شريكه فيه." [٥] هذا الأمر أعطى للخوارزمي الجرأة؛ ليطلب من صديقه الصفح، وإعطاءه فرصة جديدة، "فإن الحسنات يُذهبن السيئات، وإن قليل الاستغفار ينسي كثير الخطايا والأوزار." [٦]

ويبدو أن الخوارزمي وثق بصديقه، أو كان منه على ثقة كبيرة، فأصاب منه مغفرة وتجاوزاً لذنوبه، حتى أخذ ينسى ما كان من أمر العتاب، وما نعت به صاحبه في أول رسالته،

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١١.
(٣) المصدر نفسه، ص١١.
(٤) المصدر نفسه، ص١١.
(٥) المصدر نفسه، ص١١.
(٦) المصدر نفسه، ص١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فينتهزها فرصة ليوصي ببعض أصدقائه عنده، مغرياً صديقه به، من خلال ما نعته به من صفات أخلاقية سامية، إن دلت على شيء فإنما تدل على أخلاق الخوارزمي المصادق له، فيقول لصديقه: "وعَلِمَ أني لا أختار غير الخيار، ولا أجني غير خير الثمار، ولا أصادق غير الأحرار، فلينطِقْ سيدي لسانه بشكره، وليَكفِهِ الدقيق والجليل من أمره، وليمْشِ على عقبي، لا بل مقدمتي إلى ألطافه وبرّه."(١)

وانقطعت كتب صديق الخوارزمي عنه، فكتب إليه معاتباً، يسأله اسباب انقطاعه، ويجتهد هو نفسه في استنباط هذه الأسباب، ويحاول أن يفنّدها واحداً واحداً، متجاوزاً بذلك سوء ظنّه لصديقه، وإن حملت الرسالة في طياتها بعض الاستهزاء والسخرية التي يتورع الأصدقاء عن اللجوء إليها، لعلمهم بأثرها السلبي في إضعاف هذه الرابطة، ولكنها عادة أدبية دأب عليها الخوارزمي في كتاباته، سواء أكان قاصداً لها أم غير ذلك، وما يذهب إليه متصفح الرسالة للوهلة الأولى خاصة بدايتها، يظنّ أنّ الخوارزمي غير عابئ بصديقه، إذ ينزله منزلة دنيا، مخاطباً إياه من برجه العاجي، "فعهدي به لا يبخل على الفقراء، ولا يرضى لاسمه أن يكتب في جريدة البخلاء، أم لأنه يَكْره أن يصير نظيراً إذا كاتب من دونه كثيراً، فهذا ظن غير صائب، ورأي غير ثاقب، فقد يكاتب الكبير الصغير، فلا الكبير يصغر، ولا الصغير يَكْبُر، أم لأنه يخاف أن لا أعرف حقيقة خطابه، ولا أبلغ غور كتابه، فقد علم أن الله تعالى خاطب العامة بوحيه كما خاطب به الخاصة، أم لأنه يأنف لكتابه اللطيف من جوابي الكثيف، فما زال الخطأ منبّها على مقدار الصواب"(٢)

وعلى هذا النهج يمضي الخوارزمي يذكر السبب ويقرنه بحجة تنفيه، وما ذاك إلا تمهيد منه، واستدراجاً لنفسية صديقه، التي باتت -كما يظن الخوارزمي- تتأثر بعتابه، فلم يبق لها إلا أن تستجيب لمطالبه، ولذلك كان يظهر في نبرته حِدّة في عتابه تارة، ثم يأخذ يخفف من حدة هذه النبرة تارة، يلحظ القارئ للرسالة تبايناً في لغة العتاب من حيث الحدّة والمرونة، وقد تبدت هذه المرونة حين طلب من صاحبه أن يكون لديه كاتباً، إذ تكاسل عن مكاتبته، ثم قال صراحة: "فأما أنا فقد رضيت به صاحباً، على أنني منتظر منه أن تعطفه عليّ العواطف، وأن تعود إلي نعمه السوالف، فلربما غلط الدّهر المسيء إلي بالإحسان، وعاد على الهدم بالبنيان." (٣)

ثم يأخذ الخوارزمي بعد ذلك بتعداد سيئات الكتاب، وما قد يعتريه من عوامل النقص والفساد، وأنه في نهاية المطاف لا قيمة له ببقائه، وهذا بخلاف نعم الصديق المعاتب، وهذه محاولة جديدة منه لتبرير انقطاع كتب صديقه عنه، وعندما شعر هو بذلك، وبأن القارئ بدأ يفكر

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص١١.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥، ١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الظنّ بك، وألا تجعل من مصائبي المصيبة بمودّتك، وأن أعجب عندي من إمساكك عن مكاتبتي إمساكك عن ذكري في كتبك إلى قوم قد علمت أنهم لا يخفون عنّي مكاتبتك إياهم."[١]

والصديق يأنس بصديقه، ولا يحب أن ينقطع عنه، ويرغب باتصاله الدائم، وقد يتمثل هذا الاتصال جسدياً عن طريق اللقاء، وتبادل السرور والأنس، وقد يكون روحياً عبر الكتب والرسائل التي تفيض بالمشاعر الصادقة بين الإخوان، وقد يكثر الصديق مكاتبة صديقه، مما قد يوقع الملل والضجر. وهذا ما كان يُقلق صديق "إبراهيم بن المدبر"[٢]، ويشغل باله، حين أكثر من كتبه، وأشغل صديقه بها، فأخذ يكتب إلى صديقه معتذراً من إكثاره هذا، وحين وصل الكتاب صديقه إبراهيم كتب إليه معاتبا، مبيناً له مقدار الظلم الذي أوقع به نفسه، فقال له: "ذكرتَ – جعلني الله فداءَك– خوفك إمْلالي، والزيادة في إشغالي بكثرة كُتبك، فأقول: أخي قدمتُ قبلكَ، لم أُرْزَق فيما قلتُه عَدْلك." [٣] وكيف يقع الملل وصاحبه له بمنزلة الرّوح من الجسد، وذلك للتشاكل بينهما وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يقع الملل، هل يَمَلُّ الرّوحُ جَسَده، والجَسدُ جَوارحَه، والجوارحُ سلامَتها، والسلامَةُ دوامَها." [٤]

ثم أخذ يذكر لصاحبه عظيم شوقه، وسعادته حين ترد عليه كتبه، وهو في تطلّع إلى ورود أخباره، وما ذاك إلا ليقنع صاحبه ببطلان ظنّه، فكيف ينشغل عن صديقه، وهو غير منقطع بذكره، والتفكر فيه، والشوق ينازعه إليه، فيقول: "قياساً غَير فاسدٍ على موقع كتابك منّي، وجلالته في نفسي، واغتباطي به وسُكوني إليه، وسُروري به، فالحمد لله الذي تفضّل من ذلك بما هو أهله ووليّه." [٥]

تصديق الوشاة:

وهذه رسالة للهمذاني، بديع الزمان تدخل في الموضوع ذاته، في موضوع تصديق الوشاة، وهي رسالة بعث بها إلى صديقه، يعاتبه فيها تصديقه للوشاة الذين سعوا بينهما، مبيناً أنه لا يستحق من صديقه أن يسيء الظن به، ويحقق قول الوشاة فيه، وأنه بريء مما نسب إليه، وما كان يحدث بينهما من عتاب رقيق كان "لا ينزل كنفه، ولا يجدّف، وحديث لا يتعدّى النفس

---

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٢٢.

(٢) أبو اسحاق وزير وكاتب وشاعر ، ولد في بغداد، وتدرج في الوظائف العامّة، حتى ولي وزارة المعتمد سنة ٢٦٩هـ، وتوفي ٢٧٩هـ. (معجم الأدباء، ج١، ص ٢٢٦-٢٣٢. والنجوم الزاهرة، ج٣، ص٤٣).

(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٣٣٧،

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضميرها، ولا يعرف الشّفة وسميرها، وعَرْبَدة كعربدة أهل الفضل، لا تتجاوز الدّلال والإدلال، ووحشة لا يكشفها عتاب لحظة." (١)

ولكن ما حدث من أمر الوشاة، زاد الأمر تعقيدا، حتى ساء ظن الصديق، وأخذ يحمّل الأمر فوق طاقته، لم يردع القائلين، ويمنع الواشين، الأمر الذي دفع بالهمذاني ليدافع عن نفسه أمام صاحبه، ويبدأ رسالته بأبيات صريحة في موضوع الوشاة، تدعو إلى تكذيب الوشاة، ونقض مزاعمهم، وتفنيد أحاديثهم، فيقول:

ويـــا عَزُّ إنْ واش وشى بي عندكم فلا تمهليـــه أن تقولي له مَهلا

كمـــا لو وشى واش بعزّة عندنـــا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا أهلا(٢)

في التخلف عن الوداع:

وقد يعاتب الصديق صديقه إذا قصر في بعض حقوقه، كأن يتخلّف عن وداع، مما يوقع الحزن في قلبه، وهذا إبراهيم بن المهدي يعاتب صديقه في هذا الأمر، وما ذاك العتاب إلا للأنس الذي كان يتحقق بينهما، مما فرضته المودة الصادقة، ولذلك تراه يكتفي بالإشارة إلى هذه المودة وذلك السرور المتحقق في اجتماعهما، ولو أراد أن يصف مشاعره حين لقاء صاحبه لأطنب في ذلك، وتجاوز الحدّ، "فإنّ الله عزّ وجلّ قد جعلَ لنا من الأنس بمودّتك، والسرور بمكانتك، ما لو وضعناه فأطنبنا، لجاوز ذلك ما ننطوي عليه." (٣)

وهو في عتابه هذا يصرح بالتقصير الذي لحق بصاحبه من تركه وداعه حين فراق البلد الذي يجمعهما، ولكن حقّ الصداقة بينهما، وما تنطوي عليه أخلاق الصديقين، يدفعه لحسن الظن بصاحبه، فلا تسوّل له نفسه، فتجعله يسيء الظن به، مما قد يوقع العداوة بينهما، يقول: "وقد تركتُ من توديعك عند شُخُوصي عن البلد الذي يجمعنا، ما لو حسنُ ظني بك، لوقع منّي بأعظم مواقع المَساءة، والغيظ على نفسي." (٤)

وحتى يقع العتاب في نفس صاحبه موقعا بالغ الأهمية، ويحدث الأثر العميق أخذ إبراهيم يصف مشاعره الصادقة التي يكنّها لصديقه، وأنه لا يهنأ، ولا يتحقق له سرور ولا أنس إلا برؤية صاحبه، والاجتماع به، وفي ذلك يقول: "وأنتَ من أعُدُّه سروري وأنسي، وأهوى مُشاهدة

---

(١) الهمذاني، رسائله، ص١٥٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣.
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب ، ج٤، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غُدُوّي ورواحي إليه، ولقل ما أعلم أنه ما استتمّ لي سُرورٌ بعدك، أو نزل بأحد ما نزل بي من الشوق إليك، أو حلّ منّي أحد بمثل مكانك، أو استصفيتُ لذّة أو راحة إلا معك، وفي قُربك." (١)

في التخلف عن تلبية حوائج الأصدقاء:

وكان مما يعاتب الصديق صديقه عليه التقصير في حق من حقوق الأخوة بينهما، كقضاء حوائج الصديق، أو ما يقرب من ذلك، وما أسعد الصديق بقضاء حوائج أخيه! وهو حين يقدم لأخيه يد العون، فكأنما يقدّمها لنفسه، لما يربط بينهما من روابط المودة والأخوة الصادقة، فهذا "بشر البلوي(٢) يكتب إلى "علي بن سليمان"، وقد واليا للمهدي على اليمن، معاتبا له، حيث أثقلت عليه الأيام، وضاقت به الدنيا، ووقع في شدة يندى لها الجبين، فلم يجد إلا صديقه علياً، يبثه شكواه، ويعرض عليه مسألته، طامعا به أن يجد عنده مبتغاه ومراده، وكان له ما أراد حين قابله صديقه بالبشر والغبطة، واعداً إياه بقضاء حاجته، فما كان من بشر إلا أن قال: "فرّقتُ نَفْقتي لإسفارك، ووسَّعتُ على عِيالي لإبشارك، وتسلفتُ من إخواني لموعدك." (٣)

وكان الصديق يعيش على أمل الوعد الذي قطعه صديقه على نفسه، ولكن ما حدث كان صدمة كبيرة للبلويّ، فكلما جاءه مُسْتَنْجزاً وَعْدَه عَبَسَ وبَسَرَ، ثم أدبر واستكبر، "وقد تَصرَّمت النفقةُ، وانقطعَ الرجاءُ، ويئستُ من الطّمع، كما يئس الكفار من أصحاب القبور." (٤)

لقد وثق "البلوي" بصديقه، وركن إليه، رغم تقصيره، وأبى ألا يكونَ الخيرُ إلا من ناحيته، وهذا ما أوقع في نفسه حسرة عظيمة، وهماً ثقيلاً، ولذلك يقول: "وأعظمُ من ذلك عندي كَرْبَاً، وأشده جَهْدا أنّ غيرَك يَعرض عليّ الحاجة التي طلبتُها إليك، فأكرُه أن تكون إلا بسببك، وأن تجريَ إلا على يدك، ولعمري ما كان ذلك إلا لِسَابق العِلم في شِقْوتي بك." (٥)

ورغم كل ما حدث بينهما من مَطْلٍ للوعود، وضيق حال لحقت بالصديق الموعود إلا أن البلوي أخذ يدعو ربه أن يعجل بلحاق صاحبه بالجنة، وإن كان ظاهر الدعاء في خير، خلاف ما ذكر فيه المنظوم والمنثور وهو: "أن يعجلك إلى نار جهنم." (٦) إلا أن باطنه يوحي بغير ذلك، إذ

---

(١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٤.

(٢) بشر بن أبي كبار البلوي وهو من فضلاء اليمن من أهل صنعاء، من قبيلة بليّ، وهو من أبلغ الناس، وكانت بلاغته تتهادى في البلاد، ويتعجب من بلاغته ونفاستها. الهمذاني لسان اليمن، الحسن بن أحمد بن يعقوب، (ت٣٣٤هـ). صفة جزيرة العرب، (تحقيق: محمد بن علي الحوالي)، دار اليمامة ، الرياض، ١٩٧٤م، ص٨٧-٩٦، : صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣،ص١٤٢.

(٣) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشتمّ فيهرائحة الخلاص من الصديق، والانتقال به من الدنيا إلى الآخرة، وأن يعجل الله في ذلك بدليل قول بشر: "أن ينقلك إلى جنّته قبل أن يرتدّ إليك طرْفك." (١)

يمكن للقارئ أن يدرك حقيقة العتاب الذي حمل به "ابن أبي طاهر" على صديقه "أبي علي البصير" حين آخى "ابن مكرّم"، ويبدو أن الأخير لم يرق لابن أبي طاهر، ولم يكن على شاكلته، فنفر منه، وأوجس منه خيفة، فأخذ يفضحه أمام صديقه، ويكشف له أخلاقه.

بدأ ابن أبي طاهر رسالته بالدعاء لصاحبه، بما يضمن له حياة سعيدة، ويرشده إلى اختيار الصواب، ويديم عليه نعمته وعافيته، مذكرا صاحبه بما تفرضه عليه الصداقة من حقوق النّصح وصدق القول، مبينا له فضل العتاب بين الإخوة، خاصة إن كان لطيفا رقيقا، آملاً أن يجد هذا العتاب آذانا صاغية، فيقول: "وقر الله يا أخي من كلّ خير حظّك، وأجزل منه قسَمك، وبلّغك غاية هِممك، وغاية طلبتك، ومتّع إخوانك بما منحهم منك، وأعاذهم من الغيَر فيك، إنه يقال – جعلني الله فداءك-: أخوك من صدقك، وعدوك من نافقك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك، والعتاب إمارة الإشفاق، ودليل الضّنّ من الإخوان... رجائي يا أخي أن تستميلك المعاتبة، وترجعك المراقبة." (٢)

ويبدو أن حسن ظن ابن أبي طاهر بصديقه، وما تنطوي عليه صداقتهما من ثقة وإخلاص، وأن صديقه ممن عرف بصحة وده، وكرم عهده، كل هذا دفعه إلى عتابه واستعتابه، ولو كان غير ذلك لما أتعب نفسه في عتابه، وتذكيره بجرمه، و "لخلّيتك وما اخترت، ولم أنبهك على ما أضعت، ولما وصلت ما قطعت، حتى يثوب إليك حازم من رأيك، وعاطف من ودك وإخائك."(٣)

ولا بد للصديق أن يواجه صديقه حين يخطئ ويُذكره بأخطائه معاتباً إياه باللين والإشفاق خيراً من إدباره عنه وهجره "وكنتُ إلى لِين استعطافكَ، وحُسن إنصافك أحوجَ منّي إلى قطع أسبابك، والمقام على ترك عتابك." (٤)

ومما يميز علاقة ابن أبي طاهر وصديقه أنه لا يقابله الإساءة بالإساءة وهذا مبدأ خلقي يتعامل به الأصدقاء فيما بينهم لخلق جوّ من النصفة والتسامح، ولذا يبين ابن طاهر لصاحبه أنه لن يقطع صديقه، ولن يدبر عنه موليا، مهما بدر من صاحبه من سوء أدب أو خلق، وما ذاك إلا لوفاء فطر عليه، والتزام بعهود الصداقة، آملاً من صديقه أن يردّه العتاب، ويثنيه عن حماقاته

---

(١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٩.
(٢) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤١٦. نقلا من : جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقطيعته، فيقول له: "وكنتُ مُستعدّاً لاحتمال ما يَضيمُني منك، ويتناهى إليَّ عنك، لِميل النفس بالرّغبة إليك، وإقبالها- وإنْ أدبرتَ عنها- عليك، لأنّ العُدوان في المعاملة من شأن من يُحْظر عليه في المواصلة، سيّما مَن قد أخلَقَ عندك إخاؤه، ورَثّ في نفسك وفاؤه، ودعاك طول عهده إلى ملالة ودّه لم أجد بُدّاً من رَدّك باستعتابك إلى ما هو أولى بك، رَدَّك الله إلى أجمل العادة، وما هو أولى بك فينا من النَّصفة."(١)

ثم أخذ ابن أبي طاهر يعدد مناقبه ومآثره الحميدة التي بها يعاشر صاحبه، وهو بهذا يقدم لصديقه صورة مثالية ونموذجية لما ينبغي أن يصادق عليه الأصدقاء، وبما أن الأمر في هذه الرسالة قائم على أسس اختيار الإخوان، لزم ابن أبي طاهر أن يذكر أخاه بهذه الأسس، فأخذ يبين له ما هو عليه من الودّ والعهد، وجميل العشرة، والكرم والإيثار -إذ يقدّم صديقه في كل أمره على نفسه، يقول "أوثُر على محبتي ما سَرّك، وأقدّم على أمري أمرَك، لا أُوازنك المعاملة، ولا أقارضك المشاغلة، مَا تحبّ فمضمونٌ لك عندي، وما تَكْرَه فمصروفٌ عنك مني، أحملُ عنك الثقيلُ، وأتوعَّر ليسهل لك السبيلُ، أوسّعُ لك في الدَّنَبِ المَنْهَجَ، إذا ضَاقَ عليك من العُذر المخرجُ، أطلِعك على مكنون سرّي، وأظهرك على باطن أمري."(٢)

هذا الأسلوب الذي نهجه ابن أبي طاهر في عرضه لأخلاقه في هذه الرسالة، أسلوب ناجح ذو تأثير إيجابي إذ يضع صاحبه في موقف المقارنة، وما تنطوي عليه سريرته من فساد وسوء حال، ولذا أخذ يعرض صورة هذا الأخ فور انتهائه من تذكير صاحبه بمناقبه وأخلاقه، "ولكني أذكّرك بما نسيتَ، وأنبّهك على ما أضعتَ."(٣)

أسهب ابن أبي طاهر في وصف ابن مكرّم، وأطال بما يضمن له تحقيق المراد من عتابه، وتحويل صاحبه عن مؤاخاة ذي الأخلاق الذميمة، ويكتفي الباحث بذكر بعضها مدللاً على ما ذكره سابقاً، فكان مما نعت به ابن مكرّم: "المقليّ المذمّم، المَهين "ابن مكرّم"، والعاقّ لأبيه، والمنتفيَ من أخيه، والقاذف لأمه، والقاطع لرحمه...، السريع إلىالصديق، البطيء عن الحقوق...، صديقه خائفٌ من بائقته، جَهْله جهلُ الصّبيان، وضعفُه ضعفُ النّسوان...، خفيف العقل والوزن، خبيث الفَرْج والبطن...، هذا قليل من كثير ما أعرف عنه، ويسيرٌ في جنب ما يوصَفُ منه."(٤)

---

(١) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٢٣. نقلاً من : جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٨.
(٢) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٠- ٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا كله يدفع بابن أبي طاهر إلى طرح العديد من الأسئلة على صديقه، الذي وضع نفسه موضع الشبّهة حين صادق من كانت خصاله مقززة، ينفر منها كل من عرفه وعاشره، ولا يدري ابن أبي طاهر أي جرم اقترفه حتى يعاقبه صاحبه بهذه العقوبة، فيدخل عليهما في صداقتهما متطفلاً دَنِس الأخلاق، سيءً الطباع، ولذلك تراه يقول معاتباً: "فأنّى يا أخي اخترته؟ ولأيٍّ شيء عليّ آثرته؟ وأيَّ أموره استلنتَ؟ أتَنْديدَ بالإخوان[١]، أم محافظته على الخِوان[٢]، أم أنسه بالخيانة، أم شمّه الصحابة، أم مؤاكلته الكلابَ، أم مقامه على الاغتياب، أم نتن رائحته، أم سوء معاشرته، أم مَلاله وضَجَره أو وَضَره وبَخَرَه[٣]؟ أم وصلته حين قطعته، واخترته حين اطرحته." [٤]

ثم يجدد ابن أبي طاهر حملته وعتابه على صاحبه، ولكن هذه المرة كان عتاباً شديد اللهجة، يصل درجة الحدة، وما ذاك إلا لأنه شعر بالمهانة والاستهانة بأمره، حين قدّم صديقُه ابنَ مكرّم عليه، وآثره دون غيره، وما كان يستحق ابن أبي طاهر منه هذه المعاملة، وما أحسن صاحبه إلى ابن مكرّم، إلا نكاية بابن أبي طاهر، وتنديداً به، "فكأنّكَ إلى غاية مكرُوهي أجريتَ في أمره، وإلا فكيفَ أنستَ بالجانب الوَحشيِّ من الثِقة، وأوحشتَ الجانب المعمورَ لك بالأنس والمِقة." [٥]

وهو حين يفعل ذاك –أي صديقه– يكون قد أعطى المودة غير أهلها، ومنح الجفوة غير مستحقها، ووصل من قطعه، وقطع من وصله، فما كان من ابن أبي طاهر إلا أن ختم رسالته بدعوةٍ صريحة لأخيه أن يبادر من فوره إلى قطع هذه العلاقة الجائرة، والصداقة الفاسدة، مقتبساً آية من الذكر الحكيم، تسير في المضمون نفسه، وهي قوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنقلبٍ ينقلبون [٦]﴾

ومن طريف العتاب بين الصحب والخلان، ما عاتب به "أبو العيناء" صاحبه "عبيدالله بن يحيى بن خاقان" لتقصير لحق بالثاني، حين أوكل إلى ابنه "محمد" حمل أبي العيناء، فحمله محمد على دابة غير فاره[٧] الأمر الذي دفع بأبي العيناء إلى معاتبة صديقه، ووصف هذه الدابة وصفاً طريفاً، مضحكاً، جعل العتاب مدخل المداعبة والملاطفة، حين سخر من هذه الدابة، وطالب صديقه أن يرسل إليه ما تفوقها جودة وملاحة، ولذا عدّ أبو العيناء الخطأ الذي ارتكبه صديقه، يدخل باب العقوق لا البر بين الأصدقاء، وإن كان الكلام قصد به ابن صديقه "محمد"، ولذلك

---

(١) نَدّد به: صرح بعيوبه وشهرّه وسمّع به. اللسان (ندد)

(٢) ما يؤكل عليه الطعام، والمراد به الطعام. اللسان (خون)

(٣) وضره: أي وسخه وقذره، اللسان (وضر). والبخر: نتن الفم، اللسان (بخر).

(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٥١.

(٥) سورة الشعراء، رقم (٢٢٧)

(٦) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٥٢.

(٧) فاره، الجيد السير، قالوا: ويقال للبغل والحمار والبرذون: فاره ولا يقال للفرس فاره ولكن رائع وجواد. اللسان (فره).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول: "أعلمُ الوزير -أعزّه الله- أنا أبا علي محمداً أراد أن يبرّني فعقّني، وأن يركبني فأرجلني، أمر له بدابّة تقفُ للنّبرة[١] وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفاً وكالعاشق المهجور دَنَفاً، قد أذكرَت الرّواة عروة العُذري[٢] والمجنون العامريّ مساعدٌ أعلاه لأسفله، حُبَاقُه[٣] مقرون بسعاله، فلو أمسك لترجّيتُ، ولو أفرد لتعزّيتُ، ولكنه يجمعها في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد، تضحك من فعله النسوان، وتتناغى من أجله الصبيان، فمن صائح يصيح: داوه بالطباشير[٤]، ومن قائل يقول: نَوّله الشعير، وقد حفظ الأشعار، ورَوى الأخبار، ولحق العلماء في الأمْصَار، فلو أعين بنطق؛ لروى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجعفي[٥]، وعامر الشعبي[٦]"[٧].

وقد رأى الباحث أن يذكر الوصف كاملاً غير مقطوع، ولا مجزوء لتكامل الصورة، وحاجة بعضها إلى بعض، فضلاً عن طرافتها، وإثارتها الضحك في نفس قارئها، والتعرف على ملمح طريف من العتاب اللطيف الذي يكون بين الخلان.

وفي ختام رسالته يطلب بطريقة أدبية لطيفة صراحة من صديقه أن يبدله خيراً من هذه الدابة، ويريحه منها، مشترطاً عليه أن تكون لها من الميزة ما يدخل السرور إلى قلبه، فيضحك لها، كما ضحك منها، ويمحو بحسنها وفراهتها "ما سطّره المعيب بقبحه ودمامته ولست أذكر أمر سرجه، ولجامه، فإن الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه، أو يَنْقض ما يمضيه."[٨]

تأثر صديقه عبيدالله بن يحيى بعتابه، فسرج له برذوناً من براذينه، وأخذ يفاكهه كدأب الأصدقاء، محاولاً بذلك تطييب خاطره، وإرضائه حرصاً منه على الإبقاء على الصاحب، الذي لا عوض عنه، ولا بديل منه، خاصة إن كان -كما وصف عبيدالله- بظرف أبي العيناء وملاحته.[٩]

---

(١) نبر الرجل نبرة: إذا تكلم بكلمة فيها علو، والنبرة: صيحة الفزع. اللسان (نبر).
(٢) عروة بن حزام: صاحب عفراء بنت عقال بن مهاصر -بنت عمه- وهو شاعر إسلامي. وأحد المتيمين الذين قتلهم الهوى، مات من حبّ ابنة عمه عفراء - انظر ترجمته في الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦هـ). الأغاني، ٢٤م، مصور عن دار الكتب المصرية. ج٢٠، ص١٥٢.
(٣) الحُبَاق: الضُراط . اللسان مادة (حبق).
(٤) الطباشير: دواء يكون في جوف القنا الهندي.
(٥) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبو عبدالله تابعي، من فقهاء الشيعة، من أهل الكوفة، مات بالكوفة سنة١٢٨هـ.
(٦) عامر الشعبي وهو: عامر بن شراحيل (بفتح الشين) كوفي. وفيات الأعيان، ج٣، ص١٢-١٦.
(٧) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٨٤.
(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٤.
(٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في عقوق الأصدقاء وإعراضهم وخيانتهم:

ولا بد للصديق أن يكون باراً بصديقه، فيؤدي حقوقه وواجباته تجاهه على الوجه الأكمل، حتى تسلم الصداقة بينهما من كل ما قد يفسدها، أما إذا دخل سوء العهد والعقوق بينهما، دب الهجر والجفاء، ولزم بذلك العتاب، ليكون رادعا، يمنع الصديق من التمادي في هفواته، إلا أن بعض الأصدقاء يرون أحياناً أن العتاب غير مُجد، ولن يحقق لهم نفعا، خاصة إن كان المعاتب ممن لا ينفع فيهم قول، ولا عمل، ولذا تجد "القاسم بن محمد الكرخي"[١]، ينقبض عن معاتبة صديقه، لعلمه به صامّا أذنيه عن كل ما قد يحقق له نفعا، وهو إذ يبلغ صديقه – مقرّعاً له– هذا الأمر، يضع القارئ في تصور لما يكون عليه العتاب بين الأصدقاء، أو بعبارة أخرى، لما ينبغي أن يكون عليه العتاب، فهو يرسم في كتابه التوسّط في العتاب، الذي "لا أبلغُ بكَ فيه القُصْوَى، ولا اقتصرُ منه على الأدنى، ولا أُخلِيك من الاستزادة في غير شكوى، والتعريف في غير تعنيف، والاحتجاج في غير تبكيت[٢] ولا توقيف"[٣]، ولكن هذا الصديق أصم أذنيه، وأعرض صفحا عن النُصْح، مما دفع الكرخيّ إلى القول: "ولكن شرّ القول ما لم يُسْمَع، ولم يكن لقائله فيه مُنتفع"[٤].

وإذا أراد الصديق أن يبرّ بصديقه، لزم أن يكون هذا الأمر نابعاً من قلب صاف، ونية صادقة، تترجمها الجوارح، وإلا دخل التكلّف والتصنّع وهما عدوان للصداقة، يوديان بها، ويهدمانها، و"أشبه البرّ بالعقوق ما استُكْرِهَتْ عليه النُّفوسُ،ولم يكن له باعثٌ من النية والضمير:

وليسَ بمُغْنٍ في المودّة شافعٌ إذا لم يكُنْ بين الضلوع شَفيعُ[٥]

وقد يكون إعراض الصديق عن صديقه، لأي سبب كان بينهما مدعاة للعتاب، وهذه واحدة من الرسائل المتعلقة بهذا الموضوع، بعث بها الهمذاني إلى صديق له أعرض عنه، وما كان يدري أكان جاداً في إعراضه، أم مازحاً، ولكن الأمر عنده سيان، وكأن الهمذاني ينصح صاحبه بتجنب المزاح الذي قد يوغر صدر الصديق، ويوقع العداوة بين الأصدقاء، ولذلك يقول له: "وإن كان قصدَ مزحا فما أغنانا عن مزح يحلّ عُقد الفؤاد، حتى نقفَ على المراد، ولا تسعنا إلا العافية."[٦]

---

(١) القاسم بن محمد، ذكره ابن النديم من البلغاء زمن بلال بن أبي برده. ص١٣٩-١٤٠.
(٢) التبكيت: التقريع والتعنيف. اللسان (بكت).
(٣) التوحيدي ، الصداقة والصديق، ص٣٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٥.
(٦) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفوت الهمذاني أن يستغل عتابه مذكراً صاحبه بما ينبغي أن يكون عليه المتصادقون من التوحد والتشاكل، وذلك بالتباس قلوبهم حق الالتباس، وهذا ضرب من الامتزاج الروحي بين الصديقين، يقود الصداقة إلى النجاح والسعادة، وإلى تحقيق الأنس، ونفي التحاسد والتباغض والشك بينهما، عند ذلك لن يكون للشيطان سبيل إليهما، فيفسد بينهما، وإلا فالصداقة في نظر الهمذاني لا قيمة لها، وفي ذلك يقول: "وقد رابني إعراضه صفحا، أفجدّا قصد أم مزحا، ولو التبس القلبان حقّ التباسهما ما وجد الشيطان بينهما مساعا...، وإن محبة تكتمل شكّا لأجدر محبة ألا تشترى بحبة"(١).

كتب القاسم بن يوسف(٢) رسالة إلى صديق له، كان قد أتى مكروها، فجازاه وعاقبه عليه، فما كان من هذا الصديق إلا أن عذل ابنَ يوسف ولامه، وحين وصل كتاب العذل، أنشأ يعاتب صديقه، ويبين له قبح ما جنى في الأولى والآخرة، وأنه قد أساء الأدب حين عذل، غير مكترث بما اقترف في الأولى، إذ لم يكلف نفسه اعتذاراً يُصلح ما كان بينهما، مما حمل به ابن يوسف عليه كما يبدو في قوله: "ظلمتَ – أعزّك الله – وما أنصفتَ، وأسأتَ وما أحسنتَ، تأتي ذلك اختياراً، ولا تتبعه اعتذاراً، حتى إذا لُذِعْتَ بلظى المكافأة وسُلِكَ بك طريق المُجَازاة، جعلتَ ذلك لنا ذنبا، وألزمْتَنا له عَتْبا، ومن لم يعرف قبيحَ ما يُبلى، لم يعرف حَسَن ما يُولِى."(٣)

ويطلب الخوارزمي عفو صديقه لذنب كان قد اقترفه، ولم يصرح به في رسالته هذه، مما دفع صديقه هذا إلى أن أطال عتابه، وكثرت كتبه إليه، ويحاول الخوارزمي في هذه الرسالة جاهداً أن يستدر عطف صديقه، مذكراً إياه بما يكون عليه أهل الكرم والعفو من اغتفار ذنوب الصديق، والتجاوز عن هفواته، وهو إذ يطلب عفو صاحبه يذكر له ما حل به حين غضب عليه، وأنزله منزلاً لا يليق به، وأنه قد جعل حياته ومماته بيد صديقه، فلا يسرف به، ولذلك يقول له طالباً عفوه ووصله: "فلْيُذِقْني حَلاوةَ رضاه عنّي، كما أذاقني مَرارة انتقامه منّي، ولْتلحْ على حالي غرّة عفوه كما لاحت عليها مواسم غضبه وسطوه، وليَعْلَم أنّ الحرّ كريم الظّفر، إذا أنال أقال، وأن اللئيم لئيم الظّفر، إذا نال استطال، وليغتنم التجاوزَ عن عثرات الأحرار، ولينتهز فُرَصَ الاقتدار."(٤) ثم أخذ يذكر صاحبه بنعم الله عليه، ومنها ما له علاقة بطلبه العفو والتسامح، ولذا ينبغي على صديقه أن يحمد الله الذي "أقامه مقام من يُرتجى ويُخشى، وركب نصابه في

---

(١) الحصري، زهر الآداب ، ج٣، ص٢١٣.
(٢) القاسم بن يوسف وهو أخو أحمد بن يوسف، كان شاعرا، ذكره ابن النديم من الكتاب المترسلين، ص١٣٦.
(٣) الصولي، الأوراق، ج١، ص٢٠٦، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٥٧.
(٤) الخوارزمي، رسائله، ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رتبة شاب الزمان، ومجدها فتيّ، وأخلقَ العالمُ وذكرها طريّ، فجعله في الميلاد كريمَها وسليلها، وفي الرتبة قدوتَها وجليلها، وليعتقد أنه قد هابه من استترَ، ولم يذنب إليه من اعتذرَ."[١]

وحقيق بالصديق ألا يسيء الظن بصديقه، وأن يتصف بالتروي، وضبط النفس كي لا يقع في الخطأ، الذي يؤدي إلى ظلم الصديق وهجره، ومن ثم إلى حدوث ما يشبه تقريع النفس، ولومها إن اكتشفت بطلان ما ذهبت إليه من ظنون لا أساس لها من الصحة.

وهذا أبو الربيع، محمد بن الليث[٢] يعاتب صديقاً له، مقرّعاً إياه على إساءته الظن بمن وثق به، وسلّم أمره وقياد نفسه، وهو إذ يعاتبه ينصحه ألا يقدم على أمر، ويصدر حكماً قبل التروي، وإحكام الدين والعقل في ذلك، منبهاً إيّاه إلى ضرورة ألا يصدر حكماً على الآخرين، لمجرد ظنون توحي بما تكنه القلوب من الذنوب، فيقول: "كيف يسعك أن تأخذني بظن، لو كنت فيه على حقيقة علم لما أوسعك أخذي، ولا عقابي عليه، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سويداء القلب، واسعة لك في حُكم الرّبّ، لكان فيما حَجَبتْ الغيوبُ من العمل ما ينتقلُ في القلوب التي لا تثبتُ على حال إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تُمسك عني، وتقف حتى تعرف أيمضي رأي أم ينصرف" [٣]

وهذه رسالة للأستاذ الرئيس ابن العميد يعاتب فيها صديقاً له، كان قد أذنب في حقه، بما يشبه الغلول والخيانة، والخلاف من المعصية، وقد ظهر ابن العميد، في كتابه الموجه إلى صديقه، في صورة الصديق، الذي يتصف بالأناة، والحلم، وتحكيم العقل لا العاطفة، فهو يصارح صديقه بجرمه، ويبين له أن أدنى ما ارتكبه يحبط عمله، فكيف إذا اجتمعت ذنوبه معاً؟ وهذا الأمر جعل ابن العميد متردداً، حائراً، يكاد لا يهتدي إلى الطريق التي يعامل بها صاحبه، ولذلك يقول: "وقفت بين ميل إليك، وميل عليك: أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك، ضنّاً بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك." [٤]

وما سبب حيرة ابن العميد وتردده، إلا لإيمانه بفيئة صاحبه، وانعطافه، ورجوعه عن ذنبه رجوعاً جميلاً، وهذه نظرة تفاؤل تدفعه ليكون حذراً في التعامل معه، يشفعها بحسن ظنه بصديقه الذي سيثوب إلى رشده، وسيصحو من غفلته، ليدرك حقيقة ما صنع وقبحه، ولذا يقول:

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص٥٧.

(٢) أبو الربيع محمد بن الليث، كتب ليحيى بن خالد، وله لاء ببني أميّة، ويعرف بالفقيه، وكان بليغاً، مترسلاً، كاتباً، فقيهاً، متكلماً، بارعاً، وكان واعظاً في رسائله، ويتصل في نسبه بدارا بن دارا الملك، وله رسائل مجموعة. الفهرست، ص١٣٤.

(٣) ابن طيفور، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٧٥، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٨٥- ١٨٦.

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، ص١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"سأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن. طمعا في إنابتك وتحكيما لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك، واستدراجا لك." (١)

وقد ينحى العتاب بين الأصدقاء منحى مختلفا، ويشهد تغييرا وتحولا ملحوظا يشبه تحول الأصدقاء، وتغير أحوالهم، وأمورهم مما قد يوقع بينهما عتابا أشبه ما يكون بالهجاء المقذع، إلى درجة قد يذهب معها كل قارئ ومتصفح للرسائل المختصة في هذا الموضوع مذهب عزلها، وتصنيفها ضمن الرسائل بين الأعداء لا الأصدقاء، وما ذاك إلا لحدّة العتاب، وشدة التقريع اللذين يبلغان مبلغ الهجاء المقذع، ولا يكون هذا الأمر، ولا يبلغ العتاب هذا المبلغ إلا بعدما يظن الأصدقاء ألا تلاقيا، وأن الشعور باليأس أخذ يدبّ في أوصالهم، إذ لا رجعة لروابط الود، ولا أمل في إصلاح ما فسد بينهم، وفي هذه الحالة يكون الجرم عظيما، والذنب غير مغفور، إذ لا ينفع معه تسامح ولا صفح أو تجاوز.

ويقف الباحث عن رسالة "ابن العميد" إلى صديقه "أبي عبدالله الطبري"، وهو يظهر فيها معاتبا صديقه عتابا شديد اللهجة، محاولا بذلك التقليل من قدره، والسخرية من شخصه، ذاكرا الدهر الذي ما عهده الناس إلا مغيّرا للأحوال، ومبدّلا للأبدال: "أعتقني من مخالتك عِتقا لا تستحقّ به ولاءً، وأبرأني من عهدتك براءةً لا تستوجب معها دَرَكا ولا استثناء، ونزع من عُنقي ربقة الذلّ في إخائك بيَديْ جفائك، ورشّ ما كان يحتدِم في ضميري من نيران الشوق ماء السلوّ، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلأم فُطورها بجميل الصبر وشَعَبَ أفلاذ كبدي فلاحم صُدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوّض نفسي من النِزاع إليك نُزُوعا عنك ومن الذهاب فيك، رُجُوعا دونك."(٢)

ويبدو أن ما أوصل ابن العميد إلى هذه الحالة من نبذ أخوة الطبري، وحل عقد الصداقة بينهما، ما اكتشفه مؤخرا في شخصية صاحبه، وكأنه بهذا الاكتشاف قد خرج من الظلمات إلى النور، وكشف عن عيونه غيابات ما سدله الشك دون نظره "وحتى حدر النقاب عن صفحات شيَمك، وسَفَر عن وجوه خليفتك."(٣) وعندما تفحص أمره، وأدرك حقيقته تبين له أن صديقه هذا لا يصلح للارتباط بروابط الأخوة والصداقة، الأمر الذي جعل "ابن العميد" يقول حين اكتشف

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، ص١٩٣.
(٢) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٢٦٣- ٢٦٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حقيقة أخلاقه: "فوليتُ منها فِرارا، ومُلئتُ رُعبا، فاذهبْ فقد ألقيتُ حبلك على غَاربه، ورددتُ إليك ذميما عهدك." (١)

وهذا – ابن العميد– في رسالة أخرى، لم يعد يحتمل قطيعة الطّبري وهجره، وما ذاك نقصا فيما يتصف به ابن العميد من الحلم والتجاوز عن هفوات الصديق، ولكنه يبين لصديقه أنه ما عاد لديه طاقة احتمال لذلك، فقد طفح كيله، وأراد أن "يَنْفُثَ بعض ما به، ويُخفف الشكوى من أوصابه، ولو بقيتْ في التصبّر بقية لسكتُّ، ولو وجدتُ في أثناء وَجْدي مخرجة يتحللها تَجَلّدٌ لأمسكت." (٢) ولكن جفاء الصديق وظلمه المتواصل بلا انقطاع، وقبيح فعله فيما يأتي "من هجر يستمر على نسق، وصدٌ مطّرد متّسق، ما لو فُضّ على الورى، وأفيض على البشر لامتلأت صدورهم(٣)، فكيف يقوى ابن العميد وحده على تحمل هذا كله؟ ولذا غدا احتماله جفاء، وحلمه هباء، وكيف يشكو الدهر لما حلّ به من صديقه، والدهر حليفه ومساعده على ذلك، وفيهما يقول: "فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لِبَان، وفي استبطاء مركب العقوق شريكي عنان، فإنه قاصر عنك في دقائق مخترعة، أنت فيها نسيجُ وحدك، وقاعد مما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنت فيها وحيد عصرك، أنتما متفقان في ظاهر يَسُرُّ الناظر، وباطن يسوء الخابر، وفي تبديل الأبدال، والتحوّل حال إلى حال، وفي بثّ حبائل الزُّور،ونَصْب أشراك الغُرور، وفي خُلف الموعود، والرُّجوع في الموهوب، وفي فظاعة اهتِضَام ما يعير، وشناعة ارتجاع ما يمنح" (٤)

وقد أطال ابن العميد في عقد مقابلة بين صديقه والدهر، فيما يجتمعان عليه من الإساءة بالإنسان، وإيقاع الضرر به، على أن صاحبه –كما يبين– في الرسالة يفوق الدهر في أشياء كثيرة، وكأن الدهر قد تتلمذ على يديه، ونهل من ينبوع علمه.

ويبدو في هذه الرسالة أن الأمر الذي كان سببا في شن الهجوم السابق على الطبري، وما عاتبه به صديقه ابن العميد، ما عرف عن الطبري استخفافه بالصداقة، وبكل ما يرتبط به، كالمكاتبات، وكان ذلك حين كاتبه ابن العميد يستعطفه على الصلة، ويستعفيه من الهجر، ويذكره من أمر المودة بينهما ما نسي، محاولاً بذلك وصف حاله، وما وصلت إليه أحواله من لوعة الفراق، الذي أضرم في صدره حرقة البعاد، وبعد هذا كله يستقبل الطبري كتابه بالنكران والاستهزاء، والاستخفاف، مما دفع بابن العميد إلى إنكار صنيعه، وشنّ هجومه عليه، محاولاً بذلك النيل منه، والمساس بكرامته(٥).

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٥.
(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم أخذ ابن العميد يطعن في دعواه في العلم، ويبين له أن من يستأنس بأقوالهم وأفكارهم مثل أفلاطون وأرسطاطاليس، ورؤساء أدباء العربية، وشيوخ النحو وغيرهم، لم يكونوا يوما إلا داعين لوصل الصديق، والحفاظ على ودّه ودوام عهده، ونبذ العقوق كائنا ما كان، لما فيه من قبح الخلق الداعي إلى الهجر والقطيعة بين المتصادقين[١].

ثم عاد ثانية ليطعن في صداقته، ويصبّ عليه نار كلماته، واصفا إياه بصفات يندى لها الجبين، وينفر منها المتصادقون، وكلما برع ابن العميد في رسم هذه الصورة الأخلاقية المنقرة، كلما ازداد الهجاء حدّة، وانبرت سهام العتاب لتصيب مقتلا في صاحبه، لذا يرى المتصفح لهذا الوصف مبالغة تخدم الحالة الشعورية المحبطة التي يعانيها منشئ هذه الرسالة.

فيقول له: "وأنت لو تتوجت بالثّريا، وقلّدت قلادة الفلك، وتمنطقت بمنطقة الجوزاء، وتوشّحتَ بالمجرّة لم تكن إلا عُطّلا، ولو توشّحْتَ بأنوار الربيع الزّاهر، وسرّجت جبينك غرّة البدر الباهر، ما كنت إلا عُطّلاً، سيما مع قلّة وفائك، وضعف إخائك، وظلمة ما تتصرف فيه من خصالك، وتراكم الدّجى على ضلالك."[٢]

وقد جعلته صفات صديقه، وما وسمه به من قبح الأخلاق يشعر بالأسف، والندم على ما منحه من الود، وما أفنى عمره فيه فيقول: "وقد ندمت على ما أعرتُك مِن وُدّي، ولكن أيّ ساعة مَنْدَم، بعد إفناء الزمان في ابتلائك، وتصفحي حالات الدّهر في اختيارك، وبعد تضييع ما غرسته، ونقض ما أسّسته، فإن الوداد غَرْسٌ إذا لم يوافق ثرىً ثريّا، وجوّا غذيّا، وماء رويّا، لم يُرْج زكاؤه، ولم يجر نماؤه، ولم تفتّح أزهاره"[٣].

ويختم الباحث فصل العتاب بين الأصدقاء، بابن العميد في هذه الرسالة التي يعاتب فيها صديقا تعالى عليه، وتحوّل عنه، وقد ذكّره تحول صديقه بتحوّل صروف الدهر وأيامه، ولذا بدأ رسالته بمقدّمة يشكو فيها الدّهر، وقد طالت هذه المقدمة حتى بلغت نصف الرسالة تقريبا، وهو إذ يشكو غدر الدهر وخيانته وخداعه، وإنه "لا يَمْنَح ما يمنح إلا ريثما يَنْتَزع يبدو خيره لَمَعًا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع"[٤] إنما يشكو به صاحبا، وثق به، وركن إليه، فخان وغدر به، وأعان الدهر وظاهره عليه، ثم بعد ذلك أعرض عنه إعراض غير مُراجع، واطرّحه اطّراح غير مُجامل، الأمر الذي دفع بابن العميد إلى الظن بنفسه، حين حسبها لا تستحق من أخيه وفاء ولا وصلا، وأنه ليس أهلا للجميل، ولذا وجد من صاحبه عقوقا، وإعراضا وحين أيقن ابن

---

(١) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٧.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العميد حقيقة نفسه، وأنه غير ما يحسب ويظن، أخذ يسأل صاحبه: "ما هذا التغالي بنفسك، والتعالى على صديقك، ولم نبذتني نبذ النّواة، وطرحتني طرح القذاة؟ ولم تلفظني من فيك، وتمجُّني من خلقك؟ وأنا الحلال الحلو، والبارد العذب."(١)

ورغم هذا التعالي، وذلك الإعراض من الصديق، والتخلف عن مكاتبته صديقه، والسؤال عن حاله، حتى أشغلته نفسه، فلم يعد قادرا على مخاطبة من صادق، واستحضار صورة من صاحب، فقد لحى النسيان صورة صديقه ابن عباد من صدره، واسمه من صحيفة حفظه، فرغم ما ذكر مجتمعا إلا أن "ابن عباد" لا يزال يطمح إلى لقاء صاحبه، وتجدد الوصل معه، إيمانا منه بإمكانية بحدوث التغيير، فهو يطمع في وصل صديقه، وإن تولى عنه، فليس غريبا أن يتفجر الصّخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى من صديقه قلبا، "فيعود إلى الوصال، وآخر ما أقوله أن ودّي وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضّا، طريا، فجرّبه في المعاودة، فإنه في العود أحمد." (٢)

(١) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٣٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدراسة الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ) البناء الفني:

يتناول هذا الفصل دراسة أبرز الخصائص الفنية التي اتسم بها النثر العباسي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، فيما يتعلق بموضوع "الصداقة والصديق".

وبما أن أغلب الاعتماد قد تمحور حول الرسائل الإخوانية التي تبادلها الأصدقاء فيما بينهم، في شتى الموضوعات، ومختلف المجالات، فإن الدراسة الفنية ستتركز حول هذه النصوص، باعتبارها المحور الرئيس لكشف حقيقة الظاهرة، فضلا عما تتسم به من تكامل البناء، حيث إنّ الرسالة تؤسس على مقدمة وعرض وخاتمة.

إن كان تكامل الشكل البنائي للرسالة أحد الأسباب الداعية لدراستها فنياً، فهذا الأمر، وهذه الميزة لا تنساب على جميع الرسائل الإخوانية، وذلك لافتقار بعضها للأجزاء، والمكونات التي تقوم عليها الرسالة عادة، إذ إن الرسالة –كما سنرى – لم تكن لتأخذ شكلا موحّداً، كما هو الحال في الرسائل السياسيّة، بفعل صلتها الوثيقة بالدواوين، مما جعل منشؤوها يلتزمون بهيكلها وبنائها، ولذا يمكن القول إن الرسائل الإخوانية كانت أكثر تحرّيراً من قيود الشكل من غيرها، والمتصفح للرسائل الإخوانية التي أنشئت في العصر العباسي يلحظ تفاوتاً بينها من حيث الالتزام بالأجزاء الرئيسة، ونعني بها: المقدمة والعرض والخاتمة، ومن حيث التحرّر من بعض هذه الأجزاء، ولذا يعنى الباحث بدراسة هذه الرسائل مبيناً مدى هذا الالتزام، وذاك التحرّر، مبرزاً العناصر المكونة لمقدمات الرسائل إن وجدت، والأسلوب الذي جاءت عليه هذه المقدمات.

المقدّمة:

لا يخفى على ذي لب الدور الجسيم الذي تقوم به مقدمة الرسالة عادة، ولذا نرى عناية بارزة من العباسيين بمقدمات رسائلهم، إيماناً منهم بأهمية هذه المقدمة، وقيمتها المتمثلة في تهيئة المخاطب لما سيلقى عليه، وإعداده إعداداً حسناً يجعله يستقبل الرسالة وفي ذهنه شيء من موضوعها، خاصة أن المقدمة يركز فيها على ما يتصل بموضوع الرسالة، لوضع المخاطب في جوها، فيكون انتقاله إلى العرض انتقالاً لطيفا لا غرابة فيه، ولا انقطاع، فالمقدمة هنا أشبه ما تكون باللبنة الأساسية في شكل الرسالة الفني، فهي تأخذ بيد القارئ، ليعبر إلى صُلب الرسالة عبوراً يحقق الغاية المأمولة التي ابتدع الكتاب المقدمة من أجلها، ولذا فهي تخلق للمخاطب جوّاً نفسياً تجعله قادراً على فهم الرسالة بعمق، وتحدث في نفسه أثراً كبيراً، أعظم شأناً مما لو تُركتْ وكان الدخول إلى صلب الموضوع دخولاً مباشراً، إلا ما تقتضيه طبيعة الموقف، وموضوع الرسالة – كما سنرى– لاحقاً ومن هذه الرسائل التي قدمت لموضوعها، رسالة "غسان بن عبد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحميد" في التعزية، والمتصفح لها يلحظ بدء "غسان" بمقدمة، عرض فيها لموضوع الموت والمقادير وتصرف الله عز وجل فيها، فهي بيده، ولا سلطة لأحدٍ عليها، "فالعباد في قبضته، وليس عبد من عبيده إلا وقد كان عمره في الدنيا موظوفا قبل خلقه، وكان ما يصيبه منها مكتوبا عليه قبل أن ينزل به"(١). وهو إذ يهدف من هذه الرسالة إلى تعزية صديقه، وتخفيف مصابه، وتقديم واجب العزاء له، ليسلّي عنه، يعلم ما في هذه المقدمة من تأثير في نفس صاحبه، وتجديد لإيمانه بأن كل ما يصب الإنسان مقدّر عليه، ولا مهرب منه.

وهذا "الهمذاني" يقدم لرسالته بحديث عام عن المودة وأسرارها، وأنها غيب لا يمكن للمرء أن يطّلع عليه، إلا أن تظهر حاله ما يكنّه في صدره، وهو بهذه المقدمة يمهد لعتابه الذي حمل به على صديقه الذي زعم فتور المودة بينهما.(٢)

وقد يستهلّ الكاتب رسالته بمقدمة تضم دعاء يسبق الموضوع التمهيدي، كما فعل الجاحظ في رسالته التي استعطف فيها صديقا، فبدأ بالدعاء له، ثم أخذ يطرح موضوع الذنب ومدى استحقاقه للعقوبة، وهو موضوع يتصل بصلب الرسالة اتصالاً وثيقاً.(٣)

ورسالة أحمد بن أبي طاهر، "لأبي علي البصير" التي بدأها بعد الدعاء لصديقه بأقوال عامة تُهيئ صديقه لقبول عتابة على مؤاخاة "ابن مكرّم"، وقد جاءت المقدمة تحمل في ثناياها ما دار العتاب حوله، من الأخلاق التي يجب على المرء أن يتحراها فيمن يصادق.(٤)

وقد يتنوع الدعاء، ويطول كما في دعاء ابن طاهر(٥)، وقد يقصر معتمداً على ما يمكن تسميته بالدعاء الاعتراضي، أو الجمل الاعتراضية الدعائية، التي أخذت أشكالاً متعددة في الرسائل الإخوانية مثل: أعزك الله(٦) أو أعزك الله تعالى(٧)، وما يقرب من هذه العبارة من التأييد، الذي قد يأتي بصيغة المخاطب، كقولهم: أيدك الله(٨)" أو بصيغة الغائب كقول الهمذاني يعاتب الدهجداني:"أيد الله الدّهجداني"(٩)، وقول ابن المعتز في خطابه للوزير، بما يتناسب وموضوع رسالته:"عِلْمُ الوزير –أيّده اللهُ– بذخائر الأمر يُغْني عن تعزيته فيه، وسبقه إلى الصبر

---

(١) ابن طيفور ، اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٢٣ نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ١٤٩-١٥٠.
(٢) الهمذاني، رسائله، ص ٢٣٤
(٣) ابن نباتة المصري، سرح العيون، ص١٧٦.
(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٢٣، نقلاعن: جمهرة رسائل العرب ، ج٤، ص٣٤٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٤٧
(٦) المصدر نفسه،ج٣، ص ٤٥٥، ٤٥٧. وج٤، ص٣٧ ، ٤٨. الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٣٤.الهمذاني،رسائله،ص٢٦٢.
(٧) الحصري، زهر الاداب، ج٤، ص١٤٢.
(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢١٤
(٩) رسائله، ص٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكفيني تذكرة به، لكن لوليّ الوزير -أيده الله- موضع"[١]، وهنا يبرز الشاهد تكرار الجمل الاعتراضية التي تحمل الدعاء في ثناياها. وقد تأتي الجمل الاعتراضية الدعائية، تحمل معنى الفِدَاء وإطالة العمر، والبقاء الذي تكون فيه سعادة صاحب الدعاء، وسعادة صاحب الرسالة.

وقد تتنوع هذه الجمل بتنوع أفعالها، وأشيع هذه الصيغ، وأكثرها تداولاً بين الكتاب: "أطال الله بقاءك" و"جعلني فداءك"[٢]، والناظر هنا يلحظ ورود المفعول به مباشرة عقب الفاعل "الله"، وقد يتأخر المفعول به" بما يسبقه من ورود شبه الجملة من الجار والمجرور، والمعطوفات، كقولهم: "جعلني الله من السوء والمكروه فداءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك، وهذا دعاء يتناسب وموضوع العزل الذي لحق بالصديق.[٣] وكقول أحدهم وقد قطع أخاه، وجفاه، فعاتبه في ذلك:" أطال الله بقاءك، كما أطال جفاءك، وجعلني الله فداءك."[٤]، ومما يلحظ على "الهمذاني" استخدامه صيغة الغائب في توجيه دعائه، كأن يقول:الأمير-أطال الله بقاءه[٥]، وقوله: " بلغني – أطال الله بقاء الشيخ"[٦] وعادة تسبق هذه الجملة الاعتراضية التمهيد الذي يسوقه الكاتب قبل دخوله في صلب الموضوع.

وقد تقصر المقدمة، ويركز فيها على تذكير المخاطب بفضل الأمر الذي يطلب منه تحقيقه، كأن يطلب منه قضاء حاجة لصديق ما، فيكتب له صديقه مبيناً له فضل قضاء الحوائج للإخوان، وما قد يحقق من الشكر المتبادل بينهما[٧]، أو يذكره بفضل وصل الإخوان ومكاتبتهم[٨]، أو كأن يحدثه حديثا عاما موجزاً عن فضل الكتابة، خاصة في رسائل إهداء الأقلام أو غيرها[٩].

وقد تبدأ مقدمات الرسائل الإخوانية بأبيات من الشعر يوشّح بها الكاتب رسالته، ويتخير لها من الشعر ما يناسب موضوع الرسالة، كالهمذاني الذي بدأ رسالته ببيتي "كثير عزة" الداعيين إلى نبذ الوشاة، ورفض تصديق أقوالهم، للدور الذي يقومون به من الإفساد، وتدمير العلاقات

---

(١) رسائل ابن المعتز، ص ٤٨

(٢) انظر في ذلك: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص ٥٠٦.و ج٤،ص ٢٨٦، ٤٠٨. والحصري، زهر الآداب، ج٢،ص١٩٧، ٣٠١.و ج٣، ص٣٠ والهمذاني، رسائله، ص٩٧، ١٤٥، ٢٣٤. والصاحب بن عباد، رسائله، ص ١٥٤، ١٥٧. والخوارزمي، رسائله، ص ٥٧ وفيها : " أبقى الله الشيخ".

(٣) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٠١،نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ٢٨٦.

(٤) الصولي، أدب الكتاب، ص١٥٣.

(٥) رسائله، ص٩٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٧

(٧) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٩٢، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٠

(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٣٦

(٩) العقد الفريد، ج٢، ص١٨٣، الطبعة الأزهرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحميمة بين الناس، وحين كان موضوع الهمذاني معاتبة صديق أرخى أذنيه للوشاة، لزمه أن يستشهد بهما فيقول:

ويا عزّ إنْ واشٍ وشَى بي عندكم فلا تُمهليــه أن تقولي لــه مَهْلا

كما لو وشى واشٍ بعزة عندنــا لقلنا: تزحزحْ لا قريبا، ولا أهلا[١]»[٢]

وكذا حال الخوارزمي في البدء بشعر يجعله مقدمة تمهيدية لموضوع رسالته.[٣]

وقد يتحرّر بعض الكتاب العباسيين من المقدمة، خاصة في الموضوعات التي لا تتحمل تمهيداً، نظراً للإيجاز الذي وسمت به، فالكاتب يرى أن من المناسب له أن يدخل دخولا مباشرا دون مقدمات، فيقدم شكواه، أو أن يعرض اعتذاره، وقد لوحظ على كثير من رسائل الاعتذار بين الأصدقاء جريانها على هذا النسق[٤]. وكذا حال رسائل الشفاعة[٥]، ورسائل الدعوة والاستزارة بين الأصدقاء.[٦]

أما فيما يتعلق بأجزاء المقدمة التي عرفت وتمثلت في كثير من الرسائل السياسية والأدبية، والتزمها بعض الكتاب، وتحرر منها آخرون، كالتحية، والحمدلة، والصلاة على النبي عليه السلام، والتخلّص، فإنه يمكن للمتتبع للرسائل الإخوانية أن يلحظ افتقار معظم الرسائل لهذه الأجزاء، وإن وردت فإنها ترد على نحو غير متسق، وإنما وفقا لميول الكتاب وأهوائهم، ولذا صعب تتبع هذه الأجزاء، ورسم معالم محددة لها، يمكن اعتبارها قوالب ثابتة، سار الكتاب على نهجها، والأمر غير ذلك، فقد راوح الكتاب فيما يتعلق بموضوع الصداقة والصديق، عبر الرسائل الإخوانية بين تناولهم لهذه الأجزاء، واستخدامها في كتاباتهم الإخوانية وتركها.

ومثال ذلك "البسملة" التي جرت عادة الكتاب على افتتاح رسائلهم بها، وحين تستقرئ الرسائل الاخوانية تجد أن بعض الكتاب مثل البشر البلوي يلتزم بالبسملة في بعض رسائله تارة[٧]، ويتحرر منها تارة أخرى[٨]. والناظر في موقع البسملة، حين كانت ترد، يلحظ ورودها في البدء، فلا يتقدمها كلام آخر، ولذا تُعدّ أول العناصر البنائية التي تواجه القارئ، وعلى خلاف ما ذكره النقاد من وجوب أيراد البسملة في سطر واحد، تبجيلا لاسم الله تعالى، وإعظاما،

---

(١) كثير عزّة، ابن عبد الرحمن بن أبي جمعة الخزاعي، (ت١٠٥هـ). الديوان، (تحقيق: إحسان عباس) دار الثقافة، بيروت،١٩٧١م، ص٧٦.

(٢) الهمذاني، رسائله، ص١٥٧.

(٣) رسائله، ص ٥٧، ١٠١

(٤) انظر:صفوت،جمهرة رسائل العرب، ج٣،ص٤٤٤،١٧٢،وج٤،ص١٤، ١٤٤، ١٦٦، ٣٠١، ٣٣١. وابن المعتز،رسائله، ص٥٤.

(٥) صفوت، جمهرة رسائل العرب،ج٣، ص ٤٣١، وج٤، ص١٧٩، ٣٠٣. والثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٤.

(٦) صفوت، جمهرة رسائل العرب،ج٣،ص٤٥٧. والحصري، زهر الآداب، ج٢، ص١٨٥.

(٧) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٤

(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٠١-٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوقيرا له جلّ جلاله[١] نلحظ إدراجها مع ما جاورها من كلام في سطر واحد ، من ذلك ما جاء في رسالة البلوي يعاتب فيها صديقا له يقول:

" بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإنه مهما اختلط علي من عقلي، واشتبه علي من رأيي، وشككت فيه من أمري"[٢]، وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بعبث بعض النساخ القدامى في شكل هذه العناصر وترتيبها، إذ كان بعضهم لا يعبأ بإثبات بسملات الرسائل وحمدلاتها والأدعية والواردة في صدرها تخففا من النسخ، وميلا إلى الاختصار. وقد أدى هذا الأمر إلى ضياع عناصر مهمة من عناصر المقدمة في كثير من الرسائل، حتى بات الدارسون يعتقدون أن الكتاب أنفسهم لم يعنوا بإثبات هذه العناصر[٣]. ولا ندري إن كانت هذه حجة مقنعة لغياب بعض عناصر البناء الشكلي للرسالة، أما أنها محض افتراض، لا يقوم على دليل أو إثبات ملموس، يمكن للباحثين أن يركنوا إليه، ويؤكدوا صحة ما ذهب إليه الباحث، وإذا كان الأمر كذلك، فلم لم ينسحب القول السابق على جميع الرسائل سواء أكانت ديوانية أم إخوانية أم أدبية ؟! ولم وجدت كثير من الرسائل التي لا تزال تحتفظ بعناصر هامة في كثير من مقدماتها ؟! وإذا صَدَق القول على الرسائل السياسية والأدبية ، فهل يمكن أن يصدق على الرسائل الإخوانية، التي كانت غالبا ما تحاك متحررة من قيود الشكل وفقا لظروف خاصة، يقتضيه الموقف، وطبيعة هذه العلاقة الإنسانية في المجتمع، فالصديق يلزمه مشاركة صديقه أفراحه، وأحزانه، عبر تبادل الرسائل، التي تقوم مقام الاجتماع واللقاء، ولكنها لا تغني عنهما، ولذا أخذ يركز اهتمامه على الموضوع متجاهلاً حدود الشكل، قدر ما تسمح بذلك ظروف الموقف.

ومما يلحظ على أغلب الرسائل الإخوانية التي استقرأها الباحث التحرر من أجزاء المقدمة كالتحية، والحمدلة، والصلاة على النبي –عليه السلام– والتخلص الذي به يشعر الكاتب المخاطب بالدخول في صلب الموضوع، ليس هذا فحسب بل تجاوز الأمر إلى عدم التقيد بترتيب معين لهذه الأجزاء إن وجدت، ويقصد بالترتيب ما تعارف عليه كتاب الرسائل من وقوع التحية مباشرة بعد السلام، ثم يتبعون ذلك الحمدلة واقترانها بالصلاة على نبي الله –عليه الصلاة والسلام– إلى أن يُهيئ المخاطب للدخول في الموضوع، وذلك حين يستخدم بعض الكلمات أو التعابير التي تدل على تخلّصه من المقدمة والتمهيد، ليدخل صلب الموضوع، وبما أن الرسائل الإخوانية لم تلتزم هذا الترتيب، ولم تنهج هذا النهج؛ لزم مواكبة هذا التبدل، وهذا التحرر.

---

(١) القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (تحقيق محمد حسين شمس)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م. ج٦، ص٢٥١.

(٢) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٤١٦،نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨.

(٣) الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث البحري، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ١٩٩٩.ص ٤٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذي ودٍّ ضَنِين بك، في غير مَقْلِيَة لك؟ ولا سَلْوَة عنك، بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالعجز عن استعطافك إلى أوان فيئتك، أو يجعل الله لنا دولة من رَمَقِك[١]

وما سبق ذكره يتعلق بتحية البدء، أما تحية الوداع فقد كانت أكثر شيوعاً من تحية البدء، وأخذت أشكالاً متنوعة تتشاكل كتحية البدء وملابسات الموقف الذي أنشِئتْ الرسالة من أجله؛ وكما تخلص بعض الكتاب من تحية البدء، كذا كان الحال مع تحية الوداع[٢] وأكثر صيغ هذه التحية شيوعاً وتداولاً بين الكتاب، صيغة "والسلام"[٣] معرفة خلاف تحية البدء التي تأتي نكرة كما أشار العسكري والقلقشندي، وقد يزاد في هذه الصيغة أحياناً لفظ "الرحمة" المضاف إلى لفظ الجلالة على هذا النحو "سلام عليك ورحمة الله. كما في رسالة جبيل بن يزيد[٤] وانظر كيف خالف "ابن يزيد" ما اتُفِقَ عليه من أيراد صيغة "السّلام" معرفة، وقد جاء بها نكرة.

ولم يقع الباحث فيما توافر لديه من نصوص على ما زاد على هذه الصيغة، وكان – أحياناً– بعض الكتاب يستخدمون صيغاً مختلفة عن المألوف، مثل الصيغة التي استخدمها الجاحظ في رسالته التي استعطف فيها صديقاً له، وقد ختمها بالتسليم على صاحبه قائلاً: "سلّمك الله وسلّم عليك"[٥].

والطريف في الأمر أن بعض الكتاب كان يجعل سلامه مشروطاً بتحقيق مطلبه، والتزام المخاطب بالصيغة المتفق عليها بينهما، كما في رسالة الهمذاني يعاتب فيها صديقاً له قد جفاه، وتعالى عليه، الأمر الذي دفع به إلى رفض التسليم على صديقه حتى يثوب عن غيّه، ويعود إلى رشده، فيقول: "فإني لا أمكنّه بعدها من أن يستهين، ولا أسلّم عليه حتى يهين"، وقد يستخدم الكاتب لفظ التحية لا معناه، كما في رسالة الصاحب بن عبّاد، التي يقول فيها مودعاً صديقه: "سقاك الله فرواك، وحياك وأحياك."[٦]

ومن استقراء الرسائل الإخوانية يلحظ أن تحية الوداع تكون آخر عهد الكاتب برسالته وبصديقه، وهو يحرص من خلالها على إبقاء خيوط الصلة معقودة بينه وبين صديقه، ولذا جاءت مختوما بها كلامه، إلا أن بعض الكتاب جعل وراءها كلاماً يذكر به المخاطب بالأمر

---

(١) ابن نباتة المصري، سرح العيون، ص١٦٨.

(٢) انظر: الخوارزمي،رسائله،٣١،١٤-٣٣، ٣٦-٣٧، ٣٨-٣٩، ٤٠، ٤١، ٥٧، ٨٦، ٨٧- ٩٠، ٩١، ١٠١، ١٠٢، ١٢٣. والهمذاني، رسائله، ٩٦-٩٨، ١٠٠-١٠٣، ١٤٥-١٥٠، ١٥٧-١٥٨، ٢٣٤- ٢٣٥. وصفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٣٩، ٤٧١، ٥٣٨-٥٣٩. وج٤، ص٣٥- ٣٦، ٣٦-٣٧، ٢٨٦- ٢٨٧، ٣٣٠،٢٨٨ – ٣٣١، ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) انظر: الحصري،زهر الآداب، ج٣، ص٢١٣.والهمذاني، رسائله، ص٢٤٥، ٢٦٢- ٢٦٤، ٣٤٤-٣٤٦.وصفوت جمرة رسائل العرب،ج٣، ص ١١٣ -١٢٠، ١٥٨ -١٥٩، ١٧٦- ١٧٧، ١٨٦- ١٨٨.

(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٢، ص٢٦٥، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب ج٣، ص ١٣٧

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٠-٥٢.

(٦) الهمذاني، رسائله، ص ٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي دعي إليه عبر طيات الرسالة، ومن ذلك رسالة أحد الأصدقاء يدعو صديقاً له لمشاركته لهوه واستمتاعه، فيقول له مودعا: "والسلام. فرأيك في أرواء غلتنا لما ينقعها، والطّول على جماعتنا بما يجمعها."[١] فكأنه رأى أن يذكّر صاحبه بلزوم الرد على دعوته، وإعلامه بالموافقة أو عدمها، وهذا ما يسمى في الرسائل بـــ"طلب الجواب".

****

لعل حاجة الرسائل الأدبية والسياسية إلى إيراد التحميد، أكثر من حاجة الرسائل الإخوانية إلى ذلك، وأظن الأمر يعود إلى طبيعة موضوعات الإخوانيات، وما تقوم عليه العلاقة بين الأصدقاء، إضافة إلى ميل كثير من الرسائل إلى الإيجاز، والتخلص من أجزاء المقدمة، والحمدلة واحدة من هذه الأجزاء، وهذا لا يمنع ورود الحمدلة في بعض رسائل الإخوان، والوضع الشائع لتحميد البدء أن يأتي بعد التحية والبعدية، ويأتي بعد البعدية مباشرة، خاصة في الرسائل التي تخلو من تحية البدء، كما هو واضح في رسالة محمد بن عبد الله بن حرب التي يقول فيها:" أما بعد، فإني أحمد الله الذي توحد بالحمد لنفسه، وجعله غاية شُكر عباده، وأوّل دعوى أهل جنّته، إذ أذهب عنهم الحَزَن، وأصارهم إلى مغفرته، وحلول دار المُقامة من فضله"[٢].

وقد يأتي التحميد قبل البعدية، كما في رسالة "ابن سيّابة" الشاعر إلى يحيى البرمكي يستعطفه، فيقول: "فإني أحمد الله ذا العزّة القدير، إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة والبركة التامة. أما بعد"[٣].

وقد يبدأ الكاتب الحمدلة مباشرة، ويستهل بها رسالته، خاصة التي تخلو من التحية والبعدية، والتي رسمت بالإنجاز، كما في رسالة "ابن المعتز" إلى الوزير عبيد الله بن سليمان يهنئه بقدومه[٤]، ورسالة الكندي حين أهدى بعض إخوانه سيفا.[٥] ومما يُلحظ على الرسالتين السالفتين أن الحمدلة فيهما قد اشتقت من صلب الموضوع، وحملت في طياتها تلك المعاني التي يريد الصديق أن يبثها صديقه عبر هذه الرسالة، "فابن المعتز يحمد الله على قدوم صاحبه، ولذا تراه يرجع الحمد إلى ما امتن الله به على الوزير، من جميل السلامة، وحسن الإيابة، وكذا الكندي فهو يختار تحميدا يناسب موضوع رسالته، وبما أن موضوعها هو الإهداء. أخذ يصف

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٢ ص ١٨٦.
(٢) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٩٩، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ١٨٦- ١٨٨.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص٦، نسخة دار الفكر.
(٤) ابن المعتز، رسائله،ص٢٨٨.
(٥) الحصري، زهر الأداب، ج٣، ص ٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهدية بصفات جعل يفرغها على صاحبه، ولا ينسى أن يحمد الله في مستهلّ رسالته على ما خص الله به صديقه، مما وصف به هذا السيف. لذا يقول:" الحمد لله الذي خَصَّك بمنافع كمنافع ما أهديت".

وأما ابن سيّابة فإنه جعل حمده لله بما يتناسب وحاله، فهو يستعطف صديقه يحيى البرمكي، وهذا افتتاح قد يُصرف النظر فيه إلى ما يكون عليه الإنسان من الضعف والتذلل وهوان النفس، وهو بحاجة ماسّة إلى الرحمة، والعطف، ولذا تراه يستهل رسالته بحمد يتوافق وهذا الموقف، فهو يختار من أسماء الله الحُسنى وصفاته العليا ما يُحدث تأثيراً في المخاطب، فيحمل نفسه على التحلي بهذه الصفات، لكي ينال رضا ربه – سبحانه وتعالى، ومن هذه الصفات: العزّة، القدرة، الرحمة العامة، البركة التامة، وكلها إشارات تلقي بظلال الرحمة على جو الرسالة.(١)

ويلاحظ على صيغ الحمدلة التنوع من حيث استخدام صيغة الفعل التي تؤكد نسبة الفعل إلى قائلة، وصيغة الاسم التي تفيد الاستغراق والاستمرار والبقاء.

ويأتي الفعل غالبا ضمن تركيب يضم حرف التوكيد (إنّ)المقترن بالفاء، مضافاً إلى ضمير المتكلم، تليه جملة الحمد "أحمد "أو يحمد " ثم لفظ "الجلالة "، ثم الجار والمجرور في صورة المخاطب المفرد " إليك "، أو الجمع "إليكم".

وأخذ الكتاب يبسطون في التحميدات بسطا يخرجها عن صورتها النمطية " فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو"(٢) إلى كثير من صفات الله –عز وجل– كالخلق والرزق والقدرة والعظمة وغيرها، بما يتناسب وسياق الرسالة، وموضوعها كما مرّ سابقاً، ورسالة "محمد بن عبدالله بن حرب" التي استُشهد بها سابقاً خير شاهد على ما ذهبنا إليه من بسط الحمدلة.(٣) أو هم –أي الكتاب– في كل ذلك البسط يعتمدون على توظيف المعاني القرآنية،لا سيما فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

ولا بد من الإشارة إلى ورود الحمدلة في غير موقع من الرسالة، إذ الأمر لا يقتصر على حمدلة البدء، فمن الكتاب من جعل حمدلة في وسط الرسالة، كما يظهر في رسالة "ميمون ابن إبراهيم" إلى "الحسن بن وهب"، يعزيه عن أمه(٤)، ويبدو أن موضوع التعزية، وما يغلب عليه من ظلال الإيمان بالله، و التسليم بقضائه، وحمده على نعمائه، يتطلب من الكاتب أحياناً تكرار الحمد حين تقتضي الضرورة ذلك.

---

(١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص ١٧١-١٧٢.
(٢) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص٤٨٠.
(٣) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ١٩٩، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص ١٨٦– ١٨٨
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥– ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يختم الكاتب بها رسالته، فتسمى حينئذٍ "حمدلة الختام"، ويمكن هنا التعريج على صنفين منها، ورد الأول في رسالة للهمذاني، يعاتب فيها صديقاً له، قد أنكره، ورأى نفسه فوق صاحبه، والهمذاني في هذه الرسالة يورد بعد صيغة "الحمدلة " تمام التحميدة، لتشكل الآية الثانية من سورة الفاتحة (الحمدُ لله ربّ العالمين)[١]، أما الصيغة الثانية، التي أخذت نمط التوسّع والبسط الذي أشير إليه سابقا، فقد ورد في رسالة "أبي العيناء" إلى أبي الصقر، وهو فيها يحمد الله الذي أملك صديقه ما ينعم به من سلطة، ومنزلة شريفة، فيقول:"فالحمد لله الذي جعل لك اليد الغالبة والرتبة الشريفة."[٢]

والصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– جزء من مقدمات الرسائل، وهي متصلة إلى حد ما بالحمدلة، لذا وجد الباحث لزاما عليه أن يتتبعها في الرسائل الإخوانية، محاولاً بذلك تبين مواقعها وصيغها، والأثر الذي كانت تتركه في النفس، إذ يبين هذا الأمر الدافع الذي من أجله ساقها الكتاب في رسائلهم، ويبدو أن من التأمل في النزر اليسير من الرسائل التي التزمت الصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– اطّراد مجيء هذا العنصر البنائي بعد تحميد البدء[٣] نظراً للرابطة القوية بين هذين التركيبين، وفي ذلك يقول القلقشندي: "فإذا أُتي بالحمد في أول كتاب، ناسب أن يؤتى بالصلاة على النبي– صلى الله عليه وسلم– في أولّه، إتياناً بذكره بعد الله تعالى."[٤]

والكاتب إذ يفعل ذاك فإنه ينشد اليُمن والبركة بذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– والصلاة عليه، استجابة لأمر الله تعالى في قوله: (إنّ الله وملائكته يُصلّون على النّبي، يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما).[٥]

وقد تتنوع صيغ الصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– وفق ما يتناسب والمقام في الرسالة، والموقف الذي صيغت من أجله، ومن هذه الصيّغ ما يبدأ بالفعل، كما يتضح في رسالة "أبي علي البصير" إلى "أبي العيناء"، معاتبا له[٦]، وتُبرز هذه الصيغة الصلاة على محمد –صلى الله عليه وسلم. وحده فهو يخصّه دون غيره بالصّلاة، ويُراد بغيره مَنْ عَطفَ عليهم الصلاة والتسليم من آل محمد وصحبة الكرام، ومن الصيغ أيضا ما يبدأ بالاسم، كما في رسالة "محمد بن عبد الله بن حرب"، وفيها يقول:"... وأتبع ذلك الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) الهمذاني،رسائله، ص ٢٦٤- ٢٦٦.
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص ٢٣٤.
(٣) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ١٩٩، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص ١٨٦.
(٤) صبح الأعشى، ج٦، ص٢١٨.
(٥) الأحزاب، اية رقم (٥٦).
(٦) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٤١٧، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسلم كثيراً"[١] وما يميّز الثانية عن الأولى عطفها التسليم على الصلاة، وخلوّ الأولى من ذلك، حيث اكتفى أبو علي البصير بالصلاة دون التسليم.

ومما لوحظ على صيغ الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم– تجاوزها إلى ذكر فضائله –عليه السلام، وما قدمه من خير لهذه الأمة، حين أخرجها من ظلمات الباطل إلى نور الحق واليقين.[٢]

ويرى الباحث أن الصلاة على النبي– صلى الله عليه وسلم، لم تكن تحتكر موقع المقدمة في الرسائل الإخوانية، إنما ورد ذكرها في موقع الختام، حيث ختمت بها رسالة "الصاحب بن عباد" إلى "ابن حجا الكوفاني"، بصيغة الجمع، الجمع بين الصلاة على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم، وعلى آله المطهرين، قائلاً: "وهو حسبي، وصلواته على النبي محمد وآله."[٣]

(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ١٩٩، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٦.
(٣) الصناعتين، ص١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التخلّص:

تأتي مقدمة الرسالة لتهيئ المخاطب ذهنيا ونفسياً للموضوع الرئيس، فلا يكون الدخول مباشراً إليه صلب الموضوع، ولذا حرص الكتاب على اشتمال هذه المقدمة من الأجزاء ما يحقق هذا الغرض، رغم تحرر كثير من الكتاب من هذه القيود، ونبذها وراء ظهورهم، ومن هذه الأجزاء التي تسبق صلب الموضوع مباشرة، تلك الصيغ التي توحي بتخلص الكاتب من المقدمة، ومباشرته الموضوع الرئيس، وأشهر هذه الصيغ كما بين العسكري، صيغة "أما بعد"(١) التي التزمها عدد لا بأس به من الكتاب، فيما يتعلق بموضوع الصداقة.(٢) ولكنّ نفراً منهم – كما بين الباحث سابقاً يتحرّر من هذا الجزء، ويدخل في الموضوع دخولاً مباشراً(٣)، ولم يتوقف الكتاب عند صيغة بعينها توحي بتخلصه من المقدمة وولوجه الموضوع الرئيس، إنما أخذوا يبتدعون وسائل جديدة، وطرق تعبير مختلفة تشعر المخاطب بذلك، كأن يقول الكاتب: كتابي(٤)، أو كبتت(٥)، أو كقول الكاتب عن عند رد الجواب: وَصَلَ(٦) أو وَرَدَ(٧) أو بلغني(٨)

وقد يشعر الكاتب المخاطب بالدخول في الموضوع، والتخلص من المقدمة باستخدام صيغ تعبيرية ايجائية، تشعر بذلك التخلّص، كقول أحدهم متخلّصا:"ثم أقول"(٩)، وقول الآخر، متحوّلاً إلى المخاطب مباشرة:"جعلني الله فداك"(١٠) ثم يدخل في صُلب الموضوع.

وقد يرد ذكر صيغة التخلص "أما بعد" في بعض الرسائل الإخوانية على ندرتها، بعد البسملة مباشرة(١١)، أما الموقع الأكثر تداولاً، وشيوعا لها بين كتّاب الرسائل الإخوانية فهو مستهلّ الرسالة، خاصة تلك التي تحررت من البسملة والتحية والحمدلة.(١٢)

وغالباً ما كانت تأتي هذه الصيغة مرتبطة بالفاء الواقعة في جواب الشرط، يقول الصّولي: "ولا بدّ من مجيء الفاء بعد أما، لأن لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء واكتسابها، فإن الفاء

---

(١) الصناعتين، ص١٦٥.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١، وانظر: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٣، ١٥، ٥٧، ٥٨، ٨٦، ١٥٤، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥. وج٣، ص٦٠، ١٥٨، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٤.
(٣) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٠، ١٢، ١٦، ١٧، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٥١، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٤.
(٤) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٢٦٣. والصاحب بن عباد ، رسائله ، ص١٥٤، والثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، ص١٩٣، وصفوت ، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ١٤، ٣٠٣.
(٥) الحصري، زهر الآداب، ج٤، ص١٧٠.
(٦) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٣٠، ٢٦٣. والخوارزمي ، رسائله، ص٤٠، والصاحب بن عباد، رسائله، ص١٥٩،١٥٧.
(٧) الخوارزمي ، رسائله، ص١٦، ٨٦.
(٨) الهمذاني، رسائله، ص١٥٧، وصفوت جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٢٩، ٤٧١.
(٩) صفوت، جمرة رسائل العرب، ج ٣ – ص ١٨٦.
(١٠) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص ٣٠١
(١١) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٤.
(١٢) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١.وصفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص ١٣، ٥٧، ١٥٤، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصل بعض الكلام ببعض وصلاً لا انفصال بينه، ولا مهمة فيه، ولما كانت إما فاصلة، أتت بالفاء لتردّ الكلام على أوله"[١] وقد برز هذا في جلّ الرسائل العباسية الإخوانية، وكان الارتباط بالفاء مباشرة في أكثر الأحيان[٢]، وأحيانا كانت الفاء ترتبط مع صيغة البعدية مع اعتراض جملة بينهما[٣]، ومع ذلك وردت البعدية في بعض الرسائل غير مقترنة بالفاء[٤].

ويلاحظ المتفحص للرسائل الإخوانية تنوعا فيما يأتي بعد صيغة البعدية "أما بعد" من حيث استخدام بعض الأدوات النحوية، ولا سيما أداة التوكيد "إن" متصلا بها ضمير المتكلم المفرد[٥]، أو ضمير المخاطب المفرد[٦]، أو ضمير الغائب المفرد[٧]، وقد تأتي الأداة منفصلة غير متصل بها أي ضمير[٨]،ومن أدوات التوكيد أيضا "قد"[٩]، ولا يمكن أن يُنكر ما قد تحدثه هذه الأدوات من معان إضافية، تُكسب النص مزيداً في التوكيد والتحقيق.

الوحدة الموضوعية:

تنوعت الرسائل الإخوانية بتنوع الموضوعات من شوق، وعتاب، وتهنئة ومباركة، وتعزية وغير ذلك من الموضوعات التي عُولجت فيما تقدّم، وبتنوع الموضوع تتنوع الأفكار، وتتشكل الأساليب وفقا لما يراه الكاتب مناسبا، يعرض من خلاله موضوعه وقضيته، ولذا كانت بعض الرسائل تأتي موجزة لاقتضاء الموقف والموضوع ذلك،وبعضها كان يأتي مطولاً، ولابد للكاتب إزاء ذلك مراعاة وحدة الموضوع، لما له من قيمة فنية في تحقيق التأثير المنشود، وإلا عيب عليه تشتت أفكاره، وسوقها دون رابط بينها يؤلفها، ويحسن عرضها، وهذا الأمر يتطلب وعياً كبيراً من الكاتب، واستحضاراً لذهنه وريشته الإبداعية التي يمكن من خلالها عرض ما يمتاز به من مقدرة أدبية فائقة، وهذا ما يميز كاتباً عن آخر، إذ التفاوت في هذه القدرات والمواهب الإبداعية، واستنفار الطاقة الإيحائية لدى الكاتب هو الميدان الذي يتم فيه التنافس، وإثبات الذات الإبداعية.

---

(١) الصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى، (ت٣٣٤هـ). أدب الكتاب، نشره محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٢م. ص٣٨.
(٢) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٣، ١٥، ٥٦، ٥٨، ١٥٤، ١٨٢، ١٨٥ و ج٣، ص٦٠، ١٥٨.
(٣) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١.
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٨٠.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٤.
(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥.
(٧) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١. وصفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨، وج٤، ص١٨٢.
(٨) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٦٠، وج٤، ص١٣، ٥٨، ١٨٢، ١٨٥.
(٩) المصدر نفسه، ج٤، ص٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيعرض الباحث هذه الرسالة المطولة، محاولاً بذلك تحري الوحدة الموضوعية فيها معرجاً على تلك الوسائل الفنية التي أعانت الكتاب على تحقيق هذه الغاية، وإحداث الأثر المنشود.

هذه رسالة مطوّلة كتب بها ابن طاهر إلى أبي علي البصير يعاتبه فيها على مؤاخاة ابن مكرم، معدداً سيئاته، والكاتب في هذه الرسالة يعرض لعدة موضوعات، وقضايا منها: الدعاء للصديق، وذكر أقوال عامة تذهب مثلاً بين الناس.

الأمل بالأخ أن يقبل العتاب والاستعاب.

مكانة صديقه من نفسه.

مآثر صديقه ومناقبه الحميدة.

عتاب في القطع والهجر وموقف الصديق من ذلك.

أخلاقه في معاملة صديقه.

عتاب في مصادقة من لا يستحق المصادقة.

ذكر مساوىء الصديق الجديد.

دعوة إلى قطعه وإعادة حبل الوصال بينه وبين صديقه من جديد.

هذه جملة الموضوعات والقضايا التي طرحها ابن ابي طاهر في رسالته المطولة، والناظر فيها يظن للوهلة الأولى أنها مواضيع قد يوجد رابط بين بعض أجزائها، خاصة الأخيرة منها، وأنه لا رابط بين ما جاء في مقدمة الرسالة، وما عُرض في عرضها وخاتمتها.

هذه رسالة في العتاب، وموضوع العتاب: صداقة منبوذة وغير متجانسة، والسبب في ذلك، ما يتصف به الطرف الأخر (ابن مكرم) من صفات لا تؤهله أن يقيم صداقة يكتب لها النجاح والسعادة مع ابن أبي طاهر، ولذا نرى الأخير يجند طاقاته اللغوية والأسلوبية والإبداعية، لينفر صديقه من صداقة ابن مكرم، فجاءت المقدمة تهيئ المخاطب نفسيّا، بما تشمل عليه من أدعية توفر الحفظ والأمان للصديق، وتجعله قادراً على التمييز بين الغثّ والسمين، عند ذلك سيتحقق له ما يأمله، ويصبو إليه، فتقرّ بذلك عيون صحبه وخلانه، حتى إذا أدرك الصديق صدق مودته بحسن الدعاء الموجّه إليه، والذي لا يكون إلا من صديق ناصح، أخذ يذكر على مسامعه أقوالاً، وامثالاً تمهد لما سيُلقى عليه بعد ذلك، من نصائح وعتاب واستعتاب، فهو في كل ما سيقوله له لا ينطق إلا من منطلق صدق النصيحة، وتجنب النفاق، وأنه لا يستطيع أن يرى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صاحبه يغوص في مهاوي الردى بصداقات منفرة، ثم يقف صامتاً لا يحرك ساكناً، لذلك يقول: "أخوك من صدّقك، وعدوّك من نافقك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك، والعتاب إمارة الإشفاق، ودليل الضنّ من الإخوان، ومن جادل نفسه في هواه عرف صوابه وخطأه."[١] فإذا استأنس بهذه الأقوال، ووثق أن صديقه سيصغي إليه قابلاً عتابه، جدّد رجاءه صراحة هذه المرة أن يقبل عتابه، وأن يكون سبباً في هدايته، وإنارة الدرب أمامه، ليتوب عن غيّه، ويعود إلى رشده، وهو لا ينسى أن يذكر صاحبه بالذي دعاه إلى هذا العتاب، وهو ما يكنّه له من مشاعر الودّ الصادقة، والثقة المتبادلة، وحتى يضمن التأثير في صاحبه، أخذ في مدحه بصفة التروّي، واختيار هذه الصفة دون غيرها، خطوة ذكية من الكاتب تتيح له أن يمضي في عتابه، دون أن يخشى غضباً أو نفوراً من صاحبه، فقد كان الكاتب من حين إلى حين يدس بين سطور العتاب ما يوحي بصدق مودته، وحسن عشرته، ولذا جاءت فقرات في الرسالة تعرض لأخلاقه التي يعامل بها خلاّنه وأصدقاءه، وأنهم ما عهدوه إلا واصلاً حين يقطعون، وحافظاً للودّ حين يميلون[٢].

ويبقى الكاتب على تلك الحال من المراوحة بين العتاب، وذكر مناقب صاحبه، حتى إذا قرب من موضوعه الرئيس، وهو رسم لوحة سوداوية للصديق الجديد ابن مكرّم، أملاً من خلالها تنفير صديقه من صداقته، أخذ يسهب في عرض مآثره، ومناقبه، محاولاً بذلك رسم صورة مشرقة لما هو عليه من نبل الأخلاق، وكرم السجايا، وحسن العهد، وأن صاحبه ما عهده إلا صديقاً صدوقاً، عريق الحسب والنسب، جميل العشرة، محمود السيرة، لطيف المعاملة، وهدفه من رسم هذه الصورة المشرقة أن يقابل بها تلك الصورة السوداوية التي رسمها لابن مكرم، خاصّة أنّ الصورتين قد جاءتا متتابعين لا فاصل بينهما[٣].

ومن المنطقي، وفي ظل هاتين الصورتين المتقابلتين أن يوجه الكاتب سيلاً من الأسئلة، عن أسباب مؤاخاة مَنْ رسم له تلك الصورة السوداوية السابقة، ولذا كان ورود هذه التساؤلات في الرسالة له ما يبرره من أمر الحيرة التي أصابت الكاتب، حتى وإن كان يملك إجابات لكثير من هذه التساؤلات.

بعد ذلك يبادر إلى مطالبة صاحبه صراحة بأن يقطع وصل ذاك الصديق، قبل أنْ يُلحق الضرر به، إذ الضرر ممن ساءت أخلاقه، وفسدت طبائعه كائن لا محالة.

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٤٢٣،نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلحظ المتصفح لفقرات الرسالة السابقة على تنوع مواضيعها وحدة موضوعية تصل أولها بوسطها وخاتمتها، وهذا يدل على براعة الكاتب، وقدرته، وثقافته الواسعة التي أعانته على استحضار ما يمكنه من ربط الأجزاء بعضها ببعض.

وقد ربط الكاتب أجزاء هذه الرسالة مستعيناً على ذلك بمفاصل لغوية، تربط ما فرغ منه بما ينوي تناوله وعرضه، ومن ذلك استخدامه أسلوب "لولا" و"النداء"و"الاستدراك" والإشارة "[١]

إضافة إلى استخدامه من المفردات ما يعينه على تفريع موضوعه وتقسيمه، وما يمكنه من الدخول في القضية التالية بتمهيد له، وليس دخولاً مفاجئاً للقارئ.

وهو باستخدامه لهذه الوسائل يضع المخاطب أو القارئ في جو التوقع واستقبال ما سيقدم الكاتب على بسط القول فيه، ومن ذلك قوله:

"وعلمي أن فيما أعدّد عليك، وأذكرك به"[٢]. ولكني أذكرك ما نسيت، وأنبهك على ما أضعت، واحتجّ عليك إذا قصرت، وقدمت عليّ في إخائك"[٣]، ثم يأخذ يذكر مناقب الصديق الجديد، وقوله: "وإن مما حقق ظني بك فيه" [٤].

وتتجلى الوحدة الموضوعيّة كذلك في الوصيّة، التي لا تحتاج إلى جهد كبير من الكاتب كما هو الحال في الرسائل، خاصّة المطوّلة منها، لأن الوصيّة تتميز بقصرها، وتكثيفها للمعنى من خلال الألفاظ الموجزة، كما يتضح في وصيّة جميل بن الصريري يوصي ابنه، ويحذّره من صحبة السلطان، ويأتي على عدد من الجمل القصيرة، يعقد فيها تشبيهات مكثفة المعنى، ليحقق الهدف المنشود من الوصية، فيقول: "يا بني اصحب السلطان بشدّة التوقي، كما تصحب السبع الضاري، والفيل المُغْتَلم والأفعى القاتلة. فهو يتخير لوصيته من الحيوانات والزواحف وما عرفت به من الخوف والهيبة، ليردع ابنه عن مصاحبة السلطان، ويكون حذراً، كما حذره من الحيوانات والزواحف السالفة الذكر، لذا يجد المتصفح للوصية السالفة التماسها الوحدة الموضوعية ووحدة الأهداف من أولّها إلى آخرها.

ويلحظ المتصفح لوصية علقمة بن لبيد العطاردي لابنه ترابطاً قوياً يجمع أجزاءها، ويوحد موضوعها وأهدافها، فهو يعرض على ولده مجموعة من الوصايا التي تحثّه على مكارم الأخلاق، وينبغي على الصديق أن يتحرّاها فيمن ينوي مصادقته، فيقول: "يا بني إن نازعتك

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٤٢٣، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٧-٣٥٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسك يوما إلى صحبة الرّجال لحاجتك إليهم فاصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عن الحقائق [١].

الخاتمة:

عني الكُتّاب العباسيون بخواتيم رسائلهم الإخوانية، عنايتهم بمقدماتها وعرضها، فأهمية الخاتمة لا تقل عن أهمية المقدمة، ولذا احتفلوا بها، وأولوها عظيم اهتمامهم، وما ذاك إلا إيمانا منهم بالدور الذي تؤديه الخاتمة التأثير، خاصة أنها ستكون آخر عهد الكاتب بالمخاطب، وإن كانت الرسالة بمنزلة اللقاء بينهما، فلا أقل من أن يكون انتهاء هذا اللقاء انتها محمودا، يمكن أن يتجدد بعد حين، طال أو قصر، ولذا عُدت الخاتمة المخرج المناسب الذي يستطيع الكاتب أن يسلكه في سبيل الإبقاء على قدر من التواصل بينه وبين المخاطب، وهي تكون بعد تخلص الكاتب من عرض موضوعه، وطرح أفكاره التي يريد طرحها، وإيصال عناصر الرسالة إلى الطرف الآخر، فإذا استأنس بذاك، وأيقن أنه قد اكتفى بهذا العرض، وأن الرسالة أصابت هدفها، وحققت الغرض المنشود منها، عند ذلك بادر إلى خاتمته، فحمّلها من الجمل والعبارات ما قد يكون طلبا للجواب على رسالته، وحمدا لله الذي أعانه ومكّنه من صياغة هذه الرسالة، متبعا حمده لله بالصلاة على النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم، معلقا ما طلبه وناشده بمشيئة الله عز وجل، مودّعا صديقه، آملا بتجدد الوصل واللقاء، إن لم يكن حقيقة، فلا أقل من المكاتبة بينهما.

وحرصا من الصديق على توثيق التواصل، وإيمانا منه بقيمته تراه يستهل خاتمة رسالته بصيغ تتناسب وموضوع الرسالة الذي يبثه عبر سطورها، كأن يكون قد طلب منه شيئا، أو دعاه إلى قضاء وقت ممتع معه، ليأنسا معا، وينعما بما لدّ وطاب في مجلس الأنس، كما يتضح في رسالة "الحسن بن سهل" إلى "الحسن بن وهب" في قوله: "فرأيك في إمطاري سروراً بسارّ خبرك"[٢]، وإن كان قد دعاه إلى دوام مراسلته، فإنه يظهر مزيدا من التلطّف الذي يستدعيه عُمق أواصر الصلة بين المتراسلين، كما في دعوة عمرو بن مسعدة صديقا له، فيقول:"فرأيك في متابعة الكتب، ومحادثتي فيها بخبرك، موفقا إن شاء الله." [٣]

وبذا تكون صورة طلب الجواب في هذه الصيغة على هذا النّحو:" فإن رأيت أن تفعل كذا،فافعل" ومن أمثلة هذا المنحى في طلب الجواب ما جاء في رسالة "أحمد بن يوسف" يعتذر

---

(١) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص١٣٩.
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص١٨٦-١٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها إلى بعض أصدقائه فيقول:" فإن رأيت أن تهب لي ما استحققته من العقوبة، لما ترجوه من المثوبة، فعلتَ إن شاء الله." [١]

وكذا ما جاء في رسالة "أبي علي البصير" في اعتذار إلى صديق فيقول:" وأن تَمُنَّ بذلك على من يُقدِّم إخاءك في مودتك، وعَنَدَكَ في إجلالك وتعظيمك والمسارعة إليك، والطاعة لك، فعلت. [٢]" ومثله قول "الصاحب بن عباد" في رسالة له في التودد والشكر: "فإن رأى أن يجعل كتابه مقدّمة النعمة في وصوله، وتعريفي خبره عنوان المنحة في وروده، ويذكر لي أخباره، ويكلفني أوطاره، إن شاء الله." [٣] وقد تُحذف لفظه "فعل أو فعلتَ أو أفعل" من صيغة طلب الجواب،كما يتضح في هذه الرسالة من قول أحدهم مستدعياً صديقه ليشاركه مجلس أنسه: "وإن رأيت أن تحضرنا لتتصل الواسطة بالعقد، ونحصل بقربك في جنة الخلد، وتُسهم لنا في قربك الذي هو قوت النفس، ومادة الأنس[٤] "وكأنه ترك للمخاطب تقدير "فعلت" بما يفهم من سياق الجملة.

وقد تتنوع صيغ طلب الجواب وفق ملابسات الموقف، وموضوع الرسالة، ومن ذلك ما قاله "سعيد بن حميد" مهنئا بعض إخوانه بعزله عن عمله، حين طلب منه أن يجعل ردّه على رسالته متضمناً شرحاً، يطلع سعيدا على حقيقة الأمر، فيقول له: "أحب أن تشرح لي صوره الأمر، إلام تأدت ؟ وكيف كان الابتداء؟... وتُفضي من ذلك إلى ما تَسْكُن إليه نفسي، إن شاء الله.[٥] " وهذا الهمذاني يشجع صديقه على دوام التواصل، والمراسلة حين يطلب منه أن يعرفه مستقرّه، فيقول له:" فإن نشط في هذه الليلة عرّفني مستقرّه، لأحضره إن شاء الله[٦] "وهذا الأمر يتطلب من الصاحب أن يكتب إلى الهمذاني كي يعلمه بمقرّ وجوده، حتى يحدث اللقاء، ويتم به الأنس والسرور. ومثل ذلك ما طلبه الخوارزمي من صديقه قائلاً له:"فليتحفني به، وليؤهلني له، إن شاء الله تعالى"[٧] وهو يقصد كتاب صديقه الذي يسرُّ به سروراً "أشد من المشتاق إلى، بعد طول الفراق، ومن العاشق بالعناق، ومن الأسير بالإطلاق. [٨]

---

(١) الصولي، الأوراق، ج١، ص٢٣٣ نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب ، ج٣، ص٤٤٥.
(٢) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٨٦، نقلا عن جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٦٦.
(٣) الصاحب بن عبّاد، رسائله، ص١٥٥.
(٤) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص١٨٦.
(٥) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٠١، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٦، ٢٨٧.
(٦) الهمذاني، رسائله، ص٢٣٥.
(٧) الخوارزمي، رسائله، ص٨٧.
(٨) المصدر نفسه، ص٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن طلب الجواب كذلك ما كتبه "سعيد بن حميد" إلى صديق له، كان قد تشوق إلى لقائه ومكاتبته، فيقول له:" فلستُ ممتنعا من مسألتك التطوّل بتعريفي جملة من خبرك أسكن إليها"[١] وقد يكون طلب الجواب صريحا، كما يتضح في قول أحدهم:" فاكتب الآن الجواب"[٢].

وقد تكون خاتمة الرسالة الإخوانية دعوة صريحة من الكاتب إلى المخاطب؛ ليقوم بتلبية رغبة الكاتب في نصائحه، وتجنب نواهيه[٣]

ومما يلحظ على الرسائل الإخوانية عناية كتابها بخواتيمها، فيما يتعلق بجانب الدعاء للمخاطب، حرصاً منهم على بثّ بذور المودّة الصادقة، التي توثق الرابطة الأخوية. وتؤكد للصديق حرصه على سعادة صديقه، عبر دعاء طبع بطابع إيماني يضيف للصداقة جوّاً نورانياً يستضاء به، وغالباً ما يقع الدعاء قبل تخية الوداع "والسلام؟[٤] "، إن وجدت، وقد يقع بعدها أحياناً على ندرة ذلك[٥]. وحين يتوجه الصديق إلى المولى –عز وجل– داعياً لصديقه، فإنه يدعو له بما يتناسب وموضوع الرسالة، فقد يقصر هذا الدعاء ويطول حسب ما يراه الكاتب مناسباً لما يحقق لهما صداقة حميمة، ويجعل الخروج من الرسالة خروجاً حميداً أيضاً.

وتتنوع صيغ الدعاء، فتأتي تارة عن طريقة استخدام حالات الفعل، كالماضي مثلاً، ومنه:"جَعَل"[٦]،و"وَهَب"[٧] و"أكمل"[٨]، ومنه المضارع كما يتّضح في الأمثلة الآتية: "أسألُ الله" [٩] و"وإنما أسألُ الله"[١٠]، "ونرغب إلى الله"[١١] وقد تكون الصيغة على غير ذلك، حيث يبدأ بلفظ الجلالة، كما في قولهم: "والله أسأل"[١٢]، وأغلب صيغ الدعاء تشمل الصديقين معا[١٣]، فيكون الدعاء لهما بالخير، كي ينعما بصداقة مثاليّة، وأخوّة سامية، لا يعكّر صفوها شيء، ولا يعتريها نقص لا من قريب أو بعيد، وقليلاً ما كانت تأتي صيغ الدعاء تخص الصديق وحده[١٤]، أو الكاتب فقط"[١٥].

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٧٥، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٩٢.
(٣) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١١٣، ٥٠٦. وج٤، ص٣٠٣، ٣٥٢. والحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٣٠١. والصاحب، رسائله، ص١٥٩. وابن المعتز، رسائله، ص٤٩.
(٤) صفوت، جمهرة رسائل العرب ، ج٣، ص١٢١، ١٢٤، ١٥٩، ١٨٨، ٤٣١، وج٤، ص١٦٦، ١٦٧، ٢٩٤، ٢٩٨. والصاحب، رسائله، ص١٥٧.
(٥) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٢، ص ٢٦٣، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٣٧.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٨.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص١٦٦
(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٤.
(٩)الحصري ، زهر الآداب، ج٤، ص٢١٥.
(١٠) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٠٧، نقلا عن: جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٩٤.
(١١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢١.
(١٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٦٧.
(١٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢١، ١٢٤، ١٣٧، ١٨٨. وج٤، ص١٦٦، ١٦٧، ٢٩٨.
(١٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٩. وج٤، ص٢٩٤، والصاحب، رسائله، ص١٥٧.
(١٥) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٨٦، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) التجربة الإنسانية:

لا بد من الإشارة إلى تجربة الصداقة، وكيف عبر عنها الأدباء في العصر العباسي نثراً، فهذه التجارب صدرت ممّن، عاشوها وتأثروا بها، وكانت ترافقهم مسيرة حياتهم، يأخذون منها ما يناسب أفكارهم، لعلّهم يستقون منها دروسا وعبراً، يقيمون بها أود حياتهم، ويصلحون ما فسد من صداقاتهم، ولذا كانت هذه التجارب تنحو منحىً أسلوبيا مؤثراً، يعبر من خلالها الكاتب أو الأديب أو الحكيم عن مواقفه من الحياة ، ويصوّر مشاعره وأحاسيسه، وكلما كانت التجربة فردية تنبع من موقف خاص عاشه الأديب، كانت واقعيّة وصادقة، كما يتضح في تجربة ابن المقنع، حين تحدّث عن العلاقة بين الإخوان والمال، إذ يؤكد أهمية هذا الترابط من خلال مواقف عاشها، وعبّر عنها بأسلوبه الأدبي الرشيق ، فيقول: "ما الإخوان ، ولا الأعوان، ولا الأصدقاء إلا بالمال[١]." فهو يعبر بقلمه عما يجول في ضمائر الناس وخواطرهم، وما تعاني منه الصداقة من ضعف ونظرة ماديّة لا روحيّة.

ويعبر أبو العيناء عن تجربته الواقعيّةمع صديقه حين عاشا معاً أجمل أيام، ينعمان بصفاء المودة ، فيقول: "لم أر في الناس وفياً بعد واحد كان أصغى لي مودّته، وبذل لي مهجته، كان أطوع لي من كفّي ، وكنت أذلّ له من نعله، أتكلّم بكلامه فينطق بلساني، إن قلت خيراً أعانني، وإن ملت إلى سيء ردعني" آنس ما كنّا إذا اجتمعنا، وأوحش ما كنّا إذا افترقنا، ما تفرّقنا طول صحبتنا إلا يوما حسبناه حولا. [٢]" فلا أدلّ من ضمائر المتكلم في النص السابق على واقعية التجربة، وتعبيرها عن مشاعر صادقة تجاه الصديق، فضلاً عن الأحاسيس التي تنتابه من وقت إلى وقت عبر سطور هذه التجربة.

وهذا كاتب يعبر عن تجربة عاشها وصديقه، ومن خلالها يرسم له صورة الوفاء والعفو والتسامح، وفي ذلك يقول: "وحضرته في مواطن العفو والعقوبة، فرأيته لا يتوخّى لعفوه إلا من يرجو نزعه عن الذنب، ولا يتجاوز بعقوبته إذا عاقب قدر مبلغ الجرم، ولا يؤاخذ بالإساءة من لم يتعمدها"[٣]. ولا يمكن للكاتب أن يكون إحساسه صادقا، وتعبيره مؤثراً ما لم تكن تجربته توحي بذلك، فهي تفصح عن مصداقية وواقعيّة تؤكد صدق المشاعر، وعمق التجربة.

وقد يعبر الكاتب بنثره عن تجربة سلبيّة عاشها وصديقه، وذلك حين يعدّد مثالبه، وما عرفه منه خلال معاشرته، كما يتضح في وصف المبرّد لصديقه، فيقول: "كان شديد الإقدام

---

(١) كليلة ودمنة، ص١٧٧.
(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليّ، رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، خبيث النيّة، يرصد صديقه بالمكروه، تقدير أن يعاديه فيسوءه بأمر يعرفه. [١]" فالمبرد هنا لا يعبر عن تجربة فرديّة فحسب، إنما يعبر عن تجارب صديقه مع آخرين غيره، حيث كان يعاشرهم بأخلاقه السيئة، فجعل المبرد تعبيره شاملاً يقدّم من خلاله تحذيراً من هذا الصديق الذي لا يستحق المصادقة.

ومما جاء يعبر عن تجربة غيره ما رواه ابن قتيبة عن إياس بن معاوية حين خرج في سفر، ومعه رجل من الأعراب، " فلما كان ببعض المناهل لقيه ابنُ عمٍّ له فتعانقا وتعاتبا، وإلى جانبهما شيخ من الحيّ، فقال لهما الشيخ: أنعما عيشا، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة"[٢].

وحين سأل ابن معاوية الشيخ عن نفسه قال: "أنا ابن تجربة الدهر، ومن بلا تلوّنه ، فقلت له: ما أفادك الدهر؟ قال: العلم به، قلت: فماذا رأيت أحمد؟ قال: أن يُبقي المرء أحدوثة حسنة بعده، قال: فلم أبرح ذلك الماء حتى هلك الشيخ، وصليت عليه[٣]."

فابن معاوية في حكايته يعبر عن تجربة الأعرابي وابن عمّه وما كان بينهما من عتاب وصداقة، ولقد كان وجود الشيخ يؤدي دوراً كبيراً في إثراء هذه التجربة، خاصّة بعد تصريح الشيخ بأنه "ابن تجربة الدهر، ومن بلا تلوّنه"[٤].

ج) اللغة والأسلوب والتناص

أفضى تنوع مضامين الرسائل الإخوانية، وأشكالها إلى تنوع في الأساليب التي استخدمها الكتاب، للتعبير عن معانيهم، ومشاعرهم تجاه الصديق، وكان هذا التنوع الأسلوبي رافداً من روافد تعميق القدرة على التعبير، وإبلاغ الرسالة أقصى درجات التأثير لدى المتلقي، إذ لا يُنكَر ما يمكن أن تقوم به الظواهر الأسلوبية من إحداث في جماليات للنص، فتجعله صورة راقية في صور التعبير الأدبي الخلاق، الأمر الذي دفع بالكتّاب إلى إبراز قدراتهم الإبداعية، وتفريغ طاقاتهم الأدبية في قوالب أسلوبية، تناسب المقام والحال، فأخذوا يستقون أساليبهم وتفننهم مما يحيط بعالمهم، متأثرين بذلك بالجو الإيماني والعالم التراثي والطبيعي، وغير ذلك مما قد يساعد في تكوين الصورة الأدبية، ويمضي بها نحو الروعة والتّمام، وصولاً إلى حدود البلاغة العربية من حيث الإبلاغ والتبليغ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٨٨-٨٩.
(٢) عيون الأخبار، ج٤، ص٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٠.
(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٤،ص٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذا سيُعنى هذا الجانب من الدراسة بدراسة أبرز الظواهر الأسلوبية التي حققت للكتاب مآربهم، وارتقت بكتاباتهم منزلة تدعو إلى العزّ والزهو والارتقاء، فتتناول ما يتعلق بالروافد والمنابع، وما يتصل بالألفاظ والمعاني، ويختص بالصور والأخيلة.

القرآن الكريم

بدا جليا لمن يستقرئ الرسائل الإخوانية استحضارها الآثار الدينية، حتى غدتْ هذه الآثار رافداً رئيساً، يمدّ الكتاب بالمعاني والألفاظ والمواضيع، ليس ذلك فحسب بل أخذ الكتاب يتوسعون في أساليبهم، ويبسطونها بسطاً أسوة بالأساليب التي تعرّفوا إليها، وحاكوها في النصوص المقدسة. وهذا الأمر ليس بالغريب في ظل تجمع ينعم بالجو الإيماني، ويجعل القرآن سبيل هدايته، ورافد فكرة وثقافته، لما عرف عنه من الخصوصية التي جعلته يحتل منزلة سامية في نفوس الكتاب، فجعلوا ينظرون إليه على أنه الذروة البلاغية التي يفرون السير نحوها، ومما يلحظ أن الحديث النبوي الشريف لم يرق إلى منزلة القرآن، ولذا كان التأثر به دون منزلة التأثر القرآن الكريم.

ومن أبرز أساليب التأثر بالقرآن الكريم الاقتباس من القرآن: حيث يقتبس الكاتب نصاً من القرآن بحرفيته، بعد أن ينظر في مدى مناسبة النص المقتبس للموقف المقتبس من أجله، حتى لا يبدو الاستشهاد مقطوعاً مما حوله، ومن صور هذا الاقتباس ما ورد في رسالة الخوارزمي إلى صديق له:"وأسأل الله تعالى أن يجعل أخوتنا في الدنيا متصلة بأخوتنا يوم الدين فإن *(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)*"[١][٢]. ونحوها رسالة "أبي علي البصير" في الاعتذار:"والله *(الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة)*"[٣] "[٤] يرى القارئ في الشاهد الأول كيف وظّف الخوارزمي الآية القرآنية، وجعلها تمضي في النص كأنها قطعه لا تتجزأ منه، فإذا حاولت حذفها وقطعها عن النص، عُد النص مبتوراً، ولا يستقيم له معنى، وحتى يضمن الخوارزمي تعانق الآية مع نصه، قدم للنص القرآني بحرف توكيد "إن" وجعل المؤكد هو النص القرآني بعينه، وبذا لا يمكن إبقاء الأداة وحذف المؤكد، فهذا إحلال بالمعنى. ومثله فعل "أبو علي البصير" حين أراد أن يقسم بالله، وأمامه خيارات القسم التي لا حصر لها، إلا أنه اختار نصاً قرآنيا، يخبر عن علم الله بظواهر النفوس ومكنونها، مما جعل النصّ تيناسب مع ما أراد أن يخبره لصاحبه من صدق كلامه وصحته، وأنه مطلع على هذا الصدق، وتلك الصِّحَّة.

---

(١) سورة الزخرف، اية رقم (٦٧).
(٢) رسائله ، ص٣٨.
(٣) سورة الحشر، اية رقم ٢٢.
(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٨٧، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أوجه هذا الأسلوب أن يجعل الكاتب النص المقتبس وصفاً أو تشبيها، لما قبله، أما ما جاء وصفاً فمثاله من رسالة أبي العيناء[١] التي تأثر فيها جليّاً بالقرآن الكريم، حتى غدت الرسالة غنية بشتى أنواع التأثير، ويمكن عزو ذلك إلى موضوع الرسالة، حيث أرسلها إلى صديقه أبي نوح حين أعلن إسلامه، فكان من واجب الصديق أن يبارك هذا الإسلام، وأن يهنئه بذلك متمنيا له القبول والفوز برضاء الله وجنته:"لقد عظمت نعمة الله عليك،في منابذة[٢]أهل الذلة والصَّغار، والكفر والإصرار الذين (أحلوا قومَهم دارَ البَوار،جهنّم يَصلَونها وبئسَ القرَار)[٣] والذين (جعلوا لله أندادا)[٤] و(أن دَعَوْا للرّحمن ولَدا، وما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولَدا، إنْ كلّ من في السّماوات والأرض إلاّ آتي الرّحمن عَبْدا)[٥]. يرى القارئ كيف تعانقت الآيات وموضوع الرسالة فغدت متجانسة، وكأن الكلام بات من أصل الرسالة، ومن نثر الكاتب عينه.

إن "أبا العيناء" اهتم بالنصوص التي تعبر عن أفكاره وموضوعه، موضوع ترك المسيحية واعتناق الإسلام، ولذا وجد في الآيات التي تتحدث عن أفكار المسيحية، وما يفترونه على الله في إفك وبهتان عظيمين، وجد فيها ملاذه وتفريغ طاقاته الإبداعية، وهو حين يهجم على أفكارهم الضالة المضللة، إنما يبارك لصديقه و يحمد الله له على أن هداه إلى الإيمان، وأخرجه من ظلماته الكفر والطغيان، ومما يلحظ على الآيات السابقة أن الكاتب لجأ إلى حذف بعض الحروف "كالواو وأن"، ليجعل النص مترابطاً، يبدو وكأنه قطع واحدة عن طريق العطف الذي يحقق هذا الترابط.

وليس بعيدا عن رسالة "أبي العيناء" يدلل الباحث عما قد يستخدمه الكاتب من آي الذكر الحكم على وجه التشبيه، ومنه مخاطبة "أبي العيناء" لصديقه "أبي نوح"، وإظهار إعجابه به، كونه فكر ملياً، فيقول له:"ولله أبوك: لقد قدحت فأوريت، واستضأت فاهتديت، ومخضت الأمر[٦] ثم اقتنيت، لا كمن ﴿فكر وقدر فقتل كيف قدر﴾[٧] "[٨] أنظر كيف نفى عن صاحبه أن تكون حاله مشابهة لحال "الوليد بن المغيرة" الذي لم يعنه إمعان التفكير على اختيار ما فيه صلاح آخرته ودنياه.

وفي موقع آخر من الرسالة يحمد الكاتب ربّه أن خلّص صاحبه من الشرك، فيقول: "فالحمد لله الذي أفاز قِدْحك، وأعلى كعبك، وأنقذ من النار شِلْوك وخلصك من لبس الحيرة،

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٠٥، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٥٥-١٥٨.
(٢) منابذة: أي مخالفة. اللسان (نبذ). اللسان (نبذ).
(٣) سورة إبراهيم، الايتان (٢٨، ٢٩)، وأول الآية (٢٨): (ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا...).
(٤) سورة إبراهيم، اية رقم (٣٠)، وتمامها: (... ليضلوا عن سبيله قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النار).
(٥) سورة مريم، الآيات رقم (٩١، ٩٢، ٩٣).
(٦) مخض الأمر: قلّبه، وتدبر عواقبه حتى ظهر وجهه. اللسان (مخض).
(٧) سورة المدثر، الايتان (١٨، ١٩). وأصل الأولى: (إنه فكر وقدّر).
(٨) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٠٥، نقلا عن:صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحجرة الشرك، ﴿إنّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾[١]، ﴿ومَنْ يُشْرك بالله فكأنّما خرّ من السّماء فتَخْطفه الطّيرُ أو تَهْوي به الرّيحُ إلى مكان سَحِيق[٢]﴾[٣] فالكاتب هنا في المثال السابق يقتبس الآيات التي تحقق له الغرض المنشود، وتعينه على إبلاغ المخاطب فكرته، وإحداث التأثير فيه، فكأنها تصف حاله لو بقي على شركه ولكنّ الله سلّم.

ويبدو أن أبا العيناء قد بهر بأسلوب القرآن فغدا التأثر به ملمحاً يكاد المتصفح لرسائله يدركه لشغفه به، فهو في رسائله كان قد عاتب فيها عبيد الله بن يحيى بن خاقان؛ لأن محمداً ابنه حمله على دابة غير فارهٍ، فما كان من "عبيد الله" إلا أن استجاب لهذا العتاب، وأكرم أبا العيناء بآخر خير منه، ودار بينهما حوار، فكان مما قاله "أبو العيناء" للوزير: "أعز الله الوزير، لو لم أكذب مستزيداً، لم أنصرف مستفيداً، وإني وإياه لكما ﴿قالتْ امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحَقُّ، أنا رَاودْتُه عن نفسه، وإنّه لمن الصّادقين﴾[٤]"[٥]. فهو يجعل حاله أشبه ما يكون بحال امرأة العزيز.

وهذا "بشر البلوي" يقول في رسالته التي عاتب فيها "علي بن سليمان": "فإذا أتيتكَ متنجزاً ذلك عَبَسْتَ وبَسَرْتَ، ثم أدبرتَ واستكْبَرْتَ، وقد تَصرَّمت النفقة، وانقطع الرّجاء، ويئستُ من الطّمع، ﴿كما يَئِسَ الكفارُ مِنْ أصْحَاب القبور[٦]﴾.[٧] فهو كان قد وعد من صديقه أن يقضي حاجاته، وأن يجود عليها بماله، ولما ضاقت به الحال، وأخذ يستنجزه ما وعد، أصاب صديقه الغضب، ولحق به النّفور، مما أوقع اليأس في قلب البلوي، فكانت حالته من اليأس تشبه حال الكفار الذين يئسوا من أهل القبور.

يمكن للقارئ أن يلاحظ ما سبق من أمثلة تم فيها الاقتباس من القرآن الكريم، وغيرها من الأمثلة التي لا يتسع المقام لذكرها مجتمعة، إذ يبدو عليها ميول الكتاب نحو اقتباسها ودون إشارة مسبقة تدلّ على هذا الاقتباس، وهذه قدرة أسلوبية تتطلب مهارة فائقة، وثقافة دينية واسعة، وعلماً مسبقاً بآي الذكر الحكيم، لأنه يجمع في نصه بين قوله، وما يستشهد به أو يقتبسه من آي فيجعلهما لحمة واحدة، ينصهران معاً منسجمين متعانقين، يكاد الناظر فيهما لا يفصل بينهما، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا القدر، فظهرت فئة من الكتاب يميلون نحو اقتباس آي

---

(١) سورة لقمان، اية رقم (١٣) ونصّها: "وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يبني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم".

(٢) سورة الحج، اية رقم (٣١)، وأولها: "حنفاء لله غير مشركين به...".

(٣) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٠٥، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٥٨.

(٤) سورة يوسف، اية رقم (٥١). وأولها: ﴿قال ما خطبكن إذ راودتنّ يوسف عن نفسه قلن حاشى لله ما علمنا عليه من سوء..﴾

(٥) الحصري،زهر الاداب، ج٢، ص٨٤.

(٦) سورة الممتحنة ، اية رقم (١٣). ونصّها: ﴿قد يئسوا من الاخرة...﴾.

(٧) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٤١٦، نقلاً عن: صفوة، جمهرة سائل العرب، ج٣، ص١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذكر الحكيم، مشعرين القارئ بعبارات توحي بهذا الاقتباس، وأنّ ما سيقدم القارئ على قراءته مقتبس من كلام الله عز وجلّ، ومما جيء به يفيد القول يتضح في رسالة "أبي العيناء" إلى أبي الصقر إسماعيل بن بلبل:" فقد أنفقت علي مما ملّكك الله، وأنفقت من الشكر ما يسّره الله لي، والله -عز وجل- يقول: (لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه[١])"[٢]. ومن ذلك قوله في رسالته إلى أبي نوح وقد أعلن إسلامه، السالف ذكرها من قبل: "فقد أصبحت لهم أخاً، وأصبح الدعاء لهم عليك من الله فرضاً، قال الله عز وجل: (والذين جَاءُوا منْ بعدهم يَقُولون ربّنا اغفِرْ لنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان، ولا تَجْعَل في قُلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربّنا إنّك رؤوف رَحيم)[٣][٤]

وإضافة إلى أسلوب الاقتباس الصريح، أخذ نفر من الكتاب يعمدون إلى استعمال أسلوب النثر القرآني، وهو تقنيه فنية يُدخل بها الكاتب على النص القرآني مجريا عليه بعض التغييرات التي تجعله ملائماً للسياق الأدبي، وتبدو التغيرات التي يدخلها الكتاب على النص ملوّنه، فبعضهم يلجأ إلى تغيير الضمائر، كأن ينقلها من الغائب إلى المخاطب، كما يتضح في رسالة "بشر" التي عاتب فيها صديقه: "فإذا أتيتك متنجزاً ذلك عبست وبسرت، ثم أدبرت واستكبرت"[٥].

فبشر يَنْثُر هنا قوله تعالى: (ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر)[٦] ناقلاً ما في هذه الآية من ضمير اختصاص الغائب أو الإخبار عن الغائب الذي ورد ذكره في آيات سابقة، إلى المخاطب وهو صديق بشر الذي يتوجه إليه بالعتاب.

وقد يَطال النثر القرآني غير الضمائر، فيتجاوزها إلى صيغ الأفراد والجمع، ومثال ذلك الرسالة التي كتب بها صديق إلى صديقه، مخبراً إياه مدى شوقه إلى لقائه: "فإنْ وَجَدَني مولاي كُفُؤاً له بعد أنْ جِئتُ راغباً، وبلسان الخِطّبة خاطباً، أنعمَ بالإسْعَاف، وجعلَ الجوابَ مُقدّمة الزّفاب، حَامياً به دِيباجة السؤال... وقد قدّمتُ بين يَدَي هذه النَّجوى صَدَقة طلباً للنَّجاب، لا على حُكْم الاستحقاق والاستيجاب."[٧] فالكاتب هنا يحوّر قوله تعالى: (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات)[٨] فالتحوير في هذه الآية يطال الضمائر، حيث نقل ضمير المخاطبين في الآية إلى ضمير المتكلم المفرد (تقدموا = قدّمت)، ونقلت لفظة (نجواكم) المضاف إلى ضمير المخاطبين في الآية إلى لفظة متحرّرة من الضمائر لتناسب حال الكاتب (نجواكم = هذه النجوى)

---

(١) سورة الطلاق، اية رقم (٧).
(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٣٤.
(٣) سورة الحشر، اية رقم (١٠).
(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص ٣٠٥،نقلا عن: صفوت، جمهرة سائل العرب، ج٤، ص١٥٥.
(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٨.
(٦) سورة المدثر، الآيتان (٢٢، ٢٣).
(٧) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٦٠.
(٨) سورة المجادلة، اية رقم (١٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توظيفه في سياق جديد يبتدعه الكاتب نفسه، ومن هنا شكلت القصة القرآنية رافداً مهماً استمد منه الكتاب كثيراً من المواقف المعبرة.

ومن ذلك يذكر الباحث قول العتابي الذي يشكو ضيق الحال: "حتى أصابتنا سَنَة كانت عندي قطعة من سِنّي يوسف، واشتدّ علينا كَلَبُها[١]،وغابت قطتها[٢]، وكذبتنا غيومُها، وأخلفتنا بُروقُها، وفقدنا صَالح الإخوان فيها."[٣]

والعتابي هنا يشير إلى قوله تعالى على لسان يوسف: (ثمّ يأتي مِنْ بعد ذلكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأكُلْنَ ما قدّمْتُم لهُنَّ إلا قليلاً مِمّا تُحْصِنُون)[٤] ومن نظير ذلك، رسالة أحمد بن يوسف إلى بعض أصدقائه المرضى: "فإني لكذاك أُميّلُ[٥] بين التقرير في إتيانِك قبلَ استِئذانك، أو تقدمة استطلاع رأيكَ، إذ جاءني البشيرُ بإفراقِكَ، وإقبال العافية إليك، وظهور تباشيرِهَا عليكَ."[٦]

فالكاتب نظر إلى قوله تعالى: (فلمّا أنْ جَاءَ البَشيرُ ألقاهُ على وَجهِهِ فارْتَدَّ بَصيرا)[٧] وهنا انسجام واضح بين البَشيرَين، على توحّدهما ففي قصّة يوسف عليه السلام يحمل البَشيرُ البُشْرى التي تُثلج صَدْر يعقوب عليه السّلام، وتُعيد إليه بَصَره الذي فقده حُزناً على يوسف – عليه السلام، وكذا حال أحمد بن يوسف عندما جاءه بشير يحمل له خبر إفراق صديقه من المرض، الأمر الذي أدخل البشر على قلب صاحبه المريض أولاً، ثم على قلب "ابن يوسف" ثانية.

ويقرب من الأمثلة السالفة ما كتب بشر في رسالته إلى صديق له يستمنحه: "أم ماذا ينتظرُ الأميرُ – حفظه الله – فيّ؟ بعد أن آتاه الله الملك، وعلّمه الحِكْمَة ومكّنه من خزائن الأرض، وجعله في الدنيا وجيها، وفي الإسلام مَكِينا."[٨] فالناظر في هذه الكلمات يلحظ قدرة بارعة، وطاقة إبداعيّة، وثقافة موسوعيّة جعلت الكاتب يعدد صور استحضاره، وينوع قصص تأثره فهو ينظر إلى قوله تعالى: (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)[١] وقوله تعالى: (وقالَ الملكُ ائتوني به أستَخْلِصْهُ لنفسي فلمّا كَلّمَهُ قال إنّكَ اليوم لدينا

---

(١) كلب الزمان: اشتدّ وألح على أهله بما يسوؤهم. اللسان (كلب).
(٢) أي لأنها لا تجد ما تأكله، كناية عن الجدب والقحط.
(٣) القالي، الأمالي، ج٢، ص١٣٧.
(٤) سورة يوسف، اية رقم (٤٨).
(٥) ميّل بين أمرين: تردد بينهما، أيهما يأتي.
(٦) الصولي، الأوراق، ج١، ص٢٣٤، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص٤٤١.
(٧) سورة يوسف، اية رقم ٩٦.
(٨) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج١٣، ص٤١٤، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٩٨، ١٩٩.
(١) سورة البقرة، اية رقم (٢٥١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكين أمين، وقال : اجْعِلْني على خَزَائن الأرض إني حفيظٌ عليم، وكذلكَ مكنّا ليوسفَ في الأرض يتبوّأ منها حيثُ يَشَاء، نُصيبُ برحمتنا من نشاء ولا نُضيعُ أجرَ المُحسنين)[٢].

فالكاتب هنا يتمثل بقصة نبي الله داود –عليه السلام– مع جالوت،حين مكّنه الله منه، وقدره على قتله، ومكن له ليكون ملكا قد أوتي علما وحكما،وكذا حال صديق الكاتب من حيث ما قد مكن الله له من الملك والحكمة، ولا يكتفي الكاتب بذلك بل تراه يستحضر من قصة يوسف – عليه السلام– ذلك المشهد الذي يغير مجرى حياة النبي حين يفسر للملك رؤيته، فيعجب الملك بحكمته وسعة علمه فيجعله وزيرا للمالية يتصرّف بأمور الدولة المالية، وبدا تصبح خزائنها ملك يده، يتصرف بها كيف يشاء.

والطريف في الأمر أن الكاتب بقدراته الإبداعية استحضر قول الله تعالى: (يا مَرْيَمُ إنّ اللهُ يُبَشّرُكِ بكَلمةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَم وجيهاً في الدُّنيا والآخرة ومِنَ المُقرّبين)[٣]. ناظرا فيها إلى عظم شأن المسيح عليه السلام ووجاهته في الدنيا، وهذا ما يراه مناسبا لوصف صاحبه، أما طرافة الاستحضار فتكمن في توسط هذه القصة أو هذا المشهد من قصة المسيح مشاهد قصة يوسف –عليه السلام–، التي استحضرها الكاتب سابقا، حتى كأنها غدت فاصلاً يحول بين إتمام القصة الأولى، ليضع القارئ في تصور لقصة أخرى، حتى إذا ما عرج عليها عاد ثانية ليحط رحاله في قصته الأولى، متمما ما بدأ قراءته.

وبعد،

فهذا غيْضٌ من فيض، إذ إن صُور التأثر بالقرآن الكريم، وأساليبه وقصصه وتعبيره التي بهرت الكتاب، لا يمكن أن ترصد في هذا المقام، لظروف اقتضتها طبيعة الدراسة، حيث كان الهدف منها محاولة الوصول إلى روافد الظاهرة الأسلوبية، وتنوع أشكاله عبر الكتابات النثرية في العصر العباسي، فيما يتعلق بموضوع "الصداقة والصّديق"، ولا ريب أنّ ما عرض من صور لهذا التأثر حاولت كشف حقيقته، وهو الولع بكتاب الله المقدّس، الذي لا يأتيه الباطل من فوقه ولا من تحته ولا من بين يديه، إضافة إلى أنه –كما بين الباحث سابقا– يمثل الذروة البلاغية التي سعى الكتاب جاهدين نحو تمثلها، والإفادة منها.

---

(٢) سورة يوسف، الآيات، (٥٤، ٥٥، ٥٦).
(٣) سورة آل عمران، اية رقم (٤٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحديث الشريف:

لم يرق الحديث الشريف إلى منزلة القرآن رغم قيمته العظيمة، وموقعه الرفيع من قلوب المؤمنين ونفوسهم، كونه مصدر التشريع الثاني لهم، فغدا التأثر به مقارنة مع القرآن قليلاً، حتى لا يكاد المتصفح للرسائل الإخوانية، والنصوص النثرية الممثلة لتاريخ الدراسة، يقع إلا على نزر يسير لا يكاد يذكر من هذا التأثر.

ومن خلال النصوص القليلة التي تم استقراؤها يلحظ الباحث أن الكاتب حين يضمن رسالته نصاً من الحديث الشريف، فإنه يمهد لهذا التضمين بإشارات توحي بهذا النقل، ومن ذلك ما ضمنه أحد الأصدقاء رسالته حين عاتب فيها صديقاً له يذم الدهر:" وأذكر قول النبي–صلى الله عليه وسلم:" لا تسبُّوا الدّهر فإنّ الله هو الدّهر"[١] وعليكم بالتسليم لحكم العلي العظيم"[٢] وهنا الكاتب يشير إلى تضمينه صراحة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجعله دليلاً، ومصداقاً لما يقوله، ويدّعيه في رسالته، ولذا تكمن أهمية الاستشهاد وقيمته في مناسبة النص المُضَمَّن للموضوع، وألا فقد الاستشهاد قيمته، وجاء شاذاً غريباً فيه نبوٌّ ووحشة.

وبعيداً عن هذا المنحى أخذ الكتاب يتأثرون بمعاني الحديث الشريف، ويستمدون منه تعبيراته التي يبثونها في ثنايا رسائلهم، كما يتضح في رسالة "غسان بن عبد الحميد" معزياً صديقه:" وارْجُ ما وَعَدَ أهلَ المعرفة بحقّه من النّعيم المُقيم، والخُلود الدّائم، فيما لم تعلمه نفسٌ، ولم تَرَهُ عينٌ، ولم يَخْطُر على قلب، ولم تبلغه أمنيَّة."[٣] فالتأثر بمعاني حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم، جليّ إذ يبدو أن الكاتب قد اطلع على حديثه–عليه السلام:"سألَ موسى ربَّه: ما أدْنَى أهل الجنّة مَنْزلة ؟... وما أعلاهم منزلة ؟قال: أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ كَرامتَهم بيدي وختمت عليها، فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمَع أذنٌ، ولم يَخْطُر على قلبِ بشر"[٤].وتأثر بمعانيه، فساق جملة مما أعده الله لعبادة الصالحين في جنات النعيم، وكأنه يسأل المخاطب أن يلتزم الصبر مما أصابه، وأبتلي به، فالصابرون لهم عقبى الدار، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذا يبرّر استشهاد الكاتب بهذا النص، لوقوفه على أمر كان الكتاب كثيراً ما يذكرون به أصدقاءهم، وخاصة في رسائل التعزية من التحلي بالصبر لنيل أقصى درجات الرضى والقبول عند الله– سبحانه وتعالى.

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص١٧٦٣، حديث رقم (٢٢٤٦).
(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٦٤.
(٣) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٢٦.
(٤) صحيح مسلم، ج١، ص١٧٦. حديث رقم (١٨٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التراث:

تأثر كتاب الرسائل الإخوانية بالموروث الأدبي والفكري، شعراً كان أو نثراً، وكان لا بدلهم كي ترقى آدابهم، من الاطلاع على تجارب السابقين، وتشربها، وإنعام النظر فيها، آخذين ما يجدونه مناسبا لأفكارهم وعصرهم، تاركين وراء ظهورهم ما لا يصلح لتناوله والتعريج عليه، فالأديب الناجح من يستحضر تراث أمته، ويجعله نصب عينيه، ويجعله وسيلة للتقدم والارتقاء، لا للجمود والانكفاء، فهو يجعل من تراثه نقطة انطلاقه، محاولاً التجديد والتغيير وفق روح عصره، وهذا نوع من بعث الحياة في كثير من النصوص التراثية، التي باتت أسيرة المظان التراثية، ولذا ترى طائفة -لا بأس بها- من أدباء العصر العباسي وكتابهم أخذوا يتفننون في اقتباس هذا التراث بشتى ضروبه، وصنوفه، فكان حضور التراث الشعريّ لا يقل خطراً عن حضور منظومة الأمثال والحكم، وكان للأقوال والمرويات صدى مدوياً في نثرهم، لا يتضاءل أهميته عن صدى الإشارات التاريخية،وكلها روافد نهل منها الكتاب، واتخذوها مصادر للثقافة التي يأخذ بها المتعلمون أنفسهم.

ومن خلال استقراء الرسائل الإخوانية، لوحظ أن الكتاب لم يكن اعتمادهم على عصر بعينه، إنما تراهم في تأثرهم ينهلون من شتى العصور، فترى أصداء العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي والعباسي ماثلة، متحققة فيما ينثرون، فلا شيء يمنع الكاتب من تمثل هذا الشاهد أو ذاك إذ لا قيود تحول دون بسطه القول فيما يريد، مستأنساً بما يريد من أشعار وأقوال ومأثورات، وغير ذلك مما يركن إليه من عيون التراث.

ولم تكن أساليب الكتاب فيما يتعلق بهذا التأثر تجري في مضمار واحد، وإنما أخذت تتنوع بتنوع ميولهم ومدارسهم وثقافاتهم، والعادة التي جرت في هذا التناول، وينبغي القول إنّ الشعر كان صاحب الحظوة في التأثر والتأثير، وأخذ الكتاب يتسابقون في تمثله، والاستشهاد به، ويتضح من استقراء الأمثلة أن الظاهرة الأكثر شيوعاً،وتداولاً بين الكتاب هي ما رغب فيه الكتاب من الاستشهاد بأشعار الشعراء، على اختلاف منابتهم وعصورهم ومذاهبهم دون التصريح بهم، أو التعريف بهويتهم، وذلك لضرورة اقتضتها ظروف النص، وحرص الكاتب على سيرورة نصه وأفكاره دون بتر أو انقطاع، ومن أمثلة ذلك، استشهاد "عبد الله بن طاهر" ببيت "تأبط شراً" في رسالته التي وصف فيها فرساً أهداه إلى المأمون، يقول "ابن طاهر": "قد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعثت إلى أمير المؤمنين بفرَسٍ يَلحق الأرانب في الصَّعْداء[١]، ويجاوز الظِّباء في الاستواء، ويسبقُ في الحُدُور[٢] جَرْي الماء، فهو كما قال تأبط شرا:

ويَسبقُ وفْدَ الرِّيح من حيثُ تَنْتَحي بمُنْخَرقٍ من شدِّه المُتدارِكِ[٣] "[٤]

وكذا رسالة "ابن الحرون" في وصف أقلام وجهها إلى صديق له:" بعثتُ إليك أقلاما من القَصَبِ النَّابت في الإعذاء"[٥]، المغذوّ بماء السّماء، كاللآلئ المَكْنُونة في الصَّدف، والأحجار المَحْجُوبة بالسَّدَف، تَنْبُو عن تأثير الأسنان، ولا يثنيها غَمْزُ البَنان، قد كستها طبائعها جوهرا كالوَشْيِ الخطير، وفِرِنْد الدِّيباج المُنير، فهي كما قال الكميت:

وبيـــضٍ رقاقٍ صفاح المتـــون تَسَـــمّع للبيض فيها صَرِيرا

مُهنَّـــدة من عَتَاد المـــــــلوك يكاد سَنَاهنَّ يُعشي البصيرا[٦]"[٧]

وقد يجعل الكاتب استشهاده هذا بأبيات يبدأ بها رسالته فتكون عنوانا مناسبا لموضوع رسالته، ومن ذلك رسالة الهمذاني التي بدأها بقوله:

"ويا عزُّ إن واشٍ وشَى بي عندكم فلا تُمْهليـــه أنْ تقولي له مَهْلاً

كمـــا لو وشى واشٍ بعزّة عندنـــا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا أهلاً"[٨]

فهو هنا يستشهد بأبيات "كثير عزة"[٩] دون تصريح بنسبة الأبيات إلى قائلها، والناظر في الرسالة يدرك الترابط القوي بين موضوعها وهو تقريعه لصاحبه الذي صدّق الوشاة، ولذا فهو يطالبه بأن يقلع عن ذلك، ولا يترك للوشاة طريقا إليه للإفساد بينهما، وبين موضوع الأبيات التي يطالب "كثير عزة" حبيبته ألا يجد الوشاة لديها آذانا صاغية، وما عليها إلا أن تنهرهم، وتتجاوز عنهم.

ويقرب من ذلك استشهاده ببيت ابن الدمينة بدأ به رسالته فيقول:

---

(١) الطريق الشاقة لصعودها. اللسان (صعد)

(٢) أي الطريق شديدة الانحدار . اللسان (حدر)

(٣) انظر: تأبط شرا، أبو زهير، ثابت بن سفيان، (ت٨٠ ق.هـ). الديوان، (جمعه: علي ذو الفقار شاكر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م. ص٣٧١.

(٤) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص٢٢.

(٥) الأعذاء: جمع عذي بالكسر: وهو النخل والزرع الذي لا يسقى إلا من ماء المطر، لبعده من المياه. اللسان (عذي).

(٦) انظر: الأسدي، الكميت بن زيد، (ت١٢٦هـ)، شعره، (جمع: داود سلوم)، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٩م. ج١، ص١٩١.

(٧) الحصري، زهرالاداب، ج٣، ص٤٦.

(٨) الهمذاني، رسائله، ص١٥٧.

(٩) الديوان، ص٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"لئن ساءني أن نلتني بمســـــاءة لقد سرني أني خطرت ببالك"[١]

ولا غرابة أن تكون هذه بداية رسالة الهمذاني، خاصة إن كان موضوعها ما لحق بالرجل من إساءة صاحبه له، مما جعل الهمذاني يحمل عليه في عتابة، وينحو في ذلك منحى لطيفاً من حيث قلب الأمور، والنظر إلى الموضوع من زاوية مختلفة، يرى فيها خيراً لا شراً، ألا وهو ذكر الصاحب له حتى ولو كان من باب الإساءة. ولذا وَجَدَ الهمذاني في هذا البيت ملاذاً له يمكنه التعبير عن مشاعره عبره.

وليس بعيداً عن الهمذاني، فإنه يجعل من أبيات "المثقب العبديّ":

"فإما أن تكون أخي بحقٍّ فأعرف منكَ غَثّي من سَمِيني

وإلاّ فاطّرحْني واتّخذنـــي عَـــدُوّاً اتّقِيـــكَ وتتّقِينـــي[٢]".[٣]

خاتمة يناسب بها موضوعه، ويصارح بها صديقه لتكون نتيجة حاسمة، رادعة للصديق، طالباً منه أن يكون صديقاً حقيقياً يركن إليه، وإلا فالقطيعة هي العلاج الرئيس لذلك، وهذا ما اراده الهمذاني من استشهاده.

ولا يمنع قصر الرسالة وإيجازها من تضمينها ما يكون دليلاً على صدق ما ذهب إليه الكاتب، وتشجيعاً لصديقه، كي ينجز مطلبه أياً كان، ومن ذلك ما ضمّنه "إبراهيم بن العباس" حين كتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه فيقول: "فلان ممن يزكو شُكْرُه، ويَحْسُن ذِكرُه، ويَعنيني أمرُه والصّنيعة عنده واقعةٌ موقعها، وسالكةٌ طريقها.

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدِّين والحِجَى إصابة شكرٍ لم يَضِعْ معه أجرُ"[٤]

فالكاتب هنا لا ينسى أن يذكر صاحبه عبر هذا البيت بالأجر الذي سيجنيه إن قضى لأخيه حاجته دون منٍّ أو أذىً.

ويقرب من ذلك ما ورد في رسالة الخوارزمي، التي ينفي فيها عن نفسه تهمة كان قد وُسم بها، ويجعل من الشعر الذي ضمّنه رسالته سبباً لهذا النفي: "ولو تعرّضت لِسَخَطِه بعدَ ما عرفتُه من شَطَطه لتحمّلتُ دونه الوِزْرَ في ظُلمي، ولكنتُ مقدّمته إلى ذمّي، ومن قَعَدَ تحت الريبة رَكِبَتُه، ومن تعرّض للظّنّة نالته،

---

(١) الهمذاني، رسائله، ص٩٦.

(٢) المثقّب العبدي، عائذ بن محصن (ت٣٥ ق.هـ) الديوان، ط١، (جمعه وشرحه: حسن حمد)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م. ص٥٤- ٦٨.

(٣) الهمذاني، رسائله، ص٣٤٤- ٣٤٦.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص٢٥، نسخة دار الفكر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومَنْ دَعا النَّاس إلى ذمِّه ذَمُّوه بالحقّ وبالباطل[١]"[٢]

وقد يشتمل الشعر الذي يستشهد به الكاتب على شيء من صفات الصديق، مما يصلح أن يكون مضمنا في رسالته، كما في قول أحمد بن سليمان بن وهب إلى صديق له: "ليس عن الصَّديق المُخلص، والأخ المُشَارك في الأحوال كلّها مَذْهَبٌ، ولا وراءه للواثق به مطلب، والشاعر يقول:

"وإذا يُصيبكَ والحوادثُ جَمّةٌ حدثٌ حَدَاك إلى أخيك الأوثقِ

وأنتَ الأخ الأوثقُ، والوَليّ المشفق"[٣] فقد استند ابن وهب إلى بيت من الشعر، يخدم مقصده، ويؤدي غرضه، ويوصله إلى مبتغاه.

وقد يجعل الكاتب الشعر المُضَمَّن متمّما لفكرته وكلامه، واصفا لحاله، ولو أسقط هذا الشعر من مكانه لجاء الكلام منقوصا غير كامل، ولافتقر إلى ما يتم لفظه ومعناه، ومن ذلك ما ضمّنه الخوارزمي في رسالة كتب بها إلى "أبي الحسن علي بن دامة"، يعاتبه بسبب انقطاع مكاتبته عنه، فيقول:" وهذا التَّطويل كلّه ارتيادٌ لعذر أجده لسيدي، وإنّ رجلاً أعتذر عنه إلى قلبي، وأبرز ذنبه في مَعْرض ذنبي؛ لأعظمُ في عيني من كلّ عظيم، وأكرمُ على قلبي من كلّ كريم، وكأنّه فيّ وفيه قيل:

"إذا مرضنا أتيناكم نَعُودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر"[٤]

وفي رسالة أخرى له كتب بها إلى تلميذه، وهو من فقهاء نيسابور، لما هرب من "محمد بن إبراهيم"، يعتذر فيها إليه عن انقطاع أخباره لعذر انشغاله بمحنة قد ابتُلي بها، يضمّن رسالته بيتاً من الشعر، يكون جواباً لشرط قد ابتداه، فيقول:" ولقد اعتذرت، فإن عُذرت فاليوم قبرت ثم نشرت،وإن تكن الأخرى.

فهذه عُذرة أن لا تُكن نَفَعتْ فإنّ صاحبه قد تاه في البلد"[٥]

وقد لا يصرح الكاتب بما يريد قوله حقيقة، فيترك الشعر يعبر عن ذلك، كما يتضح في رسالة الخوارزمي:" ولست أقول إنك صادق فأدعي لنفسي فضلاً، ولا أنك كاذب فانقص لك قولاً، ولكني أضع بيننا قول الأول:

---

(١) الأغاني، ج١٣، ص١٠.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١.
(٣) صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٣٠-٣٣١.
(٤) الخوارزمي، رسائله، ص١٦.
(٥) المصدر نفسه، رسائله، ص٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكن عينَ السُّخطِ تُبْدِي المَعَايِبَا "[١]

ومما يستشهد به أيضا على إتمام المعنى عن طريق الشعر قول الخوارزمي في رسالة له" وأما أيام فلان عندنا فقد كانت أطيب من ليل المراد، ولكنها أقصر من ساعات الأعياد ولكن:

لم أستتم عناقه للقائه حتى ابتدأت عِنَاقَهُ لِوَداعه[٢]

جعل الخوارزمي الشعر مكملاً لفكرته، ولو استغنى عنه، لبات الموضوع مبتوراً، ولباتت الفكرة ناقصة، فهو يضمّن الرسالة نفسها بيتاً ويجعله خبراً "لكان": "أما رجائي له محباً لِلقيَاة، وأما خوفي له فعلما بقُصُوري عن بلوغ رضاه...، وكنت:

كَبكر تُحبُّ لذيذ النِّكاح وتَفرقُ من صَولة النّاكح"[٣]

قد يورد الكاتب ما يستشهد به من شعر مورد الإشادة بقائله، وأنه قد أعجب بقوله، مما دفعه إلى تضمينه رسالته، مستدلاً به نجاح ما يقول وفلاحه، ومن ذلك ما جاء في رسالة "القاسم ابن يوسف" يرد على صديق عذله: "ظلمت أعزك الله وما أنصفت، وأسأت وما أحسنت، تأتي ذلك اختياراً، ولا تتبعه اعتذاراً، حتى إذا لدغت بلظى المكافأة، وسُلك بك طريق المجازاة، جَعلت ذلك لنا ذنباً، وألزمتنا له عَتْباً، ومَن لم يعرف قبيح ما يبلى، لم يعرف حسن ما يولى، ولله دَرُّ القائل:

إذا مَا امرؤٌ لم يحمل الحِقْدَ لم يكن لديه لِذِي نُعْمَى جزاءٌ ولا شكر"[٤]

وتقرب من الرسالة السالفة رسالة "أبي العيناء" إلى الوزير "عبيد الله بن سليمان" التي أظهر فيها إعجاباً بالشاعر، ولكنه لم يكن كسابقه فقد صرح باسمه: "أنا-أعزك الله تعالى- وولدي وعيالي زرعٌ من زرعك، إن سقيته راع[٥] وزكا، وإن جفوته ذبل وذوى، وقد مسني منك جفاء بعد برّ، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدوّ، وشمت حاسد،ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لا عبا، ولهم مخرسا، ولله درّ أبي الأسود في قوله:

---

(١) رسائله، ص١٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢. والبيت: لكشاجم محمود بن الحسين، (ت ٣٦٠هـ). الديوان ، (تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م، ص٢٦٧).
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢.
(٤) الصولي، الأوراق، ج١، ص٢٠٦، نقلا عن: صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ج٣، ص٤٥٧.
(٥) راع يريع: نما وزاد. اللسان (ريع)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تُهني بعد إذ أكرمتني وشديدٌ عادة منتزعَه[١]"[٢]

وقد يشير الكاتب صراحة إلى من يضمّن شعره، فيمهد لذلك بإشارات صريحة توحي بها التضمين، ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة "الحسن بن سهل" التي أرسلها إلى صديقة الحسن ابن وهب يستدعيه لمشاركته الأنس واللهو، فيقول: "أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا، بقرب المطر وبعده، كأنه قول كثيّر:

وإنّي وتَهْيَامِي بعَزَّة بعدَما تخلّيتُ ممّا بيننا وتَخَلَّـــتِ

لكالمُرْتجي ظِلّ الغَمَامة كلّما تبوّأ مِنها للمقيل اضْمَحَلّتِ"[٣]

فالكاتب لم يجد شعراً أكثر مناسبة للصورة التي يرسمها، وللحال التي هو عليها من تلهّف للقاء صاحبه، ليشاركه متعة اليوم وأنسه من أبيات "كثيّر".

وعلى الشاكلة نفسها تجري رسالة الجاحظ إلى "محمد بن عبد الملك الزيات"، التي عاتب فيها صديقه على تلوّنه وتنكّره له، واستشهد فيها ببيت من شعر عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت -رضي الله عنه، مشيراً إلى ذلك بقوله: " فقد خفت -أيدك الله- أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء، وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت:

وإن امرءاً أمسَى وأصبحَ سالِمَاً مِنَ النّاس إلاّ ما جَنَى لسَعيد"[٤] [٥]

والجاحظ في رسالته هذه يراوح بين التصريح و التعمية فيما يتعلّق بنسبة الشعر الذي يضمنّه إلى أصحابه، ففي موقع آخر من الرسالة نفسها تراه يقول:

"وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحقّ وبالباطل[٦]"[٧]

ويبدو أن الكتاب تأثروا بهذا البيت كثيراً، الأمر الذي دفع غير الجاحظ إلى الاستشهاد به، ومنهم الخوارزمي – كما تقدّم[٨].

وقد يقتصر الكاتب على تضمين شطر واحد يدرجها أثناء كلامه، حتى لتبدو جزءاً لا يتجزأ من رسالته، كما يتضح ذلك في رسالة الخوارزمي التي كتب بها إلى رئيس سرخس، وقد

---

(١) انظر: أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو، (ت٦٩هـ). الديوان، برواية السكّري، (تحقيق محمد حسن آل ياسين)، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٤م. ص٦٤.

(٢) الحصري، زهر الاداب، ج١، ص٣٣٩ .

(٣) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص١٨٦- ١٨٧. والأبيات في ديوانه، ص١٠٣.

(٤) انظر :الجمحي، محمد بن سلام،(ت٢٣١هـ). طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر،دار المدني،جدة،د.ت،ج١، ص٢١٩.

(٥) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ، ص٢٣١.

(٦) الأغاني، ج١٣، ص١٠.

(٧) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص٢٣١.

(٨) الخوارزمي، رسائله، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورد عليه ابنه يعتذر من تقصيره إليه، فما كان من الخوارزمي إلا أن ذكر مناقب صاحبه، مشيراً إلى فضل الأصول والفروع، قاصداً بذلك الرئيس وابنه، فيقول: "وأما ولَدي فلانٌ فقد كشفتُه عن جَوْهرة كريمة، ودُرّة يتيمة، وقلّبتُه عن عقلٍ كثير، وأدبٍ غزير، وشِعر يحسده عليه الأعداء، وتغبطه به الأصدقاء، يُلتقط بالأبصار، ويخزّن في الأفكار، وقريحة أصفى من ماء السماء، وأصحُّ من الوفاء، فهو بحمد الله على قرب إسناده، وحدوث ميلاده، شيخُ قدرٍ وهَيْبَةٍ، وإن لم يكن شيخَ سنٍّ وهيبة، ووالد من حيث الذِكر والفَخْر، وإن كان ولَداً من حيث العِرق والفخر، ومثّل والده فلان خرّج فأغرب، وأدب فهذّب، وولد فأنجب (إنّ الأصول عليها يَنْبُتُ الشَّجَرُ)، وليست النَّجابة في هذا البيت مَوْرُوثه عَنْ كَلالة"[١] فالخوارزمي هنا ضمّن رسالته عجز بيت من الشعر ذهب مثلاً مع إحلال كلمة "العروق" مكان "الأصول"[٢]، ويُلحظ مدى الترابط بين هذا التضمين ومضمون الرسالة، فقد سار النص المضمّن مع الرسالة وكلماتها متوازنا، دون أن يشعر القارئ بأدنى درجات الانقطاع والفصل، وبقي أن يَذكر الباحث أنّ الخوارزمي لا بد أن اطّلع على البيت كاملاً، فأخذ منه ما يناسب موضوعه، ولو أخذ البيت كاملاً لحقق غايته، ولكنه يرى في أسلوبه هذا ما يحرره نوعاً ما من قيود الشِعر، ولوازمه. وصدر هذا البيت: "يَنْشأ الصغير على ما كان والده"[٣].

وينحو ابن المعتز هذا المنحى في رسالته إلى بعض إخوانه في وصف سامرّاء، فيقول: "ولكلّ مكروهٍ أجلٌ، وللبقاع دُوَلٌ، والدَّهرُ يسير بالمُقِيم، ويَمْزجُ البؤسَ بالنّعيم، وبَعْدَ اللَّجَاجة انتهاء، والهمُّ إلى فُرجة، ولكلّ مسائلةٍ قرار، وبالله أستعين، وهو المحمود على كل حال.

غَدتْ سُرَّ مَن رَا في العَفاء فيالها "قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ"[٤]

وأصبـــح أهلـــوها شبيها بحالها "لما نسجتها من جنوب وشمألِ"[٥]

إذا ما امرؤٌ منهم شكا سُوء حاله "يقولون لا تهلك أسىً وتجمّلِ"[٦]

ويبدو أن طاقات ابن المعتز الشعرية مكّنته من تمثّل ما يناسب شعره، حيث راوح في التضمين بين صدور أبيات معلّقة امرئ القيس الكندي وأعجازها.

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص٣٢.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (ت ٥٣٨هـ). المستقصى في أمثال العرب، (تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م. رقم (١٧٣٠) ج١، ص٤٠٨.

(٣) العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله. (ت٣٩٥هـ). جمهرة الأمثال، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش)، ط٢، دار الفكر، ١٩٨٨م. ج٢، ص٣٨٠.

(٤) انظر: الكندي، امرؤ القيس، (ت نحو ٨٠ ق.هـ). الديوان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط٢، القاهرة، ١٩٦٠م. ص٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقف الكتاب عند حدود التضمين للشعر العربي، وإنما أخذوا يحوّرون ما يضمّنونه، أحياناً، ليناسب نص الرسالة، كما يتضح في رسالة الخوارزمي: "فإلى أين المَهْرَب من الفلك الدوّار، ومن القدَر الجَار، ومن الليل الذي هو مُدْركي (وإن خِلتُ أنّ المنتأى عنه واسع)[١]، فهو هنا يحوّر بيت النابغة [٢]:

"فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أجرى عليه بعض التعديلات، فيما يتعلق بشطريه، حيث جعل صدر البيت يبدو كأنه من نثره بحذفه (فإنك) وكاف التشبيه، وإضافته حرف جر جعله يسبق (الليل) لأنه عطفها على ما قبلها (الفلك الدوار، القدر الجار)، أما عجز البيت فقد تضمنه كاملاً دون نقص، إلا أنه غير الضمير من المخاطب (عنك) إلى الغائب (عنه) ليتناسب ذلك كله مع نصّه.

ويقرب من الرسالة السابقة قول "الصاحب بن عباد" يقّرع صاحبا له، تقريعاً شديداً، فيقول: "وصَلَ كتابُك أيّها الشّريف-أطال الله بقاءك- ولكنْ بعد ماذا، بعد أنْ كَدَدْتَك بالعَتب الوَجيع، وقرَّعتُك بعَصَا التّقريع :

وكأنّ الأكف قد عصرته بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل."[٣]

يقتبس الصاحب بيت "أبي تمام الطائي" الذي يقول فيه:

وكأنّ الأنامل اعتصرتها بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل[٤].

حيث يظهر للقارئ أن "الصاحب" غيّر وبدّل بما يجعله مناسباً لحال مخاطبه الذي يخصّه بالتقريع الشديد، فجاء بكلمة (الأكفّ) لتكون بديلة من كلمة (الأنامل) عند أبي تمام، ثم أضاف الصاحب من عنده أداة التحقيق (قد) مع الماضي، زيادة من توكيد المعنى، ووجه الخطاب نحو صديقه مستخدماً ضمير المفرد الغائب المذكر (ــه) بدلاً من الغائب المؤنث (ــها).

ومما سبق يمكن القول " إن الكتاب كانوا في تحويرهم يتلاعبون بضمائر القول، فيحوّرون، ويبدلون بما يتناسب وطبيعة الخطاب، فضلاً عن طبيعة الموقف.

***

(١) الخوارزمي، رسائله، ص٥٦.

(٢) انظر: النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، (ت ١٨ ق.هـ). الديوان، (جمعه وشرحه وكمله: علي أبو ملحم)، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م. ص٧٥ والجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٨٧.

(٣) الصاحب بن عباد، رسائله، ص١٥٧.

(٤) أبو تمام الطائي، حبيب بن أوس، (ت). الديوان. لم أقع عليه في ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن صور التأثر بالشعر العربي، برزت ظاهرة التأثر بألفاظ الشعراء وصورهم ومعانيهم، وأخذت هذه الصور تتبلور في أذهان الكتاب حتى غدت رافداً لهم يغذّون السير نحوه في نثرهم وكتاباتهم، ولذا أخذ الباحث يلاحظ على الكتاب ظهور أصداء لمعاني الشعر وألفاظه، دون الحاجة إلى تضمين شيء من هذا الشعر أو ذاك، إذ كانت تكمن في استحضار المعاني وإفراغها في قوالب شكلية جديدة، مع الالتزام بالألفاظ في بعض الأحايين، ومن الشواهد على ذلك ما كتبه "عمرو بن مسعدة" يوصي برجل عزيز عليه إلى صديقه راجيا منه أن يحقق مطلبه لمنزلة هذا الرجل عنده، والطريف في الرسالة أنها كانت مفرطة في الإيجاز، حتى إنها لم تتجاوز السّطر، إلا إنها تحمل في طياتها معنى جليلاً: "أما بعد، فمُوصِل كتابي إليك سَالِم، والسّلام"[١] فلعل الكاتب أراد قول الشاعر:

يُديرونَني عن سَالمٍ وأديرهم وجِلْدَهُ بين العين والأنف سالمُ[٢]

أي أن سالم أو من يحمل هذا الكتاب يحلّ منّي هذا المحل، وهو بذاك يقيد صاحبه، فلا مناص مما كلفه به، من قضاء حاجة المدعوّ سالم، ويلحظ هنا كيف استند عمرو إلى المعنى المراد من البيت فاستلهمه وترك شيئاً منه يدلل عليه، فكان التأثر مزدوجاً يضم اللفظ والمعنى معاً.

ومما يمكن التعريج عليه ضرباً من ضروب التأثر بالموروث الشعري، ما أطلق عليه القدامى "نثر المنظوم" الذي أخذت بوادره تتسلل إلى ميادين الأدب منذ القرن الثالث الهجري، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رسالة "ابن العميد" إلى صديقه "أبي عبد الله الطبري" يقول فيها: "وأما عُذْرك الذي رُمْتَ بسطه فانقبض، وحاولت تمهيده وتقريره فاستوفزَ وأعرض، ورفعت بضبعِه فانخفض، فقد ورد ولقيته بوجه يؤثر قبوله على ردّه، وتزكيته على جرحه، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسه، ولم يقم عند ظنّك به، أنّي وقد غطى التذمّم وجه، ولفّ الحياء رأسه، وغض الخجّل طرفه، فلم تتمكن من استكشافه، وولّى فلم تقدر على إيقافه، ومضى يعثر في فضول ما يغشاه من كرب حتى سقط، فقلنا: لليد والفم؛ ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلا تأبّط شراً، أو تحمّل وزراً."[٣] وهذه الأبيات -كما يشير الحصري- محلولة عن أبيات ابن العميد نفسه من عقد نظمه إذ يقول[٤]:

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٣٩٠.

(٢) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، ط١، دار المعارف، ١٩٦٥. ج١، ص٢١٨ والبيت قاله عبد الله بن عمر بن الخطاب في ابنه سالم -رضي الله عنهم.

(٣) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٢٦٤.

(٤) انظر القصيدة في: الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، ص٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إقرَ السّلام على الأمير وقُلْ لـه (قدكَ اتّئِبْ أربْيتَ في الغُـلواء)
أنت الذي شـتّتَ شمل مسـرّتـي وقدحت نار الشوق في أحشـائي
ورضيت بالثمن اليسير مَعُوضـة منّـي فهلا بعتنـي بغـلاء
وسألتُك العُتبى فلم ترني لهـا أهلاً، فجُدْت بعـذرةٍ شوهـاء[١]
وَرَدَتْ مُموّهة فلم يرفـع لهـا طرفٌ، ولم تُرزق من الإصغـاء
وأعـار منطقها التذمّمُ سكتـةً فتراجعت تمشي على استحيـاء
لم تُشفَ من كَمـدٍ، ولم تبـرد على كبدٍ، ولم تمسح جوانـب داء[٢]
داوت جوىً بجوى وليس بحازم منْ يسـتكفّ النار بالحِلفـاء
من يُشقَ من كمد بأخر مثله أثـرتْ جوارحـه علـى الأدواء

ويبدو أن ظاهرة "نثر المنظوم" أخذت تروج رواجا كبيرا، حتى أغرم بها نفر من الأدباء، وعلى رأسهم الثعالبي أبو منصور الذي ألف في الموضوع نفسه مصنفاً سمّاه: "نثر النظم، وحل العقد" جمع فيه جمهرة من الأقوال والرسائل التي نثرت من الشعر، وكان دأبه في الكتاب أن يجمع بين الشعر ومنثوره في مكان واحد، كي يتسنّى للقارئ أن يقابل بين الأسلوبين، ومن الفقرات التي أوردها الثعالبي في كتابه، وفيما يتعلق بموضوع الصّداقة والصّديق يذكر الباحث الشاهد الذي أورده في باب استزارة الإخوان: "أراك يا مولاي تواخيني فتداجيني، وتصافيني فتعاديني، وتصادقني فتنافقني، وتعاشرني فتكاشرني، فإما أن تكون أخي بالحقيقة. وتبذل لي من لسانك أوكد الوثيقة، وإلا فاتخذني عدوّاً أتقيك وتتقيني، ولا أرتجيك ولا ترتجيني، والسلام.[٤]"

فالكاتب هنا نثر أبيات المثقف العبدي التي يقول فيها:

فإما أن تكون أخي بحقٍّ فأعرف منك غثّي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدوّاً أتقيـك ويتقيـني[٥]

(١) العتبى: الاسترضاء. اللسان (عتب). والعذرة: الاعتذار اللسان (عذر).
(٢) الكمد: الحزن والغيظ. اللسان (كمد).
(٤) الثعالبي، نثر النظم وحلّ العقد، دار الرائد العربي، بيروت، ص١٢٠.
(٥) الديوان، ص٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجدير بالذكر أن بعض الكتاب ممن أتقنوا فن الشعر، وبرعوا فيه، كانوا يضمنون رسائلهم بعضاً من شعرهم، ويشيرون إلى ذلك بألفاظ توحي بذلك، ومن هذه الألفاظ: (أنشد)[١] و (أنشدت)[٢]، و(أقول)[٣]، و (كتبت)[٤]، و (بإنشاد)[٥]:

ولم يتوقف تأثر الكتاب عند حدود الشعر، بل تجاوزه إلى غيره، من تاريخ وآداب وسياسة، واقتصاد، وعلوم، وغير ذلك مما شكل ثقافة الكتاب، ومن ذلك ما يمكن للقارئ أن يلاحظه في رسالة للخوارزمي مطوّلة، يعاتب فيها صديقاً له، وقد حشد فيها جمهرة من الإشارات التراثية، مما يدل على سعة اطلاع الرجل، وعمق ثقافته، ولا يستطيع الباحث تقصّي جميع الإشارات في هذه الرسالة لكثرتها، ولكنه سيعرّج على بعضها، لتكون صورة التأثر واضحة وجليّة، ومن الإشارات التي استحضرها الخوارزمي: أحمد بن يوسف في البلاغة، وعبد الحميد بن يحيى في اتساع الكتابة، وجعفر بن يحيى في الاختصار، وأبو الربيع في التوسّع والإكثار، وأبو العيناء في العارضة، وأبو العتاهية في البديهة، وابن المعتز في التشبيهات، وأبو نواس في الخمريّات والطرديات، والعتابي في المعاتبات، والنابغة في الاعتذاريّات.

أما في استحضاره لشخصيات مشهورة لها ذكرها بين الناس، فيذكر: عجوز آل رقية، وعذراء آل خارجة، وسحبان وائل في المقامات، وباقل في العِي، والشعبيّ، وابن القرية والنمري، والحسن البصري.

وفي علوم الكلام: النظام في الكلام، والجاحظ في الجد والهزل، وإياس بن معاوية في الذهن والعقل.

وفي علم الرواية والحفظ: الأصمعي، وأبو عبيدة.

وفي ميدان السياسة والحكم والقضاء: أمير المؤمنين، وشريح القاضي.

وفي ميدان الفلسفة: بطليموس في علم الهيئة، وارساطاليس علم الفلسفة، وبلنياس باب الطلسم والحيلة.

وفي ميدان السحر: هاروت وماروت.

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٢، ص٢٣٦.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص٤٠.
(٣) اختيار المنظوم والمنثور ، ج١٣، ص٣٠١، نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٢٨٦.
(٤) الصاحب بن عباد، رسائله، ص٥٨.
(٥) الخوارزمي، رسائله، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغير ذلك من الإشارات إلى علماء النحو والحساب والصرف والإعراب والعروض وأيام العرب والنسب. وهو حين يجند كل هذه الإشارات فإنما يقصد المبالغة، وعرض ثقافته، وقدراته الإبداعية على استحضار هذا الكم الكبير من الشخصيات والحوادث التي تدل على موسوعية ثقافة الرجل، ثم يمضي الخوارزمي يبين للقارئ سبب استحضاره هذا الكم الكبير فيقول: "ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني، أو يجري فيه بناني، لقصّر عن ذلك عناني، ولارتبك فيه عَقْلي وبياني، ولعييت والحقّ معي، وانقطعت والحجة لي..."[١]ويقرب من ذلك ما ضمنه الجاحظ في رسالته فيقول: "وما مثلكم إلا كَمَثَل عيسى بن مريم -عليه السلام- حين كان لا يمرّ بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً، وأسمعهم خيراً فقال له شَمْعُون الصفا[٢]: ما رأيت كاليوم، كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً! فقال "كلَ امرءٍ يُنفق ممّا عنده"[٣].

وإلى جانب ذلك برز تأثر الكتاب بالحكم والأمثال الموروثة، فقد وجد الكتاب فيها ضالتهم للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم تجاه الموقف المراد في الرسالة، وإذا كانت هذه الحكم والمأثورات قد عبّرت عن تجارب السابقين، فلا بد لمن يستقونها، ويستحضرون المواءمة بينها وبين ما ورد في نصوصهم ونثرهم، أن تغدو هذه المأثورات جزءاً لا يتجزّأ من أصل الرسالة، فهي تكملها، وتمدّها بالقوة والحجة الدامغة، "فلما دخل كثير من الفرس في الإسلام، وكانت لهم ثروة كبيرة من الحكم والأمثال في جميع مرافق الحياة نقلوها إلى العربيّة. وكان على رأس هؤلاء ابن المقفع، فقد نقل حكم الفرس وأمثالهم، وقصصهم، والقصص الرمزية التي تشير إلى الأخلاق... هذه حكم في الأخلاق الفردية، وهذه حكم في الأخلاق الاجتماعية، وهذه حِكم في السياسة وفي الملك وما يلزمها[٤]".

ولعل من أشيع طرائق توظيف المثل والحكمة أن يعمد الكاتب إلى عبارة صريحة تدل على أنهما منتميان إلى لون أدبي يضمّنه الكاتب من غيره، وغالباً ما تكون العبارة الممهدة قائمة على فعل القول ومشتقاته، كما يتضح في رسالة الجاحظ إلى صديق له في الاستعطاف: "ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض، والنفار الغالب، فلو لم ترضَ لصاحبه بعقابٍ دون قَعْر جهنّم، لعذرك كثير من العُقلاء، وصوّب رأيك عالم من الأشراف، والأناة أقربُ من

---

(١) الخوارزمي، رسائله، ص١٠٩.

(٢) هو أحد الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام، واسمه بطرس، وهو الذي بشر بالقدس وأنطاكية وما حولها. انظر ذلك في القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٩٠.

(٣) ابن نباتة المصري، سرح العيون، ص١٧٥.

(٤) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحمد، وأبعدُ من الذمّ، وأنأى من خوف العَجَلة، وقد قال الأول: "عليك بالأناة، فإنّك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعته"[١]. ويبدو أنّ الجاحظ قد أعجب كغيره من الكتاب بمأثورات مالك بن عمرو المعروف بـــ (أخو ثقيف)[٢] فأخذ يضمّن منه فيقول: "وأنا أقول كما قال أخو ثقيف "مودة الأخ التالد وإن أخلق، خير من مودة الأخ الطارف، وإن ظهرت مساعيه، وراقتْ جدّته"[٣] ويلاحظ القارئ لهذه الرسالة أنّ الجاحظ حين ضمّن هذين القولين، أحدهما يحمل فكرة الأناة بينهما والثاني فكرة المودة للصديق القديم، فإنه يربط بينهما، وبين موضوعه الرئيس في رسالته، وحق الصديق على صديقه أن يتجاوز عن هفواته، ويغفر ذنوبه، متحليا بالأناة والصبر على ذلك، ولذا جاء القولان منسجمين مع النص، لا نفور فيهما ولا شذوذ.

ويقرب من ذلك ما ضمّنه "أحمد بن أبي طاهر" حين أخذ يعاتب "أبا علي البصير" على مؤاخاته من لا يصلح للمؤاخاة والصداقة، وهو حين يضمّن هذه الأقوال فإنه يقدّم لتضمينه بعبارة تحمل صيغة المجهول، إذ لا يهمه القائل بقدر اهتمامه بالفكرة التي يحملها النص أو النصوص المضمّنة. فيقول: "وقر الله يا أخي من كل خير حظّك، وأجزل منه قسمك، وبلّغك غاية هممك، ونهاية طلبتك، ومتّع إخوانك بما منحهم منك، وأعاذهم من الغير فيك، إنه يقال – جعلني الله فداك –: أخوكَ من صدّقك، وعدوّك من نافقك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك، والعتابُ إمارة الإشفاق، ودليل الضنّ من الإخوان، ومن جادلَ نفسه في هواه، عرَف صوابه وخطأه، وعلى النَّصَفة ثباتُ المودة، ومع المشاكلة تكون الموافقة"[٤] فالكاتب في هذه الرسالة يحتاج إلى ما يدعّم قوله وعتابه، وأنه لا ينطلق من هذا العتاب إلا من باب صدق النصيحة لأخيه، لذا وجد لزاما عليه أن يضمّن من الأقوال المشهورة ما يثبّت به عتابه، ولومه ليقع في نفس صاحبه موقعا بليغا.

وقد يورد الكاتب المثل في رسالته مورداً لطيفاً دون الإشارة إلى ذلك، فيقع موقعاً حسناً في أذهان السامعين والقارئين، وما ذاك إلا لما حبا الله هذا الكاتب من قدرات إبداعية جعلته يضمن نثره أقوال غيره فيجلعه متصلاً بنثره حتى لا يكاد يميز هذا القول إلا ذوو الخبرة ممن لهم الدربة على ذلك، ومن أمثلة ذلك ما أورده الهمذاني في رسالته التي أخذ يتحدّث فيها عن نفسه، بصيغة الكبرياء والرفعة، فيقول: "فإني وإنْ كنتُ في مُقتبل السنّ والعمر، قد حَلَبْتُ شَطْرَي

---

(١) ابن نباتة المصري، سرح العيون، ص١٧٦.

(٢) انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٤١٦ وفيها: "فقلت أنا وذاك أصلحك الله كما قال أخو ثقيف." وأبو الفرج الجوزي، جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر، (ت٥٩٧هـ). المدهش، (تحقيق مروان قباني)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م،ج١، ص١٣٢.

(٣) ابن نباتة المصري، سرح العيون، ص١٧٦.

(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٢٣. نقلا عن : جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّهر، وركبت ظهري البرّ والبحر، ولقيت وَقدي الخير والشرّ، وصافحتُ يدي النَّفع والضرّ، وضربت إبطي العسْر واليسْر، وبلوت طعمي الحلو والمرّ،ورضعت ضَرعي العُرْف والنكر"[١] . لقد ضمن الهمذاني عباراته المسجوعة، ذات التقسيم المتوازن عبارة ذهبت مثلاً وهي (حَلبْتُ شَطْرَي الدّهر)، التي تقال للرجل المجرّب[٢]، والهمذاني هنا يؤكد هذه السجيّة في سيرته وشخصيته، وأصل المثل: حلبت الدهر شطره، وأشطره[٣]، ومما يلاحظ هنا أن الهمذاني حوّر المثل بما يتناسب وعباراته التي جمع في كل عبارة منها ثنائية تضم متضادات تهدف إلى تكثيف المعنى وتقويته.

المعجم اللغوي:

ويقف الباحث مع هذه السطور من الرسالة نفسها؛ ليعرض شغف الكاتب بالسجع وضروبه فيقول واصفاً ابن مكرّم، مصوّراً إياه بتلك الصورة المنفّرة: "المَقليّ المُذمّم، المهينَ "ابن مكرّم"، العاق لأبيه، والمنتفي من أخيه، والقاذف لأمه، والقاطع لرحمه، المهتوك الحرمة، الوضيعَ الهمَّة، الضيِّق الصدر، القريب القعْر، السريع إلى الصديق، البطيء عن الحقوق، المشهور بالزنّاء، المعروف بالبغاء، العاكف على ذنبه، الصادفِ عن ربه، الوضيع في خلائقه، العاتي على خالقه و..."[٤].

لاحظ كيف يزاوج بين العبارات، وكأن الكاتب أخذ على نفسه أن يورد ثنائيات متقابلة، وقد وازن بين هذه الثنائيات، وساوى بينها، فجاء ازدواجه للجمل المتساوية، والمتوازنة يمنح النص بعداً موسيقيا مؤثراً في نفسية القارئ، والسامع، ولا يملك السامع لها إلا الإصغاء حرصاً على ألا يفوته جزء من أي ثنائية ذكرت، ونتيجة لحرصه على تحقق الازدواج، وتوازن العبارات، والتقسيمات مكّن القارئ من توقع الخاتمة في كل ثنائية، فهو يعرف رويّها، وهذا يسهل عليه تبينها وتوقعها.

ولتكتمل الصورة، فلا بدّ من تناول مقطع ختامي من الرسالة وفيه يقول: "وقد تظاهرت عليه بما قلت الشهادة، وهتفت به الألسن من كل ناحية، وتحاماه كل ذي دين ومروءة، فأعطيت المودة غير أهلها، ومنحت الجفوة غير مستحقها، ووصلت من قطعكَ، وقطعتَ من وصلك."[٥]

---

(١) الهمذاني، رسائله، ص١٠٢.
(٢) المستقصى في أمثال العرب، ج٢،ص٦٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٤.
(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٤٢٣. نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٤، ص٣٥٠.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمقطع الأخير من الرسالة كسابقيه، إنما أورده الباحث ليعرض صورة من دوران السجع وضروبه من أول الرسالة وحتى آخرها مروراً بوسطها، والكاتب يهدف من توفير السجع والازدواج لرسالته تحقيق المتعة الفنية، عبر التلوين الذي أشبه ما يكون بالموسيقي التصويرية للنصوص.

وعلى غير ذلك يكتب "سعيد بن حميد" إلى أبي صالح بن يزواد، يهنئه بعيد النيروز فيقول: النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمل مصروف نحوك، فما عسى أن أهدي إليك في هذا اليوم، وهو يوم سهّلت فيه العادة أن ندّعي أن في وسعنا ما يفي بحقّك علينا، فنكون من الكاذبين، فاقتصرنا على هدية تقضي بعض الحق، وتنفي بعض الحقد، وتقوم عندك مقام أجمل البر... وقد بعثت الرسول بالسكر الطيب وحلاوته، والسفرجل لفأله وبركته، والدراهم لبقائه عند كل من ملكه"(١).

تحمل هذه الرسالة أسلوب سعيد بن حميد، وما يميزه من التقطيعات المتوالية، والمعاني المتقابلة، فالنفس يقابلها المال، والرجاء يقابله الأمل، ويسقط السجع سقوطا طبيعيّا كأنّه ثمر يسقط من شجرة مورقة. ويمسح على ذلك لطف الحضارة، وما يمتاز بها أهلها من دقة الحِسّ، ورهافة الذوق، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها الهدية، فالسكر رمز للحلاوة، والسفرجل رمز للبركة، والدرهم رمز لبقاء الوزير في عزّه.

وكتب ابراهيم بن العباس الصولي إلى ابن الزيات يستعطفه :"كتبت إليك وقد بلغت المدية المحزّ، وعدت الأيام بك علي بعد عدوي بك عليها، وكان أسوأ ظني، وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكفّ عن أذاها، فصرتَ عليّ أضرّ منها، وكفّ الصديق عن مضرتي، وبادر إليّ العدوّ تقرّبا إليك"(٢).

يلاحظ القارىء في الرسالة السالفة أن الصولي قد اختار كلماته بعناية فائقة وكأنه قصد ذلك، فهو من أنصار المواءمة بين اللفظ والمعنى، وهو يفكر فيما يكتب، ثم يختار لما يكتب الألفاظ الجزلة الناصعة، محدثاً بينها ضروباً من التلاءم، بحيث يبدو كلامه مقطعاً، وهو في كل ذلك يلجأ إلى الازدواج فيوازن بين العبارات، ويتوالى الطباق في الرسالة: فالسكون يقابل الحركة، والكف يقابل المبادرة، والصديق يقابل العدو، وكذلك يلجأ إلى الكنايات، فالمدية بلغت

---

(١) أبو عثمان، سعيد بن حميد، (ت بعد ٢٥٧هـ)، رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، تحقيق يونس أحمد السامرّائي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١م. ص٨٠.

(٢) الأصفهاني ، الأغاني، ج٩، ص٢٦ نسخة دار الفكر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها، لقد كان ينتصر به عليها، فإذا هي تقهره به.

وله في رسالة أخرى كتبها في السلامة: "أما بعد، فإنّ لكل فرع أصلاً، عنه مؤدّاه ومستنبطه، وإليه مرجعه وموئله، ومتى رجع من أصول الأمور إلى تأثّلها[١] وتمكنها، رُجع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها، وأفضل ما تدبره أمور دين الله وخلافته، وحقوق الله وعباده، فكان الأصل وزكاؤه[٢] ما جمع بإذن الله مسكون الدهماء[٣]، وصلاح البيضة[٤]، وأمن السّرْب[٥] وتظاهر النعم، في قرب وبعد، ودنا ونأى... فافعل ذاك معانا على أمرك".

ويلاحظ اهتمام الكاتب بالترادف والازدواج في هذه الرسالة، وهذا الاهتمام غدا جلياً منذ السطور الأولى فمورده تليها مستنبطة وهي تحمل المعنى ذاته، وكذا مرجعه تليها موئله، وتأثلها تليها تمكنها، واستتبابها يليها استقامتها، إضافة إلى دور الطباق الذي أورده في تقريب الصورة، وتكثيفها: كفروع وأصول /وقرب وبعد /ودنا ونأي.

وكل ذلك يحاول الكاتب من خلاله إرضاء أذن السامع.

ويتأنّق ابن العميد في وصف كتب إخوانه، ويبرع كذلك في العتاب، فيقول: "كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدلّ بسابق حرمة، وتمتّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعها بأنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك، ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدّم رجلاً لصدمك، وأخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يتوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو."

يلاحظ أن ابن العميد قد اهتم بألوان البديع، وخاصة الطباق، والمقابلة بين المعاني، ومن الأول ما ورد في الرسالة: (طمع/ يأس) و(إقبال/ إعراض) و(أبسط/ أثني)، أما الجمل التي أوردها فقابل فيها بين المعاني فهي: (ميل إليك/ ميل عليك) و (ابسط يداً/ أثني ثانية) و (يذهب الحزم/ يعود) و(يفسد العزم/ يصلح) و(يضاع الرأي/ يستدرك) و(يسكر المرء/ يصحو)

---

(١) تأثّل : تأصّل. اللسان (أثل).
(٢) الزكاء: النماء والصلاح. اللسان (زكا).
(٣) الدهماء : جماعة الناس. اللسان (دهم).
(٤) البيضة: الولاية. اللسان (بيض)
(٥) السّرْب: الجماعة. اللسان (سرب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و(يكدر الماء/ يصفو)، وكل ما سبق من طباق، وتقابل في المعاني يعززه الكاتب بتوازن عباراته وازدواجها، فقد نشأ في عصر اقترن فيه السجع بالازدواج، غير أن سجعه يرسل التعلم على سجيته، فيجعله حلية فطرية، رشيقة الألفاظ، قصيرة المقاطع، رنانة الفواصل، يجذبه الإيقاع، ولاشك أن النزعة التصويرية فيه كان لها أثر هام في نثره، إذ جعلته نثراً مصوّراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم في كتاباته.

وهذا العتبي يجعل من التقاليد الاجتماعية، وما تعارف عليه الناس من أمور الخطبة والزواج، وما يقع في مثل هذه الطقوس من خطابات، ومفردات تناسب المقام والحال، وما يجري بين الخاطب وذوي الخطيبة من أمور وسلوك، يجعل كل هذا وسيلة لخطبة ودّ صاحبه، وخطبة الودّ والصداقة صورة مكررة من النثر، فقد جعل الكتاب، أمر التماس الود من الصداقة، أشبه ما يكون بالتماس الزوج أو الخطيبة، ومن ذلك ما قال المطيع بن إياس، حين قال له لصديقه: "جئتك خاطبا، قال: لمن؟ قال: لمودّتك، قال: أنكحتها، وجعلت الصّداق أن لا يقبل فيّ مقالة قائل." [١]

"أما العتبي فيقول: "أنا خاطب إلى مولاي كريمة ودّه، على صِداق قلبٍ معمور بذكره، مَقصُور على شُكره، معترف بفضله، عالم بتبريز خصله، على أن أصونها من غواشي الصّدر في سُجُوف، وأمسكها مدى الدهر بمعروف، وأنحلها من عادة الرفق، ودماثة الخلق، ووطاءة الجناب، ولطافة العشرة والاصطحاب، ما لا تكتسي معه نفوراً ولا انقباضاً، ولا تشتكي نشوزاً وإعراضاً، فإن وجدني مولاي كفؤاً له بعد أن جئت راغباً، وبلسان الخطبة خاطباً، أنعم بالإسعاف، وجعل الجواب مقدمة الزفاف، حامياً به ديباجة السؤال، عن خجلة الردّ ووصمة المطال، وقد قدمت بين يدي هذه النحوي صدقة، طلباً للتحاب لا على حكم الاستحقاق والاستيجاب، ومهما أنعم مولاي بقبولها أيقنت استكفاءه إياي لوده، واستغرقت الوسع والإمكان في شكره."[٢]

يظهر العتبي في هذه الرسالة، وكأنه أمام عقد من عقود الزواج بصيغته، وتعابيره وشروطه، فهو يخطب مودّة صديقه، ويجعل هذه المودة عروسه، يتقدّم لخطبتها، مستخدماً صيغة تعارف عليها القوم في خطبتهم قياساً على قولهم: زوجتك نفسي على صداق معجله كذا وكذا، على أن أكون كذا وكذا، وهذا لسان العتبي جعل صداق زواجه حفاظه على ودّ صديقه، معترفاً بفضله، غير منكر له، وللصديق أن يقبل شريطة أن يحقق الصديق ما وعد به، أو ما اشترطه

---

[١] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٤٨.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على نفسه، والعتبي تعهد بصيانة خطيبته، وأن يحقق فيها قول الله عز وجل: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[١] .

ولن يكون لها إلا بارا عطوفا شفوقا، يعاشرها بمعروف، ولا يؤديها إلى نُشوز أو إعراض، وبما أن هذه المودة (الخطيبة) بكْرٌ، لم يسبق لها نكاحا، فإنه يعلم ما ستعرض له من شعور بالخجل حين تصارح بذلك، وكأنه جعل الجواب مقدمة الزفاف، حاميا به ديباجة السؤال، عن خجلة الرد ووصمة المطال"[٢] وهذه عادة اجتماعية تعارف عليها الناس، وألفوها، وهي شعور البكر بالخجل حين يتقدّم لها خاطب، فلا يستطيع ردا أو جوابا، ولذا جعلت علامة قبولها السكوت، وذلك خلاف الثّيب التي لا بد من تصريح لفظي بالجواب.

أما فيما يتعلق باللفظ، فالمتصفح للرسالة يحصي عددا لا بأس به من المفردات الخاصة بهذه الطقوس الاجتماعية في الزواج مثل: خاطب، وكريمة، وصداق، وأصون، وغواشي، وأمسكها بمعروف، ولطافة العشرة، ونشوز، وإعراض، والزفاف، وخجلة الرد، وبقبولها." [٣]

وكي يجعل العتبي صورته حية، صوّر غير المحسوس (المودة) بصورة المحسوس (الخطيبة، العروس) وهذا أسلوب فني يقرب الصورة إلى ذهن السامع، ويجعلها على علاقة بالأشياء المنظورة، التي يستطيع المرء أن يلمس أثرها المادي في حياته.

ولا شك أن بعض الصور قد استمدّت من الوسط الحضاري، بما يشتمل عليه من جوانب اقتصادية وعمرانية وترف وبذخ وغير ذلك، والكاتب ابن للبيئة التي يعيش فيها، ولا بد له من التأثر بها، يأخذ من عناصرها وتركيباتها ما يناسب أدبه وفكره، ويجعلها تختزن ذهنه، ليقوم بصهرها وإعادة هيكلتها عبر تعابيره، وصوره الفنية الإبداعية، والمتصفح لرسائل الخوارزمي والهمذاني وغيرهم، يلمح عددا لا بأس به من مصطلحات تجارية واقتصادية، فيما يتعلق بما تقوم عليه المعاملات المالية، وعقود البيع والشراء، كما يتضح في رسالة الخوارزمي التي استخدم فيها المصطلحات الآتية[٤]: (مجان، وأثمان، ودرهم، وبيت المال، وجباية، وخراج، وغرامة، ومعيار، وصك عقاري)، والهمذاني الذي جمع بين عناصر حضارية، وأخرى اقتصادية في رسائله مثل: السمط (العقد)، والمشط، ومنشور عمالة، وصك جَعَالة[٥] دار يصهرج

---

(١) سورة البقرة، اية رقم (٢٩٩)

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥٩.

(٤) الخوارزمي، رسائله، ص١٥، ٣١، ٩٠.

(٥) الهمذاني، رسائله، ص١٤٧، وانظر: الحصري، زهر الاداب، ج١، ص٣٠، وج٢، ص١٨٥، ١٨٦. والثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٤٦١. والجَعالة: ما يُجْعل على العمل من أجر أو رشوة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرضها، ويزبرج بعضها، ويزوق سقوفها، ويعلق شغوفها، وهذه صورة عمرانية تدل على مظهر حضاري من حيث إنشاء البيوت وإعمارها وتزيينها وتحسين منظرها[١].

وللوقوف عند صورة يظهر فيها ملامح الوعي الحضاري وعناصره، يقول في حق صاحبه: "وكفاه من الفضل أن تحمل الغاشية قدامه، وتعدو الحاشية أمامه، ألفاظ قفاعية، وثياب مشقاعية يلبسها ملوما، ويحشوها لوْما ولوْما." [٢]

فالهمذاني يتهكم بصاحبه، ويقرعه تقريعا شديدا، ويأخذ من الحضارة صورة الغاشية والحاشية والخدم سبيلا إلى ذلك، والحاشية الخدم والأتباع، والغاشية، ما يغشى به سرج الفرس الذي يحمله من يقوم على سياسته أمام الأمير والرئيس أو نحوهما.

وكذا فهو يستمد من بيئته وحضارته: الثياب والقفعة: وهي وعاء مخصوص بلا عروة أو جلة التمر أو مستديره يجتنى فيها الرطب ونحوه، والدوارة التي يجعل الدهانون فيها السمسم المطحون، ثم يوضع بعضها على بعض حتي يسيل منها الدهن، فكأنه شبه ألفاظ صاحبه بذلك، أي هي وعاء مبتذل لأنها لا تشتمل على معايير سامية، وبذا يستعين الهمذاني بهذه الأدوات والآلات كي يقيم صورته، ويعقد تشبيهاته، ولا يمكن للهمذاني أن يستوحي من بيئته إلا ما تعارف عليه القوم من عناصر هذه الصور، بلا وحشة ولا غرابة، وإلا غدت الصورة وحشية وغريبة، لا يتحقق لمبدعها البلاغ والتأثير.

ويذكر الباحث بما أولع به الكتاب من التصوير بمناظر الطبيعة، فأفادوا منها في تشكيل صورهم، ومما أولعوا به، منظر البرق المضيء، بما ينطوي عليه من معاني الخوف والطمع والرجاء والحقيقة والوهم، يقول "محمد بن عبدالله بن حرب" يخاطب أحدهم: "فأما قيلك: إنا صرنا عندك –فيما أخلفنا من ظنك، وبعد الذي اختبرت من شاهدنا، ووافقك منا –كبرق الخُلَّب[٣] الذي يضيء قليلاً، ويضمحل وشيكا، فإنّ برق الخلب لمن عاينه غير متصل له ما يلتمس به النور أمامه، ولا يبلغ له منتهى غايته، في دُجى ظلمة الليل وأهواله." [٤]

في هذا المقطع ينكر ابن حرب أن تكون صداقته كالبرق المخادع، الذي يوهم الناس بقدوم الغيث والخير، فتبدأ تباشير الفرح تهل عليهم، ويأخذ الأمل يلوح أمام وجوههم، ولكن سرعان ما

---

(١) الهمذاني، رسائله، ص١٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٧.
(٣) البرق يرجى مطره ثم يخلف وينقشع. اللسان (خلب).
(٤) اختيار المنظوم والمنثور، ج١٣، ص٣٩٩. نقلا عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج٣، ص١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتبدد هذا السحاب، وينقشع هذا الأمل، ويكتشف الناس أنه برق لا يُرجى من ورائه نفعٌ، ولا خيراً، فالصورة هنا مستقاة من مظهر كوني كثيراً ما يتجلى للناس.

وقد يلجأ إلى الاستعانة بالمفردات والمصطلحات الفلكيّة، فيصوغ منها عباراته، ويعقد بها تشبيهاته، كما يتضح في رسالة ابن العميد إلى أبي عبدالله الطبري، يعاتبه عتاباً شديداً، فيقول: "وليت شعري بأي حلى تصدّيت له، وأنت لو تتوجت بالثريا، وقلّدت قلادة الفلك، وتمنطقت بمنطقة الجوزاء، وتوشّحتَ بالمجرّة لم تكن إلا عُطلا، ولو توشّحت بأنوار الربيع الزاهر، وسرّجت جبينك غُرّة البدر الباهر، ما كنت إلا عُطلاً"(١). ينوي ابن العميد التأكيد على خلوّ صاحبه من الخير والإحسان، كي يبرّر بذلك عتابه الشديد، وهجره له، فيأخذ مصطلحات وألفاظ ملكيّة من أبراج ونجوم وكواكب مثل: الثُريّا، والفلك والجوزاء، والمجرّة والبدر.

الصنعة:

تنوعت أساليب الكتاب في العصر العباسي بتنوع مضامين رسائلهم، وأخذ الكتاب يخرجون رسائلهم على شكل لوحات فنيّة تثلج القلوب، وتدخل السرور بما تمنحه للقارئين والسامعين من موسيقى النص، إذ لجأ الكتاب إلى تحقيقها عبر وسائل فنية، وتقنيات أدبية، تعطي للنص حيويته ورونقه، وبتباين الكتاب تباينت الأساليب، وتباينت ريش التعبير والتلوين، فمن مدرسة الطبع والترسل الطبيعي إلى مدرسة التحليل والتفريع والاستقصاء وتوليد المعاني، التي عرفت بمدرسة الجاحظ، في أواخر القرن الثاني، إلى مدرسة الصنعة ممثلة بابن العميد، وبين هذه المدارس تنقل الكتاب، وتأثروا بأسسها ومناهجها، ولم يكن الكاتب ليقصر نثره على مدرسة بعينها، بل تجده يغير ويبدل، وينتقل بين هذه المدرسة وتلك، وليس يقصد الباحث في هذا الجانب من الدراسة تقصّي هذه المدارس، وعرض أفكارها، وتناول أصحابها بالعرض والتحليل، وإنما المراد تتبع ملامح التلوين الفني، فيما كُتب في نثر الصداقة والصديق، محاولاً بذلك التعرف على الأدوات التي لوّن بها الكتاب لوحاتهم الفنية.

هناك من الكتاب من عرفوا بالصّنعة، واتباع السجع بضروبه المتنوعة، مثل: يوسف بن القاسم، وغسّان بن عبد الحميد، وابن سيّابة، ويحيى والفضل وجعفر من البرامكة، وأحمد بن يوسف، والفضل بن سهل، وابراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب، والعتابي، وعمرو بن مسعدة، وابن عبد الملك الزيات، وابراهيم الصولي، وهؤلاء جميعا يعدّون ممن كتبوا في الصداقة، وكانت لهم رسائلهم الإخوانيّة، يعبرون من خلالها عمّا يختلج صدورهم من مشاعر تكون بين الأصدقاء، وتنوعت مضامين رسائلهم، وبذا تنوعت أساليبهم وطرقهم الفنية في التعبير عن هذا الموضوع.

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٢٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د) التّصوير:

وقد يعتمد الكاتب على عنصر التصوير في إخوانياته، فيلجأ إلى استخدام وسائل فنيّة تصويريّة تضع القارئ للرسالة في صورة الموضوع، وتقدّم له جزئياته بصورة فنيّة رائعة، تمنح النص مزيدا من الحيوية، وتخرجه من العوالم الجامدة غير المحسوسة إلى شيء يمكن تخيله وتصوّره، ولاشك أن بعض الكتاب ممن برعوا في الشعر، كابن المعتز والخوارزمي والصولي و ابن العميد والميكالي والثعالبي وغيرهم مكن لهم ذلك من إدخال عنصر التصوير إلى نثرهم أسوة بالشعر،وقد حاول الكتاب جاهدين نقل الصورة قدر المستطاع آملين أن يحققوا للنصوص النثرية فنيّات التصوير الأدبي عبر وسائل التشبيه والاستعارات والكنايات، وقد دأب الكتاب على استلهام صورهم المتنوعة، بتنوع موضوعاتهم من موارد عدّة كالقرآن والثقافة الإسلاميّة والمظاهر الاجتماعية والحياة الاقتصادية والطبيعة والحضارة، وهم في كل ذلك يتأثرون بالوسط البيئي الذي يعيشونه، وينقلون في تصويرهم منه قدر ما وفرت لهم الوسائل الفنية ذلك، ومن ذلك رسالة بشر البلوي يرسم فيها صورة لصاحبه، وهي صورة قد رسمها القرآن للمنافقين، فرأى بشر في صورة القرآن ما يتّفق وأخلاق صاحبه الذي كان قد وعده بقضاء حاجاته، ولكنه أخلف ما وعد، وكلما جاءه "بشر" يستنجزه ما وعده كانت هذه حاله: "عبستَ وبسرتَ، ثم أدبرتَ واستكبرتَ، وقد تصرّفت النفقة، وانقطع الرجاء، ويئست من الطمع، (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) وكي تكون الصورة المقتبسة من القرآن، صورة المنافقين واضحة وجليّة فلا بد "لبشر" من رسم الوجه الآخر لشخصية صاحبه، وهو وجه يقابل الوجه الأول، وصورة مضادّة للأولى، فصاحبه يظهر بمظهر المنافق الذي يعطيك من طرف اللسان حلاوة، فهو دائم السرور والبشاشة بك، مادام لم ينجز ما وعد، ولذا تراه حين تطلب منه شيئا؟، وتذكر له مسألتك: يسفر ويبشّر، ويعدك وعداً حسنا.

ويوظف الخوارزمي الوسائل الفنية للتصوير الأدبي من تشبيهات واستعارات وكنايات لخدمة تصويره لنفسه الخائفة المترقبة، التي تنتظر الموت بين الفينة والأخرى، ولذا تراه في وضع لا يحسد عليه، وضائقة لا ينكر هولها وخطرها، كما يتضح في رسالته التي يقول فيها: "ولكني عورضت من المحن بما لم يترك لي قلبا يعقل، ولا بنانا يعمل، وأقل ما لحقني من غضب الأمير عليّ، وهذه حال يفقد بها العقل، ويشيب لها الطفل، ويتوقع معها الموت بل القتل، ولقد نشبت بين أظفار الخوف، وعلقت بحبالة الحتف، فلا أنا لما ورائي أمن، ولا لما أمامي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمل، وما كنت أحب أن أنظر إلى قبري قبل انقضاء عمري، ولا أني أرى شخص ملك الموت في حياتي قبل أن يحين وقت وفاتي." (١)

يبدو الخوارزمي متأثراً ببعض صور القرآن، وخاصّة ما ذكر بشأن أهوال يوم القيامة الذي يقول فيه المولى -عزّ وجل: (فكيفَ تتّقون إنْ كَفَرْتُم يَوْماً يَجْعَلِ الولدان شِيْبا) والخوارزمي يقول: ويشيب لها الطفل، فهو يقدّم للقارئ صورة نفسه الخائفة المضطربة، وأي أمر أسوأ من اضطراب النفس وهيجانها، وشعورها بعدم الأمن والسكينة، وكي ينجح الخوارزمي في إقناع صاحبه بهذه الصورة لجأ إلى عنصر المبالغة الذي تبدّى في أغلب عباراتها، حتى وصل به الأمر إلى فقد عقله، والعقل لا يفقد لأمر هيّن، وانظر كيف جاءت استعارته (ولقد نشبت بين أظفار الخوف) تناسب تصوير النفس الخائفة، حتى جعل الخوف وحشاً مفترساً، أنشب أظفاره في بدنه، وهذا من باب التجسيد، وتصوير غير المحسوس (الخوف) بالمحسوس وهو الوحش أو الأظفار.

وفي موقع أخر من الرسالة نفسها، يستمر في مبالغاته، وتصوير نفسه المتلهفة للقاء الصاحب فيقول: "وإني لأتلهف عليه تلهف آدم على الجنة، وأحبه حب الصحابة للسنة. وأشتاق إليه شوقه إلى وجه سؤاله، وأعشقه عشقه لبذل نواله"(٢) تشبيهات متتابعة يأتي بها الخوارزمي ليصور حاله وتشوّقه، وهو يختار صوراً عظيمة الشأن والقدر في نفوس العالمين (التلهف على الجنة، الصحابة والسنة).

ليجعل ذلك أبلغ في التشبيه والتصوير، وهو أسلوب ذكي يلجأ إليه الكاتب لتكون صورة مقنعة، ولا سبيل لصاحبه إلا التصديق بها، والتأثر البليغ الذي يهدف الخوارزمي من ورائه عفو صاحبه، والتجاوز عن هفواته، والخوارزمي يبدع في التأثير في الآخرين، ودأبه في رسائله المبالغة والإقناع، فهو في رسالة أخرى يقول: "وللبس أكفان الموتى، وسرقة أدوية المرضى، وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام، وزوّار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، أحسن في الأحدوثة، وأبعد من العار والنقيصة، من إلزام مثلي خراجاً، وسومه غرامة واستخراجاً."(٣)

فالقارئ أمام طرفين، صورتين متقابلتين، صورة الكاتب وتقابلها صورة بجزئيات متتالية مؤدّاها واحد، والناظر في هذه الصورة يكاد ينفر منها أخلاقياً لا فنياً، فمن ذا يقبل بأن يلبس أكفان الموتى، أو يقطع الطريق على الحجاج، أو زوّار قبر الرسول عليه السلام؟ وأي إثم أعظم

---

(١) رسائله، ص٥٦.
(٢) الخوارزمي، رسائله، ص٥٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك؟ وأي جرم يرتكبه شخص في حق نفسه أولاً، ثم في حق الآخرين ثانيا، أعظم من هذا الجرم؟! إلا أن الخوارزمي مع فظاعة هذه الصورة، وقبح منفذها ومرتكبها، واعترافه بذلك، إلا أنه يجعلها هينة أمام الإساءة إليه، وتحميله ما ليس من طبعه وشأنه، وإن كان القارئ لا يذهب معه في هذا التقابل، إلا أنه برع في إقامته، وتعظيم نفسه، والبلوغ بها أقصى درجات التعالي والكبرياء، وقد يكون الخوارزمي اعتمد على ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في حقّ تقويض بنيان الكعبة، ونقضها حجراً حجرا، أهون على الله من أن تراق قطرة دم امرئ مسلم[١]، والخوارزمي يعتبر الإساءة إليه، وإلزام الخراج بمنزلة القتل، ولا ريب أن هذه الصور مستمدة من وحي الثقافة الإسلامية، التي يجد الخوارزمي فيها طاقة كامنة لإقامة صوره وتشبيهاته، فضلاً عن دور هذه الثقافة، ووقوعها في نفوس الآخرين موقعا حسنا، ومؤثرا.

- السخرية:

والسخرية من الأساليب الفنية التي لجأ الكتاب إلى الاستعانة بها، فيما يناسب موضوعاتهم، ووجدوا فيها ضالتهم للتعبير عما يجول في خواطرهم من مشاعر وأفكار كانت ثمار تجربة عاشوها، وأدركوا حقيقتها، ولا بد للكاتب من اللجوء إلى هذا الأسلوب ليفرغ ما عنده من طاقات الغضب، والشعور السلبي لما قد يصدر من بعض الأصدقاء، وحين تكثر أخطاء الصديق وهفواته، وتضيق الحال بصدر صديقه، فلا يعود قادراً على تحمل المزيد من أخطائه، يأخذ بتوجيه سهام السخرية نحوه، محاولاً بذلك إرضاء نفسيته، وإشباع غريزته، والإطاحة بمن لا يقيم للمودة شأنا، ولا يعرف للصداقة معنىً.

وكان ابن العميد من الذين عانوا من بعض أصدقائهم، كما يتضح في رسالته إلى صديقه أبي عبدالله الطبري، حين عاتبه عتابا شديد اللهجة، وقد تبدّت سخريته منه عندما أخذ يقلل من شأنه، ويحطّ من قدره، ويسخر من شخصه، ويصف سوء حاله من أخلاق صاحبه، فيقول: "فوليت منها فِراراً، وملئت رعبا، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربه، ورددت إليك ذميماً عهدك[٢]."

وفي موقع آخر في الرسالة يسخر منه بطريقة أدبيّة يحاول من خلالها عقد مقارنة وشبه بينه وبين بعض المشهورين في العلوم والفلسفة والآداب والنحو وغير ذلك، لا على قصد التشبيه ولكن على قصد السخرية والاستهزاء، فيقول: "وهَبْكَ أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة،

---

(١) انظر السخاوي، شمس الدين أبو الخير، محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ). المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، (تحقيق: عبدالله محمد الصديق)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م. ص٣٤٠، حديث رقم (٨٨١): ونصّه: "لهدم الكعبة حجرا حجرا أهون من قتل المسلم." وفيه يقول السخاوي: لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) الحصري، زهر الآداب، ج٣، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد قرأناه، أتجد فيه إرشادا إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناه فلم نَرَ فيه هداية إلى شيء من العقوق...، وأما النحو فلن تُرْفَعَ عن حذق فيه، وبَصَر به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قُدوة، ويرضى بك أسوة، فقلت: الغدرُ والباطل وما جرى مجراهما مرفوعٌ، والصّدق والحقّ وما صاحبهما مخفوضٌ، وقد نُصِبَ الصديق عندك[١]."

وتشتدّ حدّة سخريته حين يقدّم له هذه الصورة، واصفاً فيها ضعف إخاء صاحبه، وظمله لنفسه ولصديقه، فيقول: "وأنت لو تتوّجْتَ بالثريا، وقلّدت قلادة الفلك، وتمنطقت بمنطقة الجوزاء، وتوشّحْتَ بالمجرّة لم تكن إلا عُطلاً، ولو توشّحْتَ بأنوار الربيع الزاهر، وسرّجت جبينك غرّةَ البدر الباهر، ما كنت إلا عُطلا[٢]."

لقد أراد ابن العميد أن يشفي غليله بأسلوبه الساخر من صديقه، فصوّب إليه سهام قوله ولفظه، علّه يصيب منه مقتلا.

ومن الكتاب الذي شغفوا بأسلوب السخرية الخوارزمي، ويقف الباحث مع إحدى رسائله التي كتب بها إلى صديق له معاتباً إيّاه بسبب انقطاعه عنه، وعدم مكاتبته، فيقول له: "فعهدي به لا يبخل على الفقراء، ولا يرضى لاسمه أن يكتب في جريدة البخلاء، أم لأنه يكره أن يصير نظيراً إذا كاتب من دونه كثيراً، فهذا ظنّ غير صائب، ورأي غير ثاقب، فقد يكاتب الكبير الصغير، فلا الكبير يصغر، ولا الصغير يكبر، أم لأنه يخاف أن لا أعرف حقيقة خطابه، ولا أبلغ غور كتابه...، أم لأنه يأنف لكتابه اللطيف من جوابي الكثيف، فما زال الخطأ منبها على مقدار الصواب." [٣].

ومن طريف السخرية ما ورد في رسالة أبي العيناء إلى عبيد الله بن يحيى بين خاقان، وهي تصنّف ضمن أساليب السخرية من الحيوان، الذي أخذ أبو العيناء يعدّد مناقبه، مبرزاً عيوبه، بأسلوب ساخر وضاحك، لا يملك القارىء معها إلا الضحك منها، وكان مما وصف به هذا الحيوان قوله: "أمر لي بدابة تقف للنبرة، وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عجفا، وكالعاشق المهجور دَنَفا، قد أذكرَت الرّواة عروة العُذري، والمجنون العامري، مساعدٌ أعلاه لأسفله، حُبَاقه مقرون بسعاله، فلو أمسك لترجّيْت، ولو أفرد لتعزّيتُ ولكنه يجمعها في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد، تضحك من فعله النسوان، وتتناغى من

---

(١) الحصري، زهر الاداب، ج٣، ص٢٦٦-٢٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٧.
(٣) رسائله، ص١٥-١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجله الصبيان...، وقد حفظ الأشعار، ولحق العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق لروى بحقٍّ وصدقٍ عن جابر الجعفي، وعامر الشعبي[١]."

- المحاورة:

تبدّت صور الحوار بأساليبه المتنوعة ماثلة في الوصايا والأقوال والحكم والحكايا التي أخذت تنسج وفق جمل حوارية، بين شخصين أو أكثر، محاولين خلالها تقديم زبدة تجاربهم، عن طريق الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى التماس خلق ما أو أمر ما، أو التحذير من عقد علاقة أو رابطة ما .

وقد يأتي الحوار مقتصراً على جمل قصيرة موجزة، يلجأ منشؤوها إلى تكثيف المعنى وتقليل اللفظ، ليكون هدف الرسالة واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ويمكن للباحث أن يعرض بعض الجمل الحواريّة التي قيلت فيما يتعلّق بموضوع الصداقة والصديق، ليتبين أساليب هذه الجمل، وطرائق تنوعها. فمن ذلك ما دار بين الثوري ورجل، من الحوار الآتي:

"قال الثوري لرجل قال له: أوصني، قال: أنكر من تعرفه، قال: زدني، قال: لا مزيد[٢]."

وهذا آخر يحاور ضيغم العابد ويقول له: "اشتهي أن أشتري داراً في جوارك، حتى ألقاك كل وقت، قال ضيغم: المودة التي يفسداها تراخي اللقاء مدخولة[٣]."

وتتنوع صيغ الحوار، بتنوع الموقف، ومن أشكال هذا التنوع قال فلان لفلان، أو قال فلان لرجل، أو قال رجل لآخر، وقد يرد الحوار على صيغة قيل لفلان.

ومن أمثلة الأول، وهو ما صرّح منه بطرفي الحوار، ما رواه التوحيدي في كتابه وكان طرفاً فيه، خاصّة تلك الحوارات التي أجراها مع أبي سليمان السجستاني، ونذكر هذا الموقف على سبيل الاستدلال لا الحصر، "قلتُ لأبي سليمان: هل يُلاث ما بين الصديقين؟ وهل يفضيان إلى هجر؟ وهل يفزعان إلى عتب؟ فقال: أما ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية، فقد يعرض هذا كله بينهما[٤]."

ومما يلاحظ عن هذا الحوار أنّه كان على شكل أسئلة توجّه من التوحيدي إلى السجستاني، وأمثلة ذلك متكرّرة في كتاب التوحيدي[٥].

---

(١) الحصري، زهر الآداب، ج٢، ص٢٨٥-٢٨٦.
(٢) التوحيدي ، الصداقة والصديق، ص٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٤) أنظر، ص١٠٠.
(٥) أنظر، المصدر نفسه، ص٣٠، ٣١، ٣٢، ٦٩ ، ص١٢٥، ص٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنه ما رواه التوحيدي عن غيره، إذ لم يكن طرفاً في الحوار مثل قوله: قال الإسكندر لديوجانس[١].

والحوار الذي دار بين ابن مناذر والخليل: " قال ابن مناذر: كنت أمشي مع الخليل، فانقطع شِسْع نعلي، فخلع نعله فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحفاء[٢].

ومثله الحوار الذي دار بين العوامي وأبي بكر الزهيري حين عاتبه "على هجر جماعة كأن يألفهم ويألفونه، ويعيد القول في ذاك ويبدي والعوامي لا ينبس بحرف، فقال له الزهيري: إن كنت تسكت استهانة بخطابي عذلتك؟ فقال العوامي " لا ولكني كما قال إسماعيل بن سيّار النسائي:

إني لصعب على الأقوام لو جعلوا ... رضوى لأنفي خشاشا لم يقودوني

نفسي هي النفس أبى أن أواتيها ... على الهوان وتأبى أن تواتيني[٣]

ومن أمثلته أيضاً ما دار بين أبي العتاهية وعلي بين الهيثم[٤]. وابن المبارك والفضيل بن عياض.

ومن أمثلة الثاني، وهو ما صرّح فيه بطرف واحد فقط، وعمّي عن الطرف الثاني، ما دار بين العتابي وصاحب له[٥]، وبين المطيع من إياس[٦] وبين جعفر بين يحيى وبعض ندمائه[٧]، وهنا يكون التركيز في الحوار على الشخصيّة المذكورة، والهدف من ذلك إبراز حكمته أو تجربته دون اهتمام بالطرف الذي أجرى أو جري معه الحوار.

ومن أمثلة الثالث، وهو أن لا يصرّح بطرفي الحوار كما يتضح في الأمثلة الآتية:

"قال أعرابي لصديق له[٨]، و لقي رجل صاحباً له ، فقال له: إني أحبّك ، فقال: كذبت، لو كنت صادقا، ما كان لفرسك بُرْقُع وليس لي عباءة. [٩]"

٥٩٤١٤٢

(١) التوحيدي ، الصداقة والصديق ، ص٧٨.
(٢) المصدر نفسه ، ص٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٣-٧٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٤.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٨.
(٧) المصدر نفسه، ص٨٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٥٤، ٥٦، ٥٨.
(٩) المصدر نفسه، ص٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن القول بتكرار صيغة الحوار الرابع، والذي يفترض فيه وجود طرف آخر يوجّه أسئلة او ما شابهها للطرف الثاني، الذي تظهر صورته في الحوار، ويكون محورا، وأبرز صيغ هذا الحوار[١] قيل" ومن أمثلته، وقيل للشبلي : من الرّفيق؟ قال: من أنت غاية شغله، وأوكد فرضه ونفله، قيل له: فمن الشفيق؟ قال : من إن دهمتك محنة قذيتْ عينه لك، وإن شملتك مُنْحَة قرت عينك بك. قيل له : من الوفي؟ قال من يحكي بلفظه كمالك، ويرعى بلحظة جمالك. قيل له: فمن الصاحب؟ قال: من إن غاب تشوّقت إليه الأحباب، وإن حضر تلقّحتْ به الألباب[٢]."

وآخر مظاهر الحوار ما تبدّى فيما يشبه الحكايات المرويّة القصيرة، التي كان يهدف الأدباء من إيرادها تزويد الناس بالموعظة الحسنة، وحضّهم على التحلّي بمكارم الأخلاق، ومن أمثلة ذلك، ما رواه التوحيدي عن يحيى بن أكثم، وحكاية الشيخ صديق المأمون، "قال لنا المأمون: وأسفا على فقد صديق مسكون إليه، موثوق به...، قُلنا: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترى شيخا يأتينا في القَرْط، ونخلوا به من دون الناس؟ قلت: بلى ، قال: فإنه قد تأخر عن إبّانه، وأظنّ أنه قد قضى، قلت: الله يمدّ في عمر أمير المؤمنين، وما في ذاك؟ قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب. [٣]" ويلحظ على هذه الحكاية أنها اشتملت على حوارات متداخلة، وتارة يكون الحوار بين المأمون ويحيى بن أكثم، كما تقدّم، وتارة ينقطع الطرف الثاني في الحوار ليدخل طرف جديد وهو الشيخ، كما سيأتي، يتابع المأمون كلامه فيقول: "وآخر ما قال لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين إذا استقشّ ما بينك وبين الله تعالى فابلُه، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده. [٤]" ثم يعود المأمون ثانية ليغير مجرى الحوار، فيلتفت إلى صديقه يحيى بن أكثم، فيقول له: "مَنْ لي يا يحيى بمثل هذا القائل[٥]."

ومن ذلك أيضا الحوار الذي جرى بين بعض السلف وجاريته، وصديقه، وقد أورد التوحيدي هذه الحكاية مدللاً بها على إغاثة الصديق صديقه، وإسعافه وقضاء حوائجه[٦].

---

(١) التوحيدي ، الصداقة والصديق ، ص٤٥، ٥٠، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٨٧، ٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٦-٩٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٥) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٦) المصدر نفسه، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة:

سعت هذه الدراسة في محاولة بناء صورة واضحة للصداقة والصديق في النثر العباسي، حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وهي مدّة تمتاز ببروز عدد من الأدباء والكتّاب، برعوا في تشكيل هذه الصورة، كابن المقفع والجاحظ وابن المعتز والماوردي والصولي وسعيد بن حميد والثعالبي والتوحيدي والمعرّي، وغيرهم ممن أسهموا في إغناء التراث بكتاباتهم وابداعاتهم الأدبيّة.

وقد أظهرت الدراسة عرض معاجم اللغة العربيّة لمفهوم الصداقة، وربطها بين الصداقة والصدق، وصدق النصيحة، مؤكدة بذلك حاجة الصداقة والصديق إلى تحقق هذا الشرط لكي ينعم المتصادقان بصداقة حميمة يتبادلان فيها المودة والنصيحة، وكذا عرض القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فكلاهما تناول المفهوم ضمن الإطار الديني، فأبرز القرآن ملامح الصديق التقي، والأخوّة الصالحة، وحذّر من عقد صداقات خارج حدود التوافق الديني والأخلاقي، إضافة إلى تناوله المفهوم عبر طرحه لمرادفات الصديق: كالخليل والخِدن، ويمكن القول: إن القرآن الكريم قدّم للبشريّة نماذج من الصداقة والأخوّة التي ينبغي أن يكون عليها المتصادقون، محذّراً إياهم من تتبع ما يخالف الحدود المثالية، ولذا حرص على تحديد معالم أخلاقية تكون مثالاً يحتذى، ودستوراً يقتدى، فلا يحيد عنه إلا من ارتضى الهوان والذلّ لنفسه. أمّا الحديث النبوي الشريف فقد رسم جملة من الأخلاقيات التي يحرص من خلالها على تنظيم شؤون الناس، بما يضمن لهم سلامة هذه الرابطة، فالصديق كما يراه النبي عليه الصلاة والسلام خير معين للمرء على ذكر الله، ولذا وجب عليه أن يحسن اختيار صحبه وخلاّنه.

الصداقة علاقة اجتماعيّة وثيقة، وبما أن الإنسان مدني بالطبع، لزم أن ينشد في حياته سبل التواصل مع الآخرين، فيقرب من هذا ، وينفر من ذاك، ولا بد له من التواصل والاحتكاك بالآخرين، وهو في تواصله هذا يحقق أهدافه وغاياته، ولا بد له من الإعانة والاستعانة، فالصداقة من الأسس التي لا مناص منها لدعم الأخوة الإنسانية، وبها يسود الصفاء ويتحقق التعاون الاجتماعي، الذي هو أساس العمران البشري، ومن خلاله تتسع قاعدة السلام والوئام بين الناس.

ولذا نجد التوحيدي يؤكد على دور الصداقة في بناء المجتمع، رغم تشاؤمه، ونظرته السوداوية التي كانت تظهر في كتاباته بين الحين والآخر، فهو يرفض اعتزال الناس، والنظر إليهم نظرة عدائية، والتعامل معهم وفق مبدأ الحيطة والحذر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ركّز الفلاسفة والأدباء على عرض مفهوم الصداقة انطلاقاً من أسس المنفعة واللذة والفضيلة التي عرض لها أرسطو في كتابه "علم الأخلاق إلى نيقوماخوس"، ومن مبدأ أن "الصديق إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك". ويمكن القول: إن بعض الأدباء والمفكرين تبعوا آراء أرسطو في هذا الموضوع، ونهجوا نهجه، كالماوردي ومسكويه والتوحيدي. والصداقة في نظر الفلاسفة علاقة عاطفية متبادلة بين شخصين، حيث يريد كلّ منهما الخير للآخر، مع العلم بتلك المشاعر المتبادلة بينهما، فالصديق من يعيش معك، ويتّحد وإيّاك في الأذواق، ومن تسرّه مسرّاتك ، وتحزنه أحزانك، وبذلك تقوم الصداقة على المعاشرة والتشابه والمشاركة الوجدانية.

تقوم الصداقة على شروط وأصول تضمن سلامتها، وصحة عقدها بين أطرافها، ومن هذه الشروط: المشاكلة والعقل وحسن الخلق والدين والصدق والوفاء والصبر وبالقدر الذي تتحقق فيه هذه الشروط يتحقق التوازن، وتتعمق الرابطة، وينعم المتصادقان بصداقة مثالية وناجحة، ولم يكن من السهل إيجاد صداقات مثالية على المستوى الواقعي، وإن وجدت فإنها تفتقر إلى بعض الأصول أو الشروط، إذ يصعب تمثّل الشروط جميعها، فيمن تنشد مصادقته، ولعل هذا ما دفع ابن المقفع حين رسم المظاهر الأخلاقية التي ينبغي أن يكون عليها نموذج الصديق، دفعه إلى التصريح بصعوبة تحقق هذا النموذج، فلا أقلّ من أن يأخذ المرء بتخيله، أو الاقتراب منه قدر المستطاع.

حين يختار المرء قرينه، وتعقد بينهما رابطة الأخوّة والصداقة فلا بدّ من القيام بحقوق هذه الأخوة وواجباتها، ولذا حرص المتصادقون على تحرّي كل ما يوثّق الصداقة وذلك من خلال المودّة والمشاركات في المناسبات الاجتماعية والدينية، وتقديم التهاني والمباركة في شتّى الميادين، والعمل على قضاء حوائج الإخوان، وتقديم واجب العزاء لتكون المشاركة شاملة مسرّات الحياة ومنغّصاتها.

تنوّعت صورة الصديق بتنوع طبقاتها ورجالها، برغم التوافق والانسجام الذي غدا جليّاً في كثير من المظاهر الأخلاقية التي شكلت ملامح صورة الصديق على المستوى الثقافي والسياسي والديني والشعبي، أما التباين فقد تجلّى في الجوانب التي تميز كل طبقة عن الأخرى، فركّزت الصورة الثقافية على جوانب العقل والأدب والتأديب والبيان ، أما الصورة السياسية فأكدت ما يحتاج إليه الساسة في أمور الحكم والقيادة من العدل والإنصاف وحسن المشورة وصدق النصيحة، أما الصورة الدينية فتناولت جوانب التقوى والتديّن والنظر إلى الموضوع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظرة سامية، على اعتبار أن الصديق خير معين للمرء على القيام بشؤون دينه، ولذا تجد أصحاب هذا الاتجاه يركزون على الجوانب الرّوحية لا الماديّة.

وحتّى تسلم الصداقة مما قد يشوبها ويحدث فيها ضعفاً وانحلالاً، فلا بدّ من تجنّب المظاهر الأخلاقية التي تلتبس بالصداقة كالغدر والخيانة والمكر والكذب والمِراء والحسد والمِزاح.

قد تجري الأمور بين المتصادقين على غير ما يشتهون أحيانا، فيقع الهجر وتحدث القطيعة، وتبدأ علامات الخصومة بالظهور بينهما، مما يدفع بالعتاب والاستعتاب ، عسى أن يصلح ما فسد، وهذه الفئة من الكتاب والأدباء يؤمنون بضرورة العتاب بين الأصدقاء، لأنه حدائق المتحابين، فبه تصفو النفوس، وتُحلّ عقد التخلّف والهجر، وفئة أخرى منهم نبذتْ العتاب ورأت أنه لا خير منه يرتجى، فتركه أسلم خوفا من إيقاع القطيعة التي لا وصل بعدها، وهم ينطلقون في فكرهم هذا من مبدأ أن الصديق "لا يحاسب"، ولا يعاتب وفئة ثالثة رأت أن الوسطية هي الوضع السليم لمبدأ العتاب، فلا يكون عتابا شديدا، يوقع الشحناء والبغضاء، ولا يترك كليّة فيقع الاستخفاف بأمر الصديق، وهم ينطلقون من مقولة : "كثرة العتاب إلحاف وتركه استخفاف".

وقد عاتب الأصدقاء أصدقاءهم في ميادين متنوعة، فيما يتعلّق بأمور المكاتبة والزيارة والهجر والقطيعة والتلوّن ، والتنكّر للصديق، والاستخفاف بأمور الصداقة والتهاون في حقوق الصداقة وواجباتها، وخذل الصديق وعدم القيام بأموره، وحوائجه، وغير ذلك.

واستظهرت الدراسة أهم الأشكال التعبيرية التي عرضت في موضوع الصداقة والصديق كالرسائل والحكم والوصايا والقصص والحكايا والمقولات المشهورة، وكان التركيز على شكل الرسالة الإخوانية التي اشتملت عليها أغلب عينة الدراسة، حيث أظهر الشكل التزاما من بعض الكتاب بالأشكال التقليديّة للرسالة بنائيا، وأظهر أكثرها تحرّرا من قيود الشكل، وخاصّة فيما يتعلق بعناصر المقدّمة، وظهر جليا للدارس ما كانت تمتاز به ظواهر الأسلوب من الغنى والثراء، وما كان يبذله الكاتب في حياكة النسيج الدّاخلي للنص.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع والدوريات والرسائل الجامعية

المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن، عز الدين علي بن أبي الكرم،(ت٦٣٠هـ) . **الكامل في التاريخ** ، دار صادر ، بيروت، ١٩٨٢م .

- إخوان الصفا وخلان الوفا، (١٩٥٧م) . **رسائل إخوان الصفا**، دار صادر، بيروت.

- أرسطوطاليس، (١٩٢٤م). **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس**، (ترجمة: أحمد لطفي السيد)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

- الأزدي ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت ٣٢١هـ)، **المجتنى**، ط٤، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٨٠م.

- الأسدي، الكميت بن زيد، (ت١٢٦هـ)، **شعره**، (جمع: داود سلوم)، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٩م.

- أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو، (ت٦٩هـ). **الديوان**، برواية السكّري، ط١، (تحقيق: محمد حسن آل ياسين)، ، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٤م.

- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦هـ). **الأغاني**، ٢٤م، مصور عن دار الكتب المصرية(بتحقيقات مختلفة)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ونسخة دار الفكر قوبلت على نسخة قديمة بالكتبخانة الخديوية.

- امرؤ القيس، (ت نحو ٨٠ ق.هـ). **الديوان**، ط٢،(تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة التجارية الكبرى، ، القاهرة، ١٩٦٠م.

- البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦ هـ). **الجامع الصحيح المختصر**، ط٣ (تحقيق: مصطفى ديب البغا)، ، دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧م.

- البغوي، أبو محمد، الحسين بن مسعود، (ت٥١٦هـ). **معالم التنزيل**، ط٢ (تحقيق: خالد العك، ومروان سوار)، ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر، (ت ٦٨٥هـ)، تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ط٢، تحقيق: عبد القادر عرفات، دارالفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

- البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت ٣٢٠هـ)، **المحاسن والمساوئ**،(تحقيق: عدنان علي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

- تأبط شراً، أبو زهير، ثابت بن سفيان، (ت٨٠ ق.هـ). **الديوان**، (جمعه: علي ذو الفقار شاكر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

- الترمذي، محمد بن عيسى، (ت٢٧٩هـ). **سنن الترمذي**، (تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٧م.

- تغري ابن بردي، أبو المحاسن يوسف، (ت ٨٤٧هـ). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دارالكتب المصرية، ١٩٣٠م.

- التنوخي، أبو علي، المحسن بن علي،(ت٣٨٤هـ). **الفرج بعد الشدة**، (تحقيق: عبود الشالجي)، دار صادر، بيروت.

ـــــــــــــ **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**،(تحقيق: عبود الشالجي)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

- التوحيدي، أبوحيان، علي بن محمد بن العباس، (ت٤١٤هـ).**الإمتاع والمؤانسة**،(تحقيق: إبراهيم الكيلاني)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ، ١٩٧٨م.

ـــــــــــــ **البصائر والذخائر**،(تحقيق: إبراهيم الكيلاني)، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٦٤م.

ـــــــــــــ **الصداقة والصديق**، (تحقيق: إبراهيم الكيلاني)،دار الفكر المعاصر، بيروت،١٩٩٦م.

- ـــــــــــــ **مثالب الوزيرين**، (تحقيق إبراهيم الكيلاني)، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ـــــــــــــــ **الهوامل والشوامل**،(تحقيق: أحمد أمين)، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة،١٩٧٠م .

- الثعالبي، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل،(٤٢٩هـ) . **آداب الملوك**، (تحقيق: جليل العطية)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

- ـــــــــــــــ **أحسن ما سمعت**، (تحقيق: أنطونيوس بطرس) ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس ١٩٩٩م.

- ـــــــــــــــ **ترجمة الكاتب في آداب الصاحب**،(تحقيق: علي ذيب زايد)، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠١م.

- ـــــــــــــــ **التمثيل والمحاضرة**، (تحقيق: عبدالفتاح الحلو)، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦١م.

- ـــــــــــــــ **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، ط١، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، ، دار المعارف، ١٩٦٥).

- ـــــــــــــــ **خاص الخاص**،(شرح وتعليق: مأمون بن محيي الدين الجنان)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

- ـــــــــــــــ **سحر البلاغة وسر البراعة**، (تحقيق: أحمد عبيد الدمشقي)، ط١، المكتبة العربية، دمشق.

- ـــــــــــــــ **لباب الآداب**، (تحقيق: أحمد حسن لبج)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- ـــــــــــــــ **من غاب عنه المطرب**، تحقيق عبد المعين الملوحي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

- ـــــــــــــــ **نثر النظم وحل العقد**، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

- ـــــــــــــــ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**،(تحقيق: مفيد محمد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ). **البيان والتبيين**، ط٢،(تحقيق: عبدالسلام هارون)، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦١م.

- ـــــــــــــــ **رسائل الجاحظ**، (شرح: محمد باسل عيون السود)، دار الكتب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

- ـــــــــــــــ **المحاسن والأضداد**،(تقديم: عاصم عيتاني)، دار إحياء العلوم، بيروت،١٩٨٦م.

- الجمحي، محمد بن سلام، (ت٢٣١هـ). **طبقات فحول الشعراء**،(تحقيق: محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني، القاهرة،[- ١٩٩م].

- الجوزي، أبو الفرج، جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر، (ت٥٩٧هـ).**المدهش**،ط٢ ،(تحقيق: مروان قباني)، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، (ت٤٠٥ هـ). **المستدرك على الصحيحين**، (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد،(ت٣٥٤هـ). **صحيح ابن حبان**، ط٢ (تحقيق: شعيب الأرنؤوط)، ، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.

- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، (ت ٤٥٣هـ)، **زهر الآداب وثمر الألباب**، (تحقيق: صلاح الدين الهواري)، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١م.

- ابن حنبل، أبو عبدالله الشيباني، أحمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ). **مسند الإمام أحمد**، مؤسسة قرطبة، د.ت.

- الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي،(ت٤٦٣هـ) . **تاريخ بغداد** ، مصر، ١٩٢٩م .

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (تحقيق: إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.

- الخوارزمي، أبو بكر، محمد بن العباس، (ت٣٨٣هـ). **رسائل الخوارزمي**، المطبعة العثمانية، ١٨٩٢ هـ.

- ابو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي، (ت ٢٧٥هـ) **سنن أبي داود**، (تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن أبي الدنيا، أبو بكر القرشي، عبدالله بن محمد، (ت ٢٨١هـ) **كتاب الإخوان**، (تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا)، ط١، ١٩٨٩.

- الذهبي، الحافظ شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان،(ت ٧٤٨هـ) . **تذكرة الحفاظ** ،دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد ، ١٩٥٥م .

- ـــــــــــــــ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، (تحقيق:علي محمد البجاوي و فتحية علي البجاوي)، دار الفكر العربي ، القاهرة، [-١٩٧م].

- الرازي، محمد بن أبي بكر، (ت٧٢١هـ). **مختار الصحاح**، (تحقيق: محمود خاطر)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د.ت.

- الزجاجي، أبو القاسم، عبدالرحمن بن إسحاق، (ت ٣٤٠هـ). **أمالي الزجاجي**، (تحقيق: عبدالسلام هارون)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (ت ٥٣٨هـ). **المستقصى في أمثال العرب**،ط٢، (تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد ا لطناحي)، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- السخاوي، شمس الدين أبو الخير، محمد بن عبدالرحمن، (ت٩٠٢هـ). **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، ط١،(تحقيق: عبدالله محمد الصديق)، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

- سعيد بن حميد، (ت بعد ٢٥٧هـ)، **رسائل سعيد بن حميد وأشعاره**،(تحقيق: يونس أحمد السامرّائي)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١م.

- السلمي، أبو عبد الرحمن، (ت ٤١٢هـ). **طبقات الصوفية**، (تحقيق: نور الدين شريبه)، دار الكتاب النفيس، سوريا، ١٩٨٦م.

- الصاحب بن عباد، (ت٣٨٥هـ). **رسائل الصاحب بن عبّاد** ،(تحقيق: عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف)، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٤٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- صفوت، أحمد زكي، (١٩٣٧م). **جمهرة رسائل العرب**، ط١، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

- ـــــــــــــ ،(١٩٦٥م). **جمهرة خطب العرب**، المكتبة العلمية، بيروت.

- الصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى، (ت٣٣٤هـ). **أدب الكتّاب**،(نشره : محمد بهجت الأثري)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٢م.

- الطبراني، أبو أيوب، سليمان بن أحمد، (ت٣٦٠ هـ). **المعجم الكبير**، ط٢ (تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي)، ،مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٤م.

- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت ٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، ط١، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١٣م، والطبعة الأزهرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٨م.

- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله، (ت ٣٩٥هـ). **جمهرة الأمثال**، ط٢ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش)، ، دار الفكر، ١٩٨٨م.

- ـــــــــــــ **الصناعتين**، (تحقيق: علي محمد البجاويّ)، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبقة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م.

- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، (ت ١٠٨٩هـ). **شذرات الذهب**، القاهرة،١٩٣٠م.

- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد، (ت١٧٥هـ). **العين**، ط١ (تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي)، ، دار مكتبة الهلال، القاهرة، ١٩٨٠م.

- القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم، (ت ٣٥٦هـ)، **الأمالي**، ط٣، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٣م .

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ)، **عيون الأخبار**، ٣م، نسخة مصورّة عن دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

- القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**،ط١ (تحقيق: محمد حسين شمس الدين)، ، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونسخة مصورّة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣م.

- كثير عزة،ابن عبد الرحمن بن أبي جمعة الخزاعي،(ت ١٠٥هـ). **الديوان**،(تحقيق:إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.
- كشاجم، أبو الفتح ،محمود بن الحسين، (ت٣٦٠هـ).**الديوان** ، (دراسة وشرح وتحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م .
- الكلاعي، أبو القاسم، محمد بن عبدالغفور،(من أهل القرن السادس الهجري). **إحكام صنعة الكلام**، (تحقيق: محمد رضوان الداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م،
- ابن ماجة، أبو عبدالله، محمد بن يزيد، (ت ٢٧٥هـ). **سنن ابن ماجة**، (تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي)، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥م.
- الماوردي، أبو الحسن، علي بن محمد البصري، (ت٤٥٠هـ). **أدب الدنيا والدين**، ط٢، (تحقيق: مصطفى السقا)، ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥.
- المتقي، علاء الدين علي، (ت ٩٧٥هـ). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، إعداد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.
- المثقب العبدي، عائذ بن محصن (ت٣٥ ق.هـ) **الديوان**، ط١، (جمعه وشرحه: حسن حمد)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.
- المرزباني، أبو عبيد، محمد بن عمران، (ت ٣٨٤هـ). **معجم الشعراء** ، (تحقيق: عبد الستار فرّاج، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن مسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد، (ت ٤٢١هـ). **تهذيب الأخلاق**، (تحقيق: قسطنطين زريق)، الجامعة الأميريكية، بيروت، ١٩٦٦م.
- مسلم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج، (ت ٢٦١هـ). **صحيح مسلم**،(تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن المعتز، أبو العباس عبدالله، (ت ٢٩٦هـ)، **رسائل ابن المعتز في النقد والأدب والاجتماع**، ط١، (تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي)، ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المعري، ابوالعلاء،. **رسائل أبي العلاء المعري**، (شرح وتحقيق : عبد الكريم خليفة) ، منشورات اللجنة الأردنية للترجمة والتعريب والنشر ، عمان، ١٩٧٦م .
- ابن المقفع، عبدالله، (ت ١٤٢هـ). **الأدب الكبير، ضمن كتاب آثار ابن المقفع**، (تقديم: عمر أبو النصر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م)
- ـــــــــــ **الأدب الوجيز للولد الصغير**، (تعريب وتحقيق: محمد غفراني الخرساني)، عالم الكتب، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- ـــــــــــ **كليلة ودمنه ضمن كتاب آثار ابن المقفع**،(تقديم: عمر أبو النصر)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ). **لسان العرب**، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٤م.
- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، (ت ١٨ق.هـ). **الديوان**، (جمعه وشرحه وكمله: علي أبو ملحم)، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م.
- ابن نباتة المصري، جمال الدين، (ت ٧٦٨هـ). **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب، (٤٣٨هـ). **الفهرست**،(تحقيق: رضا تجدد ، طهران، ١٩٧١م .
- أبو نعيم الأصفهاني ، أحمد بن عبدالله، (ت ٤٣٠هـ). **حلية الأولياء**، بيروت، ١٩٦٧م.
- النهرواني، أبو الفرج، المعافى بن زكريا، (ت ٣٩٠هـ). **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**،(تحقيق: إحسان عباس)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
- الهمداني، لسان اليمن، الحسن بن أحمد بن يعقوب، (ت ٣٣٤هـ). **صفة جزيرة العرب**، (تحقيق: محمد بن علي الحوالي)، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.
- الهمذاني، أبو الفضل، أحمد بن الحسين، (ت ٣٩٨هـ)، **كشف المعاني والبيان عن رسائل**

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بديع الزمان،(تحقيق: إبراهيم أفندي الطرابلسي)، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م.

- الوشاء، أبو الطيب، محمد بن أحمد، (ت ٣٢٥هـ). **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، ط١،(تحقيق: يحيى وهيب الجبوري)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.
- ـــــــــــ **الموشى أو (الظرف والظرفاء)**، ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م .
- الوطواط ، جمال الدين، محمد بن ابراهيم الكتبي، (ت ٧١٨هـ)، **غرر الخصائص الواضحة**، دار صعب، بيروت، د.ت.
- ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي، (ت ٦٢٦هـ)، **إرشاد الأريب في معرفة الأديب أو (معجم الأدباء)**، ط١،(تحقيق: إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المراجع الحديثة والدوريات والرسائل الجامعية :

المراجع الحديثة

- أمين ، أحمد، (١٩٦٢م). **ظهر الإسلام**، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ضيف، شوقي. (١٩٧٣م). **العصر العباسي الثاني**، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- عبد الرحيم، محمود، (١٩٩٤م). **فنون النثر في الأدب العباسي**، منشورات وزارة الثقافة، عمان.
- مبارك، زكي، (١٩٧٥م). **النثر الفني في القرن الرابع**، دار الجبل، بيروت.
- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط٣، دار عمران.
- الدروبي، محمد محمود، (١٩٩٩م). **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان.
- الزركلي، خير الدين . (١٩٧٩م). **الأعلام** ، ط٤ ، دار العلم للملايين، بيروت.

الدوريات:

- أسامة أبو سريع، (١٩٩٣). الصداقة من منظور علم النفس، **مجلة عالم المعرفة**، (١٧٩).
- جرار، صلاح، (٢٠٠٠م). **الصداقة والصديق لأبي حيّان التوحيدي نظرية عربية في الصداقة**. مجلة التراث. (٢١). ص ص ٥٦-٥٩.
- القاسمي، ظافر، (١٩٦٢م). **الصداقة والصديق**. مجلة المعرفة. (١٠). ص ٤٣-٥١.

الرسائل الجامعية

- قطان، سناء،(١٩٨٧م). **الصداقة والاغتراب في فكر ابي حيان**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Freindship in the Abassid Prose up to the Middle of the Fifth Century H.A

By
Ali Theeb Zayed Zayed

٥٩٤١٤٣

Supervisor
Prof. Dr. Abdul-Jalil Abdul-Muhdi

Abstract

An attempt to present a comception of what friendship was like in the Abassi era up to the middle of the fifth century H.A was made in this study through Arabic prose. I paved the way to this study with an introduction which dealt with the concept of friend nad friendship in the Qur'an, the sayings of the prohet and in Arabic lexicons in addition to studying the concept socially, philosophically and literary.

The study dealt after tha twith conditions for the bond of friendship to be held according to my understanding of a sample of the texts which I came across. I followed this partical point with a presentation of what rights and duties between friends had this relation imposed.

A deliberate stop in which the ethics of friend through a presentation of the most prominent phenomena which formed a conception of a friend as regards his class, belief and tendancies was made. As a means of eagrrness on the perfection of the conception a presentation of phenomend confused with friendship like lieing, flittering enevey and breaking promised was made.

The study then presented the phenomenon of reproving between friends following up themost well known texts dealing with this topic, presenting analysing and interpreting them to form a picture of the reproving situations and its elements.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

In the concluding chapter of this thesis I presented an articstic study which dealt with the formal structure of the (brotherly letters) and the variation of these structures with the variations of the writers and their tendancics and the most prominent phenomenan as regards artistic colouring and literary imaging to many texts of prose representing the era of study.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit